الثانية

الجنس في العالم القديم

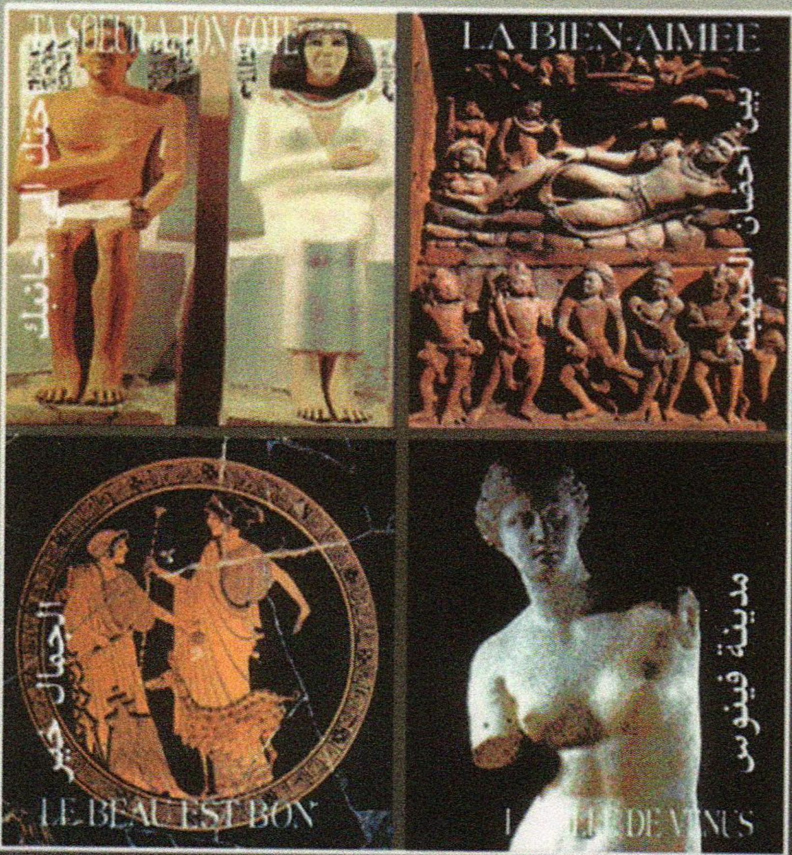

تأليف :بول فريشاور
ترجمة:فائق دحدوح

نينوى

للتنويه أذكر أن الطبعة الأولى للجزء الأول من هذا الكتاب (الجنس في الحضارات الشرقية) صدرت (عام ١٩٨٨) باتفاق تم بين المترجم وإحدى دور النشر، وقبيل انتهاء السنوات الخمس المتفق عليها، أي (عام ١٩٩٣).

صدرت الطبعة الثانية الجزء الأول دون علم المترجم ومازالت تصدر حتى الآن مع تكرار تاريخ الإصدار الثاني نفسه (١٩٩٣) والنسخ البالغ عددها ١٠٠٠ لمّا تنفد بعد؟؟؟؟

بول فريشـــاور

الجنس في العالم القديم

ترجمة

فــائق دحــدوح

حميع الحقوق محفوظة للمترجم
الطبعة الأولى ١٩٩٩

/٢٠٠٠/ نسخة
طبع في مطابع جوهر الشام
التنضيد الضوئي والإخراج : دار نينوى

الجنس في العالم القديم

الجزء الأول

الحضارات الشرقية

تصدير المترجم
للجزء الأول

«يلعب هو دور الذكر، وتلعب هي دور الأنثى، وهو يلعب دور الذكر لأنها تلعب دور الأنثى، وهي تلعب دور الأنثى لأنه يلعب دور الذكر، وهو يقوم بدور ذلك النوع من الرجل الذي تعتقد هي أن نوع المرأة، الذي تقوم بلعب دوره، لا بد أن تعجب به، وهي تقوم بدور ذلك النوع من المرأة، الذي يعتقد هو أن الرجل الذي يلعب دوره، لا بد أن يرغب فيه، ولو لم يكن يلعب دور الذكر، لكان على الأرجح أشد منها أنوثة - اللهم إلا في الحالات التي تكون فيها مسرفة في لعبة الأنوثة، ولو لم تكن تلعب دور الأنثى لكانت على الأرجح أشد منه ذكورة إلا في الحالات التي يكون فيها مسرفاً في لعبة الذكورة.

وهكذا يزداد لعبه شدة، ويزداد لعبها نعومة* . . . . .»

(*) عن الكاتبين بيتي وتيودور روزاك - ذكورة وأنوثة - ترجمة الدكتورين: عبد الوهاب محمد المسيري وهدى عبد السميع حجازي.

«ليست كل أفعالنا تميل نحو الجنس ميلاً واعياً أو غير واع، كما يظن فرويد، لكن مدار الأمر هو أننا نلقى حياتنا الجنسية وقد أثرت في معظم أفعالنا..»

«الحياة الجنسية تريد أن نبلوها ونعرفها تمام المعرفة، لأنها إحدى السبل التي منها يتخطى الإنسان الإنسان، على أن يكون قد وافاه واتصل به والتأم فيه*».

في هذا الكتاب يعرض الكاتب، باختصار، للعلاقة الوشيجة القائمة ما بين الرجل والمرأة ـ الذكر والأنثى ـ عبر مسيرة الإنسان الطويلة المديدة، منذ نشأته حتى استيطانه إنساناً حضارياً في مدنيات عالية التطور بعد أن تهيأت أسبابها: الجغرافية والجيولوجية والاقتصادية والبيولوجية والثقافية... فعرج المؤلف على الإنسان البدائي لينتقل بنا، بعد ذلك إلى بلاد الرافدين ومن ثم إلى مصر فالهند وأخيراً إلى بني إسرائيل.. متطرقاً إلى الحياة الجنسية في تلك المجتمعات من خلال سياقها التاريخي ـ الحضاري، ليشكل مع الأسطورة والثقافة والبنية الاجتماعية لحمة متماسكة.

أحسست، إذ قرأت الكتاب، للمرة الأولى، وكأني بمسافر في قطار سريع يلتزم برنامجاً صارماً، لا يتوقف إلا في الأماكن التي رسمها لنا المؤلف، فما أن يبدأ في الكشف عما تخفيه تلك العين الساحرة: الماضي، من قصص وأحداث ومشاهد، حتى يجذبنا إلى موضع آخر جديد وفي النفس، لما تزل بعد، رغبة في معرفة المزيد.. مما حدا بي، بين الحين والآخر، إلى أن أستوقف المؤلف واستمهله لأضيف إلى الترجمة، كلمة أو جملة أو بضع أبيات لتكتمل الفكرة وتغدو لوحة يرضى بها بل ويرتاح لها القارئ العربي.

وهذه الدعوة إلى استلهام الماضي، بتقصي أساطيره وبنيته الثقافية وما خلفه من آثار، ليست وليدة الحاضر، فقد دعا إليها، منذ زمن، نخبة وافرة من علماء

(*) رينه حبشي: بدايات الخليقة، ترجمة خليل رامز سركيس.

الانتروبولوجيا، والأثنولوجيا، والاجتماع، والفلاسفة، والباحثين والمثقفين.. تتنازعهم ميول شتى تختلف باختلاف مشاربهم ومضاربهم ـ للأسف لم يترجم إلى العربية، حتى الآن، إلا النزر اليسير مما قدمه ذوو الاختصاص في تلك الميادين ـ فخلص البعض إلى أن: «العقل الإنساني، على الرغم من الفروقات الثقافية بين مختلف أجزاء البشرية، هو ذاته هنا وهناك، وانه يمتلك الطاقات ذاتها*»، و«نادى البعض الآخر باستلهام الماضي للخروج من حضارة الحاضر ـ حضارة المأزق والأزمات ـ التي جرَّت الإنسانية إلى هوة حتفها بأن وضعت كوكبنا الأرضي تحت رحمة ذرة لا تُرى ولا تقع تحت الحواس»، ودعا فريق ثالث الأوروبيين للخروج من قوقعتهم والتخلي عن التغني بملحمة الرجل الأبيض وأسطورة رجالهم اللامعين... حتى إن السوربون لا يحنو على الفكر الهندي إلا من أجل التذكير بأولوية الفكر الغربي الوحيد المقدر له أن يبدد هذا الليل حيث جميع الأبقار سوداء»، ويستطرد غايتان بيكون يتحدث بلسان قطاع كبير من مفكري الغرب:

«إن التاريخ لم يعد تاريخنا، نحن، والفن لم يعد فننا نحن، والكتب لم تعد كتبنا نحن، والتفكير لم يعد تفكيرنا نحن. إن عالمنا أضحى ضوءاً خافتاً، مرتعشاً، تعصف به رياح الشيء المقدس، والخرافي، والأقدار الغريبة، وهو يعلم بأنه لم يعد مقياس العالم، لقد أدرك مكانه».

ونحن، إذ ندعو القارئ إلى الإلمام بالماضي، بماضيه خاصة، إلماماً يشمل أقصى منعرجاته، فإننا ندعوه، في الوقت نفسه إلى أن ينفذ منه إلى اليوم الذي هو فيه.. «فالأصالة لا تستخف بالماضي، ولا تنكر المستقبل، وهي تتيقظ لغنى اليوم الحاضر*».

فائق دحدوح.

(*) كلود ليفي شتراوس.

(*) رينه حبشي: المرجع السابق.

الفصل الأول

الإنسان البدائي

تسلسل زمني

منذ ٣ مليارات من الأعوام	أقدم دلائل الحياة.
منذ ٣ ملايين من الأعوام	دخول البشرية مرحلة الانتقال ما بين الحيوان والإنسان.
قبل ٢,٨ مليونين من الأعوام	صنع الأدوات الأولى (إنسان أوستراليا وافريقية القديم).
منذ ٢,٥ (؟) مليونين من الأعوام	الأرض في عهدها الرابع (الحقبة الجليدية).
قبل ٤٠٠ ألف عام	استعمال النار (إنسان بكين وهنغاريا).
قبل ١٠٠ ألف عام	ظهور إنسان نياندرتال.
قبل ٤٠ ألف عام	ظهور الإنسان العاقل مع أشباهه النموذجيين (بعض الأشكال البدائية الأقدم من إنسان نياندرتال)
قبل ٢٥ ألف إلى ١٠ آلاف عام قبل الميلاد	العصر الحجري المشذب (الباليوليتي) رسوم منقوشة ـ تماثيل فينوس صغيرة ـ رسوم جدارية.

نحو ١٠ آلاف عام ق.م	نهاية العصر الجليدي في أوربا الوسطى.
نحو ٨٠٠٠ عام ق.م	العصر النيوليتي، عصر الحجر المصقول ـ المدن الأولى في الشرق الأدنى ـ تدجين الكلاب والماعز بدايات الزراعة في الشرق الأدنى.
من ٦٥٠٠ إلى ٥٥٠٠ عام قبل الميلاد	اختراع السيراميك في الشرق الأدنى ـ احداث المدن الكبرى في جنوب آسيا الصغرى.
نحو ٥٥٠٠ عام ق.م	بداية عصر النحاس (آسيا الصغرى وإيران)
نحو ٣٥٠٠ عام ق.م	بداية عصر البرونز، الكتابة الرمزية الأولى فيما بين النهرين.
نحو ٣٠٠٠ عام ق.م	بداية التاريخ المدون في سومر ومصر، وبداية الحضارة الماجلانية في أوربا الغربية (منيهير).

الإنسان البدائي

«التمتع بالحياة»

لم يبدأ تاريخ أخلاق الإنسان وعاداته في الفردوس:

فآدم لم يكن الرجل الأول، وحواء لم تكن المرأة الأولى، ذلك أن العلوم الطبيعية تعلمنا اليوم أن الله لم يخلق الإنسان كما جاء في التوراة. فالإنسان بالنسبة للعالم لم يأت، بأي حال من الأحوال، تتويجاً للخلق: فهو وان تحلى، بالطبع، بمزايا خاصة ومتفردة إلا أنه الحصيلة النهائية والراهنة لتطور طويل الأمد تم عبر العصور. بمقدورنا تمثيل هذا التطور بشجرة الأنساب، تلك الشجرة التي تمتد جذورها في الماضي البعيد إلى ما قبل مئات الملايين من السنين، حين ظهرت الحياة في المحيطات الشاسعة في الكائنات الوحيدة الخلايا التي تحتل مكانها، وهذا أمر شاذ وغريب، «ما بين النبات والحيوان». وقد وَلدت هذه الكائنات الأصلية بانشطارها والتحامها وانقسامها واتحادها أشكالاً أخرى جديدة. ومن خلال تحولات لا تنتهي للبنية الوراثية، تلك التحولات التي سمحت، على الدوام، بظهور تكيفات جديدة تتواءم وتبدلات العالم المحيط، تشكلت كل مظاهر الحياة على كوكبنا، فظهرت كل أنواع الحيوان والنبات، الأرضية منها والبحرية، في سلسلة متتالية من الأجيال، إذ كانت كل حلقة منها تنحدر من سابقتها لأن

حب الحياة كان يدفع بها، وبقوة لا محيد عنها، نحو حياة جديدة أبداً، وقد أدت إحدى هذه التغيرات التي طرأت على شجرة أنساب الحياة إلى ظهور الحيوانات الفقرية مع الأسماك والبرمائيات والزواحف والطيور والثدييات. وإلى جماعة الثدييات ينتسب الإنسان المنحدر من القرد على نحو غير مباشر: الإنسان العاقل الذي بدد غموض أصله*. ذلك هو رأي علماء الحياة الذين يرون في مبدأ النشوء والارتقاء المتواصل في كل كائن عقيدة وقانوناً. لكن الإنسان في تطوره قد أخذ عن الحيوانات أسلافه حب الحياة والتمتع بالإنجاب والاستمرار فطور ذلك وارتقى به.

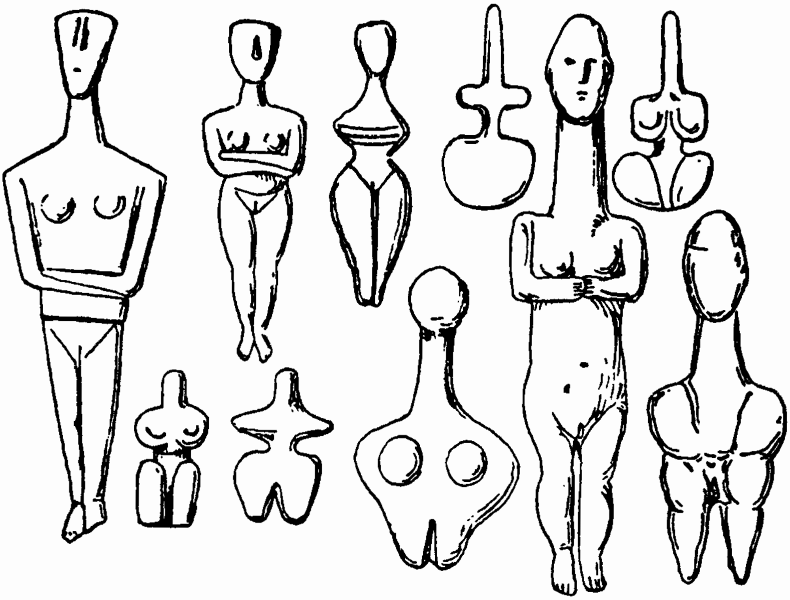

مخططات نقوش وتماثيل صغيرة تعود إلى الألف الأول أو الثاني قبل الميلاد، اكتشفت حديثاً في جزيرة كريت

(*) يطلعنا المؤلف في هذه الفقرة «بتجرد» على رأي علماء الحياة المنتمين إلى نظرية داروين في النشوء والارتقاء ـ المترجم ـ.

يتبنى مبدأ التطور الآن كل العلماء، ومن بينهم علماء اللاهوت، حتى ان رجل الدين المثقف لم يرفض نظرية التطور المتواصل لكل ما هو كائن، على اعتبار أنها نظرية منتهكة للحرمات ومدنسة للمقدسات، بل هو، على العكس من ذلك، لا يرى فيها ما يناقض الدين والإيمان بالله الكلي القدرة والوجود، خالق السموات والأرض وواهب العالمين والإنسان، ضمناً، «الكينونة»، و«الصيرورة».

لما يتجاوز بعد عمر نظرية التطور، بوصفها مذهباً علمياً، قرناً من الزمان. كما أن علم تاريخ الأخلاق الأكثر حداثة والذي يطبق على الإنسان دراسته لسلوك الحيوان لم يكتف وعلماء الحيوان بالتثبت من أن الفروق التشريحية بين الإنسان وأجيال الأسلاف المشتركة في مملكة الحيوان هي فروق طفيفة ليس لها كبير أهمية. فقد شرع علماء تاريخ الأخلاق بدراسة سلوك الحيوان والإنسان دراسة أساسها الملاحظة الدقيقة والمراقبة الاختبارية. وعليه فقد غدا بمقدورهم تقديم عدد هائل من الأمثلة والأدلة التي تعزز وتؤكد ان الغرائز الأساسية واحدة عند كل من الإنسان والحيوان: وكما هو الحال عند الحيوان فإن وجود الإنسان يعتمد على غريزة البقاء وان رغبته في الحياة ترتكز على الغريزة الجنسية. وكما هو الحال عند الإنسان فإن العديد من أنواع الفقريات والثدييات تؤلف عائلات وجماعات وتحدث مستويات اجتماعية داخل هذه الجماعات وتحيل العلاقات الجنسية بين الذكر والأنثى إلى «شعائر وطقوس»، حتى إن ضروباً من السلوك النمطية، المتكررة بين الجنسين بطريقة مقولبة تماماً وتبعاً لمخطط مرسوم بدقة، تسبق كل اتحاد جنسي.

إن لدى كل من الحيوان والإنسان أفعالاً تتكرر بانتظام أو تتعاقب وفق مخطط ثابت وذلك تبعاً لدرجة تطورهم وحساسية جملتهم العصبية وأعضائهم الخاضعة لتأثير الهرمونات. والأمر هنا يتعلق ببعض أنماط السلوك وبعض عادات الحياة والأعراض التي يمكن أن نطلق عليها، بثقة «الأخلاق»، بل ان علم تاريخ

الأخلاق قد استمد تسميته من الكلمة اللاتينية «Ethos» التي تعني: العادة، العرف، الممارسات الخ... ويمكن لهذه الأخلاق أن تتغاير وتتعدد عند النوع الواحد من أنواع الحيوان، كما أن أخلاق الإنسان، بالطريقة ذاتها، تتغاير وتتنوع تبعاً للمناطق التي يعيش فيها ووفقاً للشروط الحياتية. وقد أظهر علماء تاريخ الأخلاق، من خلال أبحاثهم، إن الغريزة، ذلك الميل الفطري، المكتسبة بالوراثة والخاضعة لتحريضات الجملة العصبية وتأثير الهرمونات التي تدفع بالكائن إلى أفعال جوهرية بالنسبة للحياة والبقاء، هي صاحبة السيادة التي توجه جميع الفقريات والثدييات. والإنسان بدوره خاضع إلى قوانين «الأخلاق» الكبرى للطبيعة، وهي قوانين محتومة تتحكم بها الغريزة، فالإنسان بالنسبة لعلماء الأخلاق «المختصين بالسلوك» قد اكتسب أخلاقه الأساسية من الحيوانات ومعها قبل أن يتغاير والقرد أقرب أقربائه بفضل وضعية المشي واقفاً وحركية رأسه الخاصة واستخدامه ليديه ونمو مخه وكماله، وبخاصة بفضل دماغه، أي قبل أن يبدأ في التفكير، فبقدر ما اتسع صندوق جمجمة الإنسان ورقت عظام فكيه وقويت عضلات ساقيه وتنامت مهارة يديه، تطورت عبر آلاف السنين ملكاته العقلية الخاصة به، تلك الملكات التي أطلق عليها هؤلاء الباحثون اسم «الروح» «الفكر» (وحول هذه النقطة يجمع ذوو الاختصاص في التطور والسلوك)، كما ربطوا تطور الوعي المتعاظم عند «الرئيسات»[1] حصراً بهذا الاختلاف المتعاظم للجملة العصبية المركزية وبنمو المخ.

إن علم السلوك المقارن يجتهد في إثبات ان الثدييات العليا، بخاصة، تمتلك على الأقل مبادئ الروح «الفكر» ودرجتها الأولية.

---

[1] الرئيسات أو المقدمات «PREHOMINIEN» اسم الكائنات الشبيهة بالإنسان والتي سبقت الإنسان «الفعلي».

ترى ماهي الظروف وما هي التأثيرات الخارجية التي استطاعت دفع الإنسان الأول «للتفكير» وحملته بقوة على استخدام أدواته وعدده، وعلمته تحويل ما يصدر عن حلقه من أصوات إلى لغة يتكلمها، وان يكيف كل سلوك غريزي مع فعل مدرك وواع؟

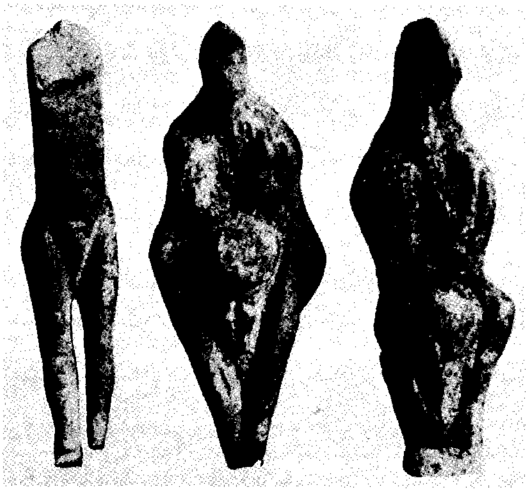

تماثيل صغيرة من قبل التاريخ، لابد من أنها، ودونما أدنى شك، تماثيل للخصب محفوظة في متحف سان جرمان آن ـ ليل)

لم تستطع الأبحاث البيولوجية، حتى في أيامنا هذه، تقديم الإجابة الوافية على هذا السؤال، إلا ان هناك شيئاً مؤكداً في جميع الحالات: ان السيرورة (عملية التطور والتقدم) قد بدأت في هذه المرحلة من مراحل التطور التي ندعوها بـ«مرحلة الانتقال مابين الحيوان والإنسان» ففي فترة من الفترات المحددة لم تملك البشريات الأولى القدرة على الجماع والإنجاب بالاتصال مع أسلافها الشبيهة بالإنسان، فطرأت تبدلات جوهرية في الأساس الوراثي نتج عنها تحولات في مركب نطفة الذكر وفي طبيعة البييضة المؤنثة القابلة للتلقيح، أضف إلى ذلك ما

طرأ من تحولات في السلوك لا تقل عنها أهمية مما حدد الإنجاب عند نوع البشريات التي انفصلت عن «أسلافها» فسلكت دربها الخاص بها. إن عنصراً ذا طابع تشريحي قد لعب دوراً حاسماً: تغير وضع الأعضاء الجنسية الذي حدث على الأرجح الغالب بعد الوقفة العمودية. إن أنثى «الرئيسات» تتميز عن أنثى القرد بواقع أنها لا تقوم قط بالعمل الجنسي «على نحو أعمى» إلى حد ما، إذ أصبح باستطاعتها، من الآن فصاعداً، أن تشعر باللذة وأن تتمتع «بالمشاهدة» فلم تعد المرأة - مثلها في ذلك مثل الرجل - «عمياء» تخضع «آلياً» للغريزة الجنسية.

حاول، في أيامنا هذه، عدد من علماء الحياة ومختصي علم الجنس وعلماء النفس، وبنجاح مؤكد، ملاحظة السلوك الجنسي ومقارنته وتحليله عند كل من الإنسان والحيوان، وهكذا فقد أصبح بالإمكان البرهنة على أن الكائنات الإنسانية لا تخضع للهرمونات الجنسية خضوع بقية الحيوانات اللبونة حتى أكثرها تطوراً. إن قشرة الدماغ عند الإنسان قادرة على الاضطلاع بتوجيه سلوكه العام وبخاصة سلوكه الجنسي.

إن المداعبة العشقية قبل العملية الجنسية هي عند الإنسان أكثر ثراء وتنوعاً وابتكاراً منها عند الحيوان بمداعباته وحركات تقربه من أنثاه، فقد ابتكر الإنسان مختلف الأوضاع الجنسية ليزيد في متعته الجسدية، واستفاد، ليس فقط، من قدرة المرأة على التمدد على ظهرها بعد أن استقامت قامتها - إذ يستحيل هذا الأمر على أنثى الحيوان — ولكنه استطاع ان يتبنى أيضاً الوضع الطبيعي لأسلافه، باستناده على أطرافه الأربعة، دون تعداد للأوضاع الأخرى التي ابتكرها وهي لا تحصى.

يبرز من خلال المقارنة بين الحياة الجنسية للحيوان وحياة الإنسان الجنسية اختلاف جوهري: لا يستطيع ذكر الحيوان، البتة، أن يُكره أنثاه على السفاد، وبناء على ذلك، فان لها الحرية الكاملة في الرفض أو القبول، ولهذا السبب يلجأ الذكر إلى خطب ود الشريكة التي اختارها واختارته بالغزل والتودد، وإلى هذا

الواقع تعود المجاملات الفطرية والغريزية للرجال حيال النساء، وهي مجاملات ورثناها عن أسلافنا. بمقدور كل رجل أن يغتصب المرأة التي يشتهي سواء بشل وسائل دفاعها أو بضربها أو بتهديدها وترويعها وهكذا يستطيع الرجل بتحطيمه مقاومة المرأة وشل قوتها أن يصبح السيد الآمر.

وعلى أثر التربية وما يتمتع به الإنسان من سجايا واستعدادات طبيعية غدا هذا السلوك مستهجناً وغير ممكن عند الأغلبية العظمى من الرجال. ومن الممكن أن نستشف في أقدم قواعد الإنسان الخلقية العقاب الصارم ينزل بكل من يجرؤ على انتهاك العادات التي يراعيها عالم الحيوان ويخضع لها.

إن مرحلة التطور التي يطلق عليها الطبيعيون اسم «الفترة الانتقالية ما بين الحيوان والإنسان» والتي، بدءاً منها، لم يقترن الكائن الإنساني إلا بأمثاله، قد وردت بحذر في بعض تأويلات التوراة النقدية.. وعليه فإن هذه التأويلات تنطلق من فكرة انه إذا كان العهد القديم كله لم يصف صراحة مراحل التطور في الكون فإنه، مع ذلك، قد تضمنها جميعاً تحت أشكال من الصور والرموز. ويوضح هؤلاء انه بالإمكان، إن صح القول، ان نكتشف فيما بين سطور الفصل الثاني من التكوين العصر والظروف التي لم تستطع فيها الرئيسات من القرود ان تتلاقى ثانية لكي تتزاوج وتنجب على الرغم من عظيم شبهها بالإنسان.

إن مشهد خلق الإنسان مألوف عند جميع أولئك الذين يعرفون العهد القديم. ففي جنة عدن حيث كان الإنسان الأول يتمتع بكامل ما في الطبيعة الفردوسية وفي محيط وارف زاهر بالنبات وحيث كانت «جميع أنواع الحيوان فوق الأرض وكل أنواع الطير في السماء، وكان الإنسان يتميز عن الحيوانات بمشيته على القدمين وقدرته على النطق، وأعطي كل الخليقة باستثناء واحد منها: فقد حظر عليه أن يأكل من «شجرة معرفة الخير والشر» كانت الجنة توفر له كل شيء. ومع ذلك فقد كان الإنسان يفتقد شيئاً ما: إذ كان وحيداً». حينئذ

قال الرب: «لا يحسن أن يكون الإنسان وحده، فلأصنعن له عوناً يناسبه»، و لم يقرر الإله ذلك إلا بعد أن زود الإنسان بكل أنواع الحيوانات الحية. «وأما الإنسان فلم يجد لنفسه عوناً يناسبه». من ذلك نرى ان الإنسان الأول قد ألحق به المرأة الأولى باعتبارها عوناً له. ولكن في أي شيء كان لابد للمرأة أن تكون عوناً للرجل؟ وأي أعمال هي، والرب لم يحكم عليه بعد بأن «يأكل خبزه بعرق جبينه» بل كان يستطيع، على العكس من ذلك، ان يأكل وفق هواه من كل أشجار الجنة باستثناء «شجرة معرفة الخير والشر» ترى هل يشير هذا المقطع من العهد القديم إلى إن الإنسان الذي خلق مع كافة غرائزه الفطرية لم يصبح كائناً إنسانياً حقاً إلا بعد أن أصبح بمقدوره إشباع رغبته «الحيوانية» باتصاله بامرأة من نوعه بالذات؟ أم ان هذا التمهيد للمأساة المثقلة بالنتائج والعبر لابد انه يعني ان القوانين الأخلاقية السائدة في عهد تدوين العهد القديم كانت تدين كل فعل جنسي مع الحيوانات، باعتباره فعلاً شائناً منافياً للطبيعة، فرأت هذه القوانين في وجود عون للرجل أمراً يحسن ويطيب عند الرب الإله؟ لعل هذه القصة المنسجمة «ومفاهيم ذلك العصر» تريد أن تحدد منذ البدء المكانة الاجتماعية للمرأة التي هي «عون» للرجل أي هي كائن إنساني من الدرجة الثانية ملحق به بل تابع خاضع للرجل؟

إن الإجابة على هذا الفرض الأخير بالإيجاب يعني ان مكانة المرأة في أصغر تجمع إنساني، أي في الحياة الحميمة لأول الزوجين، قد حددها العهد القديم مع أخذه بالاعتبار أولاً وأخيراً للفروق بين الجنسين.

وعليه فقد كان من المحظر على أول زوجين أن يدركا الفارق الجنسي بينهما أو أن «يتعارفا» «يتعاشرا» بالتبادل على الرغم من حتمية أن يصيرا «جسداً واحداً»، اننا لم نلحظ في أية قصة أخرى تدور حول الخلق ما نلاحظه في التوراة، تسمية للكائنات الإنسانية الأولى بأسمائها، ففي جميع الديانات

الأخرى لم نجد تعداداً للبشر الذين خلقتهم الآلهة وأقامتهم على الأرض، كما أنها لم تقل لنا إن كانت البشرية تعود إلى رجل واحد وإلى امرأة واحدة أو أنها كانت تضم، بخلاف ذلك، العديد من الأزواج. إذ بقي هذا مبهماً* . لكننا نعرف فقط انهم قد خلقوا، ونعرف غالباً ظروف خلقهم، وبالمقابل فقد كان لآدم وحواء مصير شخصي لابد أن يصلح مثالاً وعبرة للإنسانية وان يمثل تحذيراً لها، أنهما شخصيتان مأساويتان، فقد أصبحا مذنبين لأنهما ارتكبا وانجزا أول عمل من تلقاء ذاتهما، عمل كان لابد من أن يقوما به بالضرورة مادام مقدَّراً عليهما أن يصبحا «جسداً واحداً».

ان عدم احترامهما لقانون لم يدركا عمق مغزاه أوجب عليهما عقاباً لابد من ان تكون له قيمة بوصفه عبرة لجميع البشر الذين لا يمتثلون لأحكام الرب وأوامره. ومع آدم وحواء ظهر في العالم مفهوم «خطيئة الجسد» واستمر عبر الزمن مقيماً في ضمير كل البشر الذين تربوا وترعرعوا على تقاليد التوراة.

لم يكن الرجل البادئ في اقتراف الخطيئة بل المرأة هي التي أغوته. لقد كانت المحرِّض. فبتشجيع منها فقد الرجل براءته واضطره ذلك، في الوقت نفسه، إلى التخلي عن نعيم إقامته ومستراح بطالته وعما كانت عليه الحال في فردوسه. لقد سحرته فتوجب عليه أن يتحمل أعباء المسؤولية ليس عنه فقط بل عنها أيضاً. وفي مقابل ذلك بات على حواء أن تذعن لخدمته وتخضع لرغباته في أي وقت يشاء.

هذه القصة تنسجم «ومفاهيم ذاك العصر». ان الشعب ــ الذي كرس له العهد القديم وجمع من أجله جملة بعد جملة ليضع على أساسه روحانياته ويدعم بواسطته أخلاقياته ـ كان، في أصله، شعباً رعوياً ممعن التمسك بأعراف الحياة

(*) على عكس ما يورد مؤلف الكتاب هنا، فإن أكثر من نص بابلي قديم يشير إلى الزوجين البشريين الأولين. راجع بهذا الخصوص كتاب مغامرة العقل الأولى لمؤلفه فراس سواح فصل التكوين البابلي ـ المترجم.

الرعوية وعاداتها وتقاليدها، على الرغم من تنقله المستمر بحثاً عن شروط حياتية أفضل، وخضوعه في مراحل حياته للمنفى أو الأسر، إنما الرجل في الحياة البدوية كان أبداً سيد أسرته الأعلى. ولكي يصبح من الممكن المستطاع تقديم علو المقام هذا وكأنه أمر فطري ولقطع دابر كل جدل يثار حول ذلك، حافظ الرجال على تفوقهم وصانوه بشرائع دينية تؤكد دونما منازع حقوقهم في الحكم والسيطرة على أسرهم، لكن الأمر لم يكن ليتم دائماً وفي كل مكان على هذا المنوال. ففي أزمان ما قبل التاريخ وارتقاء البشرية نجد حضارات تمنح الأمهات ـ أي النساء ـ مكانة استثنائية، وبخاصة أكبر الأمهات سناً في القبيلة، فقد كان لصوتهن أهمية كبرى في اختيار رئيس العشيرة الأسروية وفي المساهمة بجميع القرارات المتعلقة بالأحداث السعيدة، أو الأليمة للجماعة. وكانت تبارك هذه «الأمومية» كافة السلوكيات التي يمكن تخيلها عن أقوام الهلال الخصيب، ومنها «البلاد الواقعة بين النهرين» التي انبثق عنها، كما تقول التوراة، أسلاف «بني إسرائيل». وقد أنشأ كهنة السومريين، أقدم شعوب الأرض، أسطورة عن الخلق كيلا ينسى الرجال ما يمكن أن يجدوه عند النساء في أحسن الحالات وأفضلها، ولكي تجد النساء في المعتقدات الدينية أيضاً سبباً للمكانة التي مُنحنها من الآلهة. ومن ثم فقد تناول الكهنة البابليون هذه الأسطورة وتوسعوا فيها وأكملوها وانتقلت عنهم إلى اليهود في زمن الأسر البابلي لهم.

في «ألواح الخلق السبعة» التي هي اليوم من أقدم الكتابات الدينية في منطقة مابين النهرين، نجد انه كانت توجد في أصل العالم كائنات ذات قامات خرافية. وقد دل عليها بأسمائها لتصبح قريبة من مخيلة المؤمنين ـ على اعتبار أنها أشخاص ـ مما يعزز، بالتالي، وجودها الحقيقي، وكما ان كل حي لابد من أن يكون حصيلة اتحاد ما فالعالم بدوره لابد أن يكون، هو أيضاً، ثمرة اقتران وتزاوج وهكذا فإن تيامات (تعامه) أو الجوهر الأول كان الأم البدء أو الأصل في حين أن آبسو، المادة، كان الأب الأصل أيضاً. ومن اتحادهما ولد ممو...

وبواسطته لم يكن كل من تيامات وآبسو إلا كتلة لا شكل لها، العماء، الذي كان «الظلمات والمياه»، عندما ظهر النور المحجب (ممو) الآلهة والشياطين (المردة) الذين شرعوا بتشكيل عالم لا شكل له لسخطهم على العماء الهادئ الساكن السعيد، فعكرّوا صفو تيامات بصخبهم الأبدي.. فعزم آبسو على استخدام القوة ضد هؤلاء المشاغبين، لكن الأم لم ترغب في فناء الآلهة والشياطين. وفي الوقت ذاته عزم ممو على تنفيذ ما انتواه آبسو. وعلى الرغم من السرية التي أحاط بها استعداداته علم الآلهة والشياطين بمخطط الإبادة. اغرق إيا (إله الحكمة) آبسو في سبات عميق، لا عودة منه، وبترت أعضاء ممو الذكرية فأصبح محروماً من النور: العماء و لم يعد له وجود قط. إلا أن تيامات أرادت أن تثأر لموت آبسو وخصاء ممو فاتحدت بكنجو إله الشر فأنجبا معاً نجوم السماء الشبحية التي حكمها كنجو بصفته «حارس ألواح القدر» فقالت له تيامات: «فليتم كل ما تنطق به شفتاك».

لم يجرؤ أي من الآلهة على الوقوف في وجه تيامات وكنجو. باستثناء مردوخ، إله بابل فيما بعد، الذي نادى بقدرته على التمرد والتحدي، واشترط أن تلتزم بقية الآلهة بالاعتراف به إلهاً مطلقاً إن هو استطاع أن يجرد تيامات من قدرتها على الضرر والأذية، وأثبت مردوخ تفوق سلطانه.. كان يختفي تارة ويعود للظهور تارة أخرى... كانت ذراعاه البرق والرياح، وبها تغلب على تيامات وقسمها نصفين كما الصدفة، من نصفها الأول صنع السماء ووضع فيها الشمس والقمر وكوكبة النجوم، وسنَّ للكواكب والنجوم قوانين تلتزم بها ولا تحيد عنها، ومن نصفها الثاني خلق الأرض.

وبقيت تيامات بعد تقسيمها، حية في أذهان المؤمنين في صورة وحش ذي مظهر مروع شنيع، مزود بقرون وأجنحة ومخالب، وأصبحت تعد الأفعى قادر على كافة التحولات، ومن أكثر هذه التحولات خطراً هو التحـ[illegible] تتخذ فيه مظهر أفعى منتصبة ومتصلبة مقلدة، شكلاً ووضعاً، عضو الذكر [illegible] الانتصاب إذ أن نظرة واحدة إليه تدفع بالإنسان إلى الرذيلة والتهتك.

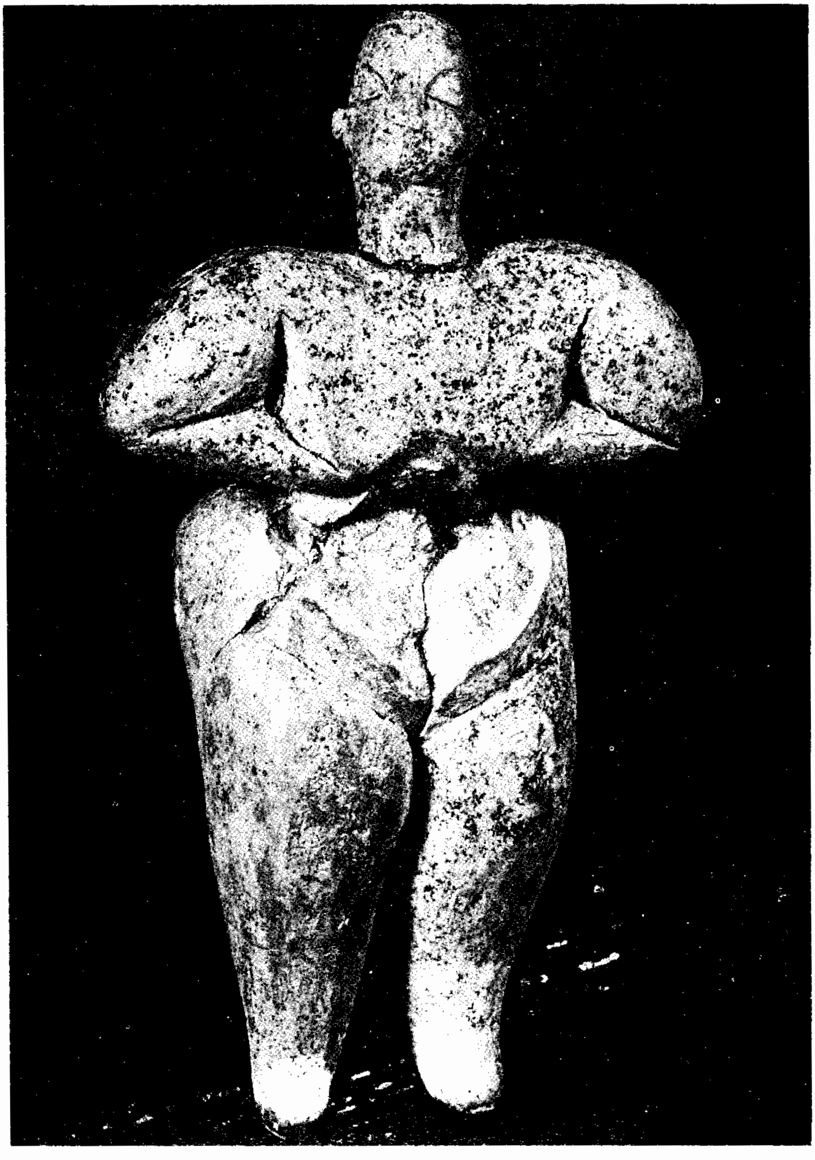

تمثال صغير للأم الإلاهة يعود إلى مابين ٥٧٠٠-٥٦٠٠ق.م

إن الأم الأصل قد سقطت، بعد ان جردت من قدرتها وسلطانها، إلى مستوى غاوية مضللة وشريرة منحرفة، لقد أصبحت امرأة منذورة للدعارة. تتظاهر بالبراءة وتتخفى على شكل أفعى تتربص بضحيتها خلف شجرة الحياة «التي تحمل ثمار الخير والشر» السماوية الأرضية. وبقدر ما كانت تيامات خليقة بالإغواء دون سائر الكائنات الحية كانت تحتاج إلى إرواء نزعة الشر فيها، فأخذ الملل يدب فيها كما دب في بقية الآلهة الذين أتوا مردوخ يرفعون إليه شكواهم، إذ لم يوجد بعد - حسب ما جاء في «ألواح الخلق السبعة» - أي متعبد يقدم لهم الأضحيات والقرابين. عند ذلك قرر مردوخ، وكان في اتخاذه مثل هذا القرار خطة «ماكرة»: «سأخلق بني البشر» فانهم سيكونون عوناً ونفعاً للآلهة وراحة لهم. فقتل مردوخ، بناء على نصيحة إيا (إله الحكمة) كنجو الشرير وبواسطة من دمه ومن «عظم الأرض خلق بني البشر، الذين تسري في عروقهم دماء كنجو الشيطانية التي تنفث فيهم الرغبة في الشر وتزرع في النساء أيضاً الرغبة الشبقة الفطرية».

إن الأم الأصلية الشريرة تيامات المتحولة إلى أفعى والموصوفة في «ألواح الخلق السبعة» بالغاوية المضللة التي لا يمكن صلاحها هي تلك الأفعى التي دفعت المرأة الأولى في العهد القديم إلى إغواء الرجل الأول. فقد مجدت الأفعى وامتدحت بكثير من الإقناع ما في الثمرة المحرمة من متعة ولذة مما حمل المرأة الجاهلة الطائشة على الرضوخ.

كان لابد للخطيئة الإنسانية تماماً - التي اقترفتها حواء - ان تكون المثال الأول للغواية والضلال. جاء في التوراة عن أول زوجين من البشر: انهما كانا عريانين، الرجل وامرأته، وهما لا يخجلان. ولم يصبحا كذلك إلا بعد أن أكلا، على الرغم من النهي، من ثمرة تلك الشجرة التي قالت عنها الأفعى الماكرة انها «شجرة شهية لذيذة» وغدا الرجل والمرأة بسببها نافذي البصيرة ومذنبين.

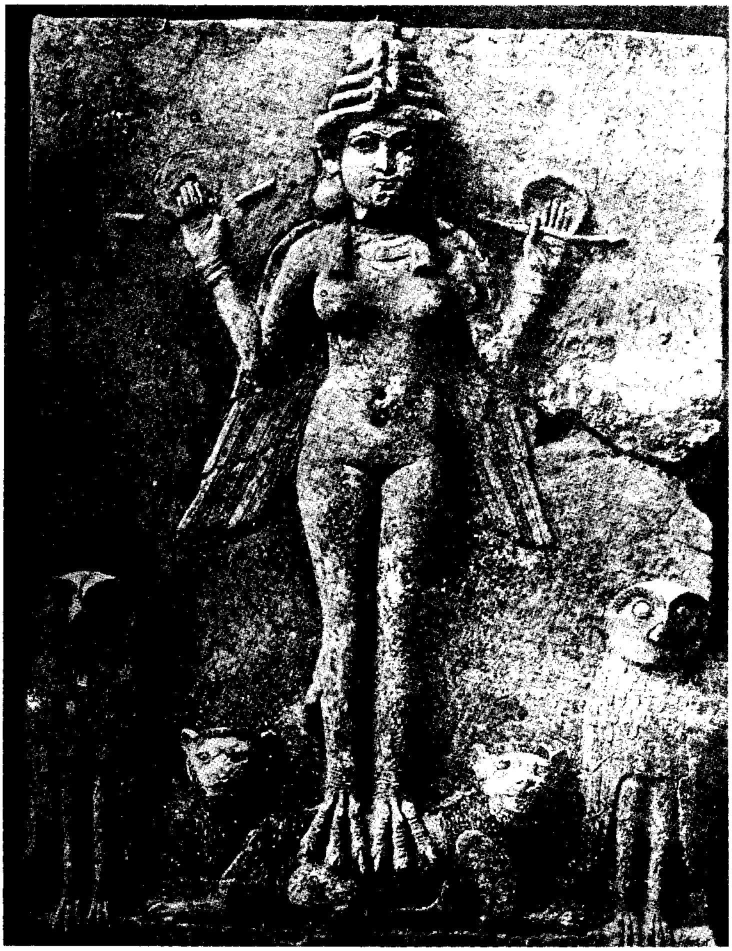

ليليث أو ليلاه، الإلاهة الشيطانة إلاهة الليل والموت،
نحت بارز من سومر (الألف الثانية ق.م)

وبواسطة هذا الخجل، ذلك الشعور الذي كان يجهله حتى الآن كل من آدم وحواء، أوجدوا أول دُرجة «زي» أقرتها التوراة، الغاية منها ستر الأعضاء الجنسية كيلا تدفعهما رؤيتها إلى تكرار العمل المحرم.

ووفقاً لكافة تأويلات العهد القديم اللاهوتية والفلسفية فإن واقعة تذوق الثمرة المشتهاة رمز لقيام الرجل والمرأة بالعملية الجنسية، وقد مارساها بوعي وبقصد الحصول على المتعة. وبما أن الرب قد حظر على الإنسان تذوق الثمرة المشتهاة فإن الاتحاد الجسدي لآدم وحواء قد أدانته العقائد القائمة على العهد القديم: انه «الخطيئة الأصلية» و«الزلة»، فالمرأة وقد دفعتها الأفعى هي الساقطة الأولى، أما الرجل فهو ضحية إغراء المرأة وإغوائها[1].

إن للموروث الديني نفوذاً، ليس فقط، على مكانة المرأة الاجتماعية بل وعلى السلوك الأخلاقي لكلا الجنسين أحدهما تجاه الآخر: ان حذر الجنس المذكر واحتراسه من الجنس المؤنث تعبير عن خشية الرجل من حساسيته الخاصة ومن عواقب الإغواء، والمرأة من جهتها تشعر بضرورة اغواء الرجل دونما أي تردد وباللجوء إلى كافة الوسائل التي يمكن تخيلها، بغية جذبه ودفعه إلى ممارسة العمل الجنسي.

لكنها تريد أن تظهر بمظهر المغرر بها ــ إن لم يكن من الرجل فعلى أقل تقدير من الأفعى التي تمثل، ليس فقط في «مفاهيم ذاك العصر» بل أيضاً في رأي ذوي الاختصاص بعلم الإنسان في وقتنا الراهن، رمزاً قضيبياً، صورة لعضو الذكورة في حالة انتصابه.

وعليه فقد وصفت أول عملية جنسية بأنها مخالفة لأمر الإله فهي بالتالي خطيئة لا تغتفر. وقد ساد هذا المفهوم ورجحت كفته عبر الأجيال حتى أيامنا هذه، ذلك ان الخطيئة الأصلية قد ارتبطت مباشرة، في العهد القديم، بمعرفة الخير والشر وأدينت قبل أية خطيئة أخرى، ولم تظهر الوصية: «لا تقتل» إلا بعد «الزلة» وطرد آدم وحواء من الفردوس ومقتل هابيل على يد أخيه قابيل.

---

[1] لقد كان لخطيئة حواء، كما جاءت في التوراة، أثر كبير في ذاكرة بني البشر، يشهد على ذلك ما دونه رجال الدين والمفكرون والفلاسفة والأدباء، وما ألفه الموسيقيون ورسمه الفنانون. ـ المترجم ـ.

ويرى اللاهوتيون في عملية خلق الرجل الأول الذي صنعه الرب من حفنة من تراب ونفخ في أنفه نسمة الحياة تمثيلاً رمزياً: ان على هذه الصورة ان تجعل المؤمنين يدركون ان الرجل، المخلوق المختار، قد تلقى روحه من الله، وبناء على ذلك فقد غدا «آدم» الذي يعني في لغة التوراة «الرجل» أي الرجل الذي حباه الله بقدرات روحانية، «الإنسان العاقل» «الذكي» «الذي منح قدرة السيادة على الأسماك في البحر والطير في السماء وعلى جميع الحيوانات التي تدب على الأرض».

أما فيما يتعلق بـ«تشكيل» المرأة الأولى من أضلاع الرجل، فإن علم اللاهوت لا يعرض علينا أي تفسير رمزي. ففي قصة التوراة نقرأ مايلي: «فأوقع الرب الإله على الرجل سباتاً عميقاً فنام. فأخذ إحدى أضلاعه وسد مكانها بلحم، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من الإنسان امرأة فأتى بها الإنسان. «إن المرأة الأولى التي أطلق عليها آدم، بعد السقوط، اسم حواء» لتكون أمَّ جميع الأحياء»، لم ينجبها أب و لم تلدها أم بل كانت حصيلة «فصل».

ترى ما هو المغزى الرمزي الذي يتضمنه «صنع» المرأة من ضلع الرجل ان رأينا في هذه العملية علاقة مع «مفاهيم ذاك العصر»؟ هل القصة التوراتية مبنية على احتمال، أو بالأحرى على يقين ان البذيرة الحية، التي تحمل بها المرأة بالعملية الجنسية بعد قذف المني المذكر في رحم الأم، تحتوي على عناصر مذكرة ومؤنثة معاً، وإن الجنس الذي ينتمي إليه الطفل بعد الولادة لا يتحدد إلا من خلال فترة نموه في الرحم؟ وعليه فهل هم على علم ان كل كائن إنساني، رجلاً كان أو امرأة، يمتلك، في تكوينه، من الجنس الآخر صفات طبيعية غير متطورة (جسدية ونفسية)؟ وهكذا فقد تبين من خلال التنقيبات الأثرية ان فكرة الكائن الإنساني الثنائي الجنس كانت معروفة عند السومريين. وبخصوص هذه الظاهرة البيولوجية، التي أثرت في السلوك الأخلاقي وفي القواعد الناظمة للحياة واحترام هذه القواعد حتى وقتنا الراهن ـ ليس فقط خارج وجهة

النظر الجنسية ــ نجد وصفاً لأنواع «شاذة» من المخلوقات ذات صفات إنسانية كانت موجودة قبل أن يخلق الإنسان.

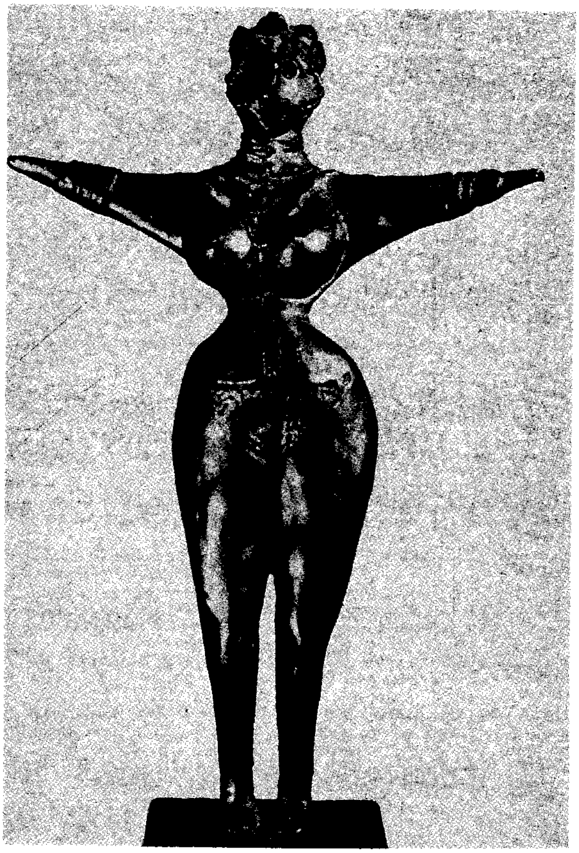

حسب علماء الأجناس الإيرانيين (دراسة الإنسان ككائن ثقافي) إن «ليلة الخطيئة» ما هي إلا متداد مشوه لشعيرة خصب تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد،

والتي يحتفى بها بالقرب من هذا التمثال الصغير المصنوع من الطين المشوي، والتمثال محفوظ في متحف الآثار الإيراني، ويسمى «الإلاهة ذات المثلثات المنيرة».

إن هذه القصة التي تعود إلى أزمان ما قبل التوراة مدينون بها إلى كاهن بابلي هو بيروسوس الذي نشر باللغة اليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد مؤلفات تاريخية وتأملات في فترة ما قبل التاريخ. ان بيروسوس هذا بعد تقصيه للتاريخ السومري القديم وأحداثه، قد اكتشف أساطير مغرقة في قدمها، وصادف موروثات مثبتة خطياً تتحدث عن «كائنات نادرة وشاذة وذات أشكال غريبة» عاشت قبل أن يخلق بنو البشر، كما جاء في «ألواح الخلق السبعة». ويعرض بيروسوس علينا مايلي: «... وقد ظهر رجال مزودون بجناحين.. كان لبعضهم أربعة أجنحة ووجهان وللبعض الآخر جسد واحد ورأسان، رأس امرأة ورأس رجل، وأعضاء جنسية ثنائية مذكرة ومؤنثة في آن معاً.. وهناك أيضاً رجال آخرون لهم قوائم وقرون ماعز أحياناً وحوافر خيل أحياناً أخرى.. بعضهم على شكل إنسان في مقدمته وعلى شكل حصان في مؤخرته، وكذلك كنت ترى ثيراناً برؤوس إنسانية وكلاباً بأربعة أجساد، لمؤخرتها ذيول أسماك.. كما يوجد أسماك وزواحف وأفاع ومخلوقات أخرى غريبة لها أشكال متبادلة فيما بينها..».

هذه الكائنات الهجينة والمخنثة في أزمان ما قبل التاريخ الذي ذكرها بيروسوس كانت، على الأرجح، ثمرة مخيلة أو مبالغات تجاوزت الحدود في وصفها لمسوخ تثير العجب، من المحتمل أن يكون لها وجود حقيقي، ومع ذلك فإن وجود مثل هذه المسوخ في زمن بيروسوس لا يمكن أن يكون مثيراً للشك فقد حاكاها كهنة بابل واليونان والفنانون في الكلم وفي أعمالهم الفنية بوصفها أشكالاً أسطورية إن لم تكن أسلافاً لبني الإنسان.

كانت جميع هذه «الكائنات الإنسانية العجيبة والغريبة مزودة بجنس ثنائي، مذكر ومؤنث في الآن نفسه»، إذ يحدثنا بيروسوس عنها باعتدال وكأنه ينقل إلينا إشاعة استمع إليها، فهو لم يتعرف عليها من طريق الكتابات الموروثة فحسب بل وبواسطة مشاهداته العيانية أيضاً: في الغابات المقدسة المحيطة بمعابد بابل واليونان وهياكلها كانت تعرض على الملأ تماثيل الخناث HERMAPHRODITES وأشكال

الخَنَاثى ANDROGYNES المنحوتة بمهارة والمزودة بصفات جسدية لكلا الجنسين المذكر والمؤنث.

وكانت هذه الكائنات تعد مخلوقات كاملة تامة. وكانت هذه التماثيل في عصر الإغريق هذا، العصر الذي لم تك فيه المتعة الجنسية تعرف العيب والحرام بعد، تجسد الرغبة (التي تدركها الأغلبية العظمى من الإغريق وبدرجات قد تزيد أو تنقص) في تمتع الرجال والنساء بالعملية الجنسية على حد سواء.

ليس ثمة شك في أن جنسية الكائن الإنساني الثنائية ومبدأ انفصاله إلى رجل وامرأة لم يكن بالأمر الغريب والبعيد عن «مفاهيم ذاك العصر» الذي دُوِّن فيه العهد القديم. إن لم تكن هذه المفاهيم قد تأثرت بمعرفة تطور الأجنة الجنسي في رحم الأم فمن الممكن أنها قد تأثرت، على أقل تقدير، بمرأى تماثيل الخناث. يمكن أن نستنتج من ذلك ان هذه المعرفة للخنوثة قد عبرت عنها رمزياً قصة «صنع» المرأة من ضلع الرجل، أضف إلى ذلك ان لهذه الرمزية مقصداً أخلاقياً: كان لابد من تثبيت وترسيخ «الثنائية» الفطرية لكل من الرجل والمرأة بواسطة الرمز فعلى كل مؤمن أن يحس في ذاته ما عبر عنه الرجل الأول عند رؤيته المرأة الأولى: «هذه المرأة هي عظم من عظامي ولحم من لحمي هذه تسمى امرأة (في اللاتينية VIRAGO) لأنها من امرئ (في اللاتينية VIR) أخذت».

كان انتماء أحدهما للآخر (الرجل والمرأة يكمل أحدهما الآخر وبالتبادل) المبدأ الأساسي في كل رابطة زوجية استجابة لمفاهيم ذلك العصر الأخلاقية. نقرأ في العهد القديم: «ولذلك سيترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته فيصيران جسداً واحداً». وهكذا نرى ان الاتحاد الجسدي للرجل والمرأة أمر يطيب للرب الإله. ولكن لابد من أن نتساءل: هل كانت تلك هي حال الاتحاد الجسدي حقاً في حين ان الله قد طرد آدم وحواء من الفردوس بعد «الزلة»؟

ما كان ممنوعاً في جنة عدن كان مسموحاً به خارجها. وبالفعل فان آدم لم يستطع ان يصير أباً للإنسانية جمعاء، إلا لأن آدم قد «عرف» حصراً، امرأته حواء.

إن التلمود، الذي أبدى رأيه بتسامح حكيم في الغرائز الدفينة للطبيعة الإنسانية في رغباتها غير المباح بها، (في نطاق ان القوانين الأخلاقية لم تحظرها قطعياً) قد غفر للأوائل «الخطيئة الأصلية» مبرراً ذلك ان لا وجود للخير بدون وجود الشر. وعلى الرغم من ان الرغبة الجنسية تستوجب اللوم في حد ذاتها فإن الإنسان بدونها عاجز عن الإنجاب والتكاثر: «من واجبنا الاعتراف بجميل أسلافنا فنحن لولا خطيئتهم ما وجدنا».

نقرأ في العهد القديم ان آدم قد «عرف» امرأته. هذا التعبير لا يحل غالباً محل الكلمات المستعملة عادة والمألوفة أكثر منها مثل: «نام»«نام مع» أو«سكن مع». فليست هذه الكلمة كناية للتعبير عن الاتحاد الجسدي السابق لحمل حواء ولإنجابها للطفل. إن كلمة «عرف» ليست رمزاً؟ فهي تعني حقاً ما ترغب في قوله وتدل على انعطاف حاسم في تطور أخلاق الإنسانية: إن «معرفة» المرأة التي اقترن بها الرجل جنسياً تدل على الاعتراف للأم بالطفل الذي حملت به من جراء هذا الاقتران. فإن لم يكن آدم الأب «البيولوجي» الحق لجميع البشر فإنه، على الأقل، أول من «عرف امرأته حواء». وعليه فإنه إذن أول رجل في التاريخ الديني يستحق الاعتراف به أباً.

كانت شعوب ما قبل التاريخ تجهل فكرة «الأب». إذ كانت تعتقد بالاتحاد الولود للسماء والأرض حتى قبل «معرفة» أن تزاوجهم بالذات ينجب حياة جديدة.

في قصة صينية عن الخلق نقرأ: «كان الرجال الأولون كالحيوانات يلبسون الجلود ويقتاتون اللحوم النيئة، وكانوا يجهلون آباءهم على الرغم من معرفتهم لأمهاتهم».

أثبت بعض المبشرين وعدد من ذوي الاختصاص بعلم الإنسان ان بعض الشعوب البدائية، مازالت حتى يومنا هذا، لا ترى أية علاقة بين العملية الجنسية والحمل بحياة جديدة: يتساكن الرجل مع النساء في قبيلتهم بهدف الحصول على المتعة الخالصة من الاتحاد الجنسي وتشعر النساء بالمتعة الجنسية دون أن يربطن إشباع غرائزهن بحملهن الذي يلي ذلك.

[illegible] الحال[illegible]

الأصلية في «طوطمهم» [illegible] خصوبة:

من الممكن أن يكون الطوطم حيواناً [illegible] [illegible] أو نباتاً أو ظاهرة فوطبيعية نادرة وفريدة أو متكررة. فالمرأة [illegible] الأقوام لا تلد نتيجة لاقترانها بالرجل بل الطوطم هو الذي يمنحها ذريتها. و[illegible] فإن اعتقادهم هذا يعني أن جميع أفراد القبيلة مدينون بولادتهم للطوطم الذي يتماثلون معه على نحو غامض، حتى ان الرجال والنساء جميعاً متحدون برابطة فوطبيعية، تتجاوز المحسوس، فيحسبون ان رابطة القربى تجمع فيما بينهم.

إن جهل نتائج عملية النمو البيولوجي الذي يتوالد بواسطته الإنسان والحيوان يعبر عن علاقة الرجل حيال المرأة عند الإنسان الأول: وبما انه لا يدرك أن الجنين في رحم الأم قد يكون ثمرة لنطفته التي لقحت المرأة خلال الاتحاد الجسدي فانه يرى في هذا المولود الجديد ابناً للقبيلة وليس إبناً له، ولا يعد نفسه أباً حتى لو تكرر حادث الولادة العجيب مرات عدة خلال العمل الجنسي الممتد على سنوات طوال مع امرأة بعينها. وبقدر ما يندر أن يطأ الرجل امرأة واحدة على نحو دائم ومنتظم بقدر ما هو استثنائي أيضاً اقتران المرأة على الدوام برجل واحد بعينه.

وقد خلص العديد من المتخصصين بعلم الإنسان إلى ان أولى الكائنات الإنسانية لم تعش أزواجاً أزواجاً بل عاش بعضها إلى جانب بعضها الآخر وأنها كانت تتزاوج دون أن تعترضها منغصات ما. إن هذا الاختلاط وهذه اللقاءات بين الجنسين التي كانت تمارس دونما اختيار وفي أي وقت كان وفي كل مرة يخضعون فيها لمطالب الغريزة هي الشكل الأصيل للعلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة. إن كل امرأة ملك لكل الرجال والعكس صحيح. صحيح انه يمكن للمرأة ان تثور وتتمرد على واقع امتلاكها بالقوة، لكن موقفها هذا لا ينسجم والممارسات السائدة في القبيلة التي لا تسمح للمرأة ان تجنح وأن تمتنع، دون سبب مقبول، عن الرضوخ لغزو الرجل الذي يشتهيها. فقد كانت الضحية الممتلكة سواء أرادت ذلك أم لم ترد.

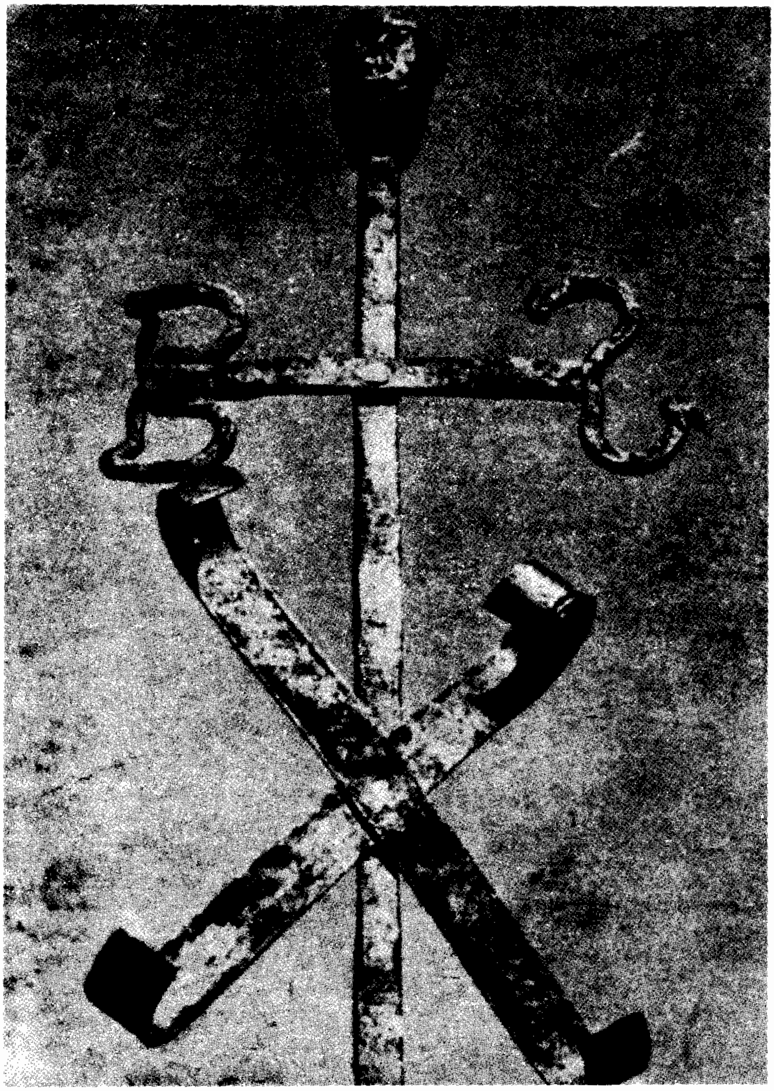

طوطم بارون ـ صامدي، إله الموت.
كان يحتفي بشعيرته في المقابر

ان القابلية الجسدية والتكوين والتشريحي للأنثى في عالم الحيوان تحيل سفاد الذكر لها أمراً صعباً أو مستحيلاً بتغيير لجلستها في حين ان المرأة قد حرمت هذا الإمكان (القابلية) لتكوينها الجسدي المختلف. ان استلقاء المرأة على ظهرها يجعل فرجها مستباحاً بلا حماية وعليها ان تتقبل العضو المذكر وتشبع رغبات الرجل عندما تستوجب العادة ذلك.

إن فترة الحيض دون غيرها هي التي كانت تحمي المرأة وتصونها. إذ كان الرجل يتراجع أمام هذه الظاهرة الغريبة والثابتة والتي لا يفهم كنهها ويخشاها. وبدا له ان قدرة المرأة على فقدان جزء من دمها أمر يثير القلق بل كان يحسب هذا النزيف أمراً فوطبيعي يكبح شهواته ويسيطر عليها.

لا يمكن لـ«إعادة تشكيل» ممارسات الإنسان الأول وسلوكه، بالاعتماد على المقارنة مع التجمعات البدائية، ان يكون معقولاً إلا بقبوله بالفرضية التالية: إن سلوك الإنسان الأول وتعليلاته تتطابق مع الملكات الذهنية المماثلة أو القريبة من القدرات الذهنية التي تسود وتُسيِّر، في أيامنا الراهنة، أفعال وممارسات الرجال والنساء الذين يعيشون في سافانات افريقيا وغابات الأمازون العذراء، وسهب أوستراليا الصحراوية حتى لو كان بينهما فارق زمني يقدر بعشرة آلاف سنة. ولكننا وان قبلنا بهذا التشابه بين «المتوحشين» والإنسان الأول فان هذا التشابه لا يمكن أن يتطابق إلا مع المرحلة الانتقالية للتطور الإنساني، أي مع فسحة قصيرة نسبياً بمقارنتها مع سيرورة تمتد إلى ملايين السنين. وقد كانت هذه السيرورة غاية في البطء ان نحن فكرنا: انه على امتداد ٨٠٠ ألف جيل تغطي، على وجه التقريب وفق رأي العلماء، كل مرحلة التطور من القرد إلى الإنسان، في حين أن الأجيال الأربعمائة الأخيرة وحدها تتكون من المزارعين المقيمين.

إن رجال اللاهوت الذين يرون في ممارسات الإنسان وعاداته «إرثاً قادماً من الثدييات» على يقين بان الإنسان الأول لم يعش في الأصل في قبائل أو في إباحية جنسية مطلقة. لكنهم يرون، على العكس من ذلك، ان الإنسان عاش منفصلاً،

واعتصم في أسر منطوية على ذاتها. كما يعتقدون بأن الشامبانزي والغوريلا (الشديدة الشبه بالإنسان والتي تجتمع في جماعات صغيرة تضم ذكراً وأنثى وصغيراً واحداً أو عدة صغار) ليست فقط أساس علاقة الرجل ـ المرأة خصيصة الحياة الزوجية، بل هي أيضاً أساس الخلية الأسروية. أما عند الفقريات والثدييات العليا الأخرى فاننا لا نجد في الأصل أيضاً إلا شكلين اثنين من أشكال الحياة الجنسية المشتركة: شكلاً يتبع نظام الزوج الواحد وشكلاً يتبع نظام تعدد الزوجات، ولا تكف هذه القواعد عن سيطرتها على العلاقات الجنسية إلا عندما يتزاوج العديد من الازواج لتكوين قطيع كبير فتظهر حينئذ علاقات جنسية منفتحة أمام الجميع وغير قاصرة على واحد منها دون غيره.

إن هذا التصور لا يرفضه المختصون بعلم الإنسان كلياً، ومع ذلك، فهم يوضحون لنا إن الإنسان البدائي الذي لم تتوفر له أسلحة طبيعية ليدافع بها عن نفسه ضد عالم محيط معادٍ لم يستطع أن يصون نفسه إن هو توزع في أسر معزولة. في حين انه لو تجمع على شكل قبائل لاستطاع الذود عن نفسه ضد الوحوش الكاسرة ولتمكن من حماية نسائه وأطفاله. فبفضل تكاتف القوى وتوحيدها وبفضل العمل الجماعي استطاع الإنسان القديم البقاء حياً والاصطياد بنجاح وصيانة ما يغنمه. فمن المتعذر المستحيل تخيل أزواج معزولين يتحدون بشكل من أشكال الرابطة الزوجية في كنف قبيلة، حيث يضاجع جميع الرجال جميع النساء ويأخذون على عاتقهم الأطفال والنساء معاً أو أن تعتني النساء بالرجال والأطفال معاً ان اقتضت الضرورة ذلك. وقد حافظت القبائل البدائية على هذه العادة الوافدة من الأزمان الغابرة.

ولسنا هنا بصدد البت بهذا الرأي أو ذاك. فنحن لا نستطيع إلا أن نؤكد ان مختلف مكتسبات العلوم المقارنة التي ترتكز على أمثلة من مملكة الحيوان ومعاينة القبائل البدائية ـ لم تقدم لنا نتائج قاطعة حول ممارسات الإنسان القديم وعاداته. كما ان دراسة البقايا الإنسانية، التي كشف عنها الاحيائيون (المختصون بعلم المستحاثات) والتي حددت تاريخها الفيزياء الذرية، لم تسمح إلا بافتراضات واقتراحات.

ومع ذلك فقد استطاع ذوو الاختصاص البرهنة على ان مدة التقدم الإنساني، فيما يتعلق بتطور المهارة اليدوية وبعض المبتكرات، تمتد إلى مئات الآلات من السنين. لكن الأدوات المكتشفة، التي تعود إلى أقدم العصور، لا تدلنا على شروط حياة الإنسان الذي صنعها إلا بإبهام شديد. ولا نجد، بخاصة، دليلاً واحداً يسمح لنا بتخيل طبيعة العلاقات بين الجنسين.

إن السكاكين والدبابيس ورؤوس النبال أو الرماح التي اكتشفت مطمورة بجانب هياكل الحيوانات العظمية المتحجرة تؤكد، بالطبع، ان الرجال الذين استخدموا هذه الأسلحة كانوا يوفرون لوازم بقائهم بالصيد والقنص. ولكن هل الرجال وحدهم هم الذين يحملون تلك الأسلحة في صراعهم القاسي الذي لابد منه لضمان استمرارهم في الفترة الجليدية؟ لا شيء يثبت ان المرأة لم تسهم بدورها في الصيد، وليس ثمة ما يؤكد أن الرجال أيضاً قد استعملوا (كما النساء) هذه الأبر المصنوعة من العظام أو القرون أو العاج التي صنعتها الإنسانية بعد بضع آلاف من السنين لتخيط بواسطتها ثياباً من جلود الحيوانات.

إن أولى الأدوات الخشبية المكتشفة (إذا استثنينا الرماح الخشبية التي تقسى رؤوسها بالنار) هي أوتاد الحفر، أي تلك القطع الخشبية الحادة التي يستخرجون بواسطتها من باطن التربة الجذور أو العساقيل (ساق نبات صالح للأكل)، إضافة إلى القضبان الخشبية التي يحصلون بواسطتها على النار. إن المتخصصين بعلم الإنسان ينسبون هذه الأدوات إلى النساء باعتبارها أدوات يستعملنها يومياً، مما يدعو إلى الافتراض بوجود توزيع للعمل بين الرجل والمرأة: فبينما ينهمك الرجال بتأمين اللحوم تجمع النساء الخضار ويطهونها.

يفرض الشكل الأول هذا من أشكال اقتصاد الصيد والالتقاط (القطاف) نمطاً من أنماط حياة التنقل عبر مناطق واسعة. فإن لم يكفهم ما يصطادونه من الطرائد أو يجنونه من الجذور والعنبيات والفطور - (سواء لأن النباتات لم تحمل الكفاية من الثمار بسبب تقلبات الطقس، أو لأن الحيوانات قد بدلت مكان إقامتها)، اضطروا للترحال

والتنقل. كان الهدف من هجرتهم السعي للحصول على الطريدة. وهذه الطريدة التي يسعون لاقتناصها تقوم مقام دليل يشجعهم على هجر مناطق غدت غير مضيافة، ليضعوا عصا الترحال في أرض خصيبة ذات شروط مناخية أفضل. في أشهر القيظ كان الرجال والنساء والأطفال يبيتون تحت سقف صخرة مائلة تؤمن لهم الحماية، وفي الشتاء القارس يلجؤون إلى الكهوف بعد أن يجعلوها صالحة للسكن ويفرشوها بالقش وأوراق الشجر والأغصان.

هل كان الرجال في أماكن إقامتهم تلك ينفصلون عن النساء والأطفال أم أنهم كانوا يتمتعون باستراحاتهم الليلة في معاشرات رقيقة حنون؟ ان مراقبتنا لممارسات القبائل البدائية وعاداتها قد أظهرت لنا ان الرجال الذين يعيشون مرحلة اقتصاد القطاف (الالتقاط) والصيد يفضلون النوم بمعزل عن النساء حتى وإن كانت تربطهم بهن علاقات جنسية. ينفرد الرجال مع الرجال والنساء مع النساء. فالعملية الجنسية ألذ وأشهى إن كانت العيون مفتوحة والحواس متيقظة. فالعتمة تحد من شدة اللذة ومتعتها، والقمر مشاهد خطر يخشاه الرجال والنساء معاً.

أثبت العلم، باعتماده على أساس من حسابات فيزياء الأرض الفلكية وتقديراتها، إنه قد مضى تقريباً ٩٨٪ من الزمن الذي سادت فيه العصور الجليدية لكي يستخدم الإنسان الأول النار ويصنع الأدوات، تلك العصور التي كانت تجتاحها بين الحين والآخر فواصل زمنية حارة نسبياً. إن الحيز الحيوي للثدييات والإنسان، الأقرباء في النوع، قد حددته في كل من أوروبا وآسيا الكتل الثلجية الزاحفة والوافدة من الشمال والمرتفعات الجبلية. إن الكشف عن مخلفات سكانية وأدوات بشرية، يعود تاريخها إلى العصور الجليدية التي قدمت العديد من الأدلة حول تطور الإنسان العاقل، لم تسمح لنا هنا أيضاً إلا بمزيد من الافتراضات والتخمينات حول علاقات النساء والرجال الذين عاشوا طيلة هذه الألوف المؤلفة من السنين.

إن اكتشاف متحجرات إنسان النياندرتال، الذي عاش قرابة مائة ألف سنة في كل من أوروبا وآسيا وافريقيا، قد قدم أول دليل على وجود اختلاف محتمل في نمط

حياة النساء والرجال. وقد أظهر الكشف عن عظام هذا الإنسان من الرئيسات ذي الجبهة المسطحة (وهو بالطبع ليس السلف الحقيقي للإنسان العاقل الذي حل محله أو بالأحرى أباده) إن طول قامة الرجال والبالغة ١,٦٠م أطول من قامة النساء بـ٦سم تقريباً. وإن الذراعين والساقين أيضاً أطول وأثخن، والكتفين أوسع. كما ان تعابير الوجه، على ما يبدو، أشد قسوة (في الحدود التي تمكننا من استنتاج ملامح الوجه من خلال شكل الجمجمة). وليست الاختلافات الجسدية في القامة وفي ضخامة الصدر بين الرجل والمرأة الأدلة الوحيدة التي تساعدنا على معرفة عادات إنسان النياندرتال وتقاليده. نحن على علم بأنه كان يعيش في الكهوف وأنه لا يقتل الحيوانات فحسب بل يقتل أقرانه أيضاً. ترى هل كان يأكل مخ أولئك الذين يقتلهم لاعتقاده بأنه لابد حاصل على قوتهم إن هو فعل ذلك؟

ظهر الإنسان العاقل إبان الحقبة الجليدية الأخيرة (التي انتهت فيما بين الألف الخامس عشر والعاشر قبل الميلاد) أي منذ ٤٠ـ٥٠ ألف سنة تقريباً، وكان الإنسان العاقل بدوره صياداً: كان يصطاد الرنة (الأيل) والماموث والحصان الوحشي والثور البري والبيزون والدب.. وكان يقيم سكناه تحت صخور مائلة أو في الكهوف والمغاور ولكن لم تكن تلك حاله دائماً: فنحن نعرف انه كان ينصب الخيام صيفاً ويبني الأكواخ المتواضعة شتاء بل والبيوت الصلبة والمتينة.

تستخدم العظام وحجر الصوان دائماً لصنع الأسلحة والأدوات. لكننا نجد الآن، إضافة إلى ما ذكرناه، ابراً من العظام للخياطة مزودة بثقب، وحجارة من الجيري جُوفت على شكل إناء لتستخدم مهراساً لسحق مختلف غلال الحبوب أو قناديل تغذي لهيبها شحوم الحيوانات. بمقدورنا أن نتصور كيف عاش هذا الإنسان الحقيقي، وكيف كان يدرأ عن نفسه برد الشتاء وأي شيء كان يلبس وأين كان يقيم، إن نحن فكرنا بسكان الأسكيمو في البراري الجليدية القطبية في أمريكا الشمالية حيث مازالت تسود تلك المناطق شروط الحياة القاسية نفسها التي سادت فيما مضى أوروبا الوسطى في العصر الجليدي.

جمجمة بشرية مصنوعة من الجص بعيون من المحار عثر عليها في الجليل وتعود إلى الألف السابعة أو السادسة ق.م، (متحف عمان ـ الأردن)

إبر خياطة وقناديل وأجراس وكل أنواع الحلي المصنوعة من المحار والودع، والكهرمان والعاج وأسنان الحيوانات على شكل سلاسل، قلائد وزخارف على الثياب ـ نحن نجل إن كانت النساء تنفذ هذه المهام المنزلية المرتبطة بهذه الأشياء أم الرجال. إن إنسان الكهوف الذي كان يزين جدران المغاور برسوم فائقة التعبير وبتصاوير رائعة لم يمثل النساء إلا بوصفها كائنات متميزة بعضوها الجنسي. فهل كانت النساء شريكات للرجال جنسياً فقط في هذه الكهوف حيث يقمن؟ أم أنهن مجرد أمهات لأطفال يستطعن إنجابهم من أي رجل كان؟ أم أنهن قد عُرفن «فيما مضى بصفتهن أمهات يملكهن رجل واحد دون غيره»؟ إن مشهداً محفوراً على عظم حيوان ـ قد تم اكتشافه في إحدى المغاور في الغرب من فرنسا ـ يسمح لنا بأن نفترض ان النساء اللواتي يتقاسمن المأوى مع إنسان الكهوف لسن ملكاً لجميع الرجال. إذ تظهر لنا هذه الصورة، بالفعل، رجلاً يرفع يديه ويتطلع متضرعاً إلى امرأة عارية، موضوع رغبته الجنسية، عائمة فوقه.

بمقدورنا أن نستخلص من هذا الرسم ان رجال هذه الحقبة كانوا يتشوقون رغبة في النساء ولا أمل لهم بامتلاكهن لكن من المحتمل أيضاً أن يكون الرجل، الذي رسم هذه المرأة ورسم نفسه بوضع الضارع المتوسل، غريباً عن القرية التي تنتمي إليها هذه المرأة، بل لعله يأمل، بفضل هذه الصورة السحرية، أن يتمكن من جذبها إليه ومن امتلاكها فهو من طريقها يستطيع أن يتسلل إلى القبيلة وينتمي إليها.

وغالباً ما وجد في أماكن إقامة صيادي الماموث منحوتات لنساء عاريات تعود بوضوح إلى تلك الحقبة.

المرأة ذات المثلثات ـ تمثال من الطين المشوي ـ
من سومر (الألف الرابع ق.م) ـ متحف اللوفر، باريس

إن هذه الأعمال المنقوشة على أسنان الحيوانات أو عظامها وهذه التماثيل الصغيرة المكتشفة في أماكن التنقيب الأخرى، المشكلة من صلصال سلس أو المنحوتة من مادة الفخار المسامية، محاكاة للواقع أو تجسيد لرغبة الإنسان الجنسية. إن كل هذه الأعمال لا وجه لها في حين أن الرؤوس محفورة أو معجونة ببساطة على شكل كرات. من الواضح ان هؤلاء الفنانين البدائيين كانوا يكتفون بتمثيل العلامات المميزة للجنس المؤنث وقد يغالون أحياناً في إبرازها: كانوا يجسدون النساء بأثداء ضخمة وأوراك عريضة للغاية وبطون منتفخة وأرداف مفرطة البروز غير شكلها وشوهها الشحم. وقد عد علماء الآثار والانتروبولوجيا المثلث «المثير للخجل» مكان اللذة الذي تحدده وترسم خطوطه حنية البطن وأخدودا الاربيتين[1] رمزاً سحرياً محتملاً للمرأة التي يهفو إليها ويحلم بها، أو رمزاً لامرأة استسلمت له فعلاً.

ففي مخيلة هؤلاء الرجال الذين أبدعوا هذه الأعمال التشكيلية تحيا هؤلاء النسوة اللواتي شكلن على هذا النحو وكأنهن نساء حقيقيات من لحم ودم. فغدت الصورة واقعاً وعلينا ألا نبتسم ساخرين عندما يعرض علينا المختصون بما قبل التاريخ هذه التماثيل بوصفها صورة لفينوس: إن رجل العصر الحجري كان يرى فيها فينوسه.

هل كل لمقدرة الإنسان البدائي على صنع أشكال تتطابق ومخيلته تأثير في مفاهيم الرجال الدينية الذين حلوا بعده؟ وهل يمكننا، على هذا الأساس، تفسير إيماننا بالعناية الإلهية الفائقة القدرة التي شكلت الإنسان الأول من الطين وقد نفخت فيه من روحها لتهبه الحياة، مثلما عاشت أيضاً بطريقة سحرية هذه النساء المجبولات من الطين بأيد ماهرة، والقادرات على إثارة رغبات أولئك الذين يتأملونهن على الرغم من عدم وجودهن الفعلي؟

[1] الأربية: أصل الفخذ مما يلي البطن.

إن نقوش النساء العاريات ورسومها على الصخور، والتماثيل الصغيرة المزودة بخصائص جنسية أنثوية بالغة الضخامة لتقدم لنا أولى الأدلة الموضوعية حول علاقات الرجال والنساء في المجتمع البدائي، إذ نستخلص منها ان الرجال قبيل انتهاء الحقبة الجليدية كانوا يغازلون النساء كما «تغازل» أغلبية الذكور في مملكة الحيوان إناثها.

ومما يعزز هذا الافتراض اننا لم نجد، بالفعل، في حقول التنقيبات رموزاً قضيبية يكون لها في مخيلة النساء ما لأشكال جنس الإناث من قيمة عند الرجال. فإن كانت النساء يرغبن في نقل ما للذكورة من خصائص وسمات فبمقدورهن القيام بذلك بأن يجبلن ويشكلن بالعجائن الطينية المتوفرة الأشكال والمواضيع التي تنسجم ورغباتهن. فالنساء إذن هن اللواتي يهبن وهن اللواتي يستسلمن. في حين ان الرجال، على العكس من ذلك، يأخذون، وعليهم ان يجهدوا لينالوا حظوة النساء وان يتحلوا باللطف والطيبة إن هم أرادوا كسب ودهن، فهم يحصلون على المتعة الجسدية وكأنها مغنم أو ثمرة لا يفوزون بها إلا بالقنص والصيد. ومع ذلك علينا أن نذكر أنهم كانوا يربطون، رمزياً، ما بين العملية الجنسية والصيد وانهم كانوا يمارسون الجنس قبل خروجهم للصيد بوصفه فعلاً سحرياً يعود عليهم بالربح الوفير ان هم مارسوه قبيل سعيهم وراء الطريدة.

ولا نجانب الصواب في استنتاجنا، بعد ان كشفت معاول علماء الإنسان القديم أشكالاً قضيبية في بعض حقول التنقيب التي تعود إلى نهاية العصر الحجري، أن هذه الأعمال أيضاً من صنع الرجال لا النساء لكننا نجهل ما إذا كانت مظهراً من مظاهر متعة العيش وأن القضيب في هذه الفترة، يمثل رمز القدرة المنجبة، أو أن نرى في ذلك، كما يؤكد بعض الاختصاصيين، موضوعاً غنياً بصوره واستعاراته لا تربطه أي علاقة بالسلوك الجنسي بل يلعب دوراً عدوانياً ومهدداً. ونحن نعرف ان من الشائع عند القردة الذكور، التي تحرس حدود ممتلكات تجمعها، أن تحول دون دخول أي عنصر أجنبي إلى ممتلكاتها بالتلويح بقضيبيها المنتصب دليل تهديد ووعيد. وأخيراً

إن هذه الأعمال المنقوشة على أسنان الحيوانات أو عظامها وهذه التماثيل الصغيرة المكتشفة في أماكن التنقيب الأخرى، المشكلة من صلصال سلس أو المنحوتة من مادة الفخار المسامية، محاكاة للواقع أو تجسيد لرغبة الإنسان الجنسية. إن كل هذه الأعمال لا وجه لها في حين أن الرؤوس محفورة أو معجونة ببساطة على شكل كرات. من الواضح ان هؤلاء الفنانين البدائيين كانوا يكتفون بتمثيل العلامات المميزة للجنس المؤنث وقد يغالون أحياناً في إبرازها: كانوا يجسدون النساء بأثداء ضخمة وأوراك عريضة للغاية وبطون منتفخة وأرداف مفرطة البروز غير شكلها وشوهها الشحم. وقد عد علماء الآثار والانتروبولوجيا المثلث «المثير للخجل» مكان اللذة الذي تحدده وترسم خطوطه حنية البطن وأخدودا الاربيتين[1] رمزاً سحرياً محتملاً للمرأة التي يهفو إليها ويحلم بها، أو رمزاً لامرأة استسلمت له فعلاً.

ففي مخيلة هؤلاء الرجال الذين أبدعوا هذه الأعمال التشكيلية تحيا هؤلاء النسوة اللواتي شكلن على هذا النحو وكأنهن نساء حقيقيات من لحم ودم. فغدت الصورة واقعاً وعلينا ألا نبتسم ساخرين عندما يعرض علينا المختصون بما قبل التاريخ هذه التماثيل بوصفها صورة لفينوس: إن رجل العصر الحجري كان يرى فيها فينوسه.

هل كل لمقدرة الإنسان البدائي على صنع أشكال تتطابق ومخيلته تأثير في مفاهيم الرجال الدينية الذين حلوا بعده؟ وهل يمكننا، على هذا الأساس، تفسير إيماننا بالعناية الإلهية الفائقة القدرة التي شكلت الإنسان الأول من الطين وقد نفخت فيه من روحها لتهبه الحياة، مثلما عاشت أيضاً بطريقة سحرية هذه النساء المجبولات من الطين بأيد ماهرة، والقادرات على إثارة رغبات أولئك الذين يتأملونهن على الرغم من عدم وجودهن الفعلي؟

---

[1] الأربية: أصل الفخذ مما يلي البطن.

إن نقوش النساء العاريات ورسومها على الصخور، والتماثيل الصغيرة المزودة بخصائص جنسية أنثوية بالغة الضخامة لتقدم لنا أولى الأدلة الموضوعية حول علاقات الرجال والنساء في المجتمع البدائي، إذ نستخلص منها ان الرجال قبيل انتهاء الحقبة الجليدية كانوا يغازلون النساء كما «تغازل» أغلبية الذكور في مملكة الحيوان إناثها.

ومما يعزز هذا الافتراض اننا لم نجد، بالفعل، في حقول التنقيبات رموزاً قضيبية يكون لها في مخيلة النساء ما لأشكال جنس الإناث من قيمة عند الرجال. فإن كانت النساء يرغبن في نقل ما للذكورة من خصائص وسمات فبمقدورهن القيام بذلك بأن يجبلن ويشكلن بالعجائن الطينية المتوفرة الأشكال والمواضيع التي تنسجم ورغباتهن. فالنساء إذن هن اللواتي يهبن وهن اللواتي يستسلمن. في حين ان الرجال، على العكس من ذلك، يأخذون، وعليهم ان يجهدوا لينالوا حظوة النساء وان يتحلوا باللطف والطيبة إن هم أرادوا كسب ودهن، فهم يحصلون على المتعة الجسدية وكأنها مغنم أو ثمرة لا يفوزون بها إلا بالقنص والصيد. ومع ذلك علينا أن نذكر أنهم كانوا يربطون، رمزياً، ما بين العملية الجنسية والصيد وانهم كانوا يمارسون الجنس قبل خروجهم للصيد بوصفه فعلاً سحرياً يعود عليهم بالربح الوفير ان هم مارسوه قبيل سعيهم وراء الطريدة.

ولا نجانب الصواب في استنتاجنا، بعد ان كشفت معاول علماء الإنسان القديم أشكالاً قضيبية في بعض حقول التنقيب التي تعود إلى نهاية العصر الحجري، أن هذه الأعمال أيضاً من صنع الرجال لا النساء لكننا نجهل ما إذا كانت مظهراً من مظاهر متعة العيش وأن القضيب في هذه الفترة، يمثل رمز القدرة المنجبة، أو أن نرى في ذلك، كما يؤكد بعض الاختصاصيين، موضوعاً غنياً بصوره واستعاراته لا تربطه أي علاقة بالسلوك الجنسي بل يلعب دوراً عدوانياً ومهدداً. ونحن نعرف ان من الشائع عند القردة الذكور، التي تحرس حدود ممتلكات تجمعها، أن تحول دون دخول أي عنصر أجنبي إلى ممتلكاتها بالتلويح بقضيبيها المنتصب دليل تهديد ووعيد. وأخيراً

فإننا لا نعرف ان كان من المحتمل أن يمثل القضيب دليل سيطرة وتفوق اجتماعي داخل الجماعة، إننا نجهل تماماً ولا نستطيع إلا التكهن بالدوافع التي جبلت هذه الوفرة الوفيرة من التماثيل الصغيرة «لفينوس»، لتشكل بوضوح صارخ رموزاً ثنائية الجنس: القسم العلوي يستنتخ شكل المرأة العلوي فقط، بينما يمثل القسم السفلي، بردفيه المنتفخين كما الركتين و«الساقين» الملتحمتين كما المغزل، عضو الذكر الجنسي. إن هذه الكائنات الثنائية الجنس، التي حدثنا عنها بيروسوس في معرض حديثه عن السومريين، تعود، في الواقع، إلى رجال العصر الحجري في الحقبة الجليدية. كما يعتقد بعض الاختصاصيين، وربما كانوا على حق تماماً، ان هذه الفينوسات ـ القضب VENUS- PHALLUS الثنائية الجنس كانت تستخدم للافتضاض الشعائري لبكارة الفتيات البالغات.

إن تماثيل فينوس والنقوش على العظام، التي تبرز المرأة المشتهاة وأعضاء ذكورة الرجل، والتماثيل الثنائية الجنس المتميزة، تعكس لنا على أي حال، مايلي: إن هؤلاء الرجال البدائيين قد تأثروا بالمتعة الجنسية أبلغ التأثر ورأوا فيها إحدى ألذ مافي الحياة من مباهج ومتع، فسحروا بها وسيطرت، كلياً، على عقولهم، كما تُبرز لنا هذه الوفرة في تمثيلات النساء مدى انجذاب الرجال إلى المرأة واستقطابها لأفكارهم (ومن ضمن ذلك، بالطبع، طقوسهم وشعائرهم). هل كانت المتعة الجنسية، المجسدة في المرأة، أول معبود يتوسل إليه الرجل البدائي ويبتهل؟ أم أنهم كانوا يتعبدون الخصوبة، إذ كانت المرأة نموذجاً لها لحبلها كما الأرض في حملها ونماء نباتاتها؟

أم ان هذه الأشكال الأنثوية تتجاوز في تجسيدها خصوبة الأمهات؟ أو لَم تكن هذه النساء إلاهات للحيوانات التي تجدد كل عام تقدمتها لصيد الرجال وطرائدهم؟ أم ان الموضوع يتعلق بالأم الكبرى، الأم البدء، أصل الأحياء كافة وسلف القبيلة؟ أو لَيست هذه المرأة، التي صنعها ونحتها الرجال، تجسيداً مسبقاً لرموز إلهية خلقها الرجال لاحقاً؟

فينوس ولندورف (تيلور)
فينوس مينتون (مغارة غريمالدي).
ليسبورج من العاج (بالقرب من سان غودانس)

إن كافة المحاولات العلمية للكشف عن أصل العقائد الإنسانية قد حملت على الاعتقاد بأن الانطباعات السحرية، التي بعثتها، في الإنسان، الظواهر الطبيعية لدى معاينته لها، قد أدت إلى ظهور بعض الأفكار المحددة في وجدانه. وقد غدت مراقبة الطبيعة في أشكالها الأساسية واختبار الحياة اليومية منهلاً للعقائد. إن الحيوانات والنبات والأشجار والشمس والقمر والنجوم والسواقي والأنهار والجبال والسحب والضباب، كل ما يراه الإنسان وكل ما يؤثر فيه ولا يراه، قد دفعه إلى التعجب والعجب وإلى العبادة والتعبد بشعور المهابة والحاجة إلى الحماية.

قال الشاعر اللاتيني لوكريس: إن القلق[1] «أم الآلهة».

بيد أن هذا القلق لم يكن، على الأرجح، قلقاً على الحياة بقدر ما كان قلقاً من الموت أيضاً، إذ

تمثال صغير من قبل التاريخ في وادي النيل، قبل الأسرة الفرعونية الأولى
ـ من الخشب ـ

(1) القلق في اللاتينية والفرنسية إسم ـ مؤنث ـ المترجم.

كان لابد من أن يدرك الإنسان الخوف والهلع بعد أن عاين ولمس لمس الواقع إن الأموات لا يختفون إلى الأبد حتى ولو لم يعيشوا، البته، جسدياً، فالأموات يستمرون في العيش في أذهان الأحياء ـ أي في ذاكرتهم، لأن كل ما يدركه الإنسان (أو الحيوان) بحواسه يختزنه في دماغه، والذي كان موجوداً ذات مرة، الذاكرة تحتجزه والحلم يمنحه الحياة. لأن ما كان (موجوداً) لم يمت ولن يموت بالنسبة لعيون الفكر. ان ظهور أشخاص قد توفوا جسدياً كان يدفع بالإنسان البدائي إلى أن يلوذ بالفرار هلعاً أو إلى تبجيل الأموات، سواء حدث هذا الظهور في الحلم أو في حالات اليقظة بفعل وهم الحواس وخداعها، فقد يكون هؤلاء الموتى أشباحاً تملأ القلوب خوفاً وهلعاً، فمن الملائم أن يسعى الإنسان إلى تهدئتها لكي يمنعها من التسبب بالمصائب، وقد تكون أرواحاً خيرة مازالت أعمالها الميمونة تفعل فعلها بعد رحيلهم. لذلك فإننا نرى الأموات يُهجرون، تارة، ليخلوا بأنفسهم وينعموا بسلام ما بعد الموت. ويقوموا بأود أنفسهم، ونراهم، تارة أخرى، قد دُفنوا مع كل ما كانوا يستخدمونه عادة دون نسيان أي شيء أو نقصانه. وبذلك يكون الأموات قد دُفنوا مع أدواتهم الضرورية التي يحتاجون إليها إن هم عادوا أدراجهم إلى المكان الذي كانوا قد ماتوا فيه. كان الإنسان الأول يزود أمواته بمؤونة الطريق للسفر إلى عالم المجهول الذي شرعوا بارتياده. وقد رأينا إنسان النياندرتال يسلك السلوك نفسه حيال أمواته الذين كان يواريهم التراب بتكريم خاص.

إن الفزع من العائدين والخوف من الفوطبيعي ومن الذي لا يدرك ومن كل ما يبدو حاضراً دون التمكن من لمسه، قد أدت جميعها إلى ولادة عبادة الموتى التي كان لها تاثير حاسم في العقائد البشرية وفي عاداتهم وممارساتهم وأخلاقهم. إن الأرماس (اللحود) والانصاب وكتل الحجارة المنتصبة نحو السماء وأكداس الحجارة الدائرية والمسلات والشواهد الثقيلة المكدسة كما الموائد. كل هذه الأوابد المنتشرة في أكثر بقاع الأرض تنوعاً. في انكلترا كما في آسيا الوسطى، إن هي إلا أطلال قبور أو مذابح أو أماكن لممارسة الطقوس، لكننا، في الواقع، نفتقد دليلاً على ما يمكن أن

يساعدنا في معرفة العقيدة أو الطقوس التي انصرف إليها هؤلاء الرجال المجتمعون في هذه الأماكن.

كانت الأرض بالنسبة للأغلبية العظمى من الشعوب البدائية الأم الكبرى، ولعلها تلك التي صادفناها في هذه التماثيل الصغيرة ذات الأشكال البارزة التي تعود إلى العصر الحجري، كما كانت الشمس القوة المولدة لكل مظاهر الحياة على الأرض، أما السماء، التي تهب المطر وتحتجزه، فقد كانت مكان إقامة الآلهة جمعاء، بل إن النجوم نفسها كانت كائنات لها نفوذ فوطبيعي. والنار لم تفقد سحرها على الرغم من استئناس الإنسان لها فكانت ابناً للشمس، هذه الكرة المضيئة التي تشرق كل صباح فتهب الدفء والضوء لتترك، من ثم، مكانها للقمر الذي يكون هلالاً تارة وبدراً تارة أخرى. وقد تخيل الإنسان القديم القمر فاتناً يغوي النساء ويضاجعهن أثناء ليالي فترة حيضهن. كما ان النساء أنفسهن يتمنعن آنئذ عن كل علاقة جنسية. كانت النساء يحترمن القمر ويكرمنه بصفته إلاهة تدافع عنهن وتحميهن من الرجال في أوقات منتظمة ومحددة من كل شهر.

وكانت هذه العقيدة، التي يدين، وفقها، جميع الرجال والنساء بحياتهم إلى قدرة غامضة فوطبيعية، تشكل المبدأ الأساسي لتجمعهم. إلا إننا نجد إلى جانب الطوطم، محط الاحترام والتبجيل، الذي تورثه الأم لأولادها والذي يبقى حياً في ذاكرة الأجيال المتعاقبة كما الروح الراعية، قوى الطبيعة التي تؤثر في الإنسان في كل زمان ومكان في الليل كما في النهار، والتي تبعث على الفرح أو تزرع الرعب والمصائب. وفي سبيل فهمها وكسب ودها «أنسن» الإنسان قوى الخير والشر هذه وحباها بمزايا إنسانية متطورة فوطبيعية: وارتقى بقوى الطبيعة إلى مصاف الآلهة. إن الممارسات الجماعية داخل القبيلة، هذه الممارسات المتصلة في جوهرها بعادات الحياة عند قطيع اللبونات قد أصابها، من جراء ذلك. تحوُّل حاسم. فلم تعد أنماط السلوك وعادات الإنسان منذئذ طوعاً لارتكاسات عقلية أو غريزية وفورية لمعطيات طبيعية ملموسة للعالم المحيط. فمن الآن وصاعداً أخذ الإنسان في اعتباره القوى فوطبيعية وخشي فقدانها.

إذ اعتقد ان سعادة العائلة أو القبيلة وسوء طالعهما وان الرفاه أو البلية منوطة جميعها بحظوة القوى الإلهية أو فقدان حظوتها.

إن العودة من تجارب مشؤومة أو ميمونة علمت الرجال والنساء كيفية التصرف للفوز بحظوة الآلهة وكيفية تجنب سخطها وغيظها. وعلى تلك الخبرات بنى الإنسان عاداته وتقاليده وممارساته. وكما هو الحال عند الذئاب، إذ يقود القطيع واحد منهم، كذلك الحال في القبيلة إذ يفوز أحد الرجال بامتياز قيادته للآخرين. فليس عليه أن يكون أقواهم وأفطنهم في الصيد والقتال فحسب، بل عليه أيضاً أن يعرف تمام المعرفة أماكن الإقامة، وأن يبدي الرأي السديد في حسن الموقع وصلاحيته، وعليه أن يسعى جهده كيلا يتعد الرجال والنساء عن الطريق ويضلوا.. وعليه ألا يكشف عن مكانه دونما جدوى، كيلا يتعرض ويعرض من معه لهجوم الحيوانات المفترسة وإغارة القبائل الغريبة، وعليه أن يجمع، بصفته القائد، خاصته ليلتمس عون الآلهة التي ابتكروها أو يدرأ أذاها. انه الناطق بلسان حال قبيلته أمام الآلهة يُسمِعها ويستمع إليها.

وعلى مقدار هذه الوفرة من المسؤوليات التي يضطلع بها الزعيم يتمتع بعلو المقام الذي لا ينكره رجال القبيلة الآخرون إذ كان عليه أن يبرهن على جدارته وتفوقه قبل أن يفوز بمكانته المتميزة التي هو أهل للدفاع عنها، فيستخدم قوته ويمارس سلطته في القبيلة على الرجال والنساء معاً. وباعتباره الأقوى بين الرجال والمدافع الذي يذود عن أطفالهن تجهد النساء ويتعمدن الفوز برفقته واكتساب مودته، فيستسلمن لمداعباته بسرور بالغ ليغنمن فائدة المتعة التي يهبنها له. فليست إذن، والحال هذه مآثر زعيم القبيلة الجنسية هي التي تدفع النساء إلى تفضيله على غيره من الرجال، ومع ذلك لم تفكر أية امرأة منهن في رفض مضاجعة رجال آخرين. بيد ان الامتيازات التي يمكن أن تحصل عليها هي وأطفالها كانت تدفع بها، تلقائياً، إلى السعي للحصول على رعاية أوسع الرجال نفوذاً وعلى حظوتهم، فكانت النساء، في هذا المجتمع الخالي من الأب، يتبنى، حيال أطفالهن، الموقف نفسه الذي يتبناه زعيم القبيلة حيال أفرادها. إذ

يرتبط الصبية والبنات بالأمهات اللواتي ولدنهم وأرضعنهم وربينهم إلى أن يستطيعوا سد احتياجاتهم بأنفسهم، فالأم ترضع أطفالها كما توزع عليهم ما حصلت عليه من نبات وخضار. وتقتطع نصيباً مما أصابها من غنائم الصيد التي جلبها الرجال إليها لتوزعه على أولادها. وهكذا نرى أن تبعية الأطفال ودفء الحماية التي يتمتعون بها قد خلقت أولى الأسر التي لا يُقبل الرجل فيها إلا بعد انضوائه في دائرة مغلقة تتألف من الأمهات والأبناء.

وقد حد تعاظم نفوذ الأمهات من الإباحية الجنسية كما أن أشد القرابات قرباً لا تقف عائقاً دون الاتحاد الجنسي - (بين الأم وأبنائها مثلاً أو بين الأخوة والأخوات) - فما ان يشعر الإنسان بغرائزه وبميوله الفطرية حتى يسارع إلى إروائها دونما أي عائق، لكن الرجل الذي لا ينتسب إلى أسرة رغب في مضاجعة الأم فيها أو احدى بناتها، رغماً عنهما، سوف يقف ضده الأبناء والأخوة المراهقون أو البالغون الذين يقاومون بعنف وغيرة كل دخيل غير مرغوب فيه في أسرتهم.

ويندرج أيضاً في قائمة التجمع العائلي للأطفال المولودين من إحدى الأمهات الأحفاد وذراريهم. في البدء اتحدت الجماعات العائلية، التي توسعت على هذا النحو، على شكل عشائر تعيش في وسط القبيلة وتبجل الطوطم نفسه، ثم شكلت هذه العشائر قبائل مستقلة غدت بدورها طوائف و«سلالات» وعندما تنفصل العائلات عن بعضها بود وسلام تحافظ على أواصر الصداقة فيما بينها وتتبادل الرجال والنساء، كما هو شائع، حالياً، في أوساط الشعوب البدائية: تقترن مجموعة من الرجال، تحت شكل من اشكال «الزواج» بنساء ينتمين إلى جماعة أخرى، فإذا ما تم الاتفاق يضاجع كل رجل، بانتظام، كل امرأة من المجموعة الأخرى، وبذلك يكونون قد نفذوا بنود «الاتفاق» المعتمد من الطرفين.

لا يعني رجحان مكانة المرأة في أولى المجتمعات الإنسانية ان لها حق القيادة على أفراد العائلة الذكور: صحيح اننا لا نستطيع انكار ما للمرأة من نفوذ لكن الرجال لا يخضعون للأمهات، فهم متكافئون. وتقر الأمهات باستقلالية الرجال في الصيد

وفي التصدي لغارات القبائل المعادية. ان عادات الطفولة تطبع الرجال على احترام الأم وعلى التعلق بها حتى في الوقت الذي لم تستطع فيه، إطلاقاً، ممارسة سلطان أمومتها الحنون.

ويرى علماء الأجناس البشرية والمختصون بعلم الإنسان (الانتروبولوجيون) سيادة مرحلتين متاليتين على أولى الأزمان الإنسانية: الإباحية الجنسية أولاً والأمومية ثانياً. بيد ان المختصين في السلوك يرون عكس ذلك. ان الكائن الإنساني لم يعش، منذ الفترة النياندرتالية، إباحية جنسية غير متمايزة، وإنما عاش أزواجاً أزواجاً... وهم يعززون نظريتهم تلك موضحين: ان الجهد الجماعي الذي لا يمكن الاستغناء عنه لاستمرار النوع والذي ينحصر في طرد الحيوانات الخطيرة، يحول دون، بل، لا يسمح بوقوع أي شجار أو تنافس بين الرجال من أجل النساء. وسواء أخذنا بهذه الفرضية أو تلك: ففي المضارب أو المغاور، حيث تلد النساء أطفالهن وينشئنهم في الوقت الذي يكون فيه الرجال غائبين على الدوام، يطاردون ويقنصون، أحدثت، شيئاً فشيئاً، العائلة المتحدة حول الأم ومعها حقها الأمومي. وأياً كانت الكيفية التي تشكلت بواسطتها العادات والممارسات فإن الرغبة في الحياة وفي ولادة حيوات جديدة هي التي دفعت بالرجل، ليس فقط إلى الصمود وتأكيد الذات في عالم معاد، وإنما دفعته أيضاً إلى الهيمنة، المتعاظمة دوماً، على العالم المحيط وتغييره بما ينسجم وتصوراته.

منذ حوالي عشرة آلاف سنة قبل الميلاد أحدثت بعض القبائل الأسروية، التي كانت تعيش، حينئذ، على القطاف والتقاط ما تجود به الطبيعة من ثمر ونبات وعلى الطرائد وصيد الأسماك، مدناً قروية، وأجروا على المحيط تغييرات اصطناعية. واستقر الرجال مزارعين ليس فوق النجاد المرتفعة أو في السهول فحسب بل وعلى ضفاف البحيرات المروية البليلة والغنية بالأسماك أيضاً، حيث أقاموا سكناهم على الموائد (مجموعة أوتاد). اننا نجهل متى تعلم الإنسان ان بذر البذور يخصب التربة كما أننا لا نعرف أيضاً متى بدأ بتدجين الحيوانات وتربيتها، تلك التي كان من

عادته اصطيادها. بل كيف عرف حسبان الفترة الزمنية مابين السفاد وولادة الحيوانات التي أصبحت، من الآن فصاعداً، حيوانات أهلية؟ وقد أثبت اكتشاف الهياكل العظمية التي يعود تاريخها إلى الألف الثامن ق.م. إن الكلاب كانت آنذاك رفيقاً أليفاً لذاك الإنسان الذي غدا حضرياً، وبعد هذه الفترة بنحو ألفي سنة شرع إنسان ما قبل التاريخ في تربية الماعز والخراف والخنازير والأبقار ومن ثم استخدم الحصان. وعليه فقد كان الإنسان القديم إما مزارعاً وإما مربياً للماشية وراعياً لها تبعاً للمنطقة التي يقيم بها. ومادام هذا الإنسان غير ملزم بمطاردة الحيوانات والسعي بحثاً عن الطريدة وعن قوته من النباتات، لتأمين احتياجاته الغذائية بل أصبح بمقدوره الحصول على لوازم الحياة وضروراتها بالعمل في الأرض وبتربية الماشية، فإن نمط حياته قد تميز كلياً عن نمط حياة الرئيسات الأخرى الرهينة أبداً بما تجود به الطبيعة. وغدا الإنسان مستقلاً وسيد نفسه بتغييره للعالم من حوله.

وببلوغ الإنسان هذه المرتبة من النمو والتطور شرع في تبني عادات متميزة. وهي، حتى يومنا هذا، من خصائص الجنس البشري وحده. ومع إقامة الإنسان في المكان واستقراره فيه طرأ تبدل في توزيع العمل بين الجنسين وتبدلت معه العلاقات بين الرجل والمرأة. فالنساء اللواتي كن حتى ذلك الحين يعتنين ويربين أطفالهن في المغاور والكهوف قد انتقلن للسكن، من الآن فصاعداً، في أكواخ ومنازل شيدت على مقربة من حقول خصبة أو تحت مضارب تحف بها المراعي من كل جانب. أما الرجال الذين كشفوا النقاب عن أسرار الدور الذي يلعبونه في الانسال فقد (عرفوا) النساء اللواتي كن قد اقترن بهم في حيز منعزل داخل سكناهم واللواتي كن قد انجبن أطفالاً. فأبرزوا حقوقهم بوصفهم أباء وطالبوا بملكيتهم، ليس لما انجبوه من أبناء فحسب، بل ولأمهات هؤلاء الأولاد أيضاً.

وقد غدت النساء، اللواتي شاركن الرجل سريره وولدن له ذرية هو بأمس الحاجة إليها لتشارك في أشغاله المتنامية على الدوام، من ممتلكاته الثمينة كالحقل الذي

يزرعه ويعتني به والماشية التي يربيها. وشاء الرجال أن يضموا النساء إليهم ليعتنوا بهن. فأوجدوا (ان اخذنا بفرضية الانتروبولوجيين الذين يرفضون ان يروا في الزواج إرثاً قديماً ورثه الإنسان من اللبونات) مؤسسة الزواج وأخضعوا النساء إلى «الحق الأبوي» وأقاموا هذا الحق على الأسس نفسها التي قام عليها حق الملكية، وعدوه حقاً لازماً لا يمكن الاستغناء عنه لحفظ ممتلكاتهم وحمايتها بسلامة تامة.

وعد الزواج في جميع الحضارات الإنسانية الأساس الطبيعي لحياة الرجل ــ المرأة المشتركة وقد فرضته الآلهة... وتختلف بالطبع، أشكال الزواج باختلاف العهود والمناطق وتبعاً للمفاهيم الأخلاقية أو الشروط الاقتصادية التي تهيمن على مؤسسته كما هو الحال في القانون الأساسي لحق الملكية.

ويرى بعض المختصين بعلم الجنس ان الزواج لا يرتكز، عموماً، على مبادئ عشقية وجنسية، إن حرية اختيار الشريك الجنسي بملء الإرادة ودونما إكراه لم يتخل عنها أي من الطرفين عن رضا. وما دام الزواج لم يأت ليفرض قيوده وحواجزه، إذ خضع الرجال والنساء لغرائزهم واستطاعوا إشباع رغباتهم في التنويع والاختيار، فعلينا، والحال هذه، أن نعده فطرياً.

وهنا لابد من أن نتساءل: هل بدا للإنسان البدائي أن غريزة التملك والرغبة في الاحتفاظ وزيادة ممتلكاته لضمان وجود أشد رسوخاً وثباتاً تفوق في أهميتها الغريزة الجنسية بمباهجها وتمام ارواء غليلها؟

لا يرتهن دوام الحياة المشتركة واستمرارها بين رجل ما قبل التاريخ والمرأة التي «عرفها» وامتلكها بالزواج بها، بالمتعة الجنسية التي يتبادلانها وإنما بولودية الزوجة، فالرجل يعقد زواجه، قبل أي شيء آخر، على سبيل التجربة ليتأكد من ان المرأة شغيلة محبة للعمل، وان بمقدورها منحه أولاداً هو بأمس الحاجة إليهم لحفظ أملاكه ونمائها.

وليس بضار ولا بشائن لكليهما ان انتهى الزواج بالفشل وأخفق. فبمستطاع المرأة كما الرجل، أن تجرب حظها في زواج اختباري آخر. صحيح ان الزواج يجرد

النساء من حقوقهن لكنه لا يحرمهن من مكانتهن. انهن أيد عاملة لا يمكن الاستغناء عنها وأجسادهن الولودة تنجب أيدياً عاملة أخرى جديدة. فالنساء والحال هذه، تمثل «رأس مال» وعلى طالب الزواج الذي يود امتلاكه ان يدفع بالمقابل ويهب الهبات والعطايا أو المخصصات العينية. وتغدو الفتيات البالغات، القادرات على الإنجاب، سلعة لابد للزوج من أن يشتريها من أبيها. لكن الرجل الذي دفع ثمن الشراء يأمل ألا يكون مخدوعاً بمزايا السلعة التي اقتناها، فهو يرغب، قبل أي شيء آخر، في التثبت من انه لم يؤو تحت سقف بيته، في الوقت الذي دخلت إليه هذه الزوجة، ذرية رجل آخر. ولهذا السبب كانت عفة البنت، قبل ليلة الزفاف، وفي مناطق عدة، شرطاً مساعداً على إبرام عقد الزواج. بيد ان هذا الشرط لم يكن مطلوباً ولازماً في كل مكان. فهو يفقد أوليته عندما تكون لليد العاملة القادمة، ثمرة اقتران سابق، أهمية تفوق بكثير بكارة المرأة وعفافها.

إن للبكارة، على الأرجح، أهمية أعظم عند أب هؤلاء الفتيات منها عند من يرغب في الاقتران بهن. وبصريح العبارة: إن نقاء السلعة التي يجب أن «تقدم للرجل» يزيد في قيمتها التجارية. إن العفاف الذي فرض على الفتاة قبل الزواج دليل على اخلاصها ووفائها في حياتها الزوجية القادمة. وقد ساءت العادة عند العديد من الشعوب، لمنع الفتيات من فقدان بكارتهن، أن يُحتجزن ويعزلن عن الرجال الذين يتسببون «بفقدان السلعة لقيمتها». مما دفع المجتمع أيضاً إلى تلقينهن أصول الخفر والاحتشام وضرورة ستر أعضائهن الجنسية أو الأعضاء «الفاضحة» كيلا تغوي رؤيتها، على سبيل المثال، الرجال في العائلة وتدفعهم إلى الخطيئة، واقتدى الرجال بالنساء وستروا بدورهم أعضاءهم التناسلية.

وقد عدت خيانة المرأة جريمة.. بيد أن هذه الجريمة ليست ضد نظام الأخلاق بل هي ضد حق من حقوق ملكية الزوج. وبالمقابل فقد استأثر الزوج بحق «إعارة» امرأته إلى أحد ضيوفه مادام من حقه التصرف بجسدها وروحها. واستمر حق الزوج هذا فترة طويلة حتى إلى ما بعد انتقال الإنسانية من مرحلة ما قبل التاريخ إلى التاريخ.

إن مختلف مراحل هذه التحولات في العلاقات المتبادلة بين الرجال والنساء تعود إلى أزمان ما قبل التاريخ. ومع ذلك فإن علماء الاجتماع يرون فيها «هزيمة تاريخية كبرى للجنس الأنثوي» ما فتئت النساء يقاومنها منذ ألوف السنين. و لم تناضل النساء ضد مؤسسة الزواج كما ناضلن ضد تجريدهن الطاغي من حقوقهن لصالح الرجال وضد «ازدواجية الأخلاق» التي جاءت محصلة لذلك. فتحتم عليهن أن يبقين ضحاياه ما بقيت قوانين الأخلاق هذه من وضع الرجال لا النساء وقد صدرت باسم ديانة يقوم بإدارتها الرجال بوصفهم كهنة الآلهة ووكلاءها.

وهكذا سُنّت القوانين وهكذا انتهكت وهكذا أهملت، ومع ذلك فقد استمر شيء ما كان حاضراً منذ البدء: إنه حب الحياة.

يد بشرية، أُنجزت على الأرجح لاسباب سحرية

الفصل الثاني

بلاد الرافدين

تسلسل زمني

أواخر الألف الخامس قبل الميلاد	السومريون في بلاد الرافدين
نحو عام ٣٥٠٠ ق.م	أقدم الكتابات الرمزية
نحو عام ٣٠٠٠ ق.م	بداية التاريخ المدون في سومر
من عام ٢٣٥٠ حتى عام ٢٢٩٥ ق.م	صارغون ملك أكاد
نحو عام ٢٠٠٠ ق.م	ملحمة جلجامش
١٧٢٨ - ١٦٨٦ق.م	حمورابي ملك بابل
نحو عام ١٢٠٠ ق.م	قوة الآشوريين في أوجها
نحو عام ٩٠٠ ق.م	المملكة الآشورية الجديدة
من ٦٦٨ حتى ٦٢٧ ق.م	آشور بانيبال
٦١٢ ق.م	حريق نينوي
٥٨٦ - ٥٣٨ ق.م	نبوخذ نصر الثاني
نحو عام ٥٥٠ ق.م	زرادشت
٥٥٩ - ٥٣٠ ق.م	سيروس الأكبر مؤسس مملكة فارس

شعوب بلاد الرافدين

«تمتع بين أحضان المرأة»

من أقدم قصص الحب في التاريخ أسطورة إنانا وتموز

أحبت إنانا (عشتار)، إلاهة الأرض المرحة، أخاها تموز حباً جارفاً. إن هذا الاتحاد الرقيق الذي يجمع الأخ وأخته ويجذب، بولع، أحدهما إلى الآخر في عناق انتشائي لا ينفصم طوال أشهر الشتاء الطويلة، لا يمت إلى عالمنا بصلة. بيد أن سكان سومر الغنية، التي يرويها دجلة والفرات، لم يشعروا، هم أنفسهم، بمباهج هذه المتعة الكاملة ولذائذها، إذ كانت انعكاساً لمخيلتهم وصورة لذاكرتهم. لم يكن تموز وإنانا وجهين مثاليين ونموذجين سماويين لنساء سومر ورجالها، فحسب، بل كانا أيضاً رمزين إلهيين للعملية الجسدية التي تهب السعادة والمتعة.

كان سكان سومر يتوجهون بالدعاء إلى إنانا بوصفها الإلاهة «التي تفتح أرحام النساء» إذ كان على جميع النساء، امتثالاً بانانا واقتداءً بها، أن يتهيأن لعرض فروجهن، عن رضا، لأنظار الرجال لإيقاظ غريزتهم وحثهم على التمتع بأجسادهن الراضية والمنذورة لهم، وكان على الرجال أن يحتذوا حذو تموز، إله نمو النبات وتكاثر الحيوان، الذي يخضع لإغواء إنانا، وسحرها ويقدم لها منيه في كل مرة ترجوه فيها ذلك.

كان تموز قبل أن تكلف به أخته، يرعى، في ظل شجرة الـ«اريدا ERIDA» وفي حقول غير دنيوية، قطيعاً لا يراه بنو البشر. كان الإله الشاب يحمي حيوانات أالسماء وحيوانات الأرض ويدرأ عنها أخطار أشعة شمس الظهيرة المحرقة. أيقظت مداعبات إنانا شهوانية الراعي اليافع. وغدا، بفعلها، رجلاً، فأراد أن يبرهن على رجولته في الصيد والطرد كما برهن عليها في فراش الحب والمتعة. وفي إحدى مطارداته أصابه خنزير بري بجرح مميت[1].

منحت إنانا، قبل اقترانها بتموز، جسدها الشهواني، العطش أبداً، جميع الذكور الأحياء فوق الأرض. أما الآن فإنها لم تعد راغبة إلا في الرجل الوحيد الذي عرفت الحب في أحضانه ـ هذا الإحساس، الجديد عليها، بالامتلاء وبالكمال السعيد لأناها الخاص، لا يُمنح إلا للرجل والمرأة اللذين لم يخلق أحدهما إلا للآخر.

هذا الاشتهاء للواحد المفرد جعل من الإلاهة «التي تفتح أرحام النساء» مثالاً تحتذيه جميع النساء. فليس بكاف أن تُشبع لذة الاتحاد الجسدي الحواس فقط بل عليها أن تروي القلب أيضاً. إن العديد من المعانقات لا تعدل عناقاً واحداً يتوِّجُه الحب ويرعاه.

إن الرغبة في امتلاك الرجل الوحيد هي وحدها صاحبة الشأن، ذلك الرجل الذي تفيض بحضوره، دون سواه، كل الحواس بالأمل والرجاء. هذا الرجل الحبيب أغلى من جميع رجال الأرض مجتمعين، والسعادة، كل السعادة، هي في البحث عنه والفوز به والاستسلام له.

خلقت إنانا أسطورة الحب. كانت مستعدة لكل التضحيات، إذ برهنت بسلوكها على ان المرأة العاشقة، لكي تفوز بالرجل الحبيب وتحتفظ به، ألا تغفل

[1] مزج المؤلف هنا بين الأسطورة السومرية والأسطورة الكنعانية، فالإله الذي يقتله الخنزير البري هو أدونيس وليس تموز ـ المحرر ـ.

شيئاً، وعليها، بدافع هذا الحب، ألا تتراجع أمام المخاطر، مهما بلغت ولو كانت الموت نفسه.

شرعت إنانا بارتياد طريق الجحيم لتبعث في تموز الحياة لكي يعود إليها من جديد، بتحميمه في الينبوع المقدس. سمحت لها اريشكيغال بالدخول وقالت لها: «أنا أيضاً أندب الرجال الذين انفصلوا عن زوجاتهم، وأنا أيضاً أندب النساء اللواتي انتزعن من أحضان أزواجهن» وعلى الرغم من الشفقة التي عبرت عنها هذه الكلمات، لم تستطيع اريشكيغال إعفاء أختها من معاناة ذل العذاب «وفق ما جاء في الشرائع القديمة» إذ بات على إنانا ان تلج، عارية، المكنة السفلى (العالم الأسفل).

نضا الحارس عن الإلاهة ثيابها وعراها. وجردها من حليها ونزع النقاب عن كاهلها. لكن جمال جسدها العاري أثار غيرة سيدة العالم الأسفل اريشكيغال. فأصدرت حكمها بسجن أختها إنانا في غرفة من غرف قصرها ليذبل جمالها وتذهب كل الأمراض المكنة بحسنها وبهائها: «مرض العيون على عينيها... ومرض الجوانب على جنبيها ومرض القلب على قلبها ومرض الأرجل على ساقيها ومرض الرأس من رأسها...».

أذعنت إنانا، بدافع حبها لتموز، راضية بجميع هذه الأوجاع والآلام.. بيد ان هذه المصائب لم تنزل بها وحدها، إذ توقفت كل مظاهر الحياة فوق الأرض. فامتنع الإنسان والحيوان عن التزاوج والاقتران: «ما من رجل يطارد الفتيات... والنساء يضطجعن وحيدات... وكل الأفراح الجنسية انطفأت...».

علم الآلهة بما يجري، فأصابهم الروع والهلع من احتمال زوال البشرية. ترى من سيتقدم إليهم بالدعاء والعبادة إن وقع ذلك؟ ومن ذا الذي سيقدم لهم الأضحيات؟ فسارعوا إلى إصدار أوامرهم لاريشكيغال باخلاء سبيل أختها، بيد أن إلاهة الأرض أبت ان تغادر العالم الأسفل إلى عالم الأحياء إن لم يبعث تموز من بيت الأموات ويعود إليها حياً. وكان كما شاءت.. وما أن اتحد الزوجان

الإلهيان، حتى شرعت الأرض بالتفتح والازهرار واستعاد الإنسان والحيوان لذة التزاوج والجماع واستدركوا، كما استدرك تموز وعشتار، باندفاع لا يكل ولايمل، كل ألوان الضم والاحتضان التي كانوا قد حرموا منها حتى ذلك الحين.

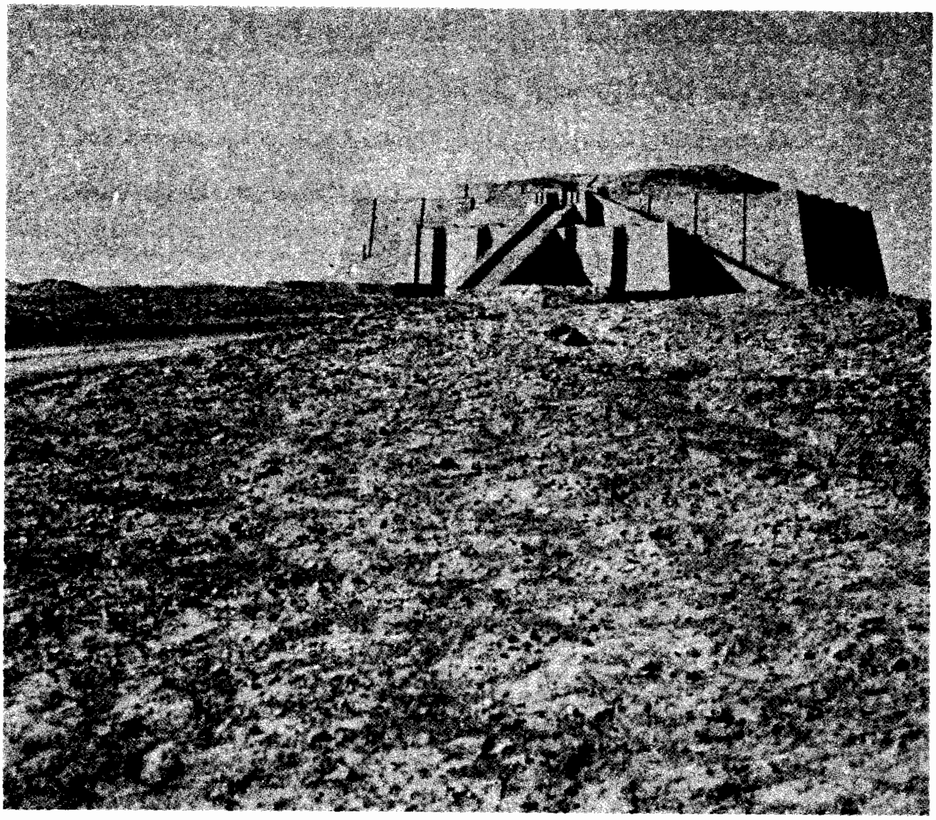

الزقورة (مجموعة من الأبنية الدينية) في أور، نحو ٢١٥٠-٢٠٥٠ق.م،
ويعلو الزقورة، على الأرجح، معبد مكرس لإله القمر نانا

في كل ربيع، بعد أن تستقبل الحقول المحروثة بذارها، يحتفل رجال سومر ونساؤها بانبعاث تموز الذي يبجلونه بوصفه إله الإنجاب والتوالد، رمز الرجولة

التي تهفو إليها الاهة الأرض. ولا تقترن النساء، أثناء أعياد الخصوبة هذه، بأزواجهن فحسب، بل يجامعن أيضاً من شئن من الرجال، إذ يمنح الزوج زوجه حق الاقتران بالرجل الذي تشتهي، شريطة أن تحرص على إسقاط نطف من تعشق على الأرض كيلا تحبل. لم تحتفظ هذه العادة، القديمة قدم عبادة الأم الكبرى، باستمرارها إلا في أوساط صغار الفلاحين أنصاف الأحرار وفي أوساط عمال سومر المزارعين. أما وجهاء سومر وأعيانها، أولئك الذين يتباهون بمكانتهم وامتيازاتهم ومظاهر غناهم ويحرصون على التمسك بحقوق الزوج وكرامته، فقد أبوا أن تمنح نساؤهم أجسادهن إلى رجال آخرين أثناء أعياد الربيع هذه حين يسود الفسق والفجور، وأرادوا أن تكون نساؤهم ملكاً لهم وحدهم دون غيرهم، فأرسوا المبدأ الذي ينص على أن الزواج يفرض على المرأة واجب حب الزوج، وان اقتران المرأة بزوجها لابد من أن يبعث فيها الحب ويذكيه ان كانت امرأة صالحة تتقيد بوصايا الدين ونواهيه. وعلى أسس هذا المبدأ سن الملوك الكهنة في مدن سومر قانون الزواج. وقد دُوِّن هذا القانون إثر اكتشاف الكتابة في تلك المدن، واكتملت هذه الكتابة مع الزمن إلى ان غدت فناً.

استقرت إنانا المرحة حية في ذاكرة سكان الأرياف، إلاهة تفيض حياة وحيوية وتهب اللذة والمتعة أنى حلت، إلا أن إنانا فقدت اسمها وأصل مغزاها في المدن الحصينة التي أُحدثت على ضفاف دجلة والفرات وسيطرت على المناطق الخصيبة والمراعي القائمة بين النهرين. وسميت إلاهة الحب الجسدي في المدن السومرية عشتار التي بجلتها النساء بالورع والتقوى وكرمها الرجال حيطة وارتياباً.

ومع ذلك، فان أكثر الرجال ذكورة تعوزهم حظوة عشتار ونعمتها، إنها الإلاهة «التي تفتح أرحام النساء» فليس من حقهم الإساءة إلى الإلاهة الكبرى التي ترعى الحب وتسهر بعطف عليه، فعليهم، ان هم أرادوا إيقاظ شهوانية زوجاتهم واستثارتهن وان ينعموا، في فراش الزوجية، بالحب والحنان بدل اللامبالاة وعدم الاهتمام، أن يقدموا لها الأضحيات. ولكي يحصل الرجال على

ما يرغبونه من الأبناء، عليهم، ليس فقط، كسب عطف عشتار، بل عليهم أن يفوزوا أيضاً بحظوة الآلهة الكبار الذين يساهمون بدورهم في خصوبة الأرض ونمائها. ذلك ان الحقول ستبقى جدباء قاحلة إن لم يتدخل نغرسو إله الري والقنوات حتى وان كانت عشتار على استعداد دائم للحب تستجيب لرغبة تموز حاضنة لنطفه، بل كيف للانتاش والنماء أن يحدث فوق الأرض لولا أشعة شمش (الشمس)؟ وهل لشمش وسين إله القمر ان يولدا لولا آنو، الجَلَد اللامتغير، الذي كان منذ البدء بعد أن انجب ممو، العماء، الآلهة والشياطين؟

إن وفرة الغلال وجودتها، في نظر السومريين، مرهونتان بما يدور في كنف هذا الكون من توافق وانسجام. هذا الكون الذي يرى سكان سومر في مظاهره رموزاً للآلهة. فقد اعتقدوا وأملوا ان بامكانهم، من خلال ترميزها، التأثير في هذه الآلهة الكلية القدرة لتقف إلى جانبهم وتتلاءم وأمانيهم، فشيدوا المعابد لتكون لآلهة السماء مقاماً يليق بها، فوق الأرض، فتقيم بالقرب من عبادها تستمتع إلى صلواتهم وتستجيب لدعواتهم.

وفي هذه المعابد، المنتصبة فوق المرتفعات، أقام الملوك ـ الكهنة، فكانوا على اتصال مباشر بالآلهة. وقد سيطرت هذه المعابد وأبراجها المتدرجة، على المدن الممتدة فوق منحدرات التلال وسفوحها.

في البدء شيدت كل مدينة حول المعبد، وحول مقر الآلهة الراعية الفاخر هذا، حيث كان يعيش الملوك الكهنة، وقد أحاطت بهم هالة سلطانهم اللادنيوية، شيدت القصور وأقيمت البيوت والأكواخ داخل أسوار المدينة المرتفعة، وهيمن الملوك على المدن والأصقاع المجاورة، كما هيمنت الآلهة على المؤمنين، بوصفهم ممثلين للآلهة، مثلهم في ذلك مثل الوكلاء الذين تنمو مواردهم مما يقدمه المؤمنون من أضحيات وهبات، إذ تقضي عبادة الآلهة: ان من حق الملوك وكهنتهم أن يقبلوا، برضا، الثيران والماعز والفطائر بوصفها عطايا منذورة للآلهة يأكلها هؤلاء الملوك والكهنة بدلاً عنها.

رأس امرأة من أورك، نحو
٣٢٠٠-٣٠٠٠ ق.م
اشتهر باسم: امرأة الورقاء، وهو مصنوع
من المرمر الأبيض،
متحف العراق، بغداد

مسلة أورنامو ملك أور،
متحف فيلادلفيا

ارتبطت مكانة الملوك ــ الكهنة، في البدء، بما كانت تتمتع به آلهتهم من اعتبار، ولكن سرعان ما توقفت شهرة الآلهة وسمعتها على سلطان الملوك ونفوذهم.

فأصبحت مناطق نفوذها وأسماؤها سريعة في تقلبها وتحولها: إذا ما شرع أحد الملوك في محاربة ملك آخر وانتصر عليه استولى المنتصر على الإله المهزوم وكأنه غنيمة من غنائم الحرب ليضيف قوة الإله المهزوم إلى سلطان آلهته، فيفوز، من ثم، بالهيبة والشهرة، ومع ذلك فإن إرادة الملوك السومريين المطلقة، وقحتهم حيال آلهة المقهورين، لم تذهب إلى حد المساس بأسس الإيمان الشعبي وأصوله، إذ كانوا يخشون تعريض النظام القائم للخطر، ويتورعون عن تبديل القوانين الأخلاقية المرعية التي نادى بها السلاطين بوصفها وصايا ونواه إلهية تنسجم والأعراف والتقاليد المرعية الراسخة عميقاً في وجدان الشعب.

قدح جصي من مدينة أوروك، نحو ٣٢٠٠-٣٠٠٠ق.م، وعليه نرى الغلال والماشية وفاكهة التربة، تقدم إلى إلاهة الخصب، متحف العراق، بغداد.

وبعد ان استوطن السومريون في منطقة بلاد الرافدين تشكلت الطبقة الاجتماعية في أوساط السكان، تلك الطبقة الشبيهة، في جوهرها، بالطبقية التي كانت تتشكل في كافة أصقاع العالم، بانتقال الأسر والقبائل والعشائر من حياة البداوة والترحال إلى الحياة الحضرية والاستقرار، فطرأ تحسن على أنماط المعيشة بفضل اكتشافاتهم وابتكاراتهم الناجعة وجهودهم الدؤوبة المضنية. وغدا رؤساء القبائل أنبياء (بمعنى أنهم لسان حال الآلهة) وكهنةً وملوكاً، يستمدون سلطانهم بوصفهم وسطاء بين القوى الدنيوية واللادنيوية. قد يحدث أحياناً أن يحاط هؤلاء الملوك، في حياتهم، بمظاهر التكريم والتبجيل، كما الآلهة، من خلال مراسيم وضعوها هم أنفسهم ذلك أنهم قد استخدموا بحكمة وسداد رأي، مزاياهم وامتيازاتهم لما فيه خير ورفاهية من يثقون بهم من الرجال والنساء.

وحري أن يعزى تعاظم التقدم ورغد العيش إلى أفعال هؤلاء الملوك، خاصة وإن حياة أسلافهم البائسة، التي انتقلت من جيل إلى جيل، ما تزال راسخة في ذاكرة الأفراد الذين كانوا ينعمون، آنئذ، بالرخاء. إن حكمة الكهنة ــ الملوك جعلت من شعب سومر ما كان عليه في حاضره، ومكانته تلك دليل قاطع على عدالة امتيازات الملوك في السيادة وفي إدارة دفة البلاد باسم الآلهة التي يمثلونها على الأرض والتي يجسدونها أحياناً. يرى سكان المدن والأرياف في أوامر الملك العدل بعينه والخير بأحلى صوره، وإذا ما تكشفت مساوئ هذه الأفعال، فالخطأ في ذلك لا يعزى إليه وإنما إلى خطأ ارتكبته الآلهة أو إلى تعكرٍ في مزاجها، فيسعى الشعب جاهداً إلى تهدئتها بالأضحيات وكسب ودها بالصلوات. كان السكان في مدن سومر موزعين إلى ثلاث طبقات: تأتي في المقام الأول طبقة الأمولو المؤلفة من مستشاري الملك المباشرين الذين يتولون إدارة المدينة وتسيير شؤونها، ومن الكهنة والمحاربين الذين يحافظون على سلطة الملك ويدعمونها في حال تمكنه من تكريس نفسه كلياً للسلطة الروحية، فيحمونه ويدرؤون عنه غارات الملوك الأجانب. يلي هذه الطبقة طبقة الموشكينو MUSHKENU

، تتألف من النجار والصناع وملاك الأراضي المستقلين. إن المنتسبين إلى هذه الطبقة أحرار بالطبع لكن عليهم الامتثال والخضوع لطبقة الأمولو. أما الطبقة الثالثة فتتألف من الرجال والنساء غير الأحرار، وكان هؤلاء إما ممن بيعوا في سوق النخاسة أو من أسرى الحرب أو ممن ولدوا في ظل سيدهم.

كان هدف الحياة وغايتها عند السومريين السعادة والرخاء، فسعوا إلى الثراء واجتهدوا كل الاجتهاد في تحسين معيشتهم والتمتع بحياتهم، إذ نلاحظ بوضوح، من خلال أعمالهم الفنية التي وصلت إليها، ما بلغته أنماط حياتهم، عبر العصور، من رقي وتهذيب. في البدء، لبس الرجال من المآزر أبسطها ولكن سرعان ما غطوا القسم الأعلى من أجسامهم بأفخر الأقمشة الصوفية والكتانية ذات الوبر، وارتدت النساء فساتين ذات ثنيات تسدل من الأكتاف، وتزين معاصمهن الأساور ونحورهن القلائد وأصابعهن الخواتم وآذانهن الأقراط، وكن يخضبن أظافرهن ويعتنين بها، لكنهن لا يمارسن وأزواجهن شيئاً من الأعمال اليدوية.

كانوا مواطنين أحراراً، وأسياداً وسيدات للعبيد الذين كانوا يلبسون أوضع المآزر وأبسطها ويعتنون ببيوت الأثرياء ويحرسون الماشية ويكرسون جل أوقاتهم للعمل في الحقول، وقد أتاحت أكداس الغلال المودعة في المستودعات للسومريين ممارسة التجارة بفائض إنتاجهم.

لم يقتصر السومريون، في أعمالهم التجارية، على مبادلة منتجاتهم الزراعية ببضائع الشعوب والأجناس القريبة والبعيدة فحسب، بل كانوا، أيضاً، من أوائل التجار في التاريخ. كانوا على دراية «بالحركة اليومية» للبضائع إذ دونوها كتابة، كما ساعدوا على تطوير ورشات العمل لجني ما في مهارة صناعهم من فوائد، فأصبح النساجون والخزافون والحدادون وصانعو العجلات والسفن والسلال والأوسمة (الميداليات) والنحاتون على الحجر من المنتفعين، بالوراثة، بالأراضي الممنوحة من الملك. فكان على أبناء الصناع، للاحتفاظ بمناطق النفوذ هذه، تعلم حرفة الآباء لكي يزيدوا في ملكياتهم الخاصة ان هم اتقنوا فنهم.

أقام سكان المدن السومرية داخل جدران المدينة التي بلغ الازدحام فيها حداً دفع أحد المواطنين إلى بث هذه الشكوى، التي نفهمها نحن اليوم تمام الفهم، وقد نقشت على بلاطة من الحجر، مازالت سليمة على الرغم من مرور آلاف السنين، بخصوص: «المدينة التي يتردد فيها صدى صخب الناس وضوضائهم».

أما الفقراء، فكانوا يسكنون في أكواخ ذات أسقف منبسطة تستخدم أيضاً حظائر للماعز وزرائب للخنازير. أما بيوت الأغنياء فقد كانت فسيحة رحبة ذات أفنية داخلية ظليلة يدل أثاثها وما تتزين به النسوة من حلي وجواهر، على مقام صاحب الدار ومبلغ ثرائه.

وغدت تربية الأطفال، في المجتمعات الحضرية، التي كانت في القبيلة والقرية البدائيتين وقفاً على الأمهات، من مهام الآباء الذين يسعون ويجتهدون لكي يتلقى أبناؤهم العلم ويتسنى لهم مواكبة الآباء في مهنتهم. فكانوا يرسلون أطفالهم إلى المدارس لكي يتعلموا، منذ سني حداثتهم، الخط المسماري، الاختراع الأعظم لشعب سومر، والحساب، لتأهيلهم، قدر الإمكان، لممارسة مهنة التجارة التي تعد من أكثر المهن ربحاً. أما ذلك الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة فسوف يجد نفسه معوقاً وستحول دون تقدمه صعوبات جمة، إذ كان لابد من تدوين كل إجراءات البيع والشراء وكل العقود والتبرعات خطياً، والتصديق عليها وختمها لتكون صحيحة مقبولة.

نظّمت القوانين والمحظورات العلاقات بين الناس، ومن ضمنها الأخلاق. وهكذا فإن الزواج يتم عقده بشراء الرجل للمرأة، وكما هو الحال في كل شراء، فإن الزواج يحميه عقد مبرم بين الطرفين. وقد عد الزواج الأحادي، في كافة المدن السومرية، أساس الأسرة. ومع ذلك فليس من المعيب الشائن أن يكون للزوج امرأة أخرى غير زوجه الشرعية أو أن يكون له علاقات جنسية مع «نساء المعبد» وبخاصة الخبيرات منهن اللائي يشكلن الفئة المحترفة غير العادية، كان البسطاء من رجال سومر، الذين يؤثرون إطلاق عذرهم وحلق شواربهم، يعدون

الزواج صفقة رابحة. صحيح ان الواجب يدعوهم إلى تقديم مبلغ من الفضة أو البضاعة القابلة للتداول والمقايضة عند الخطبة إلا ان هذا الثمن يؤكد طيب نوايا الخطيب وصدق رغبته في الزواج بخطيبته في وقت يتفق عليه، مسبقاً، مع ذويها. ولا تذهب هذه النفقة هباء ذلك لأنها ستصبح، يوم الزفاف، ملكاً للعروس التي تضمها إلى أثاث المنزل على شكل مهر إضافي. ولا يفقد الخطيب عرابينه إلا في حال فسخه للعقد وتخليه عن وعوده. وليس من المعيب الشائن أيضاً أن تسكن الخطيبة، قبل زواج أبرمته المؤسسة «بتحرير زفافي» في منزل والد زوجها أو منزل زوج المستقبل وتشارك خطيبها مضجع الزفاف. ثم ان ما تعاهد عليه الطرفان يبقى قائماً، فإذا تخلت الخطيبة، من جانبها، عن التزامها فعلى الأب أو أكبر الأخوة في الأسرة أن يرد للخطيب، على شكل تعويضات، ضعف ما كان قد قدمه.

على الرجل الذي يغوي إحدى الفتيات أن يتخذها زوجة له، أما إذا كان متزوجاً فعليه أن يدفع لأبيها أو لأخيها الأكبر، تعويضاً مقابل «انتزاع براءتها» لا يقصد بالبراءة في سومر، العذرة أو البكارة لأن العادة تقضي ان تضحي الفتيات ببكارتهن في معبد إله المدينة. وهل للزواج أن يحظى بموافقة الملوك ـ الكهنة ومساعديهم، ان لم يطهر العروس ويقدسها، قبل الزواج، اتحاد جنسي مع ممثلي الآلهة في الأرض؟ إن دم العذارى قربان تستمرئه الآلهة، ومن الضروري أن يسكب هذا الدم ويراق أمام المذابح أو تحتها إذ يشكل قسطاً من مراسيم العبادة. كان الاتحاد الجنسي مع ممثلي الآلهة مدرسة للحب. وكان الآلهة يعلّمون النساء فن الإحساس بالمتعة ومنحها، تلك المتعة التي يجب أن تتوفر في كل زواج يتطلع إلى السعادة، كما يجب أن يتبدد، في حضرة الكهنة، كل حياء عذراوي، إنهم التجسيد الحي والمقدس للجنس المذكر، وكيلا تساور النسوة الشكوك، أياً كانت، حول ذلك، كانت عشتار تظهر على شكل إلاهة ملتحية مزودة بعضوي الذكورة والأنوثة معاً. ويدل نهداها العاريان، المنذوران للمص والرضاعة، على

أنوثتها. غير أن عشتار كانت رجلاً أيضاً ولحيتها لم تكن الدليل الوحيد الذي يشهد على ذلك.

وتحولت عشتار، من كافة وجوهها، لتصبح إلاهة الرغبات المتناقضة المشبعة. صحيح أنها استمرت الإهة راعية للزواج إلا أنها أبت وحرمت نفسها كل رابطة زوجية، و لم يكن، لاتحادها بتموز وحدها، أن يشبع جموح عشقها المتوقد. وعليه فقد كانت الكائن المؤنث الوحيد الذي أباح له رجال سومر حرية جنسية مطلقة. ففي ذاكرة الرجال والنساء كانت عشتار تعيش ضروباً لا حصر لها من مغامرات العشق بوصفها تمثل بديلاً لهؤلاء النسوة من البشر اللائي يترتب عليهن الامتناع عن كل المغامرات العاطفية خارج بيت الزوجية. وبما ان عشتار لم تبرم أي زواج و لم ترتبط، من ثم، بأي عقد، فإن لها الحق في أن تخون كل الرجال الذين واقعوها.

لا نجد بين قوانين سومر الأخلاقية قانوناً واحداً ينص على معاقبة الرجل في حالة خيانته لزوجه، في حين تتعرض الزوجات لعقوبة الموت ان هن جرِّمن زانيات، رغم تضمين «صك الزفاف» تعويض الزوج المخدوع، وللزوج أن يطلق زوجه العاقر، دون اعتبار ما، إذ يكفيه ان يعبر عن أمنيته تلك خطياً في وثيقة الطلاق.

وإذا ما رغبت المرأة الطالق في العودة إلى بيت أهلها فلها أن تسترد بائنتها وما دفعه الزوج إبان فترة الخطوبة، أما إذا آثرت البقاء في منزل زوجها للزوج حق الاقتران بامرأة ثانية تلتزم، حقاً، بغسل أقدام الزوجة الأولى وحمل مقعدها إلى المعبد.

لم تكن عشتار، بوصفها إلاهة الحب الجسدي، حامية للزواج فحسب، بل كانت ترعى أيضاً «نساء المعبد» اللواتي أطلق عليهن الإغريق، لاحقاً، إماء المعبد، وقد شكلت كاهنات الحب هؤلاء طبقة أيضاً. فكان للانتو، التي احتلت مكانة المرأة الشرعية الأولى للإله، ومن ثم، للملك ــ الكاهن، المقام

الأعلى في حرم المعبد. فمن الواجب ان تكون طاهرة الذيل والسلوك ولا غبار على أخلاقها. وقد ترتب على ذلك ان تُمنع، منعاً باتاً، من دخول إحدى الخمارات كيلا تدنس، بتأثير وسلطان المشروبات المسكرة، طهرها الكهنوتي، وإذا ما نمي إلى الملك ارتكابها لمعصية مخالفة للحشمة والآداب المرعية حكم عليها بالموت حرقاً.

وكان على السالمي والزيكو والقاديشتو، اللواتي يحتللن المرتبة الثانية بعد الانتو، ان يخضعن للكهنة ويطعنهم، كما أن من واجبهن ممارسة الحب مع جميع الرجال الذين يدفعون، في سبيل ذلك، الجزية للمعبد، إذ ليس بالشائن ولا بالمعيب، إطلاقاً، ان تكرس الفتاة نفسها «امرأة للمعبد» فللنساء من السالمي، عند الآلهة، المقام الثاني، انهن نساء الآلهة في المقام الثاني، واقترانهن الجسدي برجال مجهولين يقابل بالتبجيل والاحترام بوصفه زواجاً سرياً روحانيا، ويحمل الأطفال المولودون من هذه العلاقات السرية أسماء أمهاتهم، وهم ممن تفضل طبقة الأمولو تبنيهم.

تلتزم النساء من السالمي بما نذرن إليه أنفسهن إلى أجل مسمى، ومـا ان يبلغن في فن الحب حد الكمال ويحصلن بائنتهن ممن عاشرن من الرجال المجهولين، حتى يسعى إليهن الرجال يلتمسون الزواج بهن، ومع ذلك، فقد ترتب على كل واحدة منهن، إذ يحظر عليهن الإنجاب بوصفهن «نساء للآلهة من المقام الثاني»، ان تصطحب معها، إضافة إلى بائنتها، أمة تستخدم كامرأة ثانية، على أن تكون صحيحة الجسم ضامنة لإنجاب ما يرغبه زوجها من الأطفال، ولا يحول دون زواج النساء من الزيكو والقاديشتو مانع ما، بل كان من حقهن أن ينجبن ماشئن من الأطفال، إلا ان ما يلدنه من الأطفال، إبان خدمتهن في المعبد، يتبناهم الكهنة أو يعرضون للبيع عبيداً، وما كان، في بادئ الأمر، خدمة للمعبد غدا، مع الزمن، احترافاً لدعارة لم تقتصر على النساء فحسب، بل مارسها الرجال أيضاً.

إن فقرة من ملحمة جلجامش لتؤكـد ان الجنسية المثلية (اللـواط) لم تكـن ممنوعة آنذاك بل كانت، على العكس مـن ذلـك، مألوفـة وشـائعة، إذ نقـرأ فيهـا دعوة كاهنة الحب (أمة المعبد) لأنكيدو الأسطوري، ابن الطبيعة الذي كان نصفه إنساناً ونصفه الآخر حيوانـاً، تستحثه للمضي إلى أهـل أوروك: أولئـك الذيـن يشدون كواهلهم بفاخر الأحزمة، ويزهون، دوماً، بحلل الاحتفـال، ففـي أوروك «يحتفل الناس، في كل يوم، بعيـد حيث يهـب الغلمـاء المخنثـون الفـرح.. المتعـة حلت بهم وباللذة يسرفون».

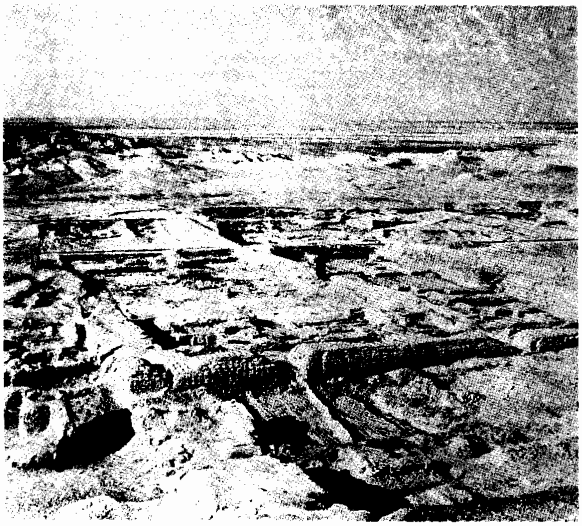

اطلال اوروك ـ اولى مدائن سومر القديمة

يتألف أبطال ملحمـة جلجـامش(*)، هـذه المجموعـة الشـعرية مـن الأسـاطير السـومرية، مـن الآلهـة وبـني البشـر. ولابـد مـن أن يسـمح لنـا تحليلنـا لأفعـالهم

(*) ملحمة جلجامش: جاءت بعض الفقرات التي اقتبسها المؤلف من الملحمة مقتضبة أحياناً، فـآثرت العودة إلى الملحمة بنصها الكامل (ترجمـة الأسـتاذ فـراس السـواح) وكتـاب قصـــة الحضـــارة لـ(ديورانت) ـ المترجم ـ.

وبطولاتهم بفهم أعمق لعالم السومريين الروحي وأخلاقهم المألوفة الشائعة في المدائن إبان تأليف هذه الملحمة.

كان بطل الملحمة الرئيس ملكاً على مدينة أوروك، وقد جاءت خصائصه في مطلع الملحمة على النحو التالي:

هو الذي رأى كل شيء حتى تخوم الدنيا
هو الذي كابد كل شيء وعرف كل شيء
واطّلع على جميع الأسرار وكشف أموراً خبيئة.
واخترق ستار الحكمة الذي يحجب كل شيء.

....

وجاء بأخبار أيام ما قبل الطوفان
وسار في طريق بعيد طويل
وارتاد أصقاع الأرض بحثاً عن الحياة
ثلثاه إله وثلثه آدمي

كان مرآه يزرع الرعب في قلوب الرجال.. فما لهيئة جسمه من نظير، وليس من ملك مثله في كل مكان. كان طويل القامة ضخم الجسم مفتول العضلات جميلاً يفتن الناس بجماله.. لكن توقاً دفيناً سيطر عليه: ان يرى مدينته أوروك «تتلألأ بأبهى حلة بين المدائن» فسخر الرجال كافة ليكدوا ويجهدوا في «بناء الأسوار ليل نهار»، لا يترك ابناً لأبيه ولا بكراً لحبيبها ولا ابنة لمحارب أو صفية لنبيل، إنه الراعي والظالم. فتشكوه الفتيات والزوجات إلى آلهة السماء ويستجيب آنو، الجلد اللامتغير، إليهن، ويأمر آرورو، الإلاهة خالقة الأشكال، ان تخلق كائناً حياً نظيراً لجلجامش ليدخل في عراك دائم ويتغلب عليه، حتى تستعيد حياة العشق المضطربة في أوروك سيرتها الآمنة. فسارعت آرورو متملية في دخيلتها صورة آنو: غسلت يديها وجمعت قبضة من طين.

رأس أحد الآلهة في لاغاش، نحو ٢٨٠٠ ق.م، متحف اللوفر، باريس.

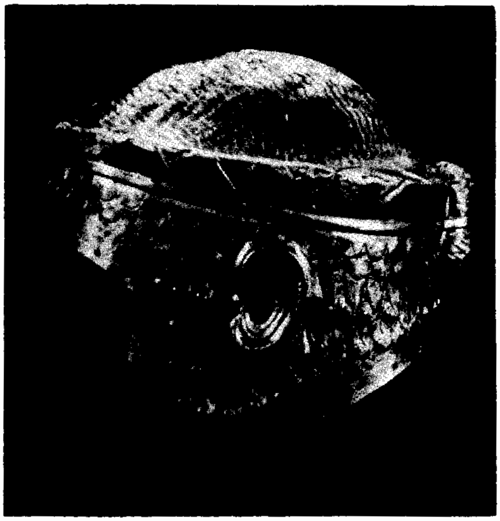

خوذة ذهبية للملك ميسكالامدوك، حاكم أور، نحو ٢٦٠٠ق.م، المتحف العراقي، بغداد

ومن رضاب الأم الإلهي خرج أنكيدو لا يشبه في شيء رجال مردوخ المجبولين بعظم الأرض، ودم كنجو الشيطان الفاسد، نصفه إنسان ونصفه الآخر حيوان، يكسو الشعر جسده وشعر رأسه كما المرأة، إنه رجل له بأس الخنزير وسرعة الطير ولا يعبأ بصحبة الآدميين، بل يعتزلهم ويعيش ناعماً مع الحيوان، يرعى الكلأ مع الغزلان ويرد الماء مع الماشية بقلب جذلان، ويطلب النصيحة عند ملك أوروك صياد حاول عبثاً اقتناص أنكيدو بشباكه وفخاخه. فيأتي جلجامش، القوي المهيب الحكيم، بامرأة رائعة الجمال من معبد عشتار المقدس ويأمر الصياد: ألا فامض أيها الصياد وخذ معك امرأة حظية ودعها تنضو ثيابها عندما يرد الماء لسقي الحيوان، لتكشف عن مفاتنها، فانه لمقاربها ان رآها وستنفضُّ من حوله الوحوش.. ومضى الصياد مع كاهنة المعبد يقصدان مورد الماء... وما أن يرى أنكيدو حتى يصيح:

هاهو ذا أيتها المرأة
عري نهديك
أسفري عن مفاتنك
حتى ينال كفايته منك
لا تحجمي
حركي فيه الرغبة، علميه وظيفة المرأة
متى رآك انجذب إليك
وافتحي ثوبك، حتى يرقد عليك
فتنكره طرائد البرية
وسيلتصق صدره بصدرك

....

وحلت المرأة أزرارها
وعرت صدرها حتى ينال كفايته منها، ولم تحجم وأخذت شهوته،

وفتحت ثوبها لكي يرقد عليها وأثارت نشوته كما تفعل النساء
والتصق صدره بصدرها فنسي أنكيدو أين ولد.

بعد ستة أيام وسبع ليال عب فيها السعادة عباً وروى نفسه من مفاتنها يمم وجهه شطر رفاقه الحيوان يطلب صحبتها، لكنها ولت هاربة مرتدة عنه، فعاد إلى كاهنة الحب، بعد أن تعثرت قدماه وخارت قواه، خائباً مستسلماً لمن استولت عليه حواسه، فدعته تلك التي ملكت منه الحواس إلى تغيير حياته: «كيف يطيب لك العيش بين وحوش البرية؟ تعال آخذك إلى أوروك، المدينة ذات الأسوار..
وسوف أطلعك، أنت يا أنكيدو، يامن تجهل الحياة، على جلجامش... الرائع الرجولة والعظيم البأس... المتعة ساكنة فيه والشهوة تزين كامل جسمه...»

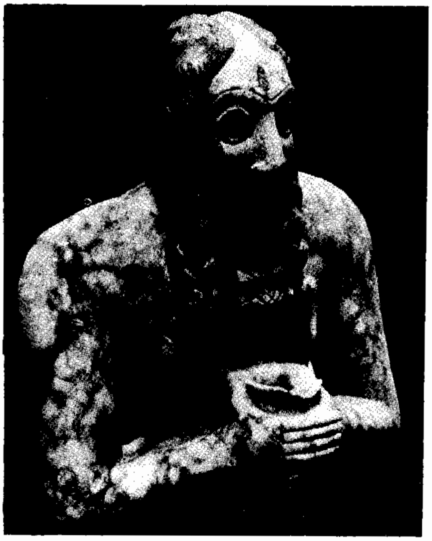

أحد كهنة معبد تل أسمر، بعيد ٢٤٠٠ق.م
جامعة شيكاغو

وبعد ان قدمت كاهنة الحب الخبز لأنكيدو قائلة:

«كل الخبز ياأنكيدو.
إنه عماد الحياة»

شجعته على تناول الشراب: «خذ الشراب القوي فهو عادة البلاد».

طاب للآدمي - الحيوان المضي إلى أوروك، لم يكن مبغاه السلام، فقد عقد العزم على تحريض جلجامش للدخول معه في صراع دام، وعندما حل بأوروك ذات الأسواق التقى بجلجامش.. وسد على سيد البلاد البوابة بقدمه، ولكن

جلجامش الجبار تغلب عليه بقوته ووداده معاً، ويغدو البطلان صديقين حميمين.. وفي خلوتهما كان جلجامش يقدم لصديقه الزبدة في إناء من عقيق والعسل في إناء من لازورد، ويتسامران إلى أن يطلع النهار ويظهر الإله شمش، كان الصديقان الآدمي ـ الإله والآدمي ـ الحيوان يسيران جنباً إلى جنب يحميان أوروك من عيلام ويعودان ظافرين بعد أن يقوما بأجل الأعمال.. وتغلبا معاً على حمبالا (هواوا ـ حمبابا)، حارس الغابة، «أمام جبل الأرز مرتع الآلهة».

وبعد أن يرتدي جلجامش حلته ويزين نفسه بالشارة الملكية ليحتفل وصديقه أنكيدو بانتصارهما ترنو إليه عشتار العظيمة وقد استولت عليها الشهوة لمرأى الرائع الرجولة وتتوسل إليه قائلة:

«تعال يا جلجامش وكن عريسي
هبني ثمارك هدية
كن زوجاً لي وأنا زوجاً لك
سآمر لك بعربة من لازورد وذهب..»

لكن جلجامش لم يستسلم لإغوائها، ولم يقع في شراك سحرها ومعسول حديثها، ولم يشأ ان يعاني مصير تموز إله النماء الذي تبكيه كل عام، إذ يمضي إلى الجحيم عند حلول الخريف، فما صانت له وداً، كعهدها إذ كان اسمها اينانا، بل كانت، في فترة بعاده عنها، تلهو وتعربد مع رجال آخرين قبل حلول الربيع إذ تمضي باحثة عنه في الجحيم لتقترن به من جديد، زد على ذلك ما جنته على جميع عشاقها وما جرته عليهم من وبال. فهذا شاب جميل يزهو بفتوته حولته الالاهة المتهتكة إلى عصفور وهاهو الفائق القوة ايشولاتو بستاني أبيها آنو سيد السماء مسخته، بعد ان سحرته، إلى حيوان لا حول له ولا قوة. فناداها جلجامش قائلاً:

«إن رغبت في حبي الآن ألن يصيبني ما أصاب هؤلاء؟» وبرفضه هذا أثار ثائرتها ونال من كبريائها وغرورها: كيف لرجل مثله أن يرفض طلب

إلاهة مثل عشتار، تلك التي «تفتح أرحام جميع النساء»؟ فعزمت على أن تثأر لجميع النساء من الرجل الذي رفض سؤالها، وينعم بالسعادة مع صديقه الحميم أنكيدو، وانطلقت إلى حضرة آنو تتوسل إليه أن يخلق ثوراً تهلك به جلجامش.. وفي البدء رفض آنو طلبها و لم يعرها أذاناً مصغية ولكي تنال مرادها وينصاع آنو موافقاً على طلبها في أن يخلق هذا الوحش المروع الذي يحصد بخواره الناري أرواح مئات الرجال ويتلف باجتياحه مدينة أوروك، كان لابد لعشتار، سيدة غرائز الرجال والنساء، من أن تتوعد بأنها سوف تعطل كل ما في الكون من غرائز الحب والشهوة حتى يهلك كل شيء حي. ولكن جلجامش يجهز على هذا الوحش بمعونة أنكيدو ويقتله. فتصب عشتار على البطل لعنتها وجام غضبها، فيستشيط أنكيدو غضباً وينتزع فخذ الثور الأيمن(*) ويقذفه في وجهها، وانتقاماً لهذا التحدي ورغبة منها في قطع أواصر صداقة حميمة تقض مضجعها أصابت أنكيدو بداء عضال، وبعد ان لبث جلجامش جانب جثة صديقه، يبكي الذي كان أحب إليه من النساء، ستة أيام وسبع ليال، أراد أن يكشف ما خفي من سر الموت. إلى جده الأكبر أوتنابشتيم الخالد انطلق. فهو وحده من يعرف سر الموت والحياة.

وبعد عناء سفر التقى جلجامش بالعجوز الطيب رجل شوريباك الذي بنى، في الزمن الغابر، امتثالاً لنصيحة إيا إله الحكمة، سفينة فسيحة إنقاذاً لحياته وحياة من كان معه على متنها أثناء الطوفان، هذا الإعصار الذي أرسلته الآلهة على البلاد لتهلك به بني البشر.

وروى أوتنابشتيم لجلجامش وقص عليه قصة إنقاذه لحياته وحياة من صعد فلكه، وكيف أنعمت عليه الآلهة بالخلود مع زوجه رغبة منها في

(*) في النص الفرنسي المترجم يقذف أنكيدو الإلاهة بأعضاء الثور التناسلية ــ المترجم. وهذا غير موجود في النصوص الأكاديمية.

استمرار الجنس البشري وخلوده. وغب سكون العاصفة وانحسار الطوفان رمى ببصره إلى المياه «كان السكون مطبقاً وآل بنو البشر إلى طين» لم ينج منهم إلا من كان على متن السفينة.

جلجامش يخنق أسداً، القرن الثامن ق.م، في زمن هذا النحت البارز غدا جلجامش بطلاً أسطورياً، في حين إن جلجامش كان شخصية حقيقية حكمت أوروك في الألف الثالثة ق.م، متحف اللوفر، باريس.

بعد أن أخفق جلجامش في ما اختبر به يشفق عليه أوتنابشتيم ويمنحه فرصة أخرى، بأن قدم إليه نبتة تجدد ثمارها شباب من يأكلها.. يسعد جلجامش بما غنم ويقفل عائداً إلى مدينته، لكنه يقف في طريقه ليستحم، وبينما هو يفعل ذلك، تنسل الأفعى وتسرق ما جناه بعد طول عناء. لقد قضي الأمر.. فلا مناص من موت الإنسان. ترى ما الذي ينتظر الإنسان في موته؟ ويتوسل إلى الآلهة ان ترد الحياة إلى أنكيدو هنيهات معدودات... ويظهر أنكيدو.. ويجيب على أسئلة جلجامش الملحاح حول الموت والموتى: «لا أستطيع أن أجيبك لأني لو فتحت الأرض أمامك، ولو أخبرتك بما رأيت لقضيت من شدة الهول ولغشي عليك».

حسب جلجامش، وقد سمع أخبار أهوال الجحيم أثناء ترحاله إلى أوتنابشتيم، أنه عالم بالموت خبير بحقيقته، فيقدم النصح لصديقه أنكيدو قائلاً: «لا تحدث جلبة تصّاعد إلى أرض الأحياء، لا تقبل المرأة التي تحب، ولا تضرب المرأة التي تكره، لا تقبل الطفل الذي تحب ولا تضرب الطفل الذي لا تحب...» ليست مخافة الموت بأسوأ الأشياء، إنما الأشد هولاً: «ان لا تجد روح الميت حارساً يرعاها». وقد قيل: «ويل لمن تركت جثته في العراء، فالروح عنه تائهة لا يهدأ لها بال وليس لسكينتها من قرار، ويل لميت ما جلب له ذووه طعاماً، يقتات بالفتات وما تركه الآخرون في قدورهم من نتن الفضلات وما رموا به للطريق».

أما الالاهة سابيتو التي امتثل جلجامش أمامها يشكوها بلواه قائلاً: «ليتني لا رأى الموت الذي أخشاه»، فقد خففت من روعه قائلة: «الحياة الخالدة التي إليها تسعى لن تجدها، والآلهة إذ خلقت الإنسان أقامت الموت في جبلته وجعلت حياته حبيسة أيديها». ثم أردفت تنصحه الحياة التي يجب أن يعيش: «والحال هذه ياجلجامش، بالطعام والشراب املأ معدتك. ابتهج ليلك ونهارك. اجعل كل يوم من أيامك عيداً سعيداً. بالناي والقيثارة اطرب نفسك، وبالرقص انعش فؤادك ليل نهار. ارتد من الثياب انظفها، اغسل

رأسك وضمخ شعرك وحمم بدنك بأعذب المياه. انظر بفرح إلى الصغار الممسكين بيدك، وتمتع بين أحضان المرأة».

ترميم قيثارة لها رأس ثور وجدت في أور، نحو ٢٦٠٠ ق.م
ـ المتحف البريطاني، لندن ـ

وانتشرت، بفضل ملحمة جلجامش، في بلاد سومر، انتشار النار في الهشيم هذه الدعوة للتمتع بالحياة مخافة موت محدق أثر في أخلاق النساء والرجال معاً، وبلغ بهم حد الاحتفاظ بورع ديني مقيم نحو عشتار.

ومع ذلك فقد ندرت فترات الأمن والسلام في منطقة بلاد الرافدين حيث كان الرجال ينعمون «بين أحضان النساء» فراحت في الأفق، من كل حدب وصوب، تتوالى جحافل الغزاة المحاربين وقد اجتذبتهم بلاد سومر الخصيبة، فيجتاحون حقولها وبساتينها ويذبحون ماشيتها وينهبون مدنها ويستولون عليها، فإن طابت لهم عادات السكان في تلك الأصقاع المغلوبة استوطنوها وعاشوا كما يعيش أهلها.

لم يكن يعكر صفو أمن السومريين إلا القبائل البدائية الزاحفة من الجبال والصحارى، فقد اعتاد ملوك المدائن على الاقتتال دائماً وأبداً، كما ان رهان هذه الحروب وشرورها كاد أن يكون، على الدوام، هو نفسه: الرغبة في تعاظم الملك والسلطان.

في الوقت الذي كان الملوك يقتتلون في سومر وتتنازعهم الحروب الطاحنة، (إذ نستطيع أن نكتشف، في أيامنا هذه، مواضع قرابة خمسمائة مدينة دمرتها هذه النزاعات وتنتظر من يكشف النقاب عنها)، ارتقت قبائل من البدو الساميين بأكاد الواقعة في الشمال الغربي من سومر لتصبح مركزاً لمملكتهم.

رأس من البرونز،
لعله لصارغون الأول،
نحو ٢٣٥٠-٢١٥٠ق.م،
متحف العراق، بغداد

وها هو سرجون (أو صارغون)، أشهر ملوك أكاد، بعد استيلائه على بلاد الرافدين يحدثنا عن نفسه قائلاً: «أنا الملك الواسع السلطان، ملك أكاد. كانت أمي كاهنة معبد ووالدي لم أعرفه. حملت بي أمي الوضيعة الشان واخرجتني إلى العالم سراً، ووضعتني في صندوق صغير من الأسل، وأحكمت علي الغطاء بالقار وأسلمتني للنهر...». ثم أنجاه أحد سقاة الملك، ورباه في كنفه، وقد شاء قدره أن يجعل منه «سيد مناطق العالم الأربع» ويسرد قصته بنفسه مفسراً لنا سر ارتقائه الخرافي من طفل لقيط إلى مؤسس أول إمبراطورية في التاريخ، ويقص علينا قصة هيامه بالالاهة عشتار التي هامت به بدورها، فاستطاع بعونها أن يهزم ذوي «الرؤوس السود»: السومريين. ترى، هل أراد سرجون، بهذه الأسطورة،

أن يحتفي بثأر عشتار من شعب جلجامش وان يقدم نفسه بوصفه وسيلة لهذا الانتقام وأداته؟ ملك أوروك، كما نعلم، لم يستجب لإلاهة الحب الجسدي، لكن سرجون قد انصاع لمطلبها ومن ثم فقد حق له أن يكون جديراً بنعمها: لم تَفْتح له «أرحام جميع النساء» فحسب، بل فتحت له أيضاً أبواب المدائن السومرية كلها.

الثور المجنح ذو الرأس الإنساني، قصر صارغون، القرن الثامن ق.م،
كانت هذه الثيران تكتنف وتصون بوابات القصر العظيمة،
متحف اللوفر، باريس

لم تفقد أخلاق سكان سومر وعاداتهم نفوذها بزوال سلطان حكامها من ملوك أكاد. وتوزعت بلاد الرافدين، مجدداً، إلى العديد من ممالك المدن المستقلة، بل استطاعت أيضاً التغلب على ما أتى به الغزاة الجدد من عادات فظة... صحيح أن هؤلاء قد فرضوا هيمنتهم الغاشمة على البلاد لكنهم آثروا تبني ما لدى

تلك الشعوب المغلوبة من أنماط حياتية رغيدة، إلا أن طبقة جديدة من الأشراف والأعيان، أقامت وقتئذ في القصور، كانت قد حلت محل طبقة الأمولو المترفعة التي كان على طبقة الموشكينو أن تقدم لها آيات التبجيل والاحترام، ومع ذلك فقد كان بمقدور الصناع والتجار أن يمارسوا حرفهم كسابق عهدهم، وأن ينعموا باللذة باحتضان زوجاتهم ونسائهم الأخريات. فهم وإن اضطروا أحياناً أن يسكتوا على ما تسبب به أسيادهم الجدد من تعكير صفو حياتهم الزوجية ومن استغلال مقيت لنسائهم، فذاك تنازل إلزامي لا مناص منه لاضطراب ذلك العصر وعدم استقراره، أما الجوهر الأساس فقد ظل على حاله لم ينل منه تبديل ولا تغيير. لكنهم ما برحوا يملكون عبيداً يستغلونهم وثروات يستثمروها، ففي الحقول والمراعي الخصيبة، مناطق نفوذهم، مافتئت ماشيتهم ترعى ومزروعاتهم تنمو، فالسادة الجدد لا يختلفون، في شيء، عمن ساد قبلهم، فما [illegible]
الأسياد يطالبون بنصيبهم مما يجنيه الصناع والتجار، فمن أدى الجز[illegible]
وشأنه ونعم بأمنه بل ويفوز أيضاً بالمكافأة إن هو طور [illegible]
أولئك الذين يرفضون أداء ما عليهم فليس بأسوأ مما [illegible]
برحت تسير سيرتها الأولى في الدين والدنيا، لقد [illegible]
لكن دلالتها بقيت على حالها: فمازالت رموز [illegible]
الأرض كما في السماء، وفي بقاء هذه الآلهة [illegible]
الأخلاقية التي سُنّتْ باسمها، لم تتبدل إلا في جزء بسيط منها.

أعلن حمورابي الحرب على الشر المتمثل في تلك المحاولات المناهضة للنظام القائم، وتتهدد أنماط الحياة والعادات المرعية التي تطورت على امتداد آلاف السنين: شرير ذلك الذي يعتدي على ملكية الآخرين، أو يلاحق قريبه في القضاء أو يسرقه أو يعتدي عليه أو يقتله. إن حياة الرجل الحر كما المال والثروة، فمن اخترم حياة الآخرين دفع حياته جزاء عمله، ومن ارتكب جريمة قتل فعقوبته الموت المؤكد. وإن كسر رجلٌ أعضاء رجل آخر حل به العقاب نفسه. إن

شريعة القصاص أو الأخذ بالثأر «العين بالعين والسن بالسن» كانت أساس التشريع الجزائي. ومع ذلك، لا يجوز أن يفرض هذه العقوبات المتضررون أو ذووهم، وإنما تفرضها المحاكم الملكية حصراً.

تعد السرقة المادية والاستيلاء على العبد أو الماشية جرماً مخالفاً للقانون، كما هو الحال بالنسبة لِدَين موثق، لم يلتزم المستدين بتسديده، سواء كان الدين إيجاراً أو قرض معونة. ويعد مذنباً كل من يرمي إلى غش قريبه وخيانته، وتضليله بإدعاءات كاذبة، أو الحط من قدره ومن المكانة التي يحتلها في المجتمع. إن استغلال الفقراء والضعفاء والإساءة إلى من لا حول له ولا قوة شر، لكن الجريمة العظمى تنحصر في الاعتداء على ممتلكات الملك أو المعبد أو القصر، إذ يكفي أن يختطف أحد الرجال عبداً من عبيد القصر، سواء كان هذا العبد رجلاً أو امرأة، ثم يقوده إلى خارج أبواب المدينة، لينال عقوبة الموت.

لم يكن تشريع حمورابي أساس تاريخ المجتمع والقانون فحسب، بل كان أيضاً أساس سلوك الإنسانية الأخلاقي عبر آلاف السنين، فقد أدرك رجل الدولة حمورابي، بعظيم حكمته أن التصريح عن وفاقه مع القوى الإلهية يمنح سلطته الدنيوية الزمنية بهاء فوق طبيعي، فنسب نفسه إلى مردوخ الإله راعي بابل وحاميها، بوصفه «الملهم والمحرض والمؤسس» لتشريعه، وإلى شمش، إله الشمس، بصفته «الحامي للعدالة»، كما أعلن عن تبجيله لآنو وبل إلهي السماء والأرض، ولم يغفل في أحكامه، البتة، أن يقدم نفسه بصفته «الوكيل» و«الخادم» أو «الحارس» لقوى السماء، ثم يُعرِّف بنفسه بصفته «الأب الحق لشعبه» فكان، كما الأب، يتولى قيادة الأسر ويتصرف بشؤونها.

منح حمورابي الأزواج، رجالاً ونساء، حماية القانون، لإدراكه ان الزواج أساس العائلة وعمادها، وبصفة أكثر شمولاً، أساس الدولة، فحظر على الزوج الانفصال عن زوجه المريضة ومنحها حق العودة إلى بيت أبيها، «..... فإن كانت المرأة شريفة لا يعيبها شيء واعتاد زوجها الخروج من المنزل جرياً وراء

المغامرات وحطٌ من قَدْرها فهي غير مذنبة». وإن أتت المرأة «بالبراهين على سوْء معاملة الزوج لها»، يعاقب الرجل بحرمانه من زوجه، وقد حافظ مثل هذا العقاب اليسير على امتياز الرجل القائم في الأخلاق السومرية، إذ كانت العقوبات بحق النساء اللواتي يعكرن صفو الحياة الزوجية بسلوك مخالف للآداب، بالغة القسوة والصرامة على الدوام: «فإذا تبين أن المرأة مذنبة، وإذا تركت منزل زوجها، وإذا اختلست مالاً، وإذا أهملت زوجها.. يلقى بها في الماء».

ومع ذلك، فإن وضع المرأة البريئة، المرأة العاقر، قد أصاب بعض التحسن: «إذا تزوج رجل من ناديتوم (كاهنة) وقدمت لزوجها أمة فأنجبت له أولاداً، فإذا عزم هذا الرجل على الزواج من الشوكيتوم (الأخت العلمانية) فلا يسمح له بذلك لأنه لا يستطيع أن يتزوج الشوكيتوم» ولا تحتل الأمة التي أنجبت أولاداً مكانة الزوج الأولى، كما نص تشريع حمورابي أيضاً على ضرورة عدم إقرار النساء بذنوبهن دون ردٍ أو دحضٍ لافتراءات الأزواج الكاذبة: «إذا اتهم رجل زوجه، ولكنها لم تضبط وهي تضاجع رجلاً آخر، تعود إلى بيتها بعد أن تؤدي اليمين أمام الإله».

إن الاغتصاب، وغشيان المحارم، وقتل العشير (الشريك)، واغتصاب خطيبة رجل حر، ومضاجعة زوجة الابن (الكنة) أو الأم الأرمل، تستدعي أقصى العقوبات وأشدها.

وقد قام الملك ومن يختارهم من الكهنة بتنفيذ هذه القوانين، حتى إلى ما بعد وفاة حمورابي، عندما سيطر على البلاد غزاة آخرون. لم يحاول أحد ما تتبع أصول ما تضمنه هذا التشريع من نواه ومحظورات. ترى، هل عد الفعل الجنسي بين أقرب الأقرباء وأنزل بمرتكبه أقصى العقوبات بصفته انتهاكاً لحق الملكية؟ أم أن الحكام وقضاتهم قد رأوا في مثل هذا الاتحاد الجسدي المحرم فعلاً مخالفاً للطبيعة أم أنهم، ببساطة، قد فكروا تفكيراً سليماً بضرورة منع مثل هذه التصرفات بقسوة بالغة لأنها قد تعرض للخطر ما يخيم على أفراد الأسرة الواحدة

من انسجام فتبلغ مبلغاً يهدد أمنها واستقرارها، فلابد، إذن، من ان يكبت الخوف من العقاب كل رغبة؟ وبما ان كل هذه الوصايا والأوامر والمحظورات قد سُنَّت وفق تعاليم الآلهة، وأن الأحكام قد صدرت باسمهم، فقد اشتهرت كل القوانين الأخلاقية، التي ألزمت الحياة الجنسية بحدود معينة، بأنها وحي إلهي، وعليه فإنها تشكل فحوى الإيمان وتهيمن على المفاهيم الأخلاقية.

احتفظت قوانين بلاد الرافدين الأخلاقية الأساسية بقيمتها وأهميتها عبر آلاف السنين. وبقي الطقس الإلهي على حاله أيضاً، إذ كانت الكاهنة الكبرى، بمراقبة صارمة من الملك، تؤدي وظيفتها المقدسة بوصفها زوج الإله الرمزية، فهي لا تملك حق الزواج، لكن الكاهنة الكبرى قد استطاعت، في وقت لاحق، الزواج دون أن يكون لها الحق في الإنجاب.

واستمرت إماء المعبد ينذرن أنفسهم لحب يباع ويشترى في معبد إلاهتهن الحامية فكُنَّ في نظر السكان محترفات مفيدات لا غنى عنهن، واستمرت فتيات بابل ينذرن بكارتهن في المعابد قبل أن يشرعن في علاقات غرامية أو يرتبطن برابطة زوجية. فاستمر الإيمان، الذي كان يعد بموجبه «فتح أرحام» العذارى عملاً مقدساً ينبغي إنجازه على مقربة مباشرة من إلاهة الحب الجسدي، إلى ما بعد استيلاء جميع الفاتحين الذين سيطروا على بلاد الرافدين وقاموا بتبديل الآلهة المحلية برموز إلهية أخرى، فهم وإن لم يرسلوا، بالفعل، بناتهم وأخواتهم وأفراد حاشيتهم إلى معبد عشتار لافتضاض بكارتهن في المكان الذي أعد خصيصاً لذلك، فإنهم لم يمنعوا، إلى جانب ذلك، هذه العادة الشعبية القديمة. ويروي لنا هيرودوت الذي عُدَّ أب المؤرخين: «انه في معبد عشتار، التي كان يدعوها بميليتا الشبيهة بإلاهة الحب الإغريقية أفروديت، لم يكن يتوفر للرجال النهمين للمتع الجسدية إلا إماء المعبد. فكتب يقول: كان على كل امرأة بابلية أن تذهب مرة في حياتها لتجلس بالقرب من هيكل أفروديت وتضاجع أحد الغرباء، وكان من بينهن الكثيرات اللائي يترفعن عن الاختلاط ببنات جنسهن لأنهن يتشوفن

ويتباهين بما ينعمن به من ثراء، كن يذهبن إلى المعبد في عربات مقفلة ويحيط بهن أعداد غفيرة من الخدم والحشم، أما الكثرة الغالبة منهن فكن يتبعن الطريقة التالية: كن يجلسن في غابة أفروديت المقدسة، وقد وضعن حول رؤوسهن حبالاً صغيرة (على شكل تيجان)، وبينهن كنت ترى على الدوام حشداً غفيراً من النساء بين غاديات ورائحات، وتنساب فيما بينهن ممرات مستقيمة تذهب في كل اتجاه يمر فيها الغرباء ليختار كل منهم عشيره. والمرأة منهن ان جلست جلستها تلك فلن يحق لها العودة إلى منزلها إلا إذا ألقى أحد الغرباء قطعة من النقود في حجرها وضاجعها خارج المعبد. وكان على من يلقي بقطعته الفضية أن يردد الكلمات التالية: «باسم الإلاهة ميليتا» وميليتا هذه تعني أفروديت (عشتار).. ومهما يبلغ مقدار القطعة الفضية التي يقدمها الغريب فلا يجوز للمرأة أن ترفضها أو تستخف بها، فهذا الرفض ممنوع لما لهذه القطعة من قداسة، إذ ينبغي عليها، والحال هذه، أن تذهب مع أول رجل ألقى إليها بقطعة نقوده وليس من حقها أن ترفضه أياً كان هذا الرجل. وما أن تضاجعه وتتحلل من نذرها وما ترتب عليها من واجب للإلاهة حتى تعود إلى بيتها، وقد يحاول أحدهم، لاحقاً، أن يجزل لها العطاء لينالها لكنها ترفض. ولا تمكث النساء الجميلات الحسناوات إلا بعض الوقت فما أن يأتين حتى يرجعن سريعاً إلى البيت، أما القبيحات فيمكثن في الهيكل طويلاً لعجزهن عن الوفاء بما يفرضه القانون بل إن من بينهن من ينتظرن ثلاثاً من السنين أو أربعاً...». وقد كانت هذه العادة البابلية تعود بالنفع والفائدة على المعابد التي تحولت إلى معارض وأسواق موسمية ترضي جميع الأذواق وتشبع العديد من الحاجات، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على عدم كفاية عدد الكهنة الذكور، لتعاظم أعداد الفتيات اللائي بلغن سن الزواج ممن ينبغي فض بكارتهن(*).

(*) لا نستطيع الاستنتاج إن الدعارة المقدسة كانت تغل دخلاً مالياً عالياً للمعبد لأن المقابل المدفوع من قبل الرجال كان مقابلاً رمزياً غير محدد، وقد لا يتجاوز في معظم الحالات أصغر قطعة نقطية متداولة آنذاك ـ المحرر ـ .

وكان الكهنة يؤدون واجباتهم الكهنوتية ويقومون بوظائفهم اليومية، كما التجار أو الصناع، في قاعات فسيحة مزدانة بأفخر الحلل، إذ كانوا يصنعون شراب العشق والمحبة ويبيعونه، وكانوا «خصوم الأمراض» و«نادبو الموتى» و«ومنشدو الأناشيد والترانيم للأحياء». وهم مستعدون، مقابل أجور سخية، لتفسير الأحلام والتنبؤ بمستقبل المشاريع التجارية باستخدام الطير، وغالباً ما تتكشف صحة فؤولهم وتنبواءاتهم ودقتها، ذلك لأن هؤلاء الكهنة كانوا، بطريقة أو بأخرى، على علم، إلى حد ما، بالقسم الأعظم من أسرار أولئك الملتمسين الجزوعين القلقين.

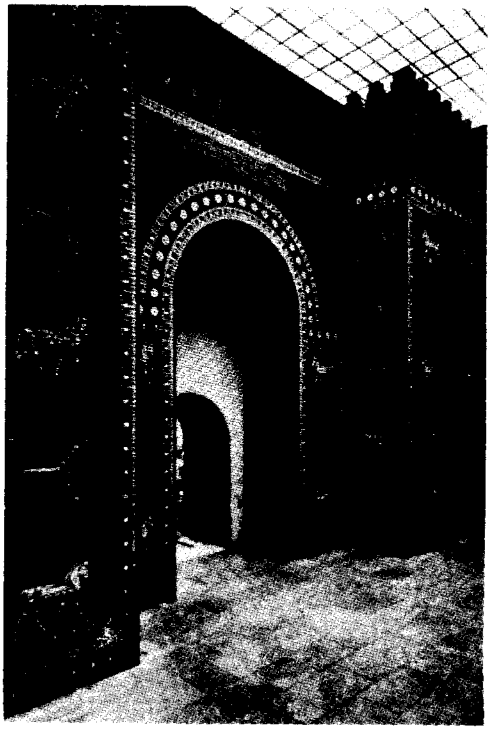

بوابة عشتار في بابل، متحف برلين

لم تقتصر موارد الكهنة على إدارة دين يتولون شؤونه، بل ساعدوا أيضاً على ازدياد التطير وتفشي الخرافة وزرع الخوف في القلوب من الشياطين الذين يناصبون الإنسان العداء، ويطاردون دون رحمة أياً كان ممن لا يخضعون للقوانين ولا يتقيدون بها، ووساطة الكهنة هي القادرة، دون غيرها، على طرد الشياطين وتضييق الخناق عليهم: «إن كل من يقتني حلقة أو خاتماً، من صنع الكهنة أو خيطاً غزلته إحدى العذارى وباركه أحد الكهنة فسوف يستوثق من فحولته ويتقي شر

الشياطين الذين يتسببون بالأمراض والأوبئة، ويدفعون بالمرء إلى الجنون. وإن صورة إله يحملها الإنسان معه لا بد من أن تدفع عنه شر «العيون الحسودة»، لكن أسلم الطرق وأضمنها ان يكشف المريض أسرار نفسه ويسلم أمره إلى الكهنة فهم الذين أوتوا القدرة على طرد الشياطين بالسحر والتعاويذ والترانيم».

وهكذا فقد تلازم تلازماً لا ينفصم كل من الفرح بالحياة والخوف من الأرواح الشريرة. ففي الحياة العامة ساد الفرح بالحياة وخيم.. فارتدى رجال بابل ونساؤها الثياب الطويلة الفضفاضة والغنية بألوانها، وتفاخروا، علانية، بحبهم لمسرات الحياة ولذائذها. وتزينت النساء بالأطواق والأساور، وعقصن شعورهن بقلائد من اللآلئ والجمان وحسرن عن أكتافهن في أيام الأعياد، كما تلفف الرجال في معاطفهم يخطرون وفي أيديهم عصياً لها رؤوس منحوتة ومنقوشة. أما الكهنة فتراهم وقد اعتمروا القلانس الطويلة بأشكالها المخروطية ليتأبهوا بها عن عامة الفانين، إذ كان عليهم، بالفعل، الإعلان عن تفوقهم وعلو مقامهم الدنيوي بكل الوسائل الممكنة لتوطيد سلطتهم، ومع ذلك لم يكن بمقدورهم ان يَعدُوا المؤمنين الصالحين، بعد موتهم، بأجر ما، أياً كان، على صلاحهم وجميل أعمالهم، وذلك لأن السماء لا تفتح أبوابها إلا للآلهة.

لكن الخوف من أن تطوف أرواح الموتى تائهة لا تعرف الراحة، كالجزع الذي انتاب جلجامش، دفع البابليين إلى دفن موتاهم باحتفال مهيب. فوضعوا في قبور النساء الأمشاط وقوارير العطور وأدوات الزينة، ليكون بمقدورهن الحفاظ على مظهرهن وسحر مفاتنهن إبان الموت، وألبسوا الرجال الثياب الفاخرة وزينوهم بشارات تدل على مكانتهم، ليواجهوا بها الشياطين ويفخروا. لكن أفضل الوسائل وأوثقها هي أن يُطمئن المرء نفسه إبان حياته، فبفضل شفاعة الكهنة سترضى الآلهة، وتترفق بمن قدم لها العديد من الأضاحي والقرابين.. بل إنها ستدفع عنه، في موته، خطر الأشباح وتسهر لتجنبه شر الآلام والعذاب.

ومع ذلك فقد بقيت بابل موطناً للفجور ومدينة ترتع باللذة والمسرات على الرغم من انتهاء أمرها، منذ أمد بعيد، عاصمةً لمنطقة بلاد الرافدين، إذ تركت أخلاق البابليين وأنماط حياتهم آثارها عميقاً في سلوك الملوك الآشوريين الذين اتخذوا من بابل المغلوبة مثالاً يحتذى لبناء عواصمهم. ومدينة نينوى هي إحدى هذه المعاقل الملكية، وقد أُطلق عليها هذا الاسم تكريماً للإلاهة نينا، إلاهة الحب الجسدي عند الآشوريين، التي لا تختلف في شيء عن عشتار. وفي مدينة الحب هذه، كان باستطاعة الآشوريين «التمتع بين أحضان النساء»، إلا أن الواجب كان يدعوهم، قبل كل شيء آخر، إلى إتقان فنون القتال وتقديم المساعدة لمليكهم في غزواته وفتوحاته الدموية.

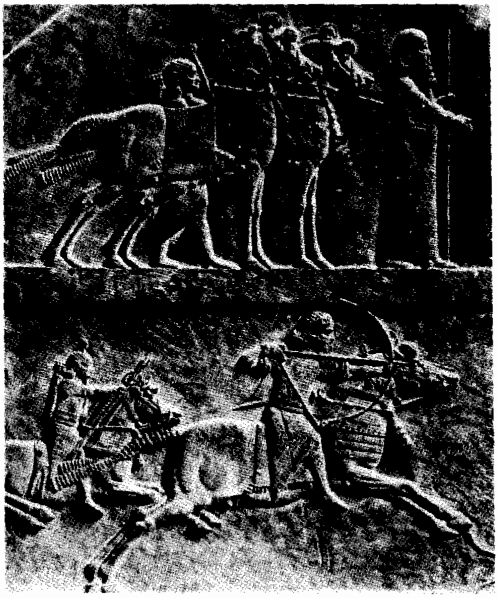

نحت بارز من نينوى، وفيه آشور بانيبال يشارك في الصيد،

المتحف البريطاني، لندن

من مبادئ ملوك آشور الرئيسة: القوة تتغلب على الحق وتسمو عليه. ففي مملكتهم لم ينعم بالامتيازات إلا المحاربون، إذ كان من حقهم ان يبتنوا لأنفسهم أفخم المساكن، وأن يجهزوها بكل وسائل الراحة التي توفرها لهم مكانتهم المرموقة، فزينوا جدران منازلهم بستائر متعددة الألوان، وجلبوا لها من الخارج مفروشات وأدوات من الأخشاب النفيسة أو البرونز وأوان من الزجاج الملون أو الصلصال الموشى أو المعادن الكريمة، وفي داخل هذه البيوت الغارقة في بذخها وترفها عاشت المرأة الآشورية، إلى حد ما، كما الأسيرات، فلم يكن يسمح لها بالخروج والظهور في الأماكن العامة بغير حجاب، وفرض عليها التكيف والعيش مع العديد من النساء الأخريات ممن اختارهن الزوج وفق هواه، أما هي فمن واجبها أن تحرص، كل الحرص، على إخلاصها وتصون عرضها(*).

وفي معبد نينا، غدا الحب الذي يباع ويشترى تجارة تدر على رجال الدين أرباحاً وفيرة، تزيد عما كانت تدره في معبد عشتار البابلي(**). صحيح إن بنات المحاربين وأخواتهم قد انقطعن، كلياً، عن التضحية بعذريتهن لإلاهة الحب الجسدي الآشورية، إلا ان بمستطاع كهنة نينا المطالبة بجميع نساء المقاطعات المحتلة للخدمة في المعبد، والاحتفاظ بهن رهينات مدى الحياة. كانت المعابد معرضاً موسمياً يؤمه الملك ليختار حظياته وسراريه فتدخل النساء ممن اختارهن في عداد حريم القصر. ومن بين الرجال جميعاً لا يحق إلا للملك وحده امتلاك المرأة التي يشاء دون أن يكون للزوج المخدوع حق قتله، وإن فعل فالقصاص واقع

(*) لا نستطيع قبول رأي المؤلف هنا على إطلاقه، لأن صعود امرأة مثل سميراميس إلى سدة الحكم في آشور يقدم بينة معاكسة.

(**) لا يوجد لدينا معلومات تؤكد استنتاج المؤلف عن أرباح المعبد من الدعارة المقدسة فالمقابل النقدي المقدس قد بقي في آشور رمزياً وفي حده الأدنى كما في بابل - المحرر - .

عليه لا محالة، تلك هي حال مملكة آشور، إذ كانت عالماً يسوسه رجال قساة لا يعرفون الرحمة ويخضع، حصراً، لطموح اتساع رقعة الامبراطورية الآشورية.

وما ان استلم الحكم سلاطين ضعاف حتى انهار سلطان هذه الدولة العسكرية القائم على استبداد لدود وانضباط صارم وإرهاب مروع.. وانتهت موجات الجحافل التي اكتسحت مملكة آشور المرة تلو المرة بأن أعاد بناءها القبائل الرحل الأقدمون من الآراميين الساميين. وبقيت أحوال البلاد على حالها باستثناء إقامة أشراف جدد في القصور وحلولهم محل أشراف المملكة المنهارة وامتزج الآراميون، هذا البحر الخضم من البشر، بالسكان المحليين متبنين عاداتهم وتقاليدهم، ومع هؤلاء انتقل وضع المرأة من سيء إلى أسوأ.

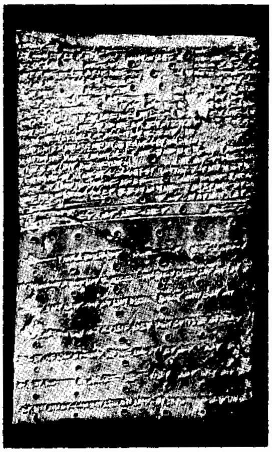

لوح من مكتبة آشور بانيبال، نقشت عليه أحكام أخلاقية على الملك الاقتداء بها في تسير شؤون مملكته.

وقد احتاج الملوك، للإمساك بزمام الحكم والحفاظ على سلطان المملكة بقوة السلاح، إلى طلب المزيد من المحاربين على الدوام، وهنا يكمن دور المرأة: ينبغي على النساء إنجاب الأطفال، في حين لم يكن لمعرفة الملقح عشيرهن أهمية تذكر. إن كل منع للحمل تعاقب عليه المرأة بأشد العقوبات، وإن شاء سوء الطالع أن ينتهي حمل المرأة بولادة كاذبة، حتى وإن ماتت أثناء الوضع، كانت تحرق في الساحات العامة على الملأ لتكون عبرة تزرع الرعب في النفوس.

وقضى العرف أن تقيم زوجات من رحل للحرب من الرجال في منازل آبائهن، وإن عاد هؤلاء الأزواج فلن يعودوا إلا عرضاً وهم يرومون هدفاً واحداً بعينه: إتيان نسائهم وتحبيلهن. ولم تُعفَ، في ذلك الزمان، فتيات أُسَر

المحاربين صاحبة الامتيازات من الالتحاق ببيت الحريم للانضمام إلى نسائه. ويروي لنا الملك آشور بانيبال، محدث أكبر مكتبة في التاريخ، على أحد الرقم الطينية، كيف درج وترعرع في حرم ملكي وكيف بنى لنفسه بيت حريمه: «... في ذلك الوقت تقادم عهد الحرم، مكان الراحة في القصر.. الذي شاده سنحريب ليقيم فيه، وذلك لطول ما استمتع فيه من بهجة وسرور، وتداعت جدرانه. وإذ كنت أنا آشور بانيبال، الملك العظيم، الملك القادر، ملك العالم، ملك آشور،... قد نشأت في ذلك الحرم وحفظني فيه آشور. وسِنْ، وشمشْ، ورامان وبل، ونابر، وعشتار، وأنا ولي العهد. وبسطوا عليَّ حمايتهم الطيبة وملاذهم الرضي،..... ولم ينفكوا يبعثون إلي فيه أنباءً سارة عن ظفرنا بأعدائنا، وإذ كانت أحلامي وأنا على سريري في الليل أحلاماً سارة، كما كانت خيالاتي في الصباح مبهجة جميلة،.. فقد مزقت خرباته، وأردت أن أُوسع رقعته فمزقتها جميعاً. وشُدت بناء مساحة أرضه خمسون تبكي» (عن قصة الحضارة لـ ول ديورانت ـ المترجم).

«... فأقمت مشرفاً، إلا أنني لم أُشد البناء في مكان كثير الارتفاع تقديراً وإجلالاً لمعابد الآلهة العظام، أربابي في السماء، ووضعت حجر الأساس فوق هذا المشرف في شهر مؤات ويوم ميمون، ثم شرعت بوضع الآجر. وصببت شراب السمسم ونبيذ الكروم فوق قبره، كما سكبت مزيداً من الخمر على جدرانه الطينية المطروقة.. وبالفرح والنشوة بنيت حرم النساء من قواعده حتى سقفه.. ووضعت فوق الجدران عوارض طويلة من خشب الأرز... وطليت بالنحاس أبواباً تفوح منها روائح ذكية.. وزرعت حوله خميلة حَوَتْ جميع أنواع الأشجار و... وفاكهة من كل نوع... ولما أنجزت عملي قدمت للآلهة أربابي أغلى الأضحيات وأثمنها ثم دخلت المكان تحت مظلة مهيبة» ونقرأ على ضريح آشور بانيبال، الذي لم يقتصر في حبه على النساء الجميلات فحسب بل توسع في بيت حريمه ليضم أجمل الغلمان وأحلاهم:

«تذكَّر أبداً أنك فانٍ لا محالة

انعم بحياتك واطرب وارو رغبات فؤادك
فالمسرة حكر على الأحياء، فان مت فلن يبقى لك ما يسرك
لست الآن إلا تراباً
رغم أني كنت ملك نينوى، رائعة المدائن، المدينة الرائعة.
ولكن قد بقيت لي هذه الأشياء التي ابتهجتُ بها في حياتي ـ الطعام الذي أكلته، واللهو الذي استمتعت به، وملاذ الحرب ومسراتها.
أما ما عدا هذا من الأشياء التي يراها الناس نِعَماً فقد تركتها خلفي» ـ (قصة الحضارة، المترجم).

بعد أربع وعشرين سنة من وفاة آشور بانيبال أُحرقت نينوى وذُبح أهلوها ودمر بيت حريمه. وقد وجدنا بين ركام القصر وأطلاله عشرين ألف مقطع من ألواح الصلصال منقوشة بأحرف مسمارية، أتاح لنا فك رموزها ودراستها ان نلقي نظرة إلى الماضي التاريخي البعيد ونتعرف على أخلاق السكان في بلاد الرافدين. واقتسم مملكة آشور بانيبال غزاة متحالفون تتوزعهم أهواء متضاربة: فانفرد الميديون من البدو المحاربين ليقيموا في أعالي النجاد الإيرانية ويشيدوا الاكباتانا عاصمتهم الأولى: «ملتقى العديد من الطرق».

في حين انفرد الكلدانيون الآراميون بالغرب ونجحوا في الاستقلال بالمملكة البابلية، وقد رغب الغزاة الجدد بعد انتصارهم، الذي جاء ثمرة لتوحيد القوى واتفاق الكلمة، في أن ينفصل كل طرف منهم ليستقل بشعبه وما يتميز به من أعراف وعادات وتقاليد، وأجمعوا على بناء سور عظيم في الشمال من بابل يمتد من الفرات حتى دجلة.. لكن هذا الجدار الميدي، الذي سهرت على حراسته مفارز توزعت على مساحات منتظمة لتسهيل مهمتها، قد حال دون قيام علاقات جوار بين سكان البلدين، فامتنع العبور بينهما وانقطعت أخبارهما، وانصرمت، بلا رحمة، الروابط العائلية والعلاقات بين الأصدقاء، كما استحالت الأعمال التجارية وتوقفت. وقد أدى تقسيم بلاد الرافدين

هذا التجمع البشري الذي ضمت أفراده، رغم تعاقب الحكام وعلى مر العصور، أخلاق واحدة، إلى ظهور عادات جديدة ومتباينة انفرد بها كل فريق على حدة في هذا الطرف أو ذاك وراء الجدار.

أما بالنسبة لملك بابل الأكادي. نبوخذ نصر، فقد كان هذا الجدار بمثابة وسيلة لحماية حدوده الخلفية، فهو لم يكتف بإعادة بابل إلى سابق مجدها وعظيم شأنها بل نجح أيضاً في التوسع بمملكته باتجاه الجنوب الغربي، فدمر أورشليم وأخضع اليهود إلى «الأسر البابلي» وبنى «برج بابل» الذي غدا مضرباً للمثل، وجعل منه معبداً عظيم الارتفاع خص به مردوخ، الإله حامي بابل، فأعاد إليه اعتباره ليحتل مكانه بين الآلهة العظام. ومثلما حافظت معظم الأقوام البشرية، التي أقامت فيوادي الرافدين أو جيء بها إليه، على لغتها الأصلية، كذلك فقد استحال على «بني إسرائيل الذين اقتيدوا قسراً، ان يهتدوا سواء السبيل في «بابل اللغات» البناء الذي علا ٩١ متراً وكُرِّس لـ «إله حامي النظام» وأصبح في العهد القديم رمزاً «لاختلاط اللغات» وبلبلتها: «ونزل الرب ليرى المدينة والبرج اللذين بناهما بنو آدم. وقال الرب: هو ذا هم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة، وهذا ما أخذوا يفعلونه.. والآن لا يكفون عما هموا به حتى يصنعوه. فلننزل ونبلبل هناك لغتهم، حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض. ففرقهم الرب من هناك على وجه الأرض كلها، فكفوا عن بناء المدينة. ولذلك سميت بابل، لأن الرب هناك بلبل لغة الأرض كلها». (المترجم من العهد القديم ترجمة دار المشرق).

لم يكن في بابل إلا لغات مختلطة حيرت الأسرى اليهود.. فليس ثمة صدفة، والحال هذه، في أن سمى كهنة إسرائيل وأنبياؤها هذه المدينة، لفساد مسراتها وضعة أخلاقها، بـ«العاهرة البابلية» ان كل ما يجري هنا يتناقض مع عاداتهم وأنماط معيشتهم التي ينبغي عليهم الالتزام بها والسير على هديها، إن هم أرادوا تجنب غضب الرب وانتقامه، إذ سبق للرب أن أنزل بهم شر العقاب لسوء أفعالهم.

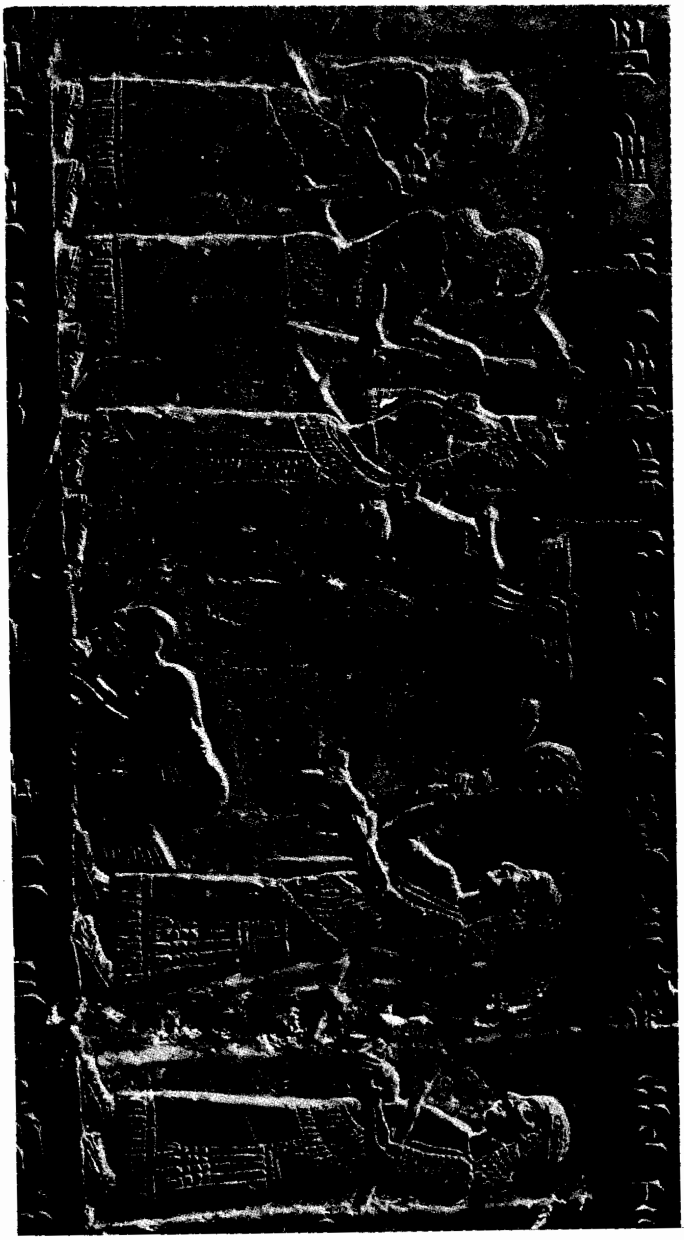

مقطع من مسلة، وفيه نرى الملك جاهُ من إسرائيل يدفع الجزية خاضعاً إلى سلما نصر الثالث، المتحف البريطاني، لندن

ان يتلهوا في معبد عشتار مع نساء أجنبيات وأن يثملوا على مآدب الميسورين وان يسمحوا لبنات إسرائيل بأن يتزين ويتخضبن، بقحة ودونما حياء، كنساء بابل المتهتكات... فذلك انتهاك لشريعة ينبغي عليهم الامتثال لها والخضوع لأحكامها إن هم أرادوا أن يقودهم الرب إلى الأرض الموعودة. وحافظ بنو إسرائيل على لغتهم وصانوا أخلاقهم بينما ابتهج، رجال بابل ونساؤها لرؤية آلهتهم تستعيد كامل سلطانها.

في الجهة الأخرى من الجدار، وفي الشرق من بلاد الرافدين، في مملكة الميديين الممتدة بعيداً في عمق آسيا، قلبت أقوال أحد الرجال الأخلاق السائدة رأساً على عقب. وسيطرت على نمط حياة الميديين تلك العقيدة التي تلقى زرادشت، الرسول الإلهي، بموجبه من «إله النور» أهورا ـ مزدا «كتاب الشرائع» مع وميض البرق وهزيم الرعد، وقد شبهت هذه العقيدة الشعبية، التي تناقلتها الألسن في بدء انتشارها، الصراع مابين الخير والشر بالصراع الدائر بين قوى الكون فوق الطبيعة. فكان أهورا ـ مزدا «روح الخير» وإله السماء، وعيناه هما الشمس والقمر، أما عدوه النقيض فكان أهرمان، رب الظلمات ورمز الشر والقبح وجميع العيوب والآفات التي تصيب الإنسان في هذا العالم.

أطلال بابل، كل ما تبقى من أبهى مدائن العالم القديم وأروعها

كان آهرمان أباً للخطيئة والمعصية والكفر.. وكل من يساعده بسوء أفعاله سيصليه استواد إله الموت، الذي لا يفلت من قضائه آدمي، بنار الجحيم الحامية وسيكابد، حتى آخر الزمان، شر الشقاء وأقصى الآلام. وفي مقابل ذلك فعلى كل من يخدم أهورا ـ مزدا بأفعاله الحميدة وكل من يخشى الله ويحيا حياة رجل عدل وحكمة ألا يرهب الموت ويخشاه. فقد جاء في «كتاب الشرائع»: ان باقتداره (أي العادل) أن يمثل في يوم الحساب بروح طيبة نقية حيث يصدر أهورا ـ مزدا حكمه على اهرمان فيهلكه هو وجميع قوى الشر هلاكاً لا قيام لها بعده. بينما الرجل العادل يبعث من جديد هو وجميع الأرواح الطيبة: «وتعود الحياة إلى الأجسام، وتتردد فيها الأنفاس.. ويخلو العالم المادي كله إلى أبد الدهر من الشيخوخة والموت والفساد والانحلال».

وقد عهد بالتمييز بين الخير والشر وبين الأفعال المسموح بها والأفعال المحظورة إلى المجوس شراح الأفستا «كتاب المعرفة والحكمة». وقد امتاز هؤلاء الكهنة، الذين اشتهروا بقداستهم وكانوا نصحاء مرشدين للملوك، عن عامة الناس، باحتقارهم المطلق لكل ألوان المسرات والملذات الأرضية. فارتدوا من الثياب أبسطها وكرسوا أنفسهم لخدمة الإله وطقوس الطهارة المراسيمية، وامتنعوا عن تناول اللحوم، وأمسكوا عن كل أنواع شهوات الجسد ولذائذه، واستغرقوا كلياً في الحياة الروحية، وتوسعوا بصفاء معارفهم لتصدُقَ نبوءاتهم، ويأتوا بمعجزات يرى فيها الناس ظواهر سحرية مقدسة، كما كانوا ينعمون، لدى الملك وفي أوساط الجماهير، بأرفع مقام وأوسع شهرة لكونهم منجّمين ومفسرين للأحلام. وغدا مذهب زرادشت دين الامبراطورية التي أنشأها ملوك الفرس بعد أن تغلبوا على الميديين وسيطروا على بابل. وتهدم الجدار الميدي واقتلع من أساسه فصار أثراً بعد عين. وقد حل، في هذه الآونة، على بلاد الرافدين والمناطق المجاورة جنس جديد من الرجال حكموا البلاد وفرضوا عليها نفوذهم وأخلاقهم.

كان هؤلاء رجالاً طوال القامة شديدي المراس يطلقون لحاهم ويجدلون شعورهم ويرسلونها لتصل إلى أكتافهم، كما كان الرجال والنساء يستعملون أدوات التجميل. فنشأت من ثم، طبقة خاصة من «المزينين» أطلق عليهم معاصروهم اليونانيون «الكوزمتاي» (التي اشتقت منها كلمة مستحضر التجميل). وقد ارتدى الفرس، من الرجال والنساء، حتى في أيام الصيف القائظ، مما اعتادوا على ارتدائه من الملابس في المناطق الجبلية الباردة: ثلاثة أنواع من السروايل وثياباً داخلية محشوة حشواً تحت فساتين صوفية أو كتانية.

أما القوانين الأخلاقية التي امتثلوا لها ورضخوا لأوامرها، فقد كانت عوناً للمرأة الفارسية دعَّم وضعها في الحياة العامة خارج البيت: كن يستطعن الخروج من المنزل والعودة إليه سافرات دون حجاب، ويمتلكن العقارات ويتصرفن بشؤونهن، وكان في وسعهن إدارة شؤون أزواجهن باسمهم أو بتوكيل منهم.

كان الآباء هم الذين ينظمون شؤون الزواج لمن يبلغ الحلم من أبنائهم. وكانت المرأة لا تستطيع الزواج إلا برجل واحد. في حين ان تعدد الزوجات لا يعد منافياً للأخلاق، لأن بمقدور من يمتلك العديد من النساء تزويد ملك الملوك بالكثير من المحاربين، وفي ذلك تقول الأفستا: «ان الرجل الذي له زوجة يفضل كثيراً على الرجل الزاهد بالزواج (من لا زوجة له)، والرجل الذي يعول أسرة يفضل كثيراً على من لا أسرة له، والذي له أبناء يفضل كثيراً علي من لا أبناء له» وبالطبع فإن المجوس (رجال الدين) يُستثنون من هذه القاعدة العامة.

وسيان إن أنجبت هؤلاء الأبناء زوج الرجل أو حظاياه. المهم أن يكون المولودون الجدد ذكوراً.. «إن الرجال لا يضرعون ليرزقهم ا الله بنات، والملائكة لا تحسبهن من النعم التي أنعم بها ا الله على بني الإنسان». وأنه لشرف يتوق إليه المرء أن ينجب أولاداً للملك. فالأب الذي يعيل أولاداً

كثيرين يتلقى من الملك هدية في كل عام، (وملك الملوك) هذا جليل الطلعة رفيع القدر إلى حد يستحيل على العامة من الفانين الفوز برؤيته.

وعلى من لا يملك كفايته من الأراضي أو العائدات التي تؤهله لإعالة أسرته الكبيرة أن يطمح للملك. سأل زرادشت الإله أهورا ـ مزدا: «أي إلهي خالق العالم المادي ـ إلهي القدوس ما هو المكان الثاني الذي تحس الأرض فيه أنها أسعد ما تكون؟» ويجيبه أهورا ـ مزدا بقوله: «إنه المكان الذي يشيد فيه أحد المؤمنين بيتاً في داخله كاهن، وفيه ماشيته، وفيه زوجه، وفيه أطفال، وفيه أنعام طيبة، والذي تُكثِرُ فيه الماشية بعدئذ من النتاج، وتُكثِر فيه الزوجة من الأبناء، وينمو فيه الطفل، وتُشعل فيه النار، وتزداد فيه جميع نعم الحياة». لأن «من يملك بيتاً يفضل كثيراً من لا بيت له».

وليس غريباً أن يكون منع الحمل من أكبر الجرائم التي ترتكبها المرأة في بلد شعاره: للأب الكثير من الأبناء وللملك الكثير من المحاربين. ان الفجور والزنى وكل خطايا الجسد يمكن الصفح عنها، لكن المرأة التي تجهض نفسها وتحول دون حملها «تسرق» محارباً من جيش الملك، فعليها إذن أن تدفع من حياتها. عندما يقدم الرجل على جلد عميرة (الاستمناء باليد) ويبدد نطفه فعقابه الضرب بالعصا (الجلد)، لأنه هو أيضاً قد حال دون تطور جيش الملك ونمائه.

إن الرجال والنساء الذين يدفعون المال ليمارسوا علاقات جنسية «يجب قتلهم» «لأنهم سفلة أحق بالقتل من الأفاعي الزاحفة والذئاب العاوية» ويذكر هيرودوت: «إن الفرس قد أخذوا عن اليونان اشتهاء الغلمان» لكن الأفستا التي تعود وصاياها إلى عهود سابقة ترى في اللواطة شذوذاً وجريمة شنعاء لا يجوز، بأي حال من الأحوال، الصفح عنها: «لا شيء يمكن أن يمحو هذه الجريمة قط».

إن كل ما كان محظوراً وَعُدَّ خطيئة كان «نجساً» غير طاهر، لأنه يدنس الروح. وغدت الجبال النقية التي تطهر بها أجداد الفرس والميديين رمزاً لديانتهم. ومن تعاليم الكهنة: إن نظافة الجسد شرط أول لا غنى عنه لطهارة الروح، ففرضوا الاغتسال (الوضوء) قبل المباشرة بكل عمل من أعمال الحياة اليومية. كما كان لا يليق بالمرء أن يتناول طعامه وشرابه على قارعة الطريق. ولا يليق به أيضاً أن يبصق أو يتمخط أو يقلم أظافره أو يقص شعره أمام الناس، بل الأسوأ من هذا كله ان يقضي حاجاته الطبيعية أمامهم. إن غير اللائق قبيح سيء والقبيح السيء عمل من أعمال أهرمان شيطان الشر، كان الصبية من أبناء السادة الأعيان يتعلمون اللباقة وحسن المعاملة، عماد السلوك الأخلاقي، منذ سني حداثتهم، وكانوا يتلقون علومهم في المدارس، إذ اقتصرت مهمة الأم، تبعاً لعادة قديمة، على تربية البنات دون الذكور من أولادها، ففي السنة الخامسة من أعمارهم تنتهي رعاية الأم لهم ليتولى الآباء بدورهم، إعدادهم وتأهيلهم لتربية شاقة سيخضعون لها في الهياكل أو في بيوت المجوس. ولزرع الحقيقة في النفوس وتنشئتها على الحق، كان عليهم أن يحفظوا، عن ظهر قلب، الفقرات الأساسية من الأفستا. لكن المهم أيضاً أن يبرعوا في الفروسية والرمي في القوس وان يخضعوا لتدريبات جسدية أخرى، فكان عليهم أن يتعلموا الصيد والسباحة ويتحملوا تقلبات الطقس من برودة وحرارة ويقاوموا الجوع والعطش ويصبروا على الصعاب ويتغلبوا على الشدائد. وللتعرف على عمل الفلاحين وما تجود به أيديهم كان عليهم أن ينكبوا على أعمال الحقول، فاعتنوا بالماشية وزرعوا الأشجار. وشمل التعليم أيضاً إطلاع التلامذة على القانون وإحاطتهم به، ليس فقط من أجل أن يمتثلوا لأحكام الشرائع والقوانين ويأنفوا من ارتكاب المعصية والتسبب في الأذية، بل ليتعلموا أيضاً ألا يصفحوا عن الآخرين إن هم فعلوا ذلك. فإن زل أحد منهم فكذب أو جدف وقذف بشتائمه أو غش وخدع فقد كل حق في ترشيح نفسه إلى أحد المناصب الهامة في الإدارة أو في

جيش الملك، فالكذاب «نجس» وكذلك أولئك الذين يأبون الامتثال «لقواعد الصحة» ولا يحافظون على نظافتهم. كان يشرف على نظافة التلاميذ، الذين يواصلون دراستهم حتى يبلغوا من النضج مبلغاً يؤهلهم للحياة العملية «كهنة يمارسون فن الطب». وقد كان هذا الفن عرفاً وعوناً للآخرين أكثر منه علماً، لكن كان جزءاً لا يتجزأ من فروض الدين الأساسية، لأن آهرمان الشرير، في الديانة الزردشتية، خلق ٩٩٩٩٩٩ نوعاً من الأمراض التي تصيب الجسم بالعدوى فيغدو «نجساً» وهنا يأتي دور الكهنة وتلامذتهم الذين يكافحون ليقهروا هذا السحر المؤذي، الوافد من الظلمات، بأدوية يبتكرونها، ويحاربه الكهنة الجراحون بمباضعهم. وقد كانت أجور هؤلاء الجراحين محددة شرعاً بما يتناسب وأوضاع المرضى المادية، كان «فن الشفاء» مهمة تعود على أصحابها بالربح الوفير وتحتل مكانة لا تعلو عليها، إلا قليلاً، وظيفة الحاكم الملكي أو وظيفة قائد الجيوش. لأن مثل هذه الوظائف تتطلب من المرشح إليها أن يكون على دراية بالقراءة والكتابة، وفوائدها تُحِل أصحابها بين الشخصيات الثرية المرموقة، التي كانت تمرح وتنعم بحياة اليسر واليمن كتلك التي كانت تسود بابل فيما مضى. لأن الفرس وما درجوا عليه، في بدء انطلاقتهم، من أخلاق صارمة، قد تكيفوا سريعاً مع نمط حياة الشعوب الخاضعة لهم بدعتها وترفها، فما ان يحتل أحدهم مركزاً مرموقاً ويبلغ مرتبة من مراتب الشرف في الإدارة أو في جيش الملك حتى يبادر إلى تزيين منزله وزخرفة قصره فيجهزهما بأغلى التحف التي يأتي بها من البلدان الأجنبية: أزهار ونباتات ورياحين نادرة تزين حدائق تحتضن منازل فاخرة، وموسيقا عذبة الأنغام تشنف آذان السادة الموسرين المتحلقين حول موائد حفلت بما لذ وطاب.. واستسلم ملك الملوك ورجال بلاطه لمسرات الحياة يغرفون منها غرفاً وينعمون بما لا يخطر على بال، رغم معرفتهم أنهم، بأفعالهم تلك، ينتهكون قوانين الأفستا ووصاياها. فليس غريباً أن ترى حكام فارس المترفين وقد اتخذوا لأنفسهم، حيث

يقيمون، بيوتاً للحريم في سوسة وفي عواصم البلدان الخاضعة لهم، وجرى العرف: ان من حق المرأة، التي تبرهن على موهبتها الخاصة، ان تشاطر السادة الكبار مضجعهم أكثر من مرة. فليس غريباً، والحال هذه، ان تفقد المرأة الفارسية حريتها. وصار الآباء يزوجون بناتهم قبل بلوغهن سن الزواج، فانعزلن ليعشن في بيت الحريم في عزلة تامة تحت حراسة المخصيين ليطأهن أزواجهن بقصد الإنجاب فقط، فَمُنعن من الظهور بصحبة الأجانب من الرجال، وتجاوز هذا المنع حدوده ليشمل حرمانهن من رؤية الأب والأخ أيضاً، وما أن يصبحن أمهات حتى ينلن حق الاختلاط مع سراري أزواجهن وحظاياهم، لكن استمرار هذه الامتيازات منوط أيضاً بإرادة أزواجهن المطلقة. كلما ارتفعت مكانة المرأة وعلا شأنها اشتدت صرامة الانضباط الذي ينبغي عليها الانصياع له، فتلك كانت ميزة «شرف» يتمتع بها الأثرياء من الأزواج، ذلك لأنهم يمتلكون نساء طاهرات الثياب ولا غبار عليهن. فكانوا يتباهون بما ملكت أيديهم، دون غيرهم، ويتبجحون بتضييق الخناق على أسيرات ملذاتهم وقد حشروهن في بيوت حريم زينت بإفراط تجاوز كل حد. فإذا ما أبت النساء الانعزال كلياً اقتصرت حياتهن على معاشرة الحظايا فقط. وهكذا، غالباً ما يحدث أن تنكب النساء مع مثيلاتهن، بسبب إهمال سيد البيت لهن، على علاقات مثلية «السحاق» لأن مثل هذه الممارسات الجنسية الشبقية لم تحظرها الأفستا، فهي لا تصيب، البتة، من غرور الرجال ولا تنال من اعتدادهم بأنفسهم، بل كانوا يَصْفحون عن مثل هذه العلاقات بين النساء بوصفها ألعاباً بسيطة غير مؤذية. كان لزوجات الرجال، الذين تعوزهم القدرة على اتخاذ بيت حريم وسراري، حق حرية التنقل، ولكنهن إذا ما «أسفرن عن وجوهن» تدنت قيمتهن في عيون الرجال ليصبحن مخلوقات رديئات أحط شأناً من الأخريات.. وغير جديرات بجذب انتباه الرجال إلا بما يتمتعن به من ظرف ودلال.

الفصل الثالث

مصـــر القـــديمـــة

تسلسل زمني(*)

فيما بين ٥٠٠٠ـ٤٠٠٠ق.م	العصر النيوليتي
نحو ٤٠٠٠ ـ ٣٢٠٠ق.م	عصرالنحاس
٣٢٠٠ ـ ٢٧٨٠ق.م	الفترة التاريخية الأولى (الأسرتان الأولى والثانية)
٢٧٨٠ ـ ٢٢٨٠ق.م	المملكة القديمة (عصر الأهرامات من الأسرة الثانية حتى الأسرة السادسة)
نحو ٢٤٠٠ ق.م	بتاح حوتب
نحو ٢٢٨٠ ـ ٢٠٥٢	الفاصل الزمني الأول مابين الأسرتين التاسعة والعاشرة.
٢٠٥٢ ـ ١٧٧٨ ق.م	المملكة الوسطى (الأسرتان ١١ـ١٢)
١٧٧٨ ـ ١٥٦٧ ق.م	الفاصل الزمني الثاني مابين (الأسرتين ١٣ـ١٧)

(*) توخياً للدقة رأيت من واجبي أن أنقل للقارئ، بتصرف، ما جاء في كتاب «تاريخ إفريقيا العام ـ المجلد الثاني ـ اليونسكو» حول أوثق ما توصل إليه علماء الآثار في تأريخ التسلسل الزمني، واعتماداً على المصادر الأثرية والوثائق الكتابية، التي لم يبق منها إلا:

١٥٦٧ ـ ١٠٨٥ ق.م	المملكة الجديدة (مرحلة الأوج، الأسر من ١٨ حتى ٢٠، كتاب الموتى).
١٥٠٤ ـ ١٤٨٣ ق.م	حتشبسوت تتسنم العرش بتنصيبها فرعوناً
١٣٧٢ ـ ١٣٥٤ ق.م	امنوفيس الرابع «اخناتون»
١٠٨٥ ـ ٧١٥ ق.م	الفاصل الزمني الثالث الأسر من ٢١ حتى ٢٤).
٧١٥ ـ ٣٣٠ ق.م	الانحطاط (الأسرة من ٢٥حتى٣٠)
٣٣٠ ـ ٣٠ ق.م	العصر الهلنسي (البطالمة)٠.

ـ حجر بالرمو الذي نقش على جانبيه أسماء كل الفراعنة منذ البداية حتى الأسرة الخامسة (حوالي ٢٤٥٠ق.م) إلا أن هذه الوثيقة لم تصل إليها سالمة إذ هشمتها في قسم منها، عوادي الزمن ومن ثم فقد وصلت ناقصة.

ـ وبردية تورين، وتشتمل على قائمة الملوك بكامل ألقابهم وعدد السنوات والشهور والأيام التي حكموها مرتبة ترتيباً متسلسلاً، ويبدأ تاريخها منذ أقدم العصور حتى حوالي عام ١٢٠٠ق.م. إلا أن عدم اتخاذ التدابير اللازمة لصيانتها أثناء شحنها أدى إلى تمزقها إلى أجزاء، ثم انه بعد ترميمها بقيت فيها ثغرات كثيرة جداً.

يضاف إلى ذلك ان لكل فرعون تقويمه الخاص به فالحساب يبدأ بـ١ ـ حين يتولى الحاكم التالي العرش، ثم إن هناك خللاً آخر وهو أن عدة فراعنة حكموا في وقت واحد وفي فترات معينة، بمعنى وجود أسرات حاكمة متزامنة، ثانياً ان الفرعون كان في أحيان كثيرة يُشرك معه أحد أبنائه في الحكم ولما كان كل حاكم يؤرخ آثاره طبقاً لحكمه هو فقد حدث بعض التداخل.

وقد تعذر حل هذه المشكلة لو لم يتم توفّر إحدى خواص التقويم الفرعوني القديم إطاراً وثيقاً للتسلسل الزمني، إذ انهم كانوا يربطون التقويم بظاهرة فلكية دائمة من السهل تنظيم جداولها الزمنية. ونحن نشير هنا إلى ظهور النجم سوتس ـ نجمنا المعروف باسم سيريوس أو الشعرى اليمانية، المتسق مع ظهور صعود الشمس على خطوط عرض هيلوبوليس ـ ممفيس.

وقد أخذ المصريون بالتقويم القمري لتحديد تواريخ أعيادهم الدينية إلى جانب استخدامهم لتقويم آخر وهو فيضان النيل المنتظم.

إن أول فصول السنة، الذي أطلق عليه المصريون اسم «آخت» يشهد بداية الفيضان حين كانت مياه النهر ترتفع بالتدريج لتغطي النطاق الذي جففه الصيف القائظ ولمدة تقارب الأربعة شهور كانت الحقول تتشبع بالمياه. وفي الفصل التالي كانت الأرض تظهر من جديد من ثنايا الفيضان تصبح معدة للبذر. وكان هذا هو فصل «برت» ومعناها الحرفي «البزوغ أو الخروج» أي خروج «الأرض من المياه و«خروج» النبات». وحين ينتهي البذر ينتظر الفلاح النبت، ثم نضج الحب. وفي الفصل الثالث والأخير كان المصريون يجنون المحصول ثم يخزنونه. وبعد ذلك لم يكن سوى انتظار الفيضان الجديد وإعداد الحقول لمجيئه. وهذا هو فصل «شمو».

وقد ربط المصريون فيضان النيل بارتفاع الشمس وظهور النجم سوتس في الأفق، هذا النجم الذي شبهه المصريون بايزيس التي كان يعتقد أن دموعها هي التي تسبب فيضان النيل. إن ربطهم لبداية الفيضان ـ أول يوم من أيام السنة الجديدة ـ بظاهرة فلكية قد زودنا بوسيلة لوضع نقاط ارتكاز ثابتة لتأريخهم الطويل.

كما لاحظ المصريون، مع الزمن، ان بداية الفيضان كانت تتكرر في المتوسط كل ٣٦٥ يوماً، ولهذا قسموا سنتهم المشتملة على ثلاثة فصول إلى سنة تتكون من اثني عشر شهراً كل منها ٣٠ يوماً وبإلحاق خمسة أيام إضافية (الخمسة المضافة إلى السنة)، وهي الأيام الخمسة التي يُطلق عليها الإغريق اسم النسيء. إن هذه السنة على الرغم من صحتها لم تكن كاملة تماماً إذ أن الأرض في الواقع تكمل دورتها حول الشمس لا في ٣٦٥ يوماً بل في ٣٦٥ يوماً وربع اليوم. أي أن بداية سنة المصريين الرسمية كانت تتراجع في كل أربع سنوات يوماً عن السنة الفلكية.

ولم يحدث إلا بعد ١٤٦٠ سنة وهو ما يسمى «بالدورة السوتية» أن كانت تتصادف في يوم واحد ظواهر صعود الشمس وشروق سوتس وبداية الفيضان. وهذا اليوم هو أول أيام السنة الرسمية (بمعنى أنه في كل ١٤٦٠ سنة يصبح الفرق سنة كاملة مؤلفة من ٣٦٥ يوماً المترجم).

وقد تمخض هذا الفاصل التدريجي بين السنتين عن نتيجتين هامتين: فهو أولاً قد مكن الفلكيين المحدثين من تحديد الوقت الذي توصل فيه المصريون إلى تقويمهم، وكان يجب لهذا التاريخ بالضرورة ان يتزامن مع بداية السنة السوتية. فتزامن الظاهرتين، بداية ارتفاع الفيضان وظهور سوتس قرب الشمس ـ قد حدث ثلاث مرات خلال الخمسة آلاف سنة قبل الميلاد: في عام ١٣٢٥ إلى ١٣٢٢ ق.م. وفي ٢٧٨٥ إلى ٢٧٨٢ق.م. وفي ٤٢٤٥ إلى ٤٢٤٢ ق.م، ولفترة طويلة جرى الاعتقاد بأن المصريين قد أخذوا بتقويمهم فيما بين عامي ٤٢٥٤ و٤٢٤٢ قبل الميلاد. أما الآن فمن الثابت أن ذلك لم يحدث إلا في بداية الدورة السوتية التالية: أي فيما بين ٢٧٨٥ و٢٧٨٢ق.م.

أما النتيجة الثانية لأخذ المصريين بالتقويم الشمسي الثابت فهي أنه قد تمخض بالتدريج عن إيجاد فاصل بين «الفصول الطبيعية» التي يحددها ايقاع النهر ذاته وبين «الفصول الرسمية» التي تأخذ بها الحكومة وتقوم على سنة طولها ٣٦٥ يوماً. وقد ازداد هذا الفاصل، الذي لم يكن يلحظ في البداية لكونه يوماًواحداً كل أربع سنوات، باطراد من أسبوع إلى شهر ثم إلى شهرين، إلى الوقت الذي كان فيه التقويم الرسمي يقع خلال أوج الفصل الطبيعي برت. وقد استرعى هذا الانتقال انتباه الكتبة المصريين. ولدينا نصوص تلحظ، بصورة رسمية جداً، التفاوت بين طلوع سوتس الشمسي وبين بداية السنة الرسمية، وقد مكنتنا هذه الملحوظة ـ من التثبت ـ مع التجاوز في حدود أربع سنوات ـ من التواريخ التالية:

- من المحتم أن عهد سوسرت الثالث يشمل السنوات ١٨٨٢ ـ ١٨٧٩ ق.م.
- تقع السنة التاسعة من حكم امنحتب الأول بين السنوات ١٥٥٠ ـ ١٥٤٧ ق.م.
- يضم عهد تحتمس الثالث السنوات ١٤٧٤ ـ ١٤٧١ق.م.

وبضم هذه التواريخ إلى التواريخ النسبية المستمدة من المصادر التي في متناول أيدينا: بردية تورين، حجر بالرمو، الآثار المؤرخة التي ترجع إلى فترات مختلفة، أمكننا التوصل إلى تسلسل زمني أساسي، هو أوثق جداول الشرق القديم الزمنية كافة، وان نبدأ هذا التاريخ بعام ٣٠٠٠ق.م ومن الممكن تأريخ تقسيمات مانيتون الرئيسية كالآتي:

- الأسرة الثالثة إلى السادسة (الدولة القديمة) حوالي ٢٧٥٠ ـ ٢٢٠٠ق.م.
- الأسرة السابعة إلى العاشرة (العصر المتوسط الأول) ٢٢٠٠ ـ ٢١٥٠ق.م.
- الأسرة الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة (العصر المتوسط الثاني) ١٧٨٠-١٥٨٠ ق.م.
- الأسرة الثامنة عشرة إلى العشرين (الامبراطورية الحديثة ١٥٨٠-١٠٨٠ ق.م.
- الأسرة الثامنة عشرة إلى العشرين (الامبراطورية الحديثة) ١٥٨٠ ـ ١٠٨٠ق.م
- الأسرة الحادية والعشرين إلى الثالثة والعشرين (العصر المتوسط الثالث) ١٠٨٠-٧٣٠ق.م.
- الأسرة الرابعة والعشرون إلى الثلاثين (العصر المتاخر) ٧٣٠ ـ ٣٣٠ ق.م
- ويسجل فتح الإسكندر المقدوني في عام ٣٣٢ق.م. نهاية تاريخ مصر الفرعونية وبداية العصر الهلنستي. (من كتاب تاريخ افريقيا العام ـ اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ افريقيا العام ـ اليونسكو ـ المترجم).

المصـــريون

«اختك إلى جانبك»

أطلق سكان مصر الأوائل على بلادهم اسم الـ«كمت» البـلاد السـوداء، لتمييزها من بحر رمال الصحراء الصفراء التي تحيـط بها مـن الشرق والغـرب. كانت الكمت واحة تديـن بخصوبتهـا وخضرتهـا إلى فيضانـات سـنوية مردهـا فيض النيل المنتظم. وعلى هذا فإن النهر يخصب البلاد السوداء بمـا يحملـه إليهـا من فيض الطمي.

كان النيل إلاهة عزيزة مرهوبة الجانب. وقد أطلق عليهـا مزارعـو الكمـت حابيس (حـابي) ومثلوهـا على شـكل كـائن ثنـائي الجنس شبيه بعشـتار بـلاد الرافدين. وقد تحلت حابيس هذه بخصائص ذكرية هائلة ولحية مهيبة. إلا أن لهـا، في الوقت نفسه، أثداء امـرأة. وترمـز صفـات الإلاهـة الثنائيـة هـذه إلى كفاءتها المزدوجة: ففي كل عام كان النهر يخصب نفســه بنفســه ويلـد ذاتـه، وفيمـا بـين مساقطه المزبدة مـن الجنـوب حيـث ينبـع حتـى البحـر حيـث يصـب، كـان الأم المرضعة لبلاد الكمت.

وقد حل محل الثنائية الجنسية، في وقت لاحق، الاعتقاد بقدرة الإله الذكرية المنجبة، إذ كانت نطفه مصدر خصب ونماء، فبدا إله النهر رمزاً للسلطة الذكرية، وثمة نصوص تشهد على ذلك إذ تصف حابيس بالقدرة الجنسـية الفائقـة «مـا أن

تلهب الرغبة فؤاده حتى يسارع إلى اختطاف الزوجات من أحضان أزواجهن ليقودهن حيث يشاء».

وللتخفيف من سعير جنسية الإله هذه، كان المصريون يقدمون إليه القرابين من الفتيات يلقى بهن عاريات بين أمواجه العاتية ليلهو بهن ويتمتع، وليتخلى، في الآن نفسه، عن شريكاتهم ونسائهم. أما الآن وبعد أن اكتسب المصريون، بادئ ذي بدء، «فن السيطرة على النهر» فقد عقدوا العزم على الاحتفاظ لأنفسهم، دون غيرهم، بما عرفوا واختاروا من النساء.

وهكذا فقد استطاعوا أن يصرفوا غريزة حابيس الجنسية الجارفة النهمة ويشبعوها دون أن يتضرروا. وعندما نجح المصريون في توزيع مياه الفيضانات في قنوات أحسوا بمعجزة انتصارهم على هذا الإله المهيب المخيف فامتنعوا، من ثم، عن تقديم العذارى الأحياء له واستبدلوها بتماثيل أنثوية صغيرة لطيفة. وبدافع خشيتهم من عنف النهر وجبروته والرعب الذي تدبه في القلوب أمواج عاتية يقذف بها ذات اليمين وذات اليسار، صنع المصريون قرابينهم هذه من الذهب أو من الحجارة الكريمة المتعددة الألوان واستكملوها بتماثيل من اللدائن تمثل الإله، يقذفون بها بين أمواج النيل مع التماثيل النسائية الذهبية حتى تتصاعد مياه النهر فتغمر الأراضي وترويها.

تَسمَّى سكان وادي النيل الأوائل، بفخر واعتزاز، «بالأناس» وكانوا يحمون أعضاءهم التناسلية بوساطة غمد صلبة تدرأ عنها الإصابات والجروح وتزيد من حجومها وبروزها، إذ لم يعتد الرجال والنساء على ستر أعضائهم الجنسية بالمآزر إلا بعد لأي، فقد تطلب الأمر ردحاً من الزمن طويلاً. ولم يختلف سلوك أفراد القبائل الأخرى التي تسكن فيما وراء الصحراء وفي منطقة مجرى النيل الأعلى في شيء عن سلوك المصريين.

لكن المصريين كانوا يشعرون بأنهم مختلفون عن الآخرين ويعدون أنفسهم **الأفضل بين الجميع**، كما كانوا يفخرون بأنهم يعيشون ويموتون، بخاصة، على

طريقتهم المتميزة. وبعبارة أخرى كان المصريون «أناساً» أما الأجـانب فـلا. وفي زمن اشتد فيه كـرب البـلاد، وانهـار النظـام القديـم الثـابت، وانقلبـت الأحـوال الاجتماعية عاليها سافلها، ارتفعت الشكوى من أن «الأغراب في الخارج دخلـوا مصر.. وأصبح الأجانب أناساً في كل مكان» (من كتاب ما قبل الفلسفة ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا ـ المترجم).

تعزى أصالة أخلاق وادي النيل إلى عزلة البلاد، وإلى انفرادها بمفاهيم دينيـة متنوعة هيمنت على بلاد الكمت، وإلى تميزها بمعطيـات جغرافيـة طبيعيـة. لكـن ظاهرة عدم تحلل جثث الموتى في تخوم البلاد الصحراوية كانت حاسمة، إذ كانت ريح الصحراء و«نسائم النيل» تصون، بغموض، تلك الأجساد الجـامدة وتحـافظ على مظهر الحياة فيها. وقد دفع ثبات الجثة المـادي أقربـاء المتوفـى إلى التسـاؤل: هل الميت قد مات حقاً؟ أم ان الجسم وحده قد أصابه السبات لأن «القوة الحية» قد فارقته، تلك القوة التي ولدت معه وصحبته ووجهتـه في خـلال حياتـه؟ أطلق المصريون على هذا التصور الروحي للقوة الحية الـتي تبعـث الحيـاة في كـل كـائن إنساني اسم الـ«كا» تـرى متـى تكونـت تلـك الفكـرة؟ ومـن أيـن قَـدِم سـكان الكمت الأوائل؟ ما برحت هذه الأسئلة بلا جـواب. ويبـدو، علـى الأرجـح، إن هذه الأقـوام لم تفـد مـن «الغـرب» مجتـازة الصحـراء الغربيـة، وإنما قدمـت مـن الجنوب منحدرة مع النهر، ووضعت في الغرب حـدوداً «لمملكـة المـوت» حيـث تغرب الشمس: نهاية العالم الأرضي. إن التشابهات التي تقدمها أخلاقهم بالقياس مع العادات الحالية لسكان افريقيا الوسطى تحمل على الاعتقاد بـأنهم قـد سـاروا بمحاذاة النيل منطلقين من منابعه باتجـاه مصبـه إلى أن ألقـوا عصـا الترحـال لـدى اكتشافهم هذا الوادي الخصيب الغني بتربتـه، والمغمـور بنـور الشـمس، والكثـير الرواء. ولكن الحياة والخصب ليسا هبة مجانية، فقد تضافرت جهود المصريين مـع ما تمنحه الطبيعة السخية المعطاء، كما دافعوا عن أنفسـهم يـدرؤون عنهـم خطـر الحيوانـات المفترسـة الـتي كـانت تتهـدد أمنهـم وحيـاتهم، وتوزعـوا في جماعـات

تقاسمت فيما بينها «البلاد السوداء» فلم يكن ثمة ما يدفع بهم للنزاع والتنافس ليحصل كل منهم على نصيبه من وفرة الغلال وبحبوحتها مادامت «الأرض تمنح» بسخاء. إن مشهد بعض الظواهر التي أفسحت المجال لتأويلات غامضة والانطباعات التي تحمل الإنسان على التساؤل وتجربة موت الأقرباء، كل ذلك تبلور في ذاكرة سكان الكمت على شكل هذا التصور للكا الذي حدد سلوكهم في الحياة الدنيا ورسم آمالهم في الحياة الآخرة.

وجد المصريون في الـ«كا» روح كل كائن إنساني، ومحتوى الحياة الروحية للرجال والنساء كافة. فقد كانت العلم والوجدان معاً، بواسطتها يشعر الإنسان بالألم والكآبة وبالفرح والمتعة. كانت الـ«كا» أكبر من حواس الكائن الإنساني مجتمعة، إنها فوق الطبيعي وفوق المحسوس: كانت الوسيط السري بين الإنسان والقوى الـ«فوق طبيعية» آلهة الكل المطلق، في حين ان الكائن الإنساني مجرد جزء من هذا الكل غاية في الدقة والضآلة، تستقبله الـ«كا» في وقت لاحق، في كنفها إذا ما بقيت حية بعد الموت. بيد أن الإنسان لا يبلغ هذا الكل العظيم إلا إذا امتثل بأفعاله، على مدى حياته الأرضية، لتعاليم الآلهة ونواهيها ذلك لأن الآلهة هي التي تمنع أو تمنح حق البقاء.

إن لكل كائن إنساني، إضافة إلى الـ«كا» روحاً. وقد تصور المصريون هذه الروح طائراً له أجنحة سريعة ورأس بشري، كما تصوروها شبحاً ذي نزوات، وتركيباً عجيباً مثيراً للقلق يأتلف من الحيوان والنبات والإنسان. وقد عبد سكان وادي النيل، على اختلاف طبقاتهم، إلى جانب آلهة الأرض والماء والهواء والضوء والظلمات والعديد من الآلهة الثانوية التي تستثير ضروباً متعددة من أسرار نمو الحيوان والنبات، عدداً من الحيوانات التي يرهبونها: الحيوانات الأليفة، والتماسيح، وبنات آوى، والأفاعي، والحيوانات التي أبعدت عن المنطقة أو تلك التي اختفت وتوارت، فقد كانت هذه الحيوانات شياطين طيبة أو خبيثة وأرواحاً نافعة أو أعداء غير مرئيين لا تمنع أذاها إلا التعازيم.

كادت جميع تمثيلات الميتولوجيا المصرية ان تكون موسومة، إلى حد ما، بأصل حيواني، إن وجوه الآلهة كانت تختفي خلف أقنعة حيوانية، كما كانت تنتهي مؤخرتها بذيول بنات آوى الناعمة الملساء. كان الأجداد الأقدمون يرهبون الوحوش التي لازمت سكناهم، فقد ناضلوا طويلاً للتغلب على الحيوانات الكاسرة والقضاء عليها. كما ان ذكرى هذا العراك بقيت مستحكمة راسخة في الأذهان على الرغم من تصاريف الدهر وتعاقب الأزمان، وارتبطت تمام الارتباط بالمفاهيم الدينية. وكان التمساح من أكثر الشياطين الحيوانية رهبة ومهابة في حين كان الثور من أحبها إلى قلوب المؤمنين، إذ يرى الرجال في مقدرته الذكرية مثالاً يحتذى وأمنية مشتهاة لكنها، بكل حسرة، صعبة المنال لا تضاهي. وكان بمقدور التيس وحده، من بين كافة الحيوانات، أن يأمل، إلى حد ما، بمجاراة فحولة الثور المعبود. وثيران آبيس المقدسة هي تلك الثيران التي ترتسم على رقابها بقعة على شكل هلال قمري في ربعه الأول. وفي مراع أعدت خصيصاً، كانت الثيران المختارة تلهو بالأبقار وتتمتع بها وتظهر للمؤمنين قدراتها على الإنجاب. كان ثور آبيس يرمز إلى القوة الذكرية بكمالها وتمامها ويوزع الكفاءات الجنسية على الإنسان والحيوان معاً.

عندما اتحدت قوى وادي النيل للإفادة من الفيضانات السنوية والتوسع بزراعتها بفضل الري، انضوت تحت سلطة الزعماء الذين تعاظم نفوذهم لنجاحاتهم التي تؤكد رشاد توجيهاتهم وصلاح أسسها ومنطلقاتها.

وحمل ازدياد السكان والرفاهية المتناميان، الزعماء الذين اكتشفوا «أسرار الطبيعة» على التجمع في «البيت الأعظم» يتبادلون فيه معارفهم للإفادة منها في سبيل النفع العام والمصلحة الشخصية أيضاً. وقد سمي «البيت الأعظم» بالفرعون، والفرعون لفظ كان يعني، في المقام الأول، المنزلة الرمزية، فأصبح، من ثم، لقباً للزعيم الأعلى. وغدا الفرعون، بفضل أعماله السامية، الحاكم المبجل والإله المعبود.

كان الفرعون «الحائز على علوم السماء والأرض» و«السيد الأعظم بين الرجال العارفين»، التجسيد الأرضي للآلهة التي أنيطت بها حياة الرعايا الأرضية وحياتهم بعد الموت، تلك الحياة التي لا يشارك فيها إلا أولئك الذين يخضعون للقوانين الأخلاقية التي أُعلن عنها باسم الفرعون.

و لم تقتصر، بالطبع، مراقبة الخضوع للتعاليم الأخلاقية والإشراف عليها، على من صاغها وأصدرها: الفرعون وكهنته، ذلك لأن القانون لم يكن مجرد قانون أرضي بسيط بل كان في جوهره قانوناً إلهياً. وعلى الـ«كا» التي تبقى حية بعد موت الجسد، ان تقدم بياناً إلى المحكمة العليا «فوق الطبيعية». فالمصري كان يجهد طوال حياته في الامتناع عن القيام بأي عمل محظور يقف حائلاً دون تمتع الـ«كا» بالخلود. والحال هذه فإن الجميع يسعون جاهدين للتقيد بالقواعد. كما أن الفرعون «بخاصة» وهو الإله الفاني في الأرض، لا يبلغ الخلود إلا بعد موته، إذ يخضع هو الآخر، على الرغم من سلطانه اللامحدود، إلى الآلهة التي تستخدم شخصه الملكي لتتجلى من خلاله في العالم الأرضي.

أما فيما يتعلق باقترانه وزواجه فعليه ان يتقيد بالتقاليد الطقسية تلبية لمبدأ أسطورة الخلق ومراعاة لها: على كل فرعون ان يتزوج بإحدى أخواته ذلك لأن أول زوجين إلهيين كان يضم أخاً وأخته: إله الهواء شو وإلاهة الرطوبة تفنوت. وكذلك الـ«نون» أصل الأشياء كلها كان يقضي بأن يتزوج الفرعون بأخته. إن كل أميرة ينجبها فرعون «البيت الأعظم» كانت، في الأصل، قد أعلنت ملكةً منذ يوم مولدها، وأخوها، وقد غدا زوجاً لها، لا ينال لقبه ويبلغ مقامه إلا بعد تتويجه واقترانه بأميرة من «البيت الأعظم»(*).

(*) وهذا أثر باق من النظام الأمومي الأقدم حيث كانت السلطة تنتقل من الأم إلى الابنة، و لم يكن أمام الأخ في بدايات التحول إلى النظام الأبوي سوى الزواج من أخته لاكتساب الحق بالسلطة من خلالها ـ المحرر ـ.

صوره أكمر، أم الملكة حتشبسوت، قبر الملكة، الأسرة ١٨

إن الزواج بين الأخ وأخته كان شائعاً في أوســاط الشـعب أيضـاً، حتـى ان كلمتي الأخ والأخت كانتا تعنيان أيضاً الحبيب والحبيبة،

أنا أختك الأولى

وأنت لي كالروضة

لتي زرعتُ فيها الأزهار

والأعشاب العطرة جميعها

وأجريت فيها غديراً
لكي تضع فيها يدك
إذا ماهبت ريح الشمال الباردة
وهي المكان الجميل الذي ننتزه فيه
حين تكون يدي في يديك
يفكر عقلانا ويبتهج قلبانا
لأننا نسير معاً
إن سماع صوتك ليسكرني
وحياتي كلها في سماعك،
وإن رؤيتك
لأحب إلي من الطعام والشراب ـ عن قصة الحضارة ـ المترجم.

كما ان اقتران الأب بابنته لم يكن محرماً. إن مثل هذه الممارسات ـ الزيجات ـ التي أدانتها معظم شعوب الأرض بوصفها غشياناً للمحارم مازالت قائمة عند بعض المجتمعات الأفريقية ممن تتوافق أخلاقهم وتتماثل، في كثير من جوانبها، مع العادات المصرية القديمة، مما يحدونا إلى الاعتقاد بأن أوائل من استوطن وادي النيل قد قَدِموا إليه من أفريقيا الوسطى. ومع ذلك فقد أكد علماء الأجناس البشرية عكس ذلك: لقد تبنى سكان أفريقيا الأصليون العادات المصرية وبخاصة ما يتعلق منها بالاحتفالات «المسارة» بمناسبة ختان البالغين التي ابتكرها المصريون للاحتفال بنضج البالغين الجنسي. وكان الختان، أيضاً يقع على الملوك الفراعنة. وقد أطلعنا على ذلك من خلال ما جاء في إحدى الكتابات المنقوشة إذ تأخر تتويج أحد الفراعنة ملكاً على مصر «لأنه مازال حديث السن ولما يختن بعد»، فالختان كان أكثر من إثبات رسمي لأهلية البالغ للزواج، فقد كان عملاً صالحاً يتوجب على الآلهة الخضوع له على الرغم من طبيعة العملية المؤلمة.

تشهد على ذلـك الرمـوز القضيبية للإلـه أوزيريـس والإلـه آمـون ... إضافة إلى المسلات الصغـيرة ... المشـوي الملـون الـتي أعـد... حصيصـا لاحتواء قضبان الموتى و...ـفظها.

وليـس بالشـائن المعيـب، بالنسـبة للمصريين، أن يعـرض أحدهـم ذكـره على المـلأ، إن العضـو المذكـر في حالـه انتصابه، كما يتراءى لهـم، رمـز طبيعي في تكوين كل حياة.

والحال هـذه، فليـس ثمة داع لسـتر هـذا العضـو وإخفائـه سـادامت الآلهـة تعـرض أعضاءهـا علـى المـلأ ومـادامت الذكورة أسـاس كـل متعـة حسـية. إنـه نون، العماء، هذا الإله الذي تخيله المصريون شـبيهاً بكتلـة سـائلة لا حـراك فيهـا، هـو الذي أنجـب «بولادة مباشرة» إله الشمس

الفرعون توت عنخ آمون في شبابه

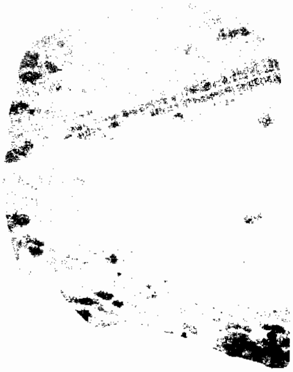

ر س منحوت، يعود إلى
الاسرة ١٣
متحف فيلادلفيا. نيويورك

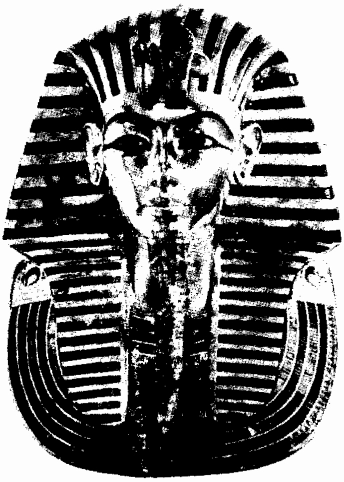

قناع جنائزي
لتوت عنخ آمون
الأسرة ١٨ -
من الذهب المرصع
بالأحجار الكريمة

رع وفقاً لأسطورة الخلق التي كان كهنة معبد هليوبوليس يُلقّنونها. أما رع فقد اقترن بذاته ليروي غليله وينجب أول زوجين إلهيين، وبذلك فقد كان الأب والأم في آن واحد. وعلى هذا فإن إله الهواء شو وإلاهة الرطوبة تفنوت قد ولدا من قطرات الدم المنبجسة من قضيب رع ومن منيه الذي أخصب رحمه الخاص. وبالفعل فإن المصريون يسبغون على إله الشمس إمكانات ذكرية وأنثوية سمحت بخلق وولادة أول زوجين إلهيين، ومن اقتران الإله شو بأخته تفنوت اقتراناً محرماً ولد إله الأرض جيب وإلاهة السماء نوت. اللذان تجامعا بدورهما، إذ استلقت نوت بدعة وحنان فوق أخيها، لكن أباهما أوقف عناقهما وفَصَلَهما رافعاً نوت لتنحني فوق أخيها كما القوس وتلامس الأرض بأطراف أصابع يديها وقدميها، بينما راح جيب المهجور على الأرض يتأملها من فوقه(*).

(*) في هذه الأسطورة أثر من الأسطورة السومرية حيث نجد الهواء انليل يفصل بين الأرض والسماء الملتصقتين - المحرر -.

منع إله الشمس رع كلاً من الأرض والسـماء مـن أن يتجامعا خـلال ٣٦٠ يوماً التي كانت تشكل، في البدء، السنة المصرية. ولكن ثوث إلـه الكتّـاب وحـامي العلوم الذي هزت مشاعره رغبة العاشـقين الظمأى، أوجـد خمسـة(*) أيام جديـدة كانت تنقص، حتى ذلـك الوقـت، التقويـم المصـري. وهكـذا فقـد أمكـن للسـماء والأرض، دون معصية أوامر إله الشمس، أن ينعمـا، في كـل سـنة، بـاللذة والمسـرة خلال خمسة أيام ببياضها وسوادها، ومن اتحادهما انجب العاشقان أوزيريس وأختـه إيزيس وسيت وأخته نفتيس.

العقرب برأس ايزيس

واقترنت إيزيـس بأخيها أوزيريس كمـا تـزوج سـيت بأختـه نفتيـس، ومـع تعـاقب العصـور اتخـذ أوزيريس، في مخيلة المؤمنين، أشكالاً عدة.

في البدء كان إلهاً للقمر وحجب «ضوءُ إسمه المقدس» بهاءَ إله النيل حابيس (حابي)، ثـم أصبح إلـه النيـل المعطـاء ورمـز بموتـه ونشـوره إلى انخفـاض مياهـه وارتفاعها. وقد ارتبط هذا التماثل بأسطورة جعلت من أوزيريس إله «الحياة عند الموت» كما ارتبط بالعبادة التي كرسـت لـه بوصفـه «إلـه اسـتمرار كـل مـاهو أبدي» و«إله تحول الأشياء الأبدي».

(*) وهي تلك الأيام التي أطلق عليها الإغريق اسم النسيء والتي تطابق بين التقويـم القمـري والتقويـم الشمسي - المحرر - - المترجم -.

ففي المعابد التي تمثل «جلال أوزيريس بتمامه» يدل قضيبه الضخم المنتصب على أن الإله يحافظ على خلود القدرة الذكرية حتى في العالم الآخر، إذ كانت تتوفر فيه كفاءات الثور والتيس الجنسية. فقد كان باعثاً للذكورة بشتى صورها وموزعاً لنشوة الحواس برمتها، كما أنه لم يقتصر على منح المتع الجسدية للرجال فحسب، بل كان يمنحها للنساء أيضاً على أن يحملن تحت مآزرهن تمائم تستنسخ عضوه الإلهي. وقد حظي أوزيريس، بوصفه سيد «هذه الحياة التي لا تنتهي في اللحد..» و«راعي النشاط الجنسي» بشعبية واسعة جعلت منه موضوع العبادة الرئيس، في حين تقلبت شعبية غيره من الآلهة.

كان التخيل المبتكر لموت أوزيريس وخلوده تخيلاً إلهياً وإنسانياً في آن واحد، فقد أنسن أعمال الآلهة وأدخلها في دائرة الحياة اليومية، فجاءت شديدة القرب من الأذهان وبدت مقنعة بصدقها وصحتها على الرغم من تكذيب الخبرة الحياتية لها. كان أوزيريس الضحية البريئة لخيانة غادرة وغيرة خسيسة. فقد اختلست منه حياته غيلة وغدراً ولكنها أعيدت إليه من أجل الخلود بفضل زوجه إيزيس ووفائها له، أضف إلى ذلك أن أوزيريس كان إله المصريين الأثير.

حقد سيت، إله الظلمات والجفاف، على أخيه أوزيريس لتهديد هذا الأخير له بالغرق في فيض أمواج النيل المتعاظم. ثم ان سيت كان يحسد أخاه على ما ينعم به من اعتبار وتقدير في السماء كما في الأرض، وعلى ما يتمتع به من فحولة لا تضاهى، وعلى ما كانت تكنه له إيزيس الرقيقة، بخاصة، من حب دائم مقيم. ولإغواء أوزيريس، الطاهر الذيل والجامح الرغبة، حمل سيت أخته وزوجه نفتيس على سرقة رداء ايزيس المضمخ بالعطور وطلب منها أن تستلقي على مضجع أوزيريس الذي خالها إيزيس لحسن تنكرها وعظيم شبهها بزوجه، فغشيها إذ أعمت بصيرته غريزة طاغية. وحدث، حقاً، ما كان سيت قد تخيله: فما أن ضاجع أوزيريس نفتيس الشبقة، لاختلاط الأمر عليه بفعل عطرها، حتى أثملته لذة عارمة وأخذه نوم عميق، فاستطاع سيت، إذاك، قتل هذا الجسد

المسترخي والفاقد الوعي.. وقطع جثمانه أشلاء. جمعت أزيس أشلاء زوجها وأخيها الغالي المبعثرة التي وجدتها جميعها ما خلا القضيب الذي ألقي به في مياه النيل فابتلعته احدى أسماك الحنكليس (منه جاء تحريم أكل السمك على الكهنة المصريين). وصار بمقدور إيزيس، منذ ذلك الحين، أن تقوم بمراسيم الموتى ودفنهم. كان ينقص جثمان أوزيريس عضو الذكورة، العضو الذي لابد منه للإنسال، و«همزة الوصل بين الأزمان». ثم ان القوانين والأحكام التي أصدرها أوزيريس نفسه تقضي بأن يكون جثمان الميت كاملاً ليحق له الاستمرار بالحياة بعد الموت. وفقدت إيزيس كل رجاء، لكن أنوبيس، ثمرة اقتران أوزيريس بنفتيس والمولود بعد موت أبيه، هب إلى نجدتها وجمع أشلاء جثة أوزيريس بدقة متناهية فبدا الميت حياً واستبدل القضيب المفقود بقضيب اصطناعي. وأمام هذا الجسد المكتمل الأعضاء والملفوف بالكتان، والمشدود بالأربطة، جلست إيزيس القرفصاء وشرعت باحياء القضيب المستعار فأدخلته بفيها ونفخت فيه من أنفاسها الإلهية. إن هذه الحركة المخصصة لإنعاش وإحياء عضو الذكورة الخامل تدخل في عداد المداعبات الطبيعية التي تتضمنها ألوان الضم والعناق والتقبيل الغرامية، فجعلت منها إيزس شعيرة مقدسة إذ استطاعت، بفضلها، أن تبعث في أوزيريس المتوفى القوة مرة أخرى. ومن اتحادهما الجديد ولد حورس، إله الشمس، الذي يشرق كل يوم على التوالي في السماء اللازوردية منتصراً على سيت ومبدداً ظلماته بسلطان أشعته منتقماً لأبيه. أما أنوبيس فقد أصبح معلم المحنطين، الذين يجهدون في الحفاظ على سلامة جثمان الميت وتمامه، وفق ما تقتضيه الديانة المصرية.

وعلى الرغم من كون حورس إلهاً للشمس فإنه لم يتماثل مع رع ولا مع آمون ـ رع (الاسم الذي كان يعبد من خلاله إله الشمس في الجنوب) وهكذا فإننا نجد آلهة تتماثل فيما بينها تماثلاً كبيراً لكن المؤمنين كانوا يتضرعون إليها تحت تسميات متعددة ويعبدونها تبعاً لطقوس متنوعة، وقد توقف ذلك على ما كان يمنحه مختلف الملوك الفراعنة من إيثار لهذا أو ذاك

من الآلهة، كما كان يتوقف أيضاً على التنافس الدائر بين الكهنة الذين يرئسون العبادات ويشرفون على المعابد أكثر مما كان يتوقف على الاختلاف في تقدير فوائد الآلهة وفاعليتها.

وقد اختلف ما حظي به مختلف الآلهة من تقدير تبعاً لعملية التطور نفسها التي سارت عليها شعوب بلاد الرافدين، إذ كان المبدأ: الناس على دين ملوكهم، هو المبدأ الذي يبت في أمور الإيمان والأخلاق، ما خلا بعض الاستثناءات. ذلك أن أوزيريس قد تمتع بالحظوة نفسها في جميع الأراضي المصرية. وعلى مدى آلاف السنين، اكتملت أسطورة انبعاثه، بعد اغتيال سيت له وإحيائه بفضل إيزيس، بالعديد من التزويقات والتفاصيل المستحدثة مما أدى إلى تبوئه بالمقام الأعلى بين الآلهة.

وسوف لن تفنى «كا» كل إنسان بعد وفاته إن تمكن من اللحاق بأزويريس واستطاع أن «ينصهر في أوزيريس» إله الخلود «لأن أوزيريس لم يمت» ومن ثم فإن هذا الإنسان سيعيش إلى الأبد.

جسدت إيزيس أرض وادي النيل الخصبة، المحتفية بالبذور، وغدت بفضل إخصابها السنوي بلقاح أوزيريس موزعةً للغلال والمحاصيل. كانت تعلم النساء الأعمال المنزلية وفن المداعبات الغرامية، وتُبارك الحبل والحمل، كما كانت ممثلة للحب الأمومي. وكان المصريون أثناء الانقلاب الشتائي يعرضون تمثالها على شكل أم شابة ترضع وليدها الحديث العهد حورس.

كان المصريون في معابد إيزيس يخصصون لأخت أوزيريس وزوجه قضيباً يقوم بصنعه الكهنة ويحملونه في مقدمة تطوافهم وهم يغدقون عليه المديح.

وقد شجعت أسطورة القضيب الاصطناعي، المستخدم لتخليد اتحاد الزوجين الجنسي بعد موت العشير الغالي، المهرة من الكهنة على صنع هذه المسلات الصغيرة اللطيفة لتحفظ فيها أعضاء ذكورة الأزواج المصنوعة من القماش والشمع، كما ضم «جرن القضيب» أيضاً كتابة منقوشة تشهد على رغبة الأرملة في استعادة

زوجها في العالم الآخر لتقترن به جسدياً. وقد جاء في أحـد النصـوص: «فهـل لي، أيها الغالي، أن أقوم معك بعمل الحب في العالم الآخر مرة أخرى؟».

تـرى هـل كـانت إيزيـس مدينـة للنسـاء المصريـات، اللائـي جعلـن منهـا حاميتهن، بما حظيت به من تقديـر باعتبارهـا زوجـة عاشـقة وأمـاً حنونـاً؟ أم ان أسطورة ايزيس قد أقنعت الأزواج بأن لنسائهم عليهم حقاً بمـا يهبنهـم مـن متع جسدية وأفراح عائلية. أم ان الأسـطورة، انطلاقـاً مـن هـذا الواقـع، قـد منحـت النسـاء المسـاواة في الحقـوق مـع الرجـال؟ وعلـى كـل حـال فـإن عبـادة ايزيـس وأوزيريس الثنائية كانت رمزاً للعلاقة الجنسية المثلى بين الزوجين.

فالنساء المصريات ما برحن يتمتعـن بـالحقوق الأمومية الـتي اندثـرت آخـر معاملها، آنذاك، في منطقة بلاد الرافدين. إن المشاهد المنقوشة على قطع الحجـارة التي بحوزتنا لتـدل علـى أن المرأة في وادي النيـل قـد شـاركت في الحيـاة العامـة، فكانت تأكل بصحبة الرجال وتشرب، وتمارس مهناً مختلفة، وتطـوف في القـرى والمدن بكامل حريتهـا، وتقـوم بـإدارة شـؤون منزلهـا وتتمتـع بأملاكهـا الخاصـة وتورثها، بدورها، لبناتها.

و لم يكن وضع ربة البيت ـ نبت بر ـ ليتزعزع إن كانت أماً. وقـد جـاء في التعاليم الأخلاقية التي تلقن للصبية المصريين في المدارس: «ينبغي ألا تنسى أمك.. ضاعف الخبز الذي تقدمه إليها، واحملها كما حملتك هـي مـن قبـل، فقـد كنـت حملاً ثقيلاً عليها.. وبعد أن أتمت شهور حملك ولدتك، لتحملـك علـى كتفهـا ثلاث سنوات أخرى وثديها ما فارق فمك، وهي لم تشعر، يومـاً، بـالقرف مـن أوساخك و لم تضجر منك، بل كانت تقول: ماذا أستطيع أن أفعل من أجله؟ ولما أدخلتك المدرسة وتعلمت الكتابة كانت تقف، في كل يوم، إلى جـانب معلمـك ومعها الخبز والجعة جاءت بهما من البيت.. فلا تدعها أبداً ترفع يديهـا إلى الإلـه مستجيرة به من إهمالك».

كانت التعاليم الأخلاقية تحمي الـزواج وترعـاه. فقـد وجـد المصريـون فيـه

هدفاً طبيعياً وبدهياً يتطلع إليه كل فتى بلغ سن الزواج. ونحن نقرأ في حِكَم بتاح ـ حوتب، الحكيم المرشد لأحد الفراعنة، ما دونه لابنه قبل عام ٢٨٠٠ للميلاد: «تزوج إن كنت أهلاً لذلك، وأحب زوجك في بيتها كما يليق بالزوج أن يفعل، املأ بطنها، واكس ظهرها، وأدخِل السرور إلى قلبها ما دامت لك. إنها مثال الحرث النافع لزوجها» ثم ينهي نصائحه على الشكل التالي: «... استجب، مادمت حياً، إلى جميع أمانيها، واحرص على تحقيق هذي الأماني وبذلك تستحث زوجك على البقاء بجانبك، وإذا ما عارضتها كان في ذلك خرابك». كان على الخطيب، أثناء عقد الزواج، أن يؤدي اليمين بإعادة البائنة إلى امرأته وتخصيص قسط من أملاكه الخاصة لها إذا ما تركها في المستقبل، سواء لأنه أحب امرأة أخرى أو لأنه قد فقد كل عاطفة نحوها. لكن تعاليم الزواج هذه كانت تتضمن بنداً أساسياً: «.... باستثناء حالة الخطيئة العظمى، الموجودة في النساء». والخطيئة العظمى هي العقم، مثله في ذلك مثل زنى المرأة الذي كان يشكل سبباً وجيهاً للطلاق، فإذا ما ضَبط الرجل زوجه متلبسة بالزنى كان في مقدوره أن يطردها من المنزل دون أن يعوضها بشيء. وبالمقابل فقد كان بإمكان الزوجة أن تعلم زوجها، طبقاً للأصول، أنها تريد أن تكون لرجل آخر، وتبين له طريقة تعويضها له عما سيلحق به من خسارة، دون أن يشكل تصرفها هذا حالة زنى. وإذا ما وقع ذلك كانت تكتب: «مادمت قد كرهتك وأحببت رجلاً آخر غيرك فإني أتركك بوصفك زوجاً، ولسوف أعطيك مكيالاً ونصف المكيال من الفضة وسأرد له، علاوة على ذلك، المكيالين ونصف المكيال التي كنت قد قدمتها لي هدية خطبتنا.»، وإذا ما عزم الرجل على هجر زوجه غير المذنبة فمن حقها البقاء في البيت. إن أقدم رسالة طلاق وجهت إلى امرأة هجرها زوجها ليلحق بامرأة أخرى بدأت بالتصريح الواضح التالي: «إني أهجرك، فأنت، من الآن فصاعداً، لست زوجاً لي..»، وكانت بعض النسوة، احياناً، يعقدن زواجاً مؤقتاً يحدوهن إلى ذلك هدف محدد وهو أن ينجبن أطفالاً شرعيين. فإذا ما بلغ

هذا الهدف غايته فإن سند فسخ الزواج يضع نهاية لهذه العلاقة: «ومـا أن أنجب أطفالي تكون قد قمت بإشباع رغبتي وأصبحت حـلاً مـن التزامـاتك الزوجيـة»، ولكي لا تقع النساء ضحية للخطيئة العظمى كن يلتزمن بالقيام ببعض الطقــوس. فكن مثلاً يعبدن ويتلمسن قضيباً مقدساً، أو كن يترددن على زيارة ثور أبيس في ممفيس. وأمام هذا الرمز الإلهي للقدرة على الإنجاب كـن يحسـرن تنانـيرهن عـن بطونهن ويتجردن من ملابسهن ليظهرن للثور المقدس ولأزواجهـن مـا يعتورهـن من رغبة في الجماع والإنجاب.

وقد يحدث ان تضـاجع نسـوة فقراء المزارعين أو البنـائين التيـوس (المعـز) يدفعهـن إلى ذلـك خـوف مروع من الخطيئة العظمى ـ العقـم ـ ويؤملن، بفعل ذلك، أن يخصبن ليمنعن أزواجهن من معاشرة نساء أخريـات رغبـة منهـم في الحصـول علـى الأولاد. ومـا تكشــفه لنـا النقـوش والصــور حــول عــادات وأعـراف نسـاء مصـر ورجالهـا لا تتعلق، إلا نـادراً بطبقـات المجتمـع الدنيـا. تــرى هــل كــان هــؤلاء يتقيـدون بالأغنيـاء مــن السـكان وذوي السلطان؟

أبو هول ممفيس

أم أنـهم كانوا جميعاً يستسلمون، ببساطة، إلى ما فُطروا عليه من غرائز في أكواخهـم الضيقـة والمصنوعـة مـن كتـل الطـين الجـاف؟ أم أنهـم كـانوا يخضعـون إلى نواظـم أخلاقيـة شـائعة؟ فنحــن لا

نستطيع أن نقيم الوقائع بالدليل القاطع، إذ لم يكن ليتوفر للمعوزين تحنيط جثمانهم عندما يموتون أو أن يشتروا لأنفسهم القبور الباهظة التكاليف، بحيث يمكن لنقوش لحودهم أن تنقل للأجيال القادمة واقع ظروف معيشتهم بدقة، بل إننا لا نملك وثيقة تكشف لنا بجلاء كيف كان يعيش هؤلاء العمال الذين أشادوا الأهرامات الهائلة والمعابد العظيمة وكيف كانوا يمارسون علاقاتهم الجنسية. جل ما نعرفه أنهم كانوا يسكنون بالآلاف في أكواخ أو تخشيبات مؤلفة من أعداد لا تحصى من صفوف الغرف الصغيرة المبنية من الطين والآجر. ومع ذلك فإن بالإمكان أن نفترض أن الحب كان يعود على هؤلاء أيضاً، على الرغم من بؤس حيواتهم وشقائها، ببعض المتعة.

لكننا نعرف، بالمقابل، من خلال العديد من الوثائق والبينات كيف بنى هؤلاء قصور الأغنياء وبيوتهم وكيف جهزوها. ففي الأبنية الفسيحة كانت تنتصب وتتوزع الخزائن المطعمة بالعاج، والأسرة، والكراسي، ومواطئ الأقدام، والمقاعد المرتفعة، والموائد، وقد رصعت جميعها بالمعادن الثمينة وتغلبت، بمتانتها، على عوادي الزمان ونوائبه. كما أننا نعرف، مما احتوته أضرحتهم، ما كان يفضله أغنياء المصريين من ألوان الطعام..

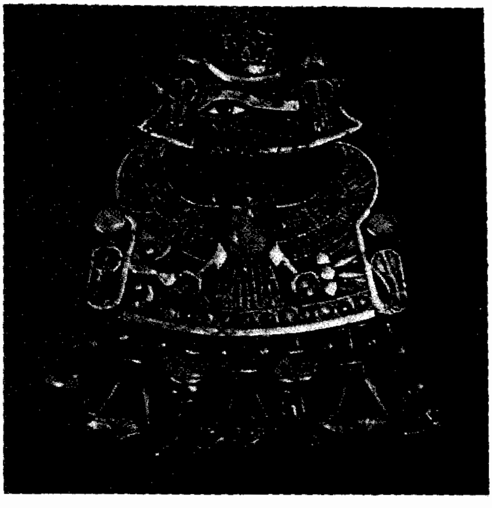

زينة للصدر، وفيها شعار الشمس والقمر، وتعود لتوت عنخ آموت، الأسرة ١٨ المتحف المصري، القاهرة

فعلى الجدران صور تمثل نذور الموتى الخاصة بإعالة الـ«كا» قرينتهــم. فهـم يؤملون مثلاً أن يتناولوا في عالمهم الآخر ما كانوا قد تناولوه من الطعام والشراب في عالمهم الأرضي: عشرة أصناف من اللحوم المتنوعة، خمسة أصنـاف مـن لحـوم الدواجن، ستة عشر صنفاً من الجعة، ألوان منوعة من الفاكهـة والحـلاوي، كمـا كـانوا يعـبرون عـن رغبتهـم في التمتـع باسـتعمال أدواتهـم وأمتعتهـم المفضلـة: الملابس، والحلي، ومستحضرات التجميل، التي كانوا يستعملونها خلال حياتهم.

وقد وضعت بعض النسوة المغناجات الأنيقات في غـرف أضرحتهـن أنواعـاً مختلفة من مساحيق الجمال ونوعين من أحمر الشفاه ليكون بوسع قرينتهن الرحيل إلى العالم الآخر بشفتين حمراوين وأظافر ملونة وخدين مخضبين متورديـن. وكـان من الضروري أن يوضع تحت تصرفهـن زيـوت معطـرة لشـعورهن وأجسـامهن، وخضاب أزرق لتكحيل جفونهن. فقد كشفت هذه الغرف عن كل ما يمكن أن يسهم في العناية بالجمال ويحافظ علـى الصحة في العـالم الآخـر: مرايـا، وأدوات تجعيد الشعر ودبابيسه، ومواسي، وكؤوس، وقوارير تحتوي علـى مراهـم وأدويـة أوصى بها الطبيب للمتوفى قبل موته: دم الضب المختثر ومخ السـلحفاة المهـروس وحليب امرأة نفساء أو بول امرأة طاهر لتكتمل بها الأدوية المتداولة والموزعـة في أوان من المرمر أو العاج أو الذهب أو البرونز.

ومع ذلك فإننا لم نعثر، في القبـور كافـة، علـى أثـر لتلـك الأدوات الواقيـة الصغيرة التي أوصى بها الأطباء لنســاء مصـر قبـل الميـلاد بـألفي عـام، وذلـك ان النساء اللائي يحرصن على تجنب تبعات العلاقات الجنسـية خـارج بيـت الزوجيـة كن لا يرغبن في توريث قرينتهن وزر مثـل هـذه الخطيئـة، لخشـيتهن مـن عقـاب يصيبهن بالعقم بعد الموت، كما كن يرغبن، في العالم الآخر في نسيان ما ارتكبنـه من شطط جنسي ومغـامرات عشـقية حتـى ولـو كـانت الشـريكة المحرضـة هـي الإلاهة حتحور اللطيفة. كانت حتحور إلاهة الجاذبية الجنسية والحـب بـلا قيـد، فكانت ترافع، في حضرة أوزيريس، بحسن بيانها وبليـغ لسـانها، عـن قضيـة مـن

ركن إليها من النساء اللواتي انتهكن حرمة الزواج.

الملك ميكيرينوس، تحوطه الإلاهة حاتوروإلاهة محلية، الأسرة الرابعة، المتحف المصري، القاهرة

واسم حتحور كان يعني: «مقر حورس» إذ كانت تستقبل بداخلها، كل ليلة، وبعد أن ينتهي من تطوافه الشمسي، الإله حورس الذي يحمل رأس صقر، وكان شعارها الحلقة «مينات». إن أياً كان، من الرجال أو النساء، امتلك أو لمس حلقة نالت التبريكات في معبد حتحور، سيحظى بكفاءة متميزة في ملذات الحب.

وكانت عابدات حتحور يستسلمن لرغباتهن إلى أقصى الحدود. فليس ثمة تعاليم تلزم الفتيات بصون عذريتهن حتى الزواج.

بل كن يتعلمن فنون الحب ويمارسنها على هواهن دون أن ينتظرن، بنفاذ صبر، زوج المستقبل.

فإن لم تف النظرة الغرامية بالغرض أتبعنها بالرسائل والقصائد الغرامية يتوجهن بها للرجل المختار ليكون حبيباً أو زوجاً:

«ياحلاوة الاستحمام في حضورك
في الماء، يبتل ثوبي الملوكي النسيج
ويلتصق بجسدي، فيتسنى لك مشاهدة جمالي
عندما أذهب معك إلى البحيرة
أجلب لك سمكة حمراء متلألئة كالمرآة تتمدد بجمال بين أصابعي

تعال انظر إليّ».

وبين أيدينا قصة لأحد العشاق وقد استجاب لدعـوة للاستحمام مـع مـن يحب: «فإذا ما ضممتها وقبلتها انفرجت شفتاها، وسكرت من غير خمـر..» ثـم يردف قائلاً: «... في الوسط من معقل جميلـتي بـاب مشـرع الأبـواب.» ولدينـا وثيقة من عهد الأسرة التاسعة عشرة أو العشرين تضرب نغمة حديثة علـى أوتـار الحب القديمة جاء فيها:

«إن غرام حبيبتي يقفز على شاطئ الغدير
وفي الظلام تمساح رابض
ولكنني أنزل إلى الماء وأواجه الأمواج
ويشتد بأسي فوق الغدير
ويكون الماء هو والأرض تحت قدمي سواء،
لأن حبها يملأ قلبي قوة.
فهي لي كتاب من الرقى والتعاويذ.
وإذا رأيت حبيبتي مقبلة ابتهج لمرآها قلبي
وفتحت ذراعي ومددتهما لأضعهما إلى صدري
وينشرح قلبي أبد الدهر... لأن حبيبتي قد أقبلت
فإذا ما ضممتها كنت كمن في أرض البخور
وكمن يحمل العطور،
وإذا قبلتها انفرجت شفتاها
وسكرت من غير خمر،
ياليتني كنت جاريتها الزنجية التي تقف بين يديها،
حتى أرى لون أعضائها كلها.»

وقد ارتاب الآباء والمربون من طيش الفتيات وسرعة استجابتهن وسخائهن ومهارتهن في السحر والإغراء، وها هو الحكيم بتاح حوتب ينصح ابنه بالتحلي بالحيطة والحذر: «فإذا أردت لصداقتك أن يطول عهدها في بيت نزلت فيه أخاً أو صديقاً، فاحذر الاتصال بالنساء أياً كانت الغرفة التي إليها تدخل، فلا خير لك في مكان حللن فيه، والرجال يفقدون الرشد لمرآى كشوحهن الرائعة.. وستدرك، إذاك، ان النساء أشد قسوة من جلمود الصخر، إن في طيشٍ لا احتراس فيه وهنيهات تتلاشى كما الحلم، موت محقق...» كما نقرأ في بردية أخرى: «احذر المرأة التي تأتيك من الخارج، المجهولة من أهل مدينتها. فإذا أتت لا ترفع بصرك إليها وتصرف كأنك لا تعرفها، إنها كالدردور في المياه العميقة لا يسبر لها غور ولا يعرف لها قرار. وإن امرأة غاب عنها زوجها وسألتك: ألست جميلة؟، فإن غاب الرقيب نشرت حولها شباكها. وما أشنعها من جريمة عقابها الموت إذا أصغى إليها الإنسان».

ولم تكن تستهدف هذه التحذيرات إلا النساء المتزوجات والفتيات اللائي يسعين إلى الزواج، إذ كان الرجال ينعمون بكامل حريتهم في إشباع شهواتهم الجسدية بين أحضان «الراقصات» اللواتي أطلق عليهن تورية «موزعات الفرح» بهدف إضفاء طابع مسكن غير مسيء على حضورهن في مجالس اللهو والطرب. ولم تكن هؤلاء الفتيات، المتمنطقات بزنانير بسيطة ضيقة يشددن بها أوراكهن، في عداد المدعووين، بل كن أعضاء في عداد الأسرة الواحدة، أما سيدة البيت التي كانت تزدهي بثوبها الفضفاض وقد عقدتها تحت نهدها الأيمن بإبزيم مرصع بالأحجار الكريمة، فلم تكن لتجد ما تعترض به على هؤلاء الرجال المنصرفين إلى تمتيع حواسهم متجاوزين حدود المتعة بالنظر إلى تلك الأجسام العارية الغضة الناعمة. كما أن انفراد الضيوف وسيد البيت بالراقصات كان يدخل في عداد تلك الترفيهات أو تلك المداعبات التي تتضمنها مآدب الأشراف التي تتضمن ألوان الخمرة والجعة

والمراوح المضمخة بالعطور والمصنوعة مـن الأريـاش الملونـة، تنعـش بحركتهـا الرتيبة الموزونة المدعوين الذين احتدمت في عروقهم رغبة عارمة.

«العطور والزيوت تُقدم إليك لتشمها
أكاليل من أزهار اللوتس لمحبوبتك
الجالسة إلى جانبك والساكنة في قلبك
دعونا نستمع للغناء والموسيقى
اقبلي أيتها البهجة ـ وليذهب الهم والغم
فسوف يأتي اليوم الذي نقترب فيه
من الأرض التي تحب السكوت».

[ـ من كتاب طيبة في عهد امنحوتب الثالث ـ ترجمة إبراهيم رزق ـ المترجم ـ].

ولا يرى المصريون، في العلاقات الجنسية العابرة أو الـتي حدثـت اتفاقـاً مـع فتيات لعوبات طائشات، علاقات عهر وزنى، فهذه العلاقـات لا تـدان بوصفهـا فسقاً، علـى ألا ترتكـب، قطعـاً، في أحـد الهيـاكل أو المعـابد أو أحـد الأمكنـة المقدسة، أو أمام أحد مذابح الآلهة، أو على مقربة من أحد الحيوانـات الإلهيـة. أو لَمْ تخلق الآلهة متع الحياة ولذائذها لينعم بها جميع الخلق؟ وكيلا يصيب من شارك في تزجيات الوقت هذه أي سوء، كان لابد لهذه التسـليات، مـن أن تنـال قبـول الزوجة فحسب، إذ كان بإمكانهم التبجح بممارسـة مثـل هـذه الملـذات الفـاجرة والإشادة بها، دونما مداورة، والتوصية بها أيضاً لقرينتهم في العـالم الآخـر، علـى مثال ما قام به كاهن آمون إذ كتب علـى ضريـح الفرعـون نفرحوتـف «احتفـل بيومك السعيد وضمخ أنفك بأطيب العطور، وزين منكبيك وجيدك بإكليل مـن الزهور، ولتكن أختك، الغالية على فؤادك، بجانبك، ولتصدح الألحان والأصوات العذبة تحف بك من كل جانب.» فالأخت هـي الزوجـة، والأخـوات العزيـزات على الفؤاد هن العشيقات والحظايا اللائي يجمِّلن حياة صاحب المقام، شـريطة أن تكون الزوجة راضية.

مقطع من تابوت يعود إلى المملكة الوسطى

وقد كان كبار السادة يقتدون، في حياتهم، بكل صغيرة وكبيرة يقوم بها الملـك: إن نمط حياته الباهظة النفقات وما ينعم به من حرية في السلوك والتصرف كانت لهم مثالاً يحتذى.

اقتضى العرف، الذي حافظ عليه المصريون، ألا يتسنم ابن البيت الأعظم العرش إلا بعد اقترانه بأخته، بيد أن الملوك لم يكتفوا بالزواج بأخت واحدة بل كانوا يضاجعون العديد من أخواتهم بل وبناتهم لضمان ذرية السلالة الملكية. ذلك أن الدم الإلهي للسلالة الملكية يحافظ على نقائه إن اقترن رجال البيت الأعظم بنسائه. وقد استساغ المصريون أن يسرح الملوك الفراعنة ويمرحوا مع بناتهم وأخواتهم، إذ رأوا في تصرفهم هذا تصرفاً طبيعياً للغاية. إن كل ما يجري في حرم قصورهم المقدس كان فائق السمو طاهراً وبريئاً.

فكان لابد للفرعون وأقربائه في البيت الأعظم من أن ينعموا ويتمتعوا بهذا الفصل الزمني من عمر قرينتهم ما بين الولادة والموت كما سينعمون لاحقاً بحياتهم القادمة، الحياة الحقة، ألا وهي الحياة الإلهية. ثم إن على الفرعون أن يمارس الجنس ويغشى النساء على هواه، وعليه أن يقنص ويصطاد إن استبدت به نزوة القتل أو يدجن طريدته، وعليه أن يلهو بصيد السمك ويتسلى بنصب الشراك للطيور، ليبرهن على أن سلطانه يطول مملكة الحيوان أيضاً. ففي الليالي الممطرة، التي لا تشجع على إقامة مجالس اللهو على النيل وضفافه، آثر الفرعون الترويح عن نفسه بالنرد والداما. كما أحب أيضاً مشاهدة حلبات المصارعة والملاكمة، بيد أن مشاركته فيها كانت بلا جدوى، فهل يليق بالفرعون أن يظهر للعيان ان ساعديه وساقيه الملكية أصلب أو أضعف من عود بني البشر؟ ذلك ان المصارعين والملاكمين على يقين من أنهم سيعرضون حياتهم للخطر إن هم تغلبوا على الفرعون أو على أحد أفراد البيت الأعظم أو على أحد أصحاب المقام الرفيع، فآثروا الهزيمة على الفوز. إن صراعاً هذا شأنه إذ انكشفت نهايته لم يكن إلا ليزرع الملالة في النفوس. ولسوف لن يمنح المتعة لصاحب المقام الرفيع إلا

إذ أتاح له صراع كهذا ممارسة بعض العنف، كأن يجرح عين أو قضيب خصمٍ ما برح، في جميع تحدياته السابقة، يرغي ويزبد إعجاباً وتيهاً. و لم يكن عقاب بتر الأعضاء الجنسية ليقتصر على الملاكمين والمصارعين الذين يظهرون على الملأ تفوقهم في الصراع. إذ كان العضو التناسلي لأحد الأعداء من أثمن الغنائم التي يفوز بها المحارب، ثم ان القائد الذي يطمح إلى إعلاء مكانته العسكرية كان يقدم إلى الملك، برهاناً على انتصاره، سلة طافحة بهذه الغنائم المثيرة للشفقة.

بيد أن الغنيمة السلبية تلك لم تعد تفي بالغرض مع اتساع حملات جيوش الفرعون، وإخضاع أقاصي البلدان وأبعدها وضمها إلى مملكة مصر العظمى. و لم يعد حرمان الخصوم والأعداء من أعضاء ذكورتهم مما يبهج ويسر إلا بقدر ما يرضي ذكورتهم الخاصة بهم.

وقد ألحق بالبيت الأعظم بيت صغير: بيت نساء الملوك الفراعنة الذين لم يكتفوا بأخواتهم وبناتهم، إذ جرى العرف أن يتلقى الملوك الفراعنة هدايا من أصدقائهم المغاربة أو جزية من البلدان المقهورة تضم أجمل فتيات الأقطار الأجنبية، وأن يطالبوا بنصيبهم من الغنائم فيختارون من أسيرات الحرب أكثرهن فتنة واغراء. مما أدى إلى تعاظم عدد النزيلات في بيت نساء الملك.

كان بيت النساء الملكي محكم الإغلاق، إذ قام على حراسته رؤساء الحرس، فحالوا دون أن تقيم «الحبيسات» ـ تلك هي التسمية التي كانت تطلق على النساء المكرسات للفرعون ـ أي اتصال مع الخارج. وقد حمل هؤلاء الحراس ألقاباً مثل: «ذاك الذي يحافظ على سجون الحظايا» أو: «ذاك الذي يقدم الحريم للملك ويحضر حفلات الرقص». وكان تحت امرة هؤلاء الخدم، المهيبين الحريصين على تهيئة الأجواء المناسبة واستبعاد كل ما يمكن أن يعكر صفو ملذات الملك الحميمة، جيش من الحرس والكتبة ينقلون إلى إدارة البيت الأعظم مطالب الحظايا ورغائبهن ويستلمون ما طلبن من حوائج: الجواهر والحلي والثياب والأدوات اليومية والحلاوى النادرة التي اضطروا إلى جلبها من البلدان

القصيـة، فـإذا مـا فـازت هـؤلاء النسـوة بحظـوة الفرعـون ومحبتـه، طلبن بعـض المأكولات النادرة فيؤتى بها من مواطنهن. وغالباً ما نالت الحظايا ألقابـاً رفيعـة، إذ أُطلق عليهن: «زينة الفرعـون» أو «تلـك الـتي تسـعد فـؤاد الفرعـون في كـل وقت». وقد ينجح أحياناً بعض من هؤلاء الحظايا، ممن برعن في فنون الحب، في أن يحتفظن، لسنوات عدة، بما فزن به مـن حظـوة وإيثـار لـدى الفرعـون، فيمنحهن الفرعون، سـاعتئذ، مهـراً سـخياً ويزوجهـن لأصدقائـه المقربـين أو الجديرين بهذا الشرف، ويفاخر هؤلاء الذيـن شـرفهم الفرعـون بحظايـاه بـأن ينقشوا على أضرحتهم: أنهـم عاشـوا حيـاتهم الزوجيـة مـع إحـدى سـراري الفرعون معبرين عن أملهـم في أن يـروا المحكمـة العليـا تـأخذ باعتبارهـا هـذا الشرف العظيم الذي تتمتع به قرينتهم.

لم يحظ بالدخول إلى بيوت نساء الملك إلا الخلص من الأصدقاء الحميمـين، وعلى هذا، لم يتوفر لدينا إلا النزر اليسير من الأدلة حول مـا كـان يجـري داخـل هذه البيوت. وتروي لنا واحدة من أوراق البردي أن الفرعـون كـان ينظـم فـوق مياه النيل ألعاباً مائية: «عشرون من الفتيات الأبكار بقدود لطيفة تشرح الصدر، ونهود عامرة، وشعور مجدولة، وقد خلعن ثيابهن واستبدلنها بقمصان من الشباك ذات الثقوب الصغيرة، ويجدفن بمجاديف من خشب الأبنوس المذهب».

وتظهر لنا الأشكال المنقوشـة على الحجـر أن كسـوة الفرعـون ونسـائه في البيت لم تتجاوز خفين للقدمين وزينة للرأس، إذ آثر الفرعون أن يكـون والنسـاء اللائي يتحدث معهن ويمرح عراة.

وقد ضم بيت النساء، إضافة إلى الحظايا، ما أنجبنه من أولاد للفرعـون، يضطلـع بتربيتهم مربون خاصون يعملون على تهيئتهم ليشغلوا المناصب العليا في كل من البيت الأعظم والمعابد، فقد ولد للفرعون رمسيس الثاني، في بيـت النسـاء، أكـثر مـن مئـتي طفل، نصفهم في الأقل، من البنات يُهيأن ليصبحن زوجات لذوي المقامـات الرفيعـة. وكان لابد من موظفين كبار ليشغلوا المنـاصب الرئيسـة في البـلاط والسـلطة لخدمـة

الفرعون نفسه. وقد كان هؤلاء الموظفون على اتصال مباشر بالفرعون الذي كان يربطهم به بروابط عائلية، وذلك من طريق تزويجهم بناته من حظاياه، حرصاً منه على ضمان ولائهم له وتفانيهم في خدمته.

وقد رأى القادة والحكام وممن كانوا يشغلون المناصب الإدارية العليا، في الوقوف على خدمة الفرعون وتزيينه شرفاً رفيعاً، فكانوا يتعلمون فن قص الشعر وحلق اللحية ليستطيعوا، من ثم، أن يضيفوا إلى ألقابهم المهيبة لقباً آخر جديداً مثل: «المكلف بالجمال الملكي». ويتدربون على قص الأظافر وتدريمها ويتنافسون على شرف الاعتناء بيدي الفرعون وقدميه. ويبتكرون خلائط ذكية الرائحة من خلاصة العطور. لتنشر على بشرة الفرعون وأنفاسه أريجاً كأريج «أزهار الحديقة». ويتلقون فن ترجيج الحواجب، على أيدي مصورين مهرة، ليخرج الحاجب من تحت أناملهم تام القوس. كما كانوا يتعلمون تلوين خدي الفرعون باللون الأحمر الخفيف وشفتيه باللون الأحمر الداكن.

وكان الفرعون إذا ما عدل عن خدماتهم ومبادراتهم، مؤثراً أن يعهد بزينته إلى مختصي العناية بالجمال، تفاخرت حاشيته بإلباسه ثيابه، أو بوضع التاج على رأسه المهيب، ولقبوا أنفسهم باعتزاز «المكلفين بالإشراف على زينة الفرعون». فارتبطت كل قطعة من ثيابه بوظيفة يتباهون بها فينقشونها على أضرحتهم. وكنا نجد «المكلفين بصندوق مستحضرات التجميل» و«المكلفين بأقلام الزينة» و«حامل خفي الفرعون» «ذاك الذي يصير جديراً بالسهر على تنفيذ القانون». غير أن حيوات هؤلاء وبخاصة موتهم لا يمكن، في كل الأحوال، أن ترقى، ببهائها ومقامها، إلى مستوى حياة الفرعون وموته، على الرغم من ألقابهم الرنانة وانتسابهم إلى الطبقة الراقية التي تزداد قوة وثراء مع تعاظم سلطان الفرعون، وعلى الرغم من حياة الترف والبذخ التي يحياها الرجال والنساء من أقرباء الفرعون ونسبائه. ثم ان للفرعون عليهم جميعاً سلطاناً ونفوذاً طاغيين، إذ كان بمقدوره أن يقيم الدليل على تحدره المباشر من الإله. فكان لابد للفرعون من

برهان كهذا، وذلك ما تؤكده أسطورة أحد الرسوم المحفورة على الحجـر، وتمثـل رجلاً وامرأة يتجامعان، ذلك ان حتشبسوت، بنت تحوتمس الأول، زوجة أخيهـا لأبيها تحوتمس الثاني، التي حكمت مصر بعد وفاة زوجها، قد أرادت من خـلال هذا النقش أن تقيم الدليل القاطع على أصلها الإلهي لتبديد كل الشكوك الممكنـة حول ذلك، فرسمت أمها أحمسي تلهو وترتع مع الإله آمون ـ رع في سرير الأبهة والعظمة وقد احتضنته مطبقة عليه بساقيها بعد أن اتخذ الإله شكل زوج أحمسي، الأب الحقيقي لحتشبسوت. وتكشف لنا الكتابة المنقوشة أن القصة برمتها ليست سوى اختراعاً. «... وهذا ما قاله الإله آمون ــ رع، ملـك الآلهـة، حينمـا اتخذ شكل هذا الرجل، ملك مصـر العليـا والسـفلى، تحتمـس الأول، إذ وجـد الملكة مستقلية على السرير في قصرها البهي، فأيقظها فيض عطر الإلـه ونـوره وافتتنـت به، وما ان اقترب منها حتى امتلكها، مسنداً صدره إلى صدرها، فتجلى لها إلهـاً، وحين قدومه اجتاح الملكة، لمرأى جمال الإله، إحساس فـائض،.. كـانت أنفاسه وأطيابه تنشر أريجها.. فانساب حب الإله في كيانها، كما انساب عطره في كـل جوارحها..« وهذا ما قالته زوجـة الفرعـون، الملكـة أحمسـي، إلى آمـون ــ رع: «لكم هي عظيمة أنفاسك، وها أنا بكامل أعضـائي أتشـرب نـداك.» فقـال لها الإله بعد أروى غ ليله منها: «أنت يـازوج آمـون، الأولى بـين النبيـلات، نبيـلاً، حقاً، سيكون اسم ابنتك التي ستخرج مـن بطنـك، لأن مـا جـرى عليـه لسـانك كان نبيلاً. وسوف تسوس هذا البلد من أدناه إلى أقصاه بسلطانها الزاخر بطيـب أعمالها، لأن روحي حلت فيها وإرادتي ملـك لهـا وتـاجي يتـوج رأسـها، كيمـا تحكم المملكتين وتقود قرينة الأحياء أجمعين».

ولابد أن تستسلم قرينة الأحياء منقـادة لها وذلـك لأن هـذه الصـور الجميلة المتآلفة مع التقاليد العريقة تهدهد المخيلة.

وقد هيمن على المصريين، خلال آلاف من السنين، الإيمان بآلهة تجسد كـل الظواهر الطبيعية تحت أشكال إنسانية أو حيوانية، كما هيمنت عليهم أيضاً فكرة

السفر الطويل الذي يتحتم على الـ«كا» القيام به بعد الموت.

تمثال معبد رمسيس الثاني، منحوت في الصخر،

أبو سنبل (سيمبل) الأسرة ١٩

جذع تحوتمس الثالث يعتمر تاج مصر العليا الأبيض، الأسرة الثامنة عشرة،
المتحف المصري، القاهرة

وأثناء هذا السفر سيتهدد الـ«كا» تصاعد للشر غير مرئي وشياطين من كل نوع، تلك المخلوقات الخطيرة التي تؤازر الإلاهة معاتي (معات) «حارسة النظام والأخلاق» التي كانت تنتظر، بدورها، الـ«كا» في قاعة رحبة مع أربعة وعشرين(*) من القضاة. عندئذ تقدم الـ«كا» بياناً عن حياتها الأرضية وتسعى لتظهر امتثال أعمال حياتها (الأرضية) للقوانين الأخلاقية الأساسية الأربعة والعشرين.

فإذا انقضت هذه الأيام السبعون غسلوا الجثة ولفوها كلها في أحزمة من القماش المشمع (قماش بيسوس)، وغطوا هذا القماش بطبقة من الصمغ الذي يفضله المصريون على الغراء، وبعد أن يتم هذا كله يسترد أهل الميت الجثة ويصنعون لها صندوقاً من الخشب على صورة إنسان يضعونها فيه فيحكمون إغلاقه ويودعوه لحداً وهو واقف مستند إلى الجدار...» (قصة الحضارة ـ المترجم ـ).

ثم ان بصيرة معاتي النافذة كانت تكشف جميع الأسرار، فقد اكتسبت، بفضل خبرتها المتراكمة في ممارسة وظيفتها العليا، مثل هذه المعرفة عن الحياة الدنيا ومثل هذا الذكاء والفطنة في اكتشاف البواعث التي تتصرف بالإنسان وتتحكم، وغدت على علم بجميع أسرار الأفعال الإنسانية وخفاياها. أضف إلى ذلك أنها كانت تتمتع بامتياز ومزية حياتها الزوجية مع ثوث، إله العلم والكتبة، إذ درج الكتبة على البوح، لحاميهم، بأسرار الموتى بتسجيلها في جميع الصور والكتابات التي ينقشونها على الحجر أو تلك التي يصورونها على ورق البردي. كانت معاتي زوجة أخ أنوبيس ونجية الابن الذي أنجبته نفتيس من أوزيريس، ذلك الابن الذي ساعد إيزيس في ترميم جثمان أبيه فغدا معلماً للمحنّطين، فكان يعرف تمام المعرفة بنية المخ والقلب والكبد والكليتين والأحشاء التي تستأصل من الجثة بمهارة فائقة قبل تحويلها إلى مومياء ووضعها في اللحد. إننا مدينون لهيرودوت بتقريره المفصل حول المحنطين وفنهم: «أول ما يفعله المحنطون أن

(*) في كتاب السيرويس بدج: الديانة الفرعونية، ترجمة وتقديم: يوسف سامي اليوسف بلغ عدد القضاة اثنين وأربعين قاضياً. ـ المترجم ـ.

يستخرجوا المخ من المنخرين بخطاف من الحديد، فإذا ما انتزعوا جـزءاً منـه بهـذه الطريقة أخرجوا ما بقي منه بإدخـال بعـض العقاقـير فيـه، ثـم يفتحـون فتحـة في جنب الميت بحجر حاد ويخرجون جميع أحشائه، فـإذا مـا غسـلوا البطـن ونظفـوه بنبيذ الخل رشوا عليه العطور المسحوقة، ثم ملؤوا البطن بالمر النقي وبعطر العشـبة وغيره من العطور، وأعادوه بالخياطة إلى ما كان عليه من قبل، فإذا ما فعلوا هـذا كله غمروه في منقوع مركبات النطرون وتركوه فيه سـبعين يومـاً، وتركـه أكـثر من هذا الوقت مخالف للقانون.

تابوت على شكل مومياء
قبر توت عنخ آموت،
نهاية الأسرة الثامنة عشرة

كانت معاتي على علم تام بخفايا الميت وأمانيه الحميمة، إذ كـان بمقدورهـا أن تقرأ ما دونته أسرته على ضريحه، فيجيء حكمها معصوماً من الخطأ، وبمـا أن

هذه الإلاهة العظيمة كانت امرأة، فقد أعلت من شأن ما يكنه الرجال من احترام وتكريم لنسائهم، فأشادوا بنسائهم بما سجلوه على أضرحتهم: «إنهن مثال يحتذى في التقوى والمحبة والرأفة واللطافة تجاه الغير» و«مثال للاحتشام والرزانة في أفعالهن وحركاتهن ومظاهرهن». وقالوا عنهن: «نصيرات الضعفاء». ومجدوا ما اتسمن به من «احترام للفقراء» و«إخلاص لسادتهن» فمن كرَّم زوجه وأشاد بعفتها كان جديراً بتقدير معاتي له، اللهم إذا بلغ تهتك الزوجة ـ موضوع المديح ـ ، من الوضوح والجلاء، حداً يستحيل على معاتي والزوجة تجاهله.. فيغدوا المديح الكاذب، في هذه الحالة، خداعاً بيناً، ولا يعد، البتة، أكذوبة خيِّرة يقبل بها الكهنة وتغض معاتي الطرف عنها.

كانت فضيلة كاهنات المعبد، الرفيعات المقام، فوق كل الشبهات، إذ أُطلق عليهن: «خطيبات الإله» أو «العابدات الإلهيات»، إنهن بنات الفرعون أو حفيداته المولودات في البيت الأعظم، فكن أثناء الاحتفالات الرسمية، يوجهن الراقصات والموسيقيات اللائي ينهضن بأعباء الدين. ونحن لا نملك، باستثناء منحوتة صغيرة تمثل عناقاً عشقياً للإله آمون ــ رع وقد احتضن بقوة الأميرة اميناردیس، إلا القليل من التلميحات حول العلاقات الرقيقة الطبيعية القائمة بين هؤلاء الخطيبات الورعات والآلهة وكهنتهم، ففي معبد آمون ـ رع كانت تعيش «المنزويات الحبيسات» من الموسيقيات والراقصات اللواتي يحتجزهن الكهنة في بيت النساء تحت حراسة مشددة على غرار بيت حريم الفرعون. وقد أثار نفاق كهنة آمون ـ رع الفاسق سخط الفرعون أمينوفيس الرابع، فجعل من الشمس الإله الأوحد، ذلك لأنه ليس للعالم إلا إله واحد هو آتون، وحظر عبادة إله آخر غيره في مملكته، واستبدل باسمه اسم إخناتون (آتون راض).

وآتون، لقب للشمس بوصفها القوة الذكرية للحرارة ومصدراً للحياة. فكان لابد من أن يحل هذا الاسم، من الآن فصاعداً، محل «الله» إنه اسم للخالق ودليل على كل حياة. بيد أن تلك الفترة الوجيزة التي جلس فيها الملك اخناتون

على عرش مصر لم تساعد على انتصار مبادئه الأخلاقية الصارمة، كما أن اقترانه المثالي بنفرتيتي الجميلة لم يترك أي أثر في التقاليد القديمة، ذلك أن الإيمان الراسخ، منذ القديم، في الاستمرار في العالم الآخر وفي اتحاد الـ«كـا» مع أوزيريس في الحياة المقبلة الشبيهة بانبعاث أوزيريس، قد انتشر من طريق الكتابة الهيروغليفية التي ما برحوا ينقشونها على الحجر، في الوقت الذي كان يعمم فيه الكهنة قواعد سلوك الـ«كا» بنشرها في أوراق البردي. فمن وجد في حوزته، حين وفاته، واحدة من أوراق البردي هذه المسماة بـ«كتاب الموتى» وقد دفنت مع موميائه، ضمن لقرينته دليلاً ثميناً يقوده إلى أوزيريس ويبلغ به الانبعاث من جديد، وما عليه إلا أن يتبع ما تضمنته من تعليمات لكي يتغلب على العقبات الخادعة التي ينصبها، في طريقه الشياطين.

ويشير كتاب الموتى، كلمة فكلمة، إلى الاستجواب الذي ستخضع له «الكا» في محكمة معاتي العليا مع قضاتها الأربعة والعشرين قبل اندماج الـ«كـا» وانصهارها في أوزيريس، الحي أبداً. ولا يعني ذلك أن على الـ«كـا» أن تجيب، من خلال مواجهة معارضة، على أسئلة القضاة، إذ تقتصر تصريحات المتوفى واعترافاته على تأكيد صريح بأنه لم يرتكب قطعاً عدداً من الأعمال التي تستوجب اللوم، ذلك أن اعتراف الـ«كا» كان اعترافاً سلبياً.

وهو عبارة عن مرافعة يشهد بواسطتها المتوفى أنه لم يخالف التعاليم الأخلاقية وبنود الإيمان التي يقوم عليها النظام الاجتماعي المصري، وليس ثمة أوامر في كتاب الموتى، فهو لم يقل: «عليك أن تحيا هكذا..»، بل هو كتاب يتضمن محرمات لن يستطيع كل من يخالفها، أثناء حياته الأرضية، أن يفوز ببراءته من القضاة الأربعة والعشرين، ويفقد، من ثم، كل حق من حقوقه في الحياة الأبدية، كان على المتوفى، والحال هذه، أن يقسم بأنه لم يرتكب إثماً قط: «إنني لم أنتهك، البتة، حرمة الزواج في مكان مقدس»... «إنني لم أرتكب اللواط قط»... «إنني لم أصم أذني عن نداء الحق والعدالة».. «إنني

لم أكن قط عنيفاً مع إنسان واحد».. «إنني لم أضاجع، يوماً، زوجة أحد».. «إنني لم ألعن الآلهة مطلقاً».. «بل امتنعت، طوال حياتي، عن الاتيان بكل عمل يثير اشمئزاز الآلهة». وتؤلف مختلف بنود هذه المرافعة تعداداً مفصلاً للمحرمات التي فرضها الكهنة، باسم الآلهة، على الشعب المصري والتي تتوعد مرتكبيها بحرمانهم كلياً من الحياة الأبدية.

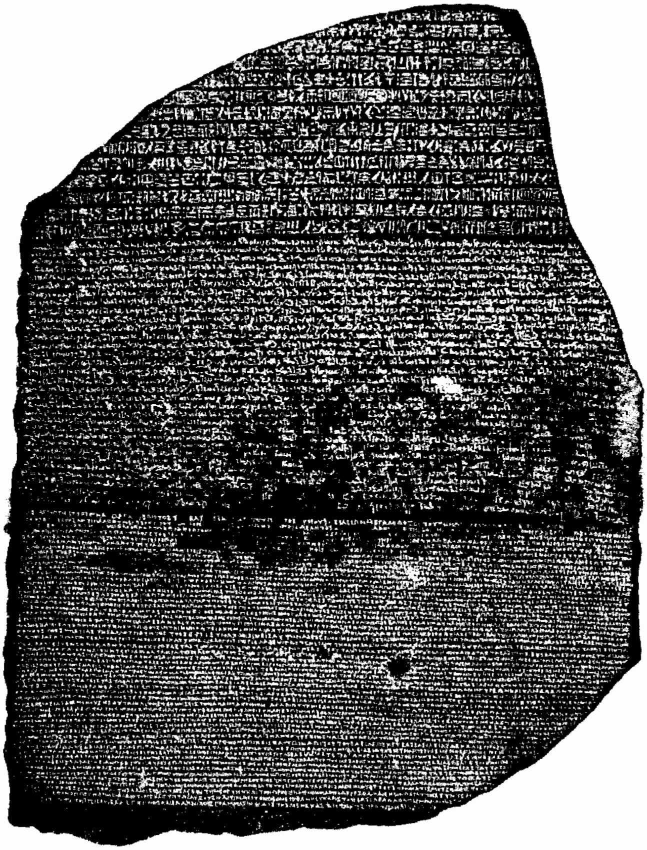

حجر روزت نحو ١٩٦ ق.م، اكتشف عام ١٧٩٩، نقوشه المتوازية بكتاباتها الثلاث المختلفة، كانت مفتاحاً لمعرفة الهيروغليفية المصرية، المتحف البريطاني، لندن.

جعل الكهنة من كتب الموتى تجارة رابحة، إذ كانوا يستحثون زبائنهم على الوقايـة، في أضرحتهـم، بـالتزود بتمـائم سـحرية تكفيريـة مـن الأسماك والأفاعي وبخاصة الجعلان، نظـراً إلى كفاءتهـا المزعومـة في إخصـاب نفسـها بنفسها، رمزاً لانبعاث الـ«كا» وقيامها.

وقد أدى بيع كتب الموتى وطلاسم المعجزات إلى ثراء المعابد التي كانت تعدها وتصنفها، كما شجع الملوك الفراعنة على المتاجرة بالحياة الباقيـة هـذه مـادام سـلطانهم يقـوم، في أساسـه، علـى مبـادئ أخلاقيـة تنظـم العلاقـات الاجتماعية في كافة أرجاء مملكتهم. وقد فقـد المـوت، بفضـل هـذه الديانـة، طابعه المخيف وشرع الناس يعتقدون أن حيـاة الـ«كـا» بعـد المـوت شـبيهة بتلك الحياة التي يحيونهـا علـى الأرض، فـاجتهد الرجـال والنسـاء معـاً، قـدر استطاعتهم، في أن تكون حياتهم الأرضية حياة متعة وبهجة لتكـون حيـاتهم المقبلة على غرارها. وان بإمكان كـل مـن زود ضريحه بـالتجهيزات اللازمـة وكل من كان على وفاق مع الكهنة، ان يستسلم، دونمـا خـوف، إلى التمتـع بكل مباح وان يجعل من أيامه عيداً مقيماً.

«لقد سمعت ألفاظ أمحوتب وهارديف،
وهي ألفاظ ذائعة الصيت نطقا بها..
انظر إلى مكانيهما
إن جدرانهما قد جردت
ومواضعهما قد اندثرت
كأن لم تفن بالأمس.
ان أحداً لا يأتي من هناك
ليحدثنا عما حل بهما..
حتى يرضي قلوبنا،
إلى أن يحين وقت ارتحالنا

إلى المكان الذي ذهبا إليه.
شجع قلبك على نسيانه
واجعل من أسباب سرورك أن تسير وراء رغباتك
مادمت حياً ترزق.
وضع المر على رأسك،
والبس على جسمك نسيج التيل اللطيف،
وانعم بوسائل الترف العجيبة
أشياء الآلهة.. الحقة

....

وزد في مباهجك أكثر من ذي قبل،
ولا تترك قلبك يذبل،
وسر وراء رغباتك وما فيه الخير لك
وهيء أمورك على ظهر الأرض
حسب ما يأمر به قلبك أنت،
حتى يأتيك يوم النحيب.
حين لا يسمع ذوو القلوب الساكنة (الموتى) نحيبهم،
وحين لا يصغي من في القبور إلى حزنهم،
واحتفل بيوم السرور
ولا تمل منه
انظر، ليس ثمة من يأخذ أمتعته معه
أجل، ولا يعود ممن ذهبوا إلى هناك»(*)

(*) «من قصة الحضارة - المترجم -».

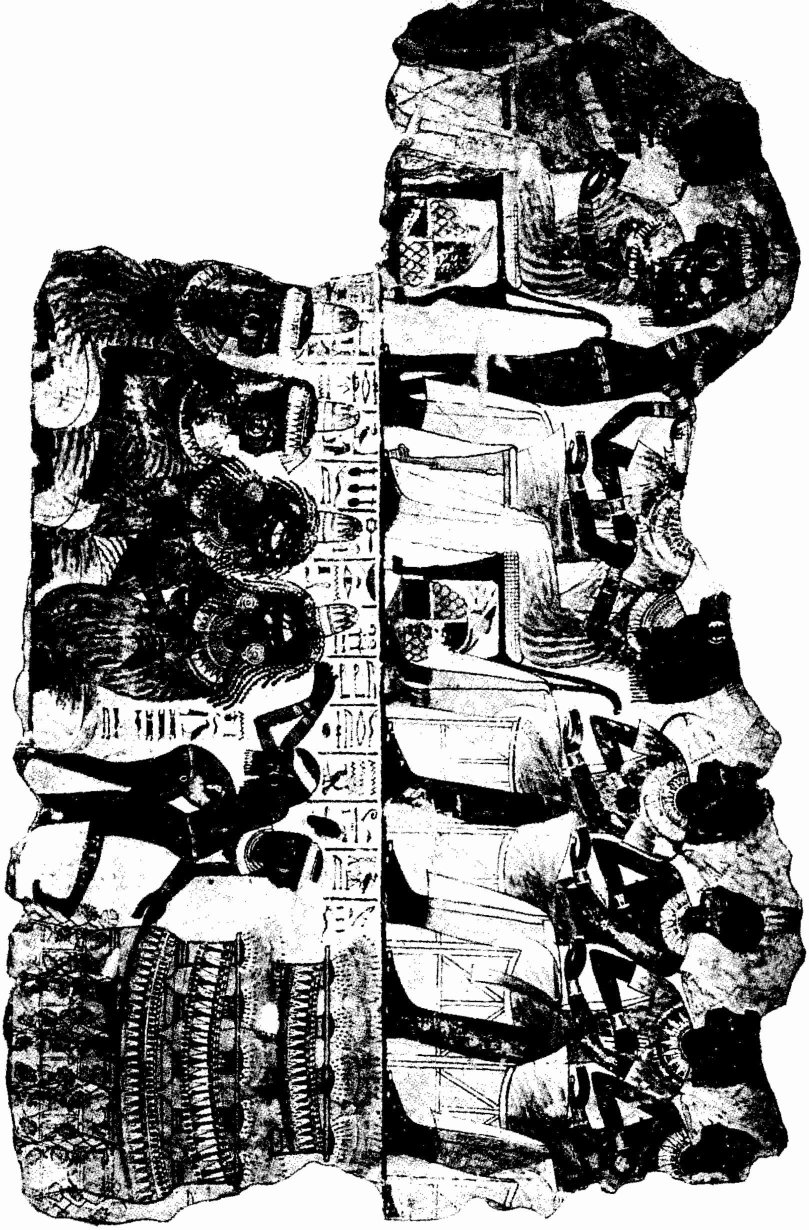

مأدبة طعام، المتحف البريطاني، لندن

وهذا ما سعى إليه الرجال والنســاء إذا مـا توفـرت هـم الظـروف المناسـبة، فكان أحباب المستقبل هؤلاء يتوجون رؤوسهم بالورود ويتطيبون بـأثمن العطـور ويلبسون الثياب الفـاخرة الغنيـة الألـوان ويمرحـون ويسـرحون ويحتسـون الخمـر ويتبادلون الهدايا الثمينة. وكانوا كلما ازدادوا رفاهاً ازدادوا تخنثاً فزينـوا كعـابهم ومعاصمهم بالحلي والجواهر وازدانوا، أيام الأعياد بشعور مستعارة بهية المنظر في حين كانت للنساء شعور قصيرة.

وقد ألحق الثراء بصحـة الأغنيـاء الأذى، غـير أن أدويـة لعـلاج السـمنة قـد توفـرت بـين أيديهـم... ولم يكتـف الكهنـة، قــط، بتــلاوة الأدعيــة والتعــازيم السحرية، كما أنهـم لم يكتفـوا بطـرد الأمـراض بـالأوامر والإيعـازات فحسـب: «اخرج أيها البرد ياابن البرد، يا مــن تهشـم العظـم، وتتلـف الجمجمـة، وتمـرض مخارج الرأس السبعة، اخرج على الأرض. وفر. وفر. وفـر» بـل اكتسـبوا، دونمـا ريـب، بفضـل فـن التحنيـط، معرفـة وافيـة بالتشـريح وعلـم وظـائف الأعضـاء واستفادوا منهما في علاجهم، فغـدوا جراحـين مهـرة وشـرعوا بإجراء عمليـات جراحيـة في الجمجمـة، وعرفـوا الجسـم البشـري واكتشـفوا أعـراض العديـد مـن الأمراض ووضعوا أسس تشخيصها ودرسوا العلاجات الناجعة، وأوجدوا الأدوية وصنعوها بعد اختبار آثارها وفعاليتها، وعرفوا معظـم الأدواء وعلاقاتهـا المرضيـة وسموها بأسمائها للتمييز فيما بينها، حتى الأمراض التي لم يستطيعوا شفاء مرضاهم منها وعرفوا، مسبقاً، أنها قاتلة لا محالة. وكانوا ينصحون المرضى باتخـاذ التدابـير الوقائية فشاع استعمالها، كالحقن الشرجية مثلاً، وقـد نقـل إلينـا هـيرودوت: إن المصريين يتناولون في كل شهر ملينات لمدة ثلاثـة أيـام متواصلـة ويحرصـون علـى وقاية صحتهـم بالمقيئـات وغسـل المعـدة، «إذ يعتقـدون أن جميـع الأمـراض الـتي يتعرض لها البشر تنشأ ممـا يتنـاولوه مـن طعـام.». فكـان رجـال مصـر ونسـاؤها يأكلون كثيراً وبمتعة، لأن كلاً منهم كان يرغب في تشريب قرينتـه مبـادئ حـب الحياة بعد الموت.

تمثال امرأة،
الأسرة الخامسة

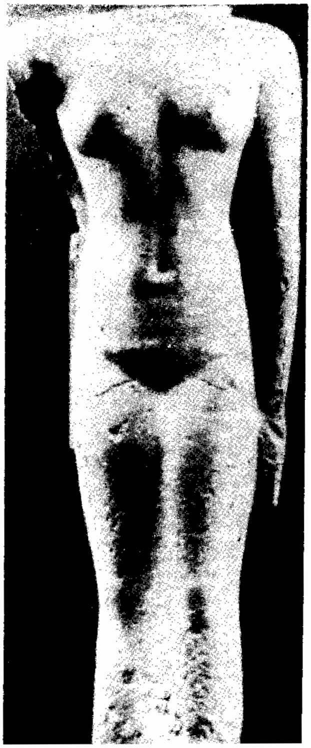

القــزم ســينب
وعائلتــه، الجــيزة،
الأســرة السادســة،
متحف القاهرة

الفصل الرابع

أهـــل الهـــند

«الجنس عند أهل الهند»

«لو سئلت أين عرف الفكر الإنساني أجمل تفتح لأثمن مواهبه، وأين أوغـل علـى أبعد مدى في تأمل كبريات المسـائل الميتافيزيقيـة فوصـل إلى حلـول لبعـض هـذه المسائل الجديرة بأن تخطف أبصار حتى أولئك الذيـن درسـوا أفلاطـون وكنـت، لقلـت: الهنـد. ولـو سـألت نفسـي أي أدب مـن الآداب يستطيع أن يمدنـا نحـن الأوروبيين ـ الذين لم نكن نتغذى إلا من الفكر اليوناني والروماني ـ بأحسـن مـا من شأنه أن ينقي حياتنا الداخلية وأن يوسع أفقها وأن يهب لها طابعاً أكثر شمولاً وإنسانية بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، وأن يهيئنا لا لحياة هذا العالم فحسب، بـل كذلك لحياة سامية خالدة فإن ذهني ينصرف مرة أخرى إلى الهند..»

«ماكس مولر»

تسلسل زمني

٢٥٠٠ ـ ١٥٠٠ ق.م	ثقافة وادي السند (الدرافيديين، موهنجو ـ دارو)
نحو ١٥٠٠ ق.م	الغزو الآري (الهندو ـ آريون)
نحو ١٥٠٠ ق.م	قانون مانو (وقد ثبت كتابة في القرن الثالث قبل الميلاد).
القرن الثامن ق.م	تدوين الفيدا
نحو ٦٠٠ ق.م	بداية الجانية أو الجائية[*] (مذهب تطهير النفس باللاعنف ـ المترجم ـ (مذهب اهيمسا)
٥٦٣ ـ ٤٨٠ ق.م	بوذا
القرن الثالث بعد الميلاد	الـ «كاما ـ سوترا» لفاتسيايانا ـ VATSYAYANA.

(*) اليانية (في قاموس المنهل)، الجينية، الجيناوية، الجينوية، الجائية الخ.. ذلك لأن المترجمين لم يأخذوا اللفظ الهندي من مصدره بل أخذوه عن اللغات: الإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية... (المترجم).

أهل الهند

«بين أحضان الحبيبة»

تعني كلمة موهنجو ـ دارو في اللغة السندية، إحـدى لغـات الهنـد المتعـددة، «موطن الأموات» ويدل هذا الاسم على مجموعة من الخرائب والأطلال الشاسعة المنتشرة على امتداد مجرى نهر السند الأدنـى. تُـرى مـا الاسـم الـذي قـد أُطلق، فعلاً، على المدينة التي كَشف النقاب عنها علماء الآثار المعـاصرون، تلـك المدينـة التي كانت قبل ٤٥٠٠ سنة تزخر بالحياة وتعيش في نشاط كبير؟ إننا نجهل ذلك، جل ما نعرفه أن هذه المدينة قد احتفظت باسم المكان: «موهنجو ـ دارو».

نُظمت هذه المدينة وفق مخطط دقيق. فالشوارع تتقـاطع بزوايـا قائمـة، وفي الساحات العامة وفي داخل البيوت تتوفر عيون المياه التي تغذيهـا أنـابيب فخاريـة تصـل بمياههـا الجاريـة إلى غـرف الحمامـات وغـرف النظافـة في أمـاكن السـكن والإقامة، وقد تم تصريف المياه الفائضة بإتقان بالغ. واحتوت «موهنجو ـ دارو»، منذ الألف الثالث ق.م، إضافة إلى مخازن الحبوب، على حمامـات عامـة فسـيحة وأحواض صغيرة يلعب فيها الأطفال ويصخبون. وتسمح لنـا أدوات الاسـتعمال اليومي، التي وجدت بين أنقـاض المنـازل ذات الطـابقين، بإقامـة الدليـل علـى أن مستوى المعيشـة في موهنجـو ـ دارو كـان رفيعـاً. غـير أن طبيعـة مخلفـات تلـك الحضارة لا تزودنـا بإيضاحـات كافيـة حـول عقـائد السـكان وأخلاقهـم. حتـى

الجذع المتبقي من تمثال فتى عار، والتماثيل البرونزية الصغيرة لراقصات عاريات، لا تزودنا أيضاً بإيضاح ما حول الدور الذي كانت تلعبه. ترى هل تعود هذه التماثيل إلى آلهة أو إلى كائنات بشرية تزهو بجمال أجسادها؟ وهذا التمثال من حجر الطلق لرجل يرتدي ثيابه الموشاة الغنية التطريز، ذي الوجه المصعر الخد، الجامد التعبير والمؤطر بلحية موزعة بعناية، والشفتين الغليظتين المكتنزتين، وفتحة عينيه الضيقتين، ترى أكاهناً كان هذا الرجل أم ملكاً ـ كاهناً أم مواطناً ذا شأن من مواطني المدينة؟

إننا لعلى جهل مطبق بما كانت عليه المراتب الاجتماعية في موهنجو ـ دارو. ذلك لأننا لم نستطع، حتى الآن، ترجمة الرموز الكتابية التي تغطي القطع الفخارية أو معرفة النقوش على الأختام والتمائم التي عثرنا عليها بين الأنقاض. بعض من هذه الصور الخطية يمثل رسوماً زخرفية وتزيينات وصلباناً، وصلباناً معقوفة (سواستيكا)، ومشابك، ودواليب، وبعضها الآخر يمثل مسوخاً حراجية أو مائية في أوضاع مهددة، أو حيوانات محلية تتقاتل فيما بينها كالأبقار (الدربانية ذات السنم) والخراتيت والفيلة والتماسيح والنمور. أما «الأم الكبرى» فكانت تظهر، في هذه الرموز الغرافية بأوضاع متنوعة أو على شكل تماثيل صغيرة: ففي هذه الأعمال، دون أدنى شك، نجد الرمز القديم للأنوثة المؤلهة التي سيطرت لفترة طويلة على الجنس القوي، وهي تتلقى منه، بواسطة الكاهنات تضحيته العذبة بنطفه الذكرية.

تبدو «موهنجو ـ دارو» انها كانت مدينة آمنة مسالمة، إذ لعبت فيها النساء دوراً بالغ الأهمية. فنحن لم نكتشف فيها إلا ما ندر من الأسلحة ومن رموز الذكورة: إن بعض الأشجار والعمد المنتصبة، التي تبرز بين رموز كتابية وبعض الحجارة القضيبية، لا تكفي للدلالة على الشعب الذي كان يعيش على ضفاف السند قد مارس بكثرة عبادة القضيب كما مارسها بكثرة في وقت لاحق.

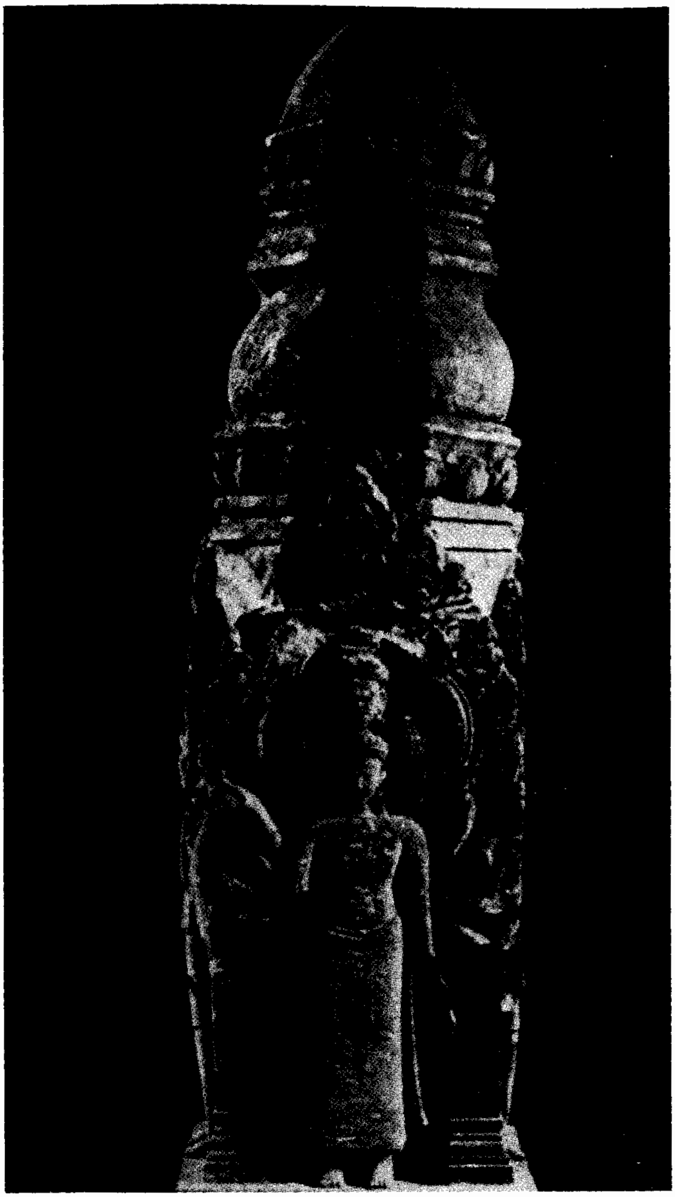

اللينغام (القضيب) رمز مقدس كان يُمثل في النحت أو التصوير الجداري في أصقاع الهند كلها، متحف غيمت، باريس

وقد كشف النقاب، في خراب المدينة، عن العديد من لعب الأطفال، وهذا ما يسمح لنا بأن نستنتج ما كان يوليه الآباء والأمهات للأبناء من عطف ورعاية. وكانت نسخ العربات وحيوانات الجر المبسطة من أكثر هذه اللعب شيوعاً وتكراراً، إضافة إلى أقفاص العصافير، إذ وقع بين أيدينا منحوتة صغيرة لثور له رأس متحرك أبدع الصانع صنعها، ومنحوتة أخرى لقرد لقائمتيه الخلفيتين مفاصل متحركة، مما يدلنا بوضوح، على أن الأهل كانوا يؤالفون ما بين أبنائهم والواقع بوساطة هذه الدمى ـ المنحوتات.

ومن المستحيل، في كل حال، إزالة الغموض الذي يكتنف حياة أقوام السند هذه، الخبيرة في صهر الذهب، والفضة والنحاس والبرونز وصنعها منذ عصر ما قبل التاريخ، بمقارنتها بما أسفرت عنه نتائج التنقيبات الأخرى التي تمت في الأراضي الهندية، بيد أننا نستطيع أن نعد دمار المدن والمستعمرات المنتمية إلى حضارة السند هذه، والذي حدث في القرن الخامس عشر ق.م. قد وجه ضربة قاضية إلى عبادة «الأم الكبرى» في جميع أصقاع الهند باستثناء بعض جماعات الأرياف التي حافظت على ما بقي منها.

ترى هل كان السكان في منطقة «موهنجو ــ دارو» من الدرافيديين أي: انهم كانوا في عداد غزاة الهند الأوائل؟ ومازال من المعتذر علينا إقامة الدليل على ذلك. جل ما نعرفه عن هؤلاء الدارفيديين، ذوي البشرة السمراء الداكنة والأنوف الفطس، أن لباعتهم تجارة نشطة مع سكان الرافدين ومصر وأنهم قد امتازوا بنزاهتهم واستقامتهم، على الرغم من استغنائهم الدائم عن كشوف الحسابات والعقود معتمدين على ذاكرتهم محط اعتزازهم. وهم يؤكدون ان غياب كل شكل من أشكال الخلاف فيما بينهم دليل على استقامتهم وبرهان عليها.

ولكن سرعان ما انتهى أمر استقلال الدرافيديين وحضارتهم عندما انقضت عليهم القبائل الزاحفة من الشمال فاكتسحت أراضيهم واستولت عليها. كان

اسم هؤلاء المتجبرين آريا، «الآريين». سلاحهم القسي والسهام والفؤوس والرماح، يتنادون إلى ساحات القتال ويتقاطرون إليها على عرباتهم الحربية. تعني كلمة آريا في لغتهم: النبلاء. لكن هؤلاء المحاربين والرعاة الرحالة قد أثْروا بقطعهم للطرق والسلب والنهب في خلال تجوالهم وشرودهم، فما أن استقر بهم المقام وتحضروا وأثروا حتى غدوا أشرافاً ونبلاء، والكلمة التي كانت، بالنسبة لهم، تعني، في البدء، حرباً وكان لها معنى محدداً: «الرغبة في مزيد من الأبقار» صارت، في وقت لاحق، يعني: «الرغبة في مزيد من الأراضي» حصراً.

أخضع الآريون وادي السند وتقاسموا الأرض فيما بينهم، مع مراعاة لاستقلال كل قبيلة من قبائلهم واحترامه. فاستبعدوا السكان المقهورين واستبدوا بهم، كانوا يتميزون عنهم من الناحية الجسدية، إذ كانوا أطول قامة وأصلب عوداً وأمهر في استعمال السلاح. وعزموا على البقاء معاً بمعزل عن الآخرين، وعلى التزواج فيما بينهم لتحافظ ذريتهم على الفوارق الجسدية الواضحة كيلا تضيع ذاتيتهم العنصرية، إذ كانوا يفخرون بكون بشرتهم أشد نصوعاً من بشرة السكان الأصليين الخاضعين لهم.

وقد كان للتمييز القائم على لون البشرة الـ«فارنا» التأثير الحاسم في تطور الأخلاق. ولا ريب في أن الآريين قد تبنوا عدداً، لا بأس به، من معتقدات المغلوبين وعلومهم، بيد أنهم لم يتزاوجوا معهم، بل ظلوا الأسياد والمحاربين وأصحاب الملك، ورغبوا عن التجارة فتركوها للتجار من السكان الأصليين، وتخلوا عن الصناعات الحرفية لأصحابها، ورأوا ان التمتع الكسول بالفوائد والأرباح دليل نفوذ وامتياز سلطان. ورغبة منهم في الاحتفاظ، أبداً، بسلطانهم هذا، وزعوا السكان إلى طبقات متمايزة: في المقام الأول يأتي «الكشاترية» أو المقاتلون، يليهم الفلاحون والصناع، ثم أفراد الطبقات المستعبدة وأخيراً «الباريا» أو «المنبوذون» محط احتقار الجميع.

وكما كانت الحال بالنسبة للأعمال التجارية، فإن الدرافيديين من السكان الأصليين لم يدونوا معارفهم كتابة ويثّبتوها. لكنهم امتثلوا لتعاليمهم الناظمة لعقيدتهم وأخلاقهم بدقة متناهية حتى لكأنهم قد سجلوها بأبجدية كانت في متناول أيديهم، وما أخذه الآريون عن هذه التعاليم كان ينتقل شفاهاً من جيل إلى جيل، تلك هي «الفيدا» أي المعرفة. كما أن الـ«فيدات»، كتب المعرفة، لم تصبح كتباً إلا بعد تدوينها باللغة السنسكريتية، لغة المنتصرين. وقد ساد الاعتقاد، ردحاً من الزمن طويلاً، إن الفيدات كانت مؤلفاً أصيلاً صادراً عن الشعوب التي يطلق عليها الهندو ـ آرية، غير أن العلماء قد أثبتوا أن طابع «كتب المعرفة» وخاصيتها على صلة وثيقة مع شروط الحياة الهندية وظروفها وان مضمونها لا يتفق مع معطيات فروع أخرى من أسرة الشعوب الهندو ـ أوروبية التي شاءت ظروف هجراتها القتالية أن تحملها إلى مناطق أخرى.

كان يحرك السواد الأعظم من الشعوب الآرية ويبعث الحياة فيها، تفاؤلية نشطة وفعالة ورغبة في العيش من أجل الذات مع استخفاف بالآخرين، هذه المشاعر نلقاها في الفيدا وبخاصة في قسمها القديم الذي يمجد اندارا، ملك الآلهة.. البطل المقدام «محطم الأعداء» و«قاتل التنانين»، غير ان الفيدات تعبر، بخاصة عن تشاؤمية عميقة الغور، فهي ترفض مسرات الحياة ولذاتها وتسعى إلى كشف الغموض الشامل من طريق تبادل الأفكار والتأمل الذاتي.

إن الفيدات، مثلما انتقلت إلينا بشكلها المدون بعد زوال سلطة الهندو ـ آريين، لم تذكر شيئاً عن الأمومية ولا عن حقوق النساء. ولم يبق فيها إلا بعض البينات المتناقضة كلياً مع أخلاق الغزاة الرحل. وهكذا فان الـ رج ـ فيدا «RIG-VIDA» «معرفة التراتيم المقدسة» قد سنت، من بين ما سنته، قوانين مثل: «لتكن الزوجة سيدة على حماتها بلا منازع، والسيدة المطلقة على حميها، والسيدة على أخوة زوجها». «إن الرج ـ فيدا والـ أتهارفا ـ فيدا»، علم الصيغ السحرية، لتدلنا على أن النساء، قبل غزو الآرين للهند، كن يستطعن التجوال

بملء حريتهن سواء كن متزوجات أو عوازب، وكن يستطعن حضور الاجتماعات والمشاركة في الاحتفالات مع الرجال جنباً إلى جنب، وكن يمتلكن الأرض والأموال فيتوافد عليهن المعجبون على أمل الفوز بهن، وكان بمقدورهن اختيار عشاقهن وأزواجهن حسب مشيئتهن. ففي العهد السابق لمجيء الآريين، كانت الخطوة الأولى، بغية إبرام الزواج، تأتي بمبادرة من المرأة أو أسرتها ولا تأتي من طريق الرجل. وكانت التعاليم تقضي بأن يكون الرجل جديراً بأمه وأهلاً لما تغذى به منها من رضاع. فقد منعت الفيدات عن الزوجات المشاركة في القرابين العامة الشائعة أو القيام بها، بوصفها عرفاً تقليدياً رسمياً. ثم إن الزوجة كانت تحضر الاحتفالات الدينية برفقة زوجها، ذلك أن حقوق النساء وامتيازاتهن قد انتهى أمرها عندما فرض الراجا (RAJAHS ـ رؤساء القبائل)، رؤساء مختلف القبائل أصحاب السيادة المطلقة، قوانين الزواج الشائعة عند القبائل الرحل وإلزام الرجل، بخاصة، بأن يغتصب زوجة المستقبل بالقوة أو أن يحصل عليها بمبلغ من المال. وترى النساء الآريات في ذلك شرفاً عظيماً ويفخرن بكونهن، والحال هذه، هدفاً للاختطاف أو سلعة للشراء. وإنه لأمر جدير بالتقدير أن يشتري الرجل أو يختطف العديد من النساء: إنه لمما يسجل للرجل بالفخر أن يعول زوجات كثيرات، وأن ينقل إلى الخلف قوته. فقد تمتع الراجا وأكثر أقربائهم امتيازاً بحق امتلاك زوجاتهم وأبنائهم، ولهم أن يقرروا، إذا ما طاب لهم، أن يبيعوهم أو يرموا بهم في عرض الطريق. قبل مجيء الآريين كان بمقدور المرأة الأيم أن تتزوج وفق مشيئتها إن هي رغبت في الزواج مجدداً.

أما الآن فليس الرجل هو الذي يصاهر عائلة زوجه بالتحاقه بعائلتها ودخوله إلى بيت أهلها، بل المرأة هي التي تدخل بيت الزوج لتخضع إلى حق «أبوي صارم جلبه الآريون وفرضوه على السكان المحليين». فثمة طبقة جديدة تسعى إلى فرض أخلاقها، تلك هي طبقة البراهمة أي «الكهنة الذين يعرفون» التي تشكلت عندما اتخذت الديانة أشكالها الدقيقة المحددة.

وكان البراهمة حماة الدين والناطقون بلسانه والمؤتمنون عليه، هم الشفعاء مابين الآلهة والراجا الطبقة العليا، من جهة، والوسطاء ما بين طبقة الأمراء والمحاربين والطبقات الدنيا من جهة ثانية.

لم تسمح الوثائق المتوفرة بين أيدينا بإقامة الدليل على أن طبقة البراهمة صاحبة الامتياز قد تشكلت من ذرية المنشدين ـ الكهنة الذين كانوا ينشدون الأناشيد القديمة ويروون قصص الماضي المقدس لسادة البلد الجدد، إذ تناولت طبقة البراهمة هذه الوثائق بالتبديل والتحوير انصياعاً لأوامر سادتهم الذين كيفوا القوانين الأخلاقية والدينية بما يتناسب ومصالحهم وينسجم مع تقاليدهم. فزعم البراهمة أنهم قد استحقوا هذا الامتياز بالوراثة وتفاخروا إذ ولدوا من رأس بوروشا، الكائن البدائي المزود بألف رأس وألف قدم، وأن «كرامتهم الروحية» هذه التي خصوا بها بالولادة، «جزء من طبيعتهم الأكثر غوراً».

ترأس البراهمة، بصفتهم كهنة، العبادة التي ما برحت تسيطر عليها العقيدة البدائية التي تلزم الإنسان بتقديم الهبات إلى الآلهة بغية الفوز برضاها ورحمتها وحمايتها. ومادامت الصلوات لا تفي بالغرض فقد طالبت الآلهة بالهدايا والهبات العينية الملموسة لقاء عطفها وحظوتها.

وكلما ازدادت معرفة هؤلاء الكهنة في تعزيز ودعم أماني الواهبين وشكاواهم بالرقى والتعازيم المكتنفة بالأسرار والحيل السحرية البارعة، تبددت شكوك المؤمنين حول صحة مزاعم البراهمة بضرورة تناول القرابين. ثم إن كاهناً كهذا كان يهتف، أثناء تناوله القربان: «اذهب إلى السماء وابعث فيها الغيث».. والمزنة قد «تأتي أحياناً لكنها لا تلبث أن تنهمر في آخر المطاف، شريطة أن تتكرر الأضحيات لفترة من الوقت طويلة». وقد آمن الهنود، منذ أمد بعيد، أن أحد الأسلاف، الموغلين في القدم، من النبات أو الحيوان (إذ تصلح صورته رمزاً للقبيلة، بل «شعاراً» مشتركاً وعاماً، إن صح التعبير، يتحكم بمصائر الأفراد بواسطة قوى فوق طبيعية. كما آمنوا أيضاً بأن الآلهة كانت قوى من قوى

الطبيعة، مثل أجني AGNI - النـار، «روح العـالم»، اوانـدارا، إلـه العواصـف المخصبة الخير، الذي غدا، في وقت لاحق، ملك الآلهـة. والإنسـان، أينمـا حـل، كـان مهـدداً بالأرواح تظهر له على شكل من التجليات الغريبة: كالأفاعي والمسوخ الكؤودة. ولا تدفع عنه الفناء المطلق إلا قدراتـه على الإنجاب حصراً. والحال هـذه فإن في توالـد الرجال والنساء وتزاوجهم شكل من أشكال الدفاع عن النفس ضد القوى اللادنيوية، أسوة بما قامت به الأرض الأم مع السماء إذ ومض البرق وانهمل المطر مدراراً.

غير أن البراهمة، أولئـك الـذيـن يحملون حبـلاً مقدسـاً، كدليـل بيِّـن علـى أصلهم الإلهي، هم الذين كانوا ينظمون الأخلاق ويخضعون العلاقات الجنسية إلى قوانين ما برحت تزداد قسـوة وصرامـة.. ولـما كـانوا عـاجزين عـن منـع الغرائـز الطبيعية من أن تنال كفايتها من الارتواء، على الرغم من الوعيد وانزال العقـاب، سنوا قانون الحياة الجنسية والدينية ماداموا هم وحدهم الذيـن يعرفـون مـا يـروق للآلهة وما اختص به بنو الإنسان.

واتسع علم البراهمة واتسـعت معرفتهـم ليشـملا الحيـاة بعـد المـوت وبقـاء الروح واستمراريتها على شكل شبح ينتاب مكـان إقامتـه القديـم. فعلـى الـدوام عذب الإنسـان، كقصـاص يـنزل بـه لخطيئـة ارتكبهـا، خـوف مـن أن الأمـوات يهيمون على وجوههم، لا ينعمون بالسكينة ولا يهدأ لهم بال». ان الخـوف مـن «تكرار الموت» والهلع ممن لا يجد «عالم آبائه» «فيغدو، كرة أخرى، غـذاء لإلـه الموت» قد زرع في الإنسان فكرة مروعة عن «موت لا ينتهـي» وفقـدان يتكـرر على الدوام لثروة طائلة، وتمزيق «لا ينقطع لشـمل العائلـة، ذلـك لأن «كـل مـن رحل إلى ذلك العالم الآخـر دون أن يتحـرر مـن المـوت، سيولد ليمـوت في ذاك العالم الآخر بغير انقطاع». وقد ينتج عن هذا التصور المقلق للموت المتكرر مبـدأ «الكارما»(*) (KARMA) المثير للجزع، إنه قانون لا يرحم، إذ ينص على أن كـل

(*) كارما: قانون الفعل أو قانون السببية في دنيا الـروح، وهـو أسمى قوانـين العـالم وأبشـعها (قصة الحضارة - المترجم -).

عمل من الأعمال لابد لصاحبه من أن ينال جـزاءه ثواباً يكـون أو عقاباً إمـا في حياته التي يحيا أو في تقمصه وتناسخه، وان كل من يرغب في التحرر من الموت المتكرر لن يجديه نفعاً لا السلطان ولا الغنى.. مادام الحال هكـذا، فلـم يبـق أمـام الإنسان، القادر على بذل سلطانه وماله في سبيل هذا الخلاص، إلا سبيل واحـد: «ذلك أن التضحية التي بذلها في هذا العالم، تكون في العالم الآخر كينونته عينهـا، أتمانه(*) SON ATMAN - فإذا ما رحل «ذاك الذي يعرف ذلك» عن هذا العـالم، يلاحقه قربانه الذي ضحى به، وهو يناديه: «تعال، هذا أنا، إنني أنـت نفسك». وعلى هذا لابد من أن يتقمص اتمـان براهمـان(*) الكـل المطلـق. وفي سبيل ذلـك ينبغي عليه أن يعمل على تطهير ذاته بالشكل الذي يرتئيه الكهنـة، وعليـه أيضـاً، أن يتخلص من جميع شروره، ويسـلخها عنـه كمـا تسـلخ الأفعى عنهـا جلدهـا وترميه، فيغدو جوهره تركيباً من الترانيم المقدسة والحِكَم والأناشيد والقرابين».

بيد أن الترانيم المقدسة والحكَم والأناشيد قد توارثهـا الأبنـاء عـن الآبـاء في عـائلات البراهمـة. وقـد ملـك حراسـة المعرفـة وحماتهـا هـؤلاء مفـاتيح «عـالم السماء». فكان بمستطاع حكمتهم وحدها تحديد ما للكارما، بالنسبة إلى قـانون الموت، من فضل وقيمة. فلم يكن للبراهمي، والحال هذه، حاجة قط إلى أن يسير

(*) اتمان: ان اشتقاق هذه الكلمة موضع شك، فيظهر (مـن سفر رج ـ فيـدا القسـم العاشر ص١٦) إن معناها في الأصل نفس، ثم أصبح معناها الجوهـر الحيـوي، ثـم أصبح الـروح، أنها نفس النفوس كلها وروح الأرواح كلها، والمطلق الذي لا مادة له ولا صورة، والـذي نغمس فيه بأنفسنا جميعاً إذا نسينا أنفسنا كل النسيان (قصة الحضارة ـ ـ المترجم).

(*) براهمان: روح العالم غير المشخصة، ويجب تمييزها من لفظة براهما الذي هـو أكـثر منهـا تشخيصاً، وهو أحد الثالوث الإلهي (براهما وفشنو وشيفا) كما يجب تمييزها من برهمـي، التي تدل على العضو من طبقة الكهنـة، ومـع ذلـك فليـس التمـيـيز بـين اللفظتين الأوليتـين بملحوظ دائماً، فقد نجد براهما مستعملة بمعنى براهمان. (قصة الحضارة ـ المـترجم) ومنـه: الاتمان: جوهر الفرد، والبراهمان: جوهر الوجود.

سيرة مثالية ليحق له، من ثم، أن يفخر بحكمته ويزهو بثرائه وأملاكه: «فيما يتعلق بالذهب فإن لي منه نصيباً، ومن الأبقار والخيول والعبيد والثياب والأغطية فان لي منها نصيباً أيضاً». فكان الناس يحتفون بثراء البراهمي دونما شعور بالغيرة أو الحسد.

وقد أباحت سلطة البراهمة الروحية والدينية، وسيادتهم على أفراد الشعب، لطبقة الراجا ومحاربيهم، السيطرة على إقطاعاتهم وفق هواهم، فكانوا يعيشون في قصور فاخرة تحف بهم حاشية من الأمراء، وهم على جهل بكل مستلزمات الأخلاق، فأباحوا لأنفسهم غشيان المحارم واللواطة. وعدوها ضرباً من الألعاب المشروعة، فانغمسوا فيها مستسلمين لها كلما طاب لهم الهوى. ولما كانوا قد خطفوا نساءهم أو اشتروهن بأثمان باهظة، بدا لهم ان اغتصاب النساء وشراءهن أو شراء ما رغبوا في امتلاكه من الغلمان شيء طبيعي، فكانت حياتهم وقفاً على السعي وراء المتع الحسية الأكثر تنوعاً يتصيدون ملذات الجسد بشتى الطرق والحيل. ثم أنهم علّموا الفتيات الرقص لتكتسب أجسادهن ليونة في الحركة فيمارسنها في ألعاب العشق. كما أنهم خصوا الغلمان ليتمتعوا بما في صباهم من سحر وفتنة وينعموا بأصواتهم الحادة، إذ كان هؤلاء المخصيون محط رعايتهم وتدليلهم. وكانوا ينظمون حفلات الفجور لامعان النظر في مشاهدة الرجال والنساء وهم يتجامعون في أشد الأوضاع تنوعاً، وليتعلموا بفضل هذي المشاهدة المثيرة كيف ينوعون بدورهم متعهم الجنسية الخاصة وكيف يصعِّدون من شدتها. وكلفوا المتطببين بصنع المراهم وتركيب شراب العشق ليزيدوا من شدة فحولتهم وشبق عشيراتهم الراضيات بقصفهم وعربدتهم.

وهم إن لم تسعفهم مخيلتهم وتبتكر لهم ألواناً من شبق الحواس، هرعوا إلى البراهمة يلتمسون عونهم فينصحهم هؤلاء، بطيبة خاطر، بضروب جديدة في التهتك مادامت تساعدهم على عدول الراجا غرمائهم عما في الحياة من جدية وعزوفهم، من ثم، عن ممارسة السلطة. فأسلم الراجا إلى البراهمة مهمة سن

القوانين الناظمة لأخلاق الأفراد وسلوكهم. وكان الكهنة يستندون في فتواهم، إلى «قانون مانو»(*). ومانو هو الابن الأسطوري للإله براهما (الذي تبوأ، لاحقاً، مكانته إلهاً أعلى) كما كان البراهمة يلقنون تلامذتهم إن «مانو» تسلم الذارما(*) من أبيه السماوي. وكانت الذارما تقضي بتأدية الفروض الدينية والالتزامات الاجتماعية بدقة وعناية، وترسم في كل طبقة من الطبقات الحدود التي يجب التقيد بها لممارسة كل نشاط أو مهنة أو حرفة، ذلك ان الواجبات والحقوق تنتقل من الآباء إلى الأبناء بالوراثة ومن ضمن ذلك البراهمة أنفسهم، فعلى زيد من الناس الذي ينتمي إلى طبقة بعينها أن يمارس مهنة طبقته التقليدية، ولا يحق له، على كل حال، أن يتجاوز حدود عمله إلى عمل طبقة أخرى: «خير لك أن تؤدي عملك المقسوم لك أداء سيئاً من أن تؤدي عملاً مقسوماً لغيرك أداء حسناً».

وقد رمى قانون مانو، المنظوم شعراً، إلى التوفيق بين العلاقات الاجتماعية داخل مختلف الطبقات من جهة وفيما بين الطبقات والتعاليم الأخلاقية من جهة أخرى. تلك التعاليم التي يعدها البراهمة تعاليم سليمة وصالحة. مما استلزم تحذير كل زواج يخرق مبدأ تقسيم الطبقات، فعلى كل رجل أن يختار زوجه من الطبقة التي ينتمي إليها، ومن كانت له زوجات كثيرات عليه أن يمنح الأفضلية للزوجة التي من طبقته لتسود على الأخريات. وقد شرح مانو هذي القواعد: «يغدو الرجل من الطبقة الكريمة دَنياً ان ارتبط بعائلة من الطبقة الدُنيا، أما من كان دَنياً بمولده فيستحيل أن يسمو بصحبة الأعلين». ويشجع قانون مانو على الزواج: «فبالنسل وحده يكمل الرجل، أما المرأة؛ فقد كُرِّست، أساساً، للإنجاب، فالأبناء

(*) يتألف هذا التشريع من ٢٦٨٥ بيتاً من الشعر ويرجعونه إلى سنة ١٢٠٠ق.م. لكن الباحثين اليوم يردونه إلى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح. ـ المترجم ـ.

(*) الذارما. قواعد السلوك في الحياة لكل إنسان كما تحددها له طبقته. ـ المترجم ـ.

لابد منهم للمضي في عبادة الأسرة لأسلافها، ذلـك لأن أرواح الأسلاف تفنى إذا ما امتنع عنها الطعام وانصرف الأبناء عن تقديم الأضحيات».

لم تُمنح المرأة إلا حقاً واحداً وهو «حق حماية الزوج لها حماية حذرة». غير أن المرأة بالنسبة إلى مانو هي الشر عينه. «مصدر العار هو المرأة» ومصدر الشقاق هو المرأة، ومصدر الوجود الدنيوي هو المرأة، فإذاً فحذار من المرأة. وفي فقرة أخرى نقرأ: «ان المرأة نزّاعة بطبعها إلى إغواء الرجل على الدوام ومن ثم كان لزاماً على الرجل ألا يجلس في عزلة مع امرأة ولو كانت من أقرب أقربائه». «لا تقتصر قدرة المرأة على تضليل الأحمق عن جادة الصواب وسواء السبيل بل لها القدرة أيضاً على تضليل الحكيم، تمسك بزمامه وتخضعه لشهواته أو غضبه». وباختصار: إن الجنس اللطيف كان، في جميع أحواله، محتقراً ذليلاً.

(وغالباً ما كانت المحادثات مناظرات شعرية ارتجالية أو شواهد متعارضة تدور بين شعراء عدة، ولتقديم فكرة عن ذلك، فلنستمع إلى الحوار التالي من شواهد الشعراء أنفسهم:

ـ البراهمي، رجل المعرفة:

من ذا الذي خلق، إذن، تلك المتاهة من الشك، ذلك المعبد من الخيلاء، ذلك الدن من الخطايا، ذلك الحقل المزروع بألف خدعة، ذلك الباب المؤدي إلى جهنم، تلك السلة الطافحة بالأكاذيب، ذلك السم الذي يشبه العسل، تلك السلسلة التي تربط الأنام بالأرض: المرأة).

ـ إحدى الخطايا:

إن الحكيم الزائف، الذي ينم على النساء، يخدع نفسه ويخدع الآخرين معه، ذلك لأن ثمرة التوبة هي السماء، والسماء هي التي تمنح الإبسارا لأولئك الذين يفوزون بها.

عاشقان من معبد فيشنويت في البنجاب

ـ البراهمي:

الشهد في معسول حديثهن، ومن صدورهن ينفثن السم.. ففي آن واحد يرشف الرجل الشهد من شفاههن وبظهر يده يوسع صدورهن ضرباً.

الحظية:

لن يفوز أولئك المجانين، الذين يلوذون بالفرار من المرأة، إلا بمر الثمار، ذلك لأن حماقتهم تلك وإله الحب سيذيقانهم مر العذاب... وفي اليوم الذي يتمكن فيه رجال شرفاء من السيطرة على حواسهم، فإن جبال فيندهيا ستجتاز المحيط سباحة.

البراهمي:

ليس في عالمنا هذا إلا حديقة طافحة بالأزهار الضارة، إنه الصبا: بؤرة الهوى، وعلة آلام مبرحة تفوق بسعيرها أتون مائة جهنم، ومصدر للجنون، وستار من الغيوم يحجب نور العلم، وسلاح إله الحب الأوحد، وسلسلة من الخطايا من كل نوع.

الحظية:

كلب هرم أعور، وأعرج جرب، لا يكسو عظامه سوى الجلد، ومزقت شدقيه ما قرضه من كسر وصلب ما برح يتعقب الإناث من جنسه. إن إله الحب يعذب حتى المحتضرين، فما إن تمس قدم إحدى الجميلات شجرة الأسوكا حتى تتفتح أكمامها. النساء الشهوانيات يلهبن، بما ينعمن به من غنج وشهوة، أفئدة الرجال قاطبة، فتراهن يهذرن مع أحدهم، ويرشقن آخر بنظرات حب مشجعة، في حين أن حب رجل ثالث يعمر قلوبهن.

ـ البراهمي:

إن ذاك الذي يصبح سيد حواسه، يمتزج تبصره وعقله بالروح العليا، وعلى هذا، ما جدوى مناجاة الأحبة، وشهد الشفاه، وصباحة الوجوه، ولهو الحب وآهاته، واعتصار نهود مدورة كما الرمان.

ـ الحظية:

الكتب المقدسة تملأ أفواه المتفقهة.. ومن أطراف شفاههم يدعوننا للإقلاع عن الحب. ترى من ذا الذي يستطيع النحاة من أرداف الصبايا الجميلات، المزدانة بالنُطُق المجلجلة واللآلي الحمراء المتدلية. فإذا ما حاكت المرأة شراك هواها فلن يستطيع براهما نفسه أو يحول دون مبتغاها.

رجل كهل: لا يتأكد الرجل من استقامة شرفه وكريم فضيلته وواسع حكمته إلا إذا انتصر، بقلبه وعزيمته، على فساد النساء وشرورهن...

أحد الفتيان:

ماهو أجمل المشاهد وأروعها؟	وجه صبية طافح بالحب
ما أذكى العطور وأطيبها؟	أنفاسها العذبة
ما أمتع الأصوات وأرخمها؟	صوت الحبيبة
ما ألذ مذاق وأحلاه؟	شفاهها يخضلها الندى
ما أحلى الملامسات وأنعمها؟	ملامسة جسدها ووصاله

ما هي أجمل الصور التي تستأثر بالفكر؟ مفاتنها

إن كل ما في الفتاة يطفح بالسحر والروعة.

ـ شاعر شاب:

الفتاة العذراء برعم وردة رخصة لما يتفتح بعد.

ـ فتى آخر:

البسمة الرقيقة على الشفاه، والنظرات الحيية الجسورة، والهذر الفكه، والتملص المراوغ، والعود المفاجئ، وتبادل العواطف السريع، والتسليات اللعوب المرحة التي لا تنقطع.. أليس هذا جميعه ما يأسر لبنا؟

يا للصبايا ذات العيون كعيون الظباء..

فإن هن ابتعدن عنا نتوق شوقاً إلى رؤيتهن.

وإذا ما رأيناهن، لا تتملكنا إلا رغبة واحدة: أن ننعم باحتضانهن

وإن كنا بين أحضانهن، فلا نطيق عنهن بعاداً.

ـ شاعر شاب:

تُرى أي فانٍ سينعم بهذا الجمال الساحر، الذي يشبه بريعانه وطهره زهرة لما يتنشق شذاها أحدٌ بعد.. ولما يلمس زغبها الناعم إنسان بعد.. لمن ستؤول تلك الشبيهة ببرعم رخص لما يمسسه ظفر آدمي بعد.. (تلك الشبيهة بلؤلؤة لم تزل تنعم بالحماية في كنف صدفتها حيث ولدت؟) (من كتاب: KAMA-SUTRA) منشورات SOLAR ـ المترجم ـ.

إذا ما عزم الرجل على الزواج، تحتم عليه أن يطلع زوجه على واجباتها: «على المرأة الوفية أن تخدم مولاها كما لو كان إلهاً، وألا تأتي شيئاً من شأنه أن يؤلم زوجها، أياً كانت حالته، حتى لو خلا من كل فضيلة» (أما الزوجة التي تعصي زوجها فمآلها أن تتقمص روحها جسد ابن آوى في خلقها التالي. من قصة الحضارة ــ المترجم ــ) كان مانو ينصح الرجال، على الدوام، بالعدول عن تشديد الرقابة على النساء وإلا فان مكرهن سيملي عليهن خدعاً تجلب المصائب. ومن المستحسن ألا تضربهن «حتى لو كان ذلك بزهرة»، كما أشار عليهم بمنح المرأة جميل الثياب: «لأن الزوجة إذا حرمت أنيق الثياب فلن تسعد زوجها وتمتعه.. وإذا زينت المرأة ببهيج الثياب، ازدهى المنزل كله بالجمال.» «بيد أن قانون مانو يمنح الأفضلية للمرأة الأم»: «الأم أولى بالتقدير من ألف والد».

وقد عدّ مانو زواج الاختطاف أنبل شكل من أشكال الزواج، غير أنه سلّم أيضاً بزواج يشترى. وأعلن أن القران «الأكثر حكمة» هو ذاك القران الذي يتم باتفاق الوالدين مع مراعاة قواعد الذارما. لكن القانون أدان «الحب»، إذ لا ينبغي أن يكون الدافع لاقتران الزوجين انقاد جسدي أو نشوة روحية، ذلك لأن الملذات الشهوانية التي ستنجم عنه تتناقض والمثل الأعلى في التخلي أو الزهد الذي يكرز به البراهمة ويطنبون في امتداحه.

وفي مقابل ذلك فقد أجاز تشريع مانو للبراهمة «الاستمتاع» مادامت المتعة في خدمة العقيدة فاستخدموا في معابدهم «خادمات الإله» اللائي يرقصن ويغنين أمام صور الآلهة وتماثيلها. وكانت مهمة إعداد هؤلاء العذارى المنذورات وتربيتهن تربية جنسية شهوانية تعود، حكماً، إلى الكهنة. أوليست هذه المهمة، التي تجعل من هؤلاء الفتيات نسوة عذبات يشرحن صدور الراجا والمحاربين، بالمهمة، المقدسة الشريفة؟ ذلك لأن الزهد بالنسبة لهؤلاء السادة أصحاب الامتياز ليس إلزامياً. وقد كان للبراهمة، في العديد من المناطق، «حق الليلة الأولى» مع كل عروس فتية. كما كانوا ينعمون بحرية لا حد لها في إخصاب النساء العواقر فيبيتون معهن ليلة في المعبد لكي يبرأن من عقمهن، فيمارسون معهن كل أنواع العشق وفنونه.

قلما كانت امتيازات «الرجال المقدسين» تثير السخط أو الاعتراض، ذلك لأن البراهمة قد عرفوا تمام المعرفة قانون مانو فبرعوا في تفسيره وتأويله.. فقالوا: «إن كل مساس بالبراهمي يستوجب أقصى العقوبات وأشدها»، لأن كل من يمس شعور رجال المعرفة هؤلاء، ينتهك، من ثم، حرمة الـ«فيدات» كتب المعرفة. بل إن القانون يحمي البراهمة حتى من تعسف الراجا: إذ يوحي بإعفائهم من الضرائب، لأن البراهمي، إذا ما ثارت ثائرته، يستطيع ان يسحق الأمير ورجال حربه جميعاً بتلاوة اللعنات والرقى السحرية، دون أن يلجأ إلى تدبير ما آخر. وفي المقابل، لا تحق على البراهمة عقوبة الموت. ومع ذلك فإن قانون مانو قد تضمن إنزال العقاب في أغلب الحالات الجرمية، والموت هو العقوبة في عدد كبير جداً من الجرائم، ولا يستطيع إنقاذ الجاني إلا «حكم الله» وحده. فعلى السارق الذي لا يعترف بجرمه أن يغطس ذراعه في سطل يحتوي خليطاً من الزيت المغلي ومن روث البقر، أو أن يدخلها في سلة طافحة بالأفاعي السامة وغير السامة، فإن خرج من محنته وامتحانه سالماً معافى بُرِّئت ساحته مهما بلغت صحة الشهادات التي تدينه.

العشاق

إن قانون العقوبات لمانو، مثل قانون حمورابي، إذ يرتكز هو الآخر على القصاص بالمثل: العين بالعين والسن بالسن، بيد أن القصاص هنا مفجع ووحشي بوجه خاص: كانوا يبترون الأيدي والأرجل ويجدعون الأنوف ويصلمون الآذان ويفقؤون العيون ويهشمون عظام الأيدي والأرجل بمطارق خشبية، ويغرسون المسامير في الأكف والأقدام والصدور، ويقطعون أعصاب المفاصل قبل إعدام المحكوم عليه بشيه حياً، أو بتعريضه لأنياب الكلاب الجائعة، أو بقذفه تحت أقدام الفيلة لتدكه دكاً. وكانوا يطلعون الجناة، قبل تنفيذ عقوبة الإعدام فيهم، على مبادئ «الافتداء الآجل» وفق تعاليم مانو، لتخليصهم من جميع أفعالهم البشرية... وهكذا يتأكد الجاني أن لا مندوحة له من الخضوع لتناسخ الروح فلا مناص من تقمصه لأشكال جديدة أحط وأدنى ولا نجاة له من مكابدته، بغير انقطاع، للآلام المبرحة في كل ولاداته وميتاته الجديدة القادمة، ويشرع الكهنة في تعداد «نتائج أعماله في هذا العالم» فلن تجد نوعاً واحداً من أنواع الحيوان أو حشرة من الحشرات المؤذية أو حيواناً من الحيوانات الآكلة اللحوم أو ضرباً من ضروب الديدان أو الأفاعي أو جنساً من أجناس الطير أو النبات بمستعد لقبول روحك الخاطئة للحلول فيه إلى حين موتك المقبل، ليقذف، من ثم بروحك الآثمة التي لا تستحق الراحة، نحو تقمص مروع آخر.. وهكذا فإن الروح الآثمة تتناسخ بغير انقطاع.

لم يذكر قانون مانو عرفاً مازال قائماً، بشكل أو بآخر، حتى الآن: كانت الأرملة تحرق فوق محرقة زوجها المتوفّى. غير أن الـ«أتهارفا ــ فيدا»: كتاب معرفة الصيغ السحرية، يرى في التضحية بالأرامل حرقاً عادة قديمة. وهكذا فإن المرأة بموتها الطوعي ستبقى زوجته إلى الأبد، وستعود إلى الارتباط الزوجي به في جميع حيواته وتقمصاته المقبلة. يكفي أن تُمزج رفاتهما وأن يدفنا معاً.. والكلمة الشائعة الاستعمال في الهند للدلالة على إحراق الأرملة وترميدها هي «ساتي» وتعني: «المرأة المطيعة لزوجها وقدرها». وقد تحسَّب كتاب: «أتهارفا ــ فيدا»

لعادة حرق المرأة فأوجد مخرجاً مشرفاً للمرأة الأرملة ينجيها من ألسنة اللهب: حينما ترقد المرأة على المحرقة بجانب زوجها الميت وحالما تشرع النار في الاشتعال، بمقدور أحد الرجال - إذا ما رغب في الزواج بها - أن يمسك بيدها.. فإن قبلت به، في الحال، زوجاً لها، فبإمكان هذه المرأة، التي نذرت نفسها طعمة للنيران، أن تستأنف معه حياتها التي سبق أن قررت وضع حد لها.

قبل أن يكرز بوذا بـ«نعيم النرفانا المطلق في سعادة الفناء الذي يقضي على كل رغبة، ويذهب بكل كراهية، ويحرر الإنسان من آلام التقمص والعودة إلى الحياة»، وقبل أن يعلّم تلامذته «الحقائق السامية الأربع» وأن الحياة ليست منهلاً للمتع الحسية لا ينضب، بل الحياة سلسلة متوالية من الآلام، ظهر في أوساط العديد من الطوائف، «حكماء» مستقلون سعوا إلى عزل الجمهور عن البراهمة وعملوا على دحض مذهبهم لبطلانه ونددوا بالتنكب عن الدنيا والزهد فيها.

وقد بين هؤلاء المتشككون «NASTOKA» «النُكّار» أن الفيدات التي يعتمدها الكهنة ليست، من قريب أو بعيد، كتباً للمعرفة، بل هي اللامعرفة بعينها، وأن تعاليم البراهمة ليست إلا خدعاً وأباطيل ولا هدف لها إلا إرهاق الشعب وإثراء البراهمة، ثم إن هؤلاء «الرجال» القديسين « لم يحملوا الحبل المقدس» إلا لتشبيه، رجال الدين المتشددين في تمسكهم بالعقيدة بموكب من الكلاب يمسك كل منها بذيل سابقه، وان ما يحملونه من أفكار عميقة حول روح العالم «بزرة الفكر» ليست سوى أوهام مجانين مدعين، ماداموا هم أنفسهم يقرون أن عقل الإنسان عاجز عن كشف حقيقة الأشياء ومعرفتها. كما أن نظرية تناسخ الأرواح التي تزرع الرعب والفزع في النفوس قد اختلقتها مخيلة البراهميين المريضة السقيمة، لتسكين جوعهم، وإرواء عطشهم وإشباع نهمهم وجشعهم، فهم وإن صدقوا وكان للإنسان روح فهي، في أحسن أحوالها، عبد للمصادفة ولا تملك لها دفعاً، ثم إن الإنسان ليس مزيجاً لعناصر هي التراب والماء

والنار والهواء: «إن الحمقى وأرباب الحكمة يتشابهون إذا ما تحلل الجسد، فكلاهما يزول وينعدم ولا يكون له وجود بعد الموت».

واحد من أهل البدع هؤلاء اسمه بريها سباتي، كتب يقول:

«ليس للجنة وجود، ولا هناك خلاص أخير،
فلا روح، ولا عالم آخر، ولا طقوس للطبقات
(إن فيدا ذات الوجوه الثلاثة، وأمر الإنسان لنفسه بلغات ثلاث،
وهذه التوبة بكل ما فيها من تراب ورماد.
كل هذه وسائل عيش لقوم
خلو من الذكاء والرجولة
كيف يمكن لهذا الجسد إذا ما أصبح تراباً...
أن يعود للظهور على الأرض؟ وإذا كان في وسع الشبح ان يمضي
إلى عوالم أخرى، فلماذا لا يجذبه الحب الشديد
لمن يخلفهم وراءه، فيرجع إليهم؟
إن هذه الطقوس الغالية التي تقام لمن يموتون
ليست إلا وسائل عيش دبرها
دهاء الكهنة ـ لا أكثر من ذلك(*)...
فما دمت حياً، انفق حياتك مطمئن البال
مرح النفس، والإنسان النبيه يقرض المال من أصدقائه جميعاً ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ويطعم نفسه بالزبد المذاب..»

وتحول بعض من هؤلاء المتشككة إلى باريباجاكا أي الجوالين، وراحوا يطوفون متنقلين من مكان إلى آخر باحثين لهم عن تلامذة وأتباع، يعلمونهم أن لا وجود للإله، وان ما يطالب به الكهنة من امتناع عن الجنس والزهد فيه

(*) من قصة الحضارة ـ المترجم ـ.

يتعارض ومغزى الطبيعة ومعناها، مادامت جميع المخلوقات على وجه البسيطة تتزوج بمسرة ومتعة، إذ كانوا يقولون: «الحكمة الوحيدة هي أن تتمتع بالحياة وتنعم على الأرض» وكذلك الأخلاق أمر طبيعي، فهي عرف اجتماعي ووسيلة لراحة العيش في المجتمع، وليس بالأمر الصادر عن الإله. والطبيعة لا تأبه لخير أو لشر، لفضيلة أو رذيلة، وهي تشرق بشمسها في غير تفرقة بين الأوغاد والقديسين، فلو كان للطبيعة صفة أخلاقية إطلاقاً، فهي منافاتها للأخلاق كما تعرفها حدود البشر، ولا حاجة بالإنسان إلى إلجام غرائزه وشهواته، لأن هذه هي الإرشادات التي رسمتها الطبيعة للناس، الفضيلة غلطة من الغلطات، وغاية الحياة هي أن تعيش، والحكمة الوحيدة هي أن تعيش سعيداً. تلك هي الفلسفة التي أخذ بها فريق «الشارفاكا» ختاماً لأسفار الفيدا وأسفار الأوبانيشاد. وقد استقبل هؤلاء المتشككون الرافضون للفكر والروح ودعاة التمرد على زعماء الدين، بالترحاب في بلاد أمراء الراجا وفي مناطق نفوذ رجال حربهم، كما استقبلت دعواتهم وتشجيعهم، للنبلاء وعلية القوم، على التنعم بالملذات بالترحاب أيضاً. ومن البدهي أن يلقى كل تأييد يدعم هوهم وكل تبرير لبطالتهم القبول والترحاب. وعلى العكس من ذلك، فقد كره وجهاء القوم مبدأ الأهيمسا (AHIMSA ـ العزوف التام) الذي كان يكرز به ابن ملك إقليم بيهار سيدذارتا ـ جانتاما SIDDHAHARTA- GANTAMA الذي اهتدى إلى التزهد.

وعلى هذا فكيف يرحب بمثل هذه الأخلاق أولئك الذين يحيون حياة بذخ ورخاء، وينعشون ذكورتهم الخائرة باستخدام جميع نساء أهل البيت للاعتناء بصحتهم، إذ كان بمقدورهم أن يختاروا، في كل يوم من أيام الأسبوع، حظية جديدة، وكان يزعجهم أشد الإزعاج، أن هذا الناسك، الذي يمجده مريدوه من الجائنيين(*) وكأنه أحد الفاتحين (جينا DGAINA) قد استسلم راضياً بتسميته

(*) انظر التعريف الذي جاء في التسلسل الزمني من هذا الفصل. ـ المترجم ـ.

بطلاً عظيماً (ماهافيرا) وامتدح الانتحار وراعى بدقة متناهية الأماني والنذور التي فرضها وأمر بها، فعلى كل معتنق للأهيمسا ألا يقتل كائناً حياً حتى لو كان جعلاً تملأ أسرابه الجو دوياً، وألا يحرث الأرض مخافة أن يزهق أرواح بعض الديدان، فكان لزاماً عليه أن يكنس الأرض أمامه قبل أن يطأها كيلا تدوس أقدامه العارية بعض الحشرات فيهلكها، كما حظر عليه أن يذبح أو يضحي بحيوان كائناً ما كان، حتى العسل منع عنه مادام نتاج الحياة.

هذا القاهر لذاته الكاره للكذب والممتنع عن أخذ ما لم يعط له، الذي قضى حياته عفيفاً طاهراً، وأدان لذائذ الحواس بوصفها خطيئة، لم يغز قصور الأمراء ولم يستملِ إليه قلوب الأغنياء.. فأغلقت في وجهه ووجه مريديه الأبواب، بل وطردوا، بلا رحمة، من بيوت السادة، ذلك لأنهم لم يكونوا متسولين يلتمسون الصدقات.

ولم يرغب الراجا والمحاربون والبراهمة وأفراد الطبقات، التي أثْرت بالتجارة أو الصناعة، والتواقة إلى الاقتداء والتشبه بنمط حياة الأمراء والكهنة، في أن يطرأ تبديل ما على ظروف حياتهم الاجتماعية والروحية التي عادت عليهم بالنفع الوفير. ثم أنهم كانوا يحقدون على بوذا «المستنير»، الذي غادر قصره الملكي بما فيه من بذخ وترف، وتخلى عن حياة الأمراء، ليغدو متسولاً ومبشراً ويخلق ديانة جديدة.

وبقيت أعراف وتقاليد المحاربين والبراهميين والأغنياء، الذين يعزلهم عن بقية الطبقات تقسيم صارم، على حالها، في جوهرها، لم يطرأ عليها تغيير أو تبديل، فابتكروا، في عزلتهم خلف أسوارهم وحدائقهم، ضروباً من المتع، وأحالوا اللذة فناً رهيفاً. فلم يعكر صفوهم معكر ولم يقلق طمأنينتهم أحد، ذلك لأنه كلما ازداد عدد أنصار مبادئ بوذا ومشايعيها، حتى بعد وفاته، ازداد عدد الرجال والنساء من الطبقات الدنيا الراغبين في تعلم كبح رغباتهم وكبتها، وفي التخلي، طوعاً، عن «الشهوة إلى اللذات» وعن «الشهوة إلى

أن يصبح....» وعن «الشهوة إلى القوة والسلطان». في حين لم يكن للمدللين الفاسدين إلا أن ينعموا بالحياة ويستمتعوا بها، كانت الجموع الخاضعة لمبادئ بوذا راضية مسالمة، فلم تطالب بحق واحد من حقوقها، بل كانت تتألم دونما شكوى، لأن الآلام تسمو بالناس إلى الصفاء والطهارة، وتمنحهم الأمل في إمكانية بلوغ النرفانا.

إن التقسيم إلى طبقات وما نتج عنه من وجود متزامن لأخلاق وآداب «متباينة في مناطق واحدة قد زادت في حدته التأثيرات البوذية. فمن جهة أولى، تبنى قسم من السكان الدين الجديد، واستخدم البراهميون، من جهة ثانية، سلطانهم ونفوذهم للحفاظ على ديانتهم التقليدية أو ترميمها تحت شكل من أشكال التحدد تزيد أو تنقص بما ينسجم، قبل كل شيء آخر، مع مصالحهم الخاصة».

وقد قدر البراهميون، حفظة الفيدات وحراسها، على امتداد العصور، ما للأناشيد المؤثرة والترانيم المقدسة من سلطان ونفوذ على بني الإنسان. فاستطاعوا بحذق تأويلاتهم للأسرار المبهمة، السيطرة على أفكار العوام من الناس. أما الآن، وبعد أن تغير الزمن، فقد بدل البراهمة أسلوبهم. وبدا لهم أن إحياء أساطير الماضي وبعثها موات. فرددوا هذي القصائد، المغرقة في شعبيتها، وانشدوها في بلاط الأمراء ورددوها على أسماع الشعب.

فنظَم العديد من الشعراء البراهميين أشعار الرامايانا RAMAYANA والماهاب ــ هاراتا MAHAB - HARATA. واستطاع البراهمة، بفضل هاتين الملحمتين المنظومتين أن يرسخوا في أذهان مستمعيهم وقرائهم الإيمان بالأقدمين وبقوانين مانو، وذلك أفضل من تلقينها حكماً جافة وتعاليم صارمة.. ولما جاءت هاتان الملحمتان مغلفتان بأساطير الآلهة والأبطال والملوك والعمالقة والقصص والخرافات وروايات الحب فقد انطبعت في الذاكرة بسهولة فرسخت في الأذهان واستحثت المخيلة.

(ولسوف نتناول هاتين الملحمتين، لما لهما من أهمية بالغة ومكانة مرموقة، إنما بإيجاز بالغ. في رأي الكثيرين أن «الماهابهارا» هي «أعظم آية من آيات الخيال التي أنتجتها آسيا». بدأت هذه الملحمة (حوالي سنة ٥٠٠ ق.م). قصيدة قصصية قصيرة، ثم أخذت تضيف إلى نفسها في كل قرن من القرون المتعاقبة حكايات ومقطوعات.. حتى بلغ طولها في نهاية الأمر ١٠٧,٠٠٠ زوج من أبيات الشعر الثمانية المقاطع أي ما يساوي سبعة أضعاف الإلياذة والأوذيسة مجتمعتين.

يقدم الجزء الأول من القصيدة «شاكونتالا» الجميلة وابنها القوي «بهارفا» وقبائل كورو وباندافا، التي تتألف من حروبهما الدموية سلسلة الحكاية، فالملك «يوذسشيرا» ملك البندافيين ـ يقامر بثروته حتى تضيع كلها، ثم بجيشه ومملكته وبإخوته وأخيراً بزوجته «داروبادي» وكان في هذه المقامرة يلاعب عدواً له من قبيلة كورو، كان يلعب بزهرات مغشوشة، وتم الاتفاق على أن يسترد الباندافيون مملكتهم بعد أثني عشر عاماً، يتحملون فيها النفي من أرض وطنهم.. وتمضي الإثنا عشر عاماً، ويطالب الباندافييون أعداءهم الكوريين برد أرضهم، ولكن لا جواب فتعلن الحرب بين الفريقين... ويروي لنا الشاعر الإحصائي أن عدد من سقط في القتال قد بلغ عدة مئات من ملايين الرجال، وتسمع «جانذاري» ـ الملكة زوجة ملك كورو الأعمى ـ تسمعها وسط هذا المشهد الدامي المترع بمناظرات الموت، تصرخ جازعة عندما تبصر العقبان محومة في لهفة الشَرِه فوق جثة ابنها الأمير «درْيوذان»:

ملكة طاهرة وامرأة طاهرة، فاضلة أبداً خيرة أبداً،
هي جانذار التي وقفت وسط الميدان شامخة في حزنها العميق
والميدان ملآن بالجماجم، وجدائل الشعر انعقدت عليها الدماء
وقد اسود وجهه بأنهارٍ من دم متجمد،
والميدان الأحمر ملآن بأطراف من لا يحصيهم العد من المقاتلين..،

وعواء بنات آوى الطويل المديد يرن فوق منبطح الأشلاء،
والعُقاب والغراب الأسحم يرفرفان أجنحة كريهة سوداء،
وسباع الطير تملأ السماء طاعمة من دماء المحاربين
وجماعات الوحش البغيضة تمزق الأجساد الملقاة شلواً شلواً
سيق الملك الكهل في هذه الساحة، ساحة الأشلاء والموت
ونساء كورو بخطوات مرتعشة خطون وسط أكداس القتلى
فدوَّت في أرجاء المكان صرخات عالية من جزع
عندما رأين ذئاب الغابة تطعم بما هيأ لها القدر من فرائس
عندما رأين جَوَّابات الليل السود ساعيات في ضوء النهار
ورنت أرجاء الميدان المخيف بصرخات الألم وولولة الجزع
فخارت منهن الأقدام الضعيفة، وسقطن على الأرض
وفقد أولئك الراثيات كل حس وكل حياة، إذ هن في إغماءة
من حزن مشترك، إلا أن الإغماءة الشبيهة بالموت، التي
تعقب الحزن، فيها لحظة قصيرة من راحةٍ للمحزون.
ثم انبعث من صدر «جانذاري» آهة عميقة من قلب مكروب
ونظرت إلى بناتها المحزونات، وخاطبت كرشنا قائلة:
«انظري إلى بناتي اللاتي ليس لهن عزاء، انظري إليهن وهن
ملكات أرامل لبيت كورو انظري إليهن باكيات على أعزائهن
الراحلين، كما تبكي إناث النسور ما فقدت من نسور أنظري
كيف يثير في قلوبهن حب المرأة كل قسْمة من هاتيك
القسمات البارزة الذاوية».
انظري كيف يَجُبْن بخطوات قلقة وسط أجساد المقاتلين وقد
أخمدها الموت.

وعندئذ ـ واحسرتاه ـ وقع بصرها الحائر على ابنها «دريوذان»
فأكل صدرها غم مفاجئ وكأنما زاغت حواسها عن مقاصدها
كأنها شجرة هزتها العاصفة.
فسقطت لا تحس الأرض التي سقطت عليها.
ثم صحت في أساها من جديد، وأرسلت بصرها من جديد
إلى حيث رقد ابنها مخضباً بدمائه يلتحف السماء
وضمت عزيزها دريوذان، ضمته قريباً من صدرها
وإذ هي تضم جثمانه الهامد اهتز صدرها بنهنهة البكاء
وانهمرت دموعها كأنها مطر صيف، فغسلت بها رأسه النبيل
الذي لم يزل مزداناً بأكاليله، لم تزل تكلله أزاهير المشكا
ناصعة حمراء.
«لقد قال لي ابني العزيز دريوذان حين ذهب إلى القتال، قال:
اه ادعي لي بالغبطة والنصر إذا ما إعتليت عجلة المعمعة»
بت: عزيزي دريوذان: «اللهم ـ يابني ـ اصرف عنه الأذى
إلا أن النصر آت دائماً في ذيل الفضيلة»

....

ولست الآن أبكي دريوذان، فقد حارب أميراً وسقط أميراً
إنما أبكي زوجي الذي هدّه الحزن، فمن يدري ماذا هو
ملاقيه من نكبات؟»

....

انظر كيف تمسك به على سريره في رفق بيدين رقيقتين
رحيمتين
انظر كيف تدير بصرها من زوجها العزيز الراحل إلى ابنها

الحبيب فتختنق عبرات الأم فيها أنّة الأرملة وهي أنة مريرة

وان جسدها الذهبي رقيق كأنه من زهرة اللوتس

أواه يازهرتي، أواه ياابنتي، يا فخر «بهارات»، وعز «كورو»

ألا إن صدقت كتب الفيدا «فدريوذان» الباسل حي في السماء

ففيم بقاؤنا على هذا الحزن، لا ننعم بحبه العزيز؟

إن صدقت آيات «الشاسترا»، فابني البطل مقيم في السماء

ففيم بقاؤنا في حزن مادام واجبهما الأرضي قد تأدّى؟

فالموضوع موضوع حب وحرب، ولكن آلاف الاضافات

زيدت عليه في شتى مواضعه.

وإليكم قصيدة من أسمى القصائد الفلسفية التي عرفها الشعر العـالمي جميعـاً، وهي المسماة «بهاجافا لـ(جيتا)» ومعناها: (أنشودة المولى)، وهـي بمثابـة (العهـد الجديد) في الهند يبجلونها بعد كتب الفيدا نفسها، ثم يستعملونها لحلـف الإيمـان في المحاكم كما يستعمل الإنجيل أو القرآن.

«إن الأمر كما أراه هو أن هذا الحشد من ذوي قربانا

قد تجمع ها هنا ليسفك دماً مشتركاً بيننا،

ألا إن جسدي ليخور وَهَناً، ولساني يجف في فمي..

ليس هذا من الخير يا «كِشَاف»، يستحيل أن ينشأ خير ما

من فريق يفتك كل منهما بالآخر، انظر،

أنني أمقت النصر والسيادة، وأكره الثروة والترف

إن كان كسبهما عن هذا الطريق المحزن، وأأسفاه،

أي نصر يسرّ يا «جوفندا» وأي الغنائم النفيسة ينفع،

وأي سيادة تعوض، واي أمد من الحياة نفسها يحلو،

إن كان شيء من هذا كله قد اشتريناه بمثل هذه الدماء؟..
فإذا ما قتلنا
أقرباءنا وأصدقاءنا حباً في قوة دينوية
فيالها من غلطة تنضح شراً،
إنه لخير في رأيي، إذا ما ضرب أهلي ضربتهم،
أن أواجههم أعزل من السلاح، وأن أعرِّي لهم صدري،
فيتلقى منهم الرماح والسهام، ذلك في رأي خير من مبادلتهم
ضربة بضربة».

ثم يأخذ «كرشنا» الذي لم تحمله ربوبيته على الحد من نشوته بالمعركة - في بسط وجهة نظره من صحة ما يقول ثقة استمدها من كونه ابن فيشنو، معلناً أنه من الخير والعدل أن يقتل الإنسان ذوي قرباه في حالة الحرب، وأن واجب «أرجونا» هو أن يتبع قواعد طبقة الكشاترية، وأن يقاتل ويقتل أعداءه بضمير خالص وإرادة طيبة، لأنه على كل حال لا يُقتَل إلا الجسد، وأما الروح فباقية، وهنا تره يشرح ما جاء في «سانخيا» عن «بوروشا» التي لا يأتيها العطب وما جاء في «يوبانشاد» عن أتمان التي لا تفنى.. وتنتهي قصيدته الطويلة بالأبيات التالية:

«............

أنا من القمر فضته ومن الشمس ذهبها
أنا موضع العبادة في الفيدا، والهزة التي تشق أجواء الأثير،
والقوة التي تكمن في نطفة الرجل، أنا الرائحة الطيبة الحلوة
التي تعبق من الأرض البليلة؟ وأنا من النار وهجها الأحمر
وأنا الهواء باعث الحياة، يتحرك في كل ما هو متحرك
أنا القدسية فيما هو مقدس من الأرواح، أنا الجذر

الذي لا يذوي، والذي انبثق منه كل ما هو كائن،
أنا حكمة الحكيم، وذكاء
وفخامة الفخيم...
أن من ير الأشياء رؤية الحكيم
ير أن براهما بماله من كتب وقداسة،
والبقرة، والفيل، والكلب النجس،
والمنبوذ وهو يلتهم لحم الكلب، كلها كائن واحد».

لعل المؤلف أراد أن ينقذ الروح الهندية من الهمود المميت الذي فرضته العقيدة البوذية، وأن يوقظها لتحارب من أجل الهند، فهي بمثابة ثورة رجل من الكشاترية أحسَّ أن الدين يوهن أمته، وارتأى في زهو ان هنالك أشياء كثيرة أنفس من السلام، وقبل كل شيء كانت هذه الملحمة درساً لو حفظته الهند لجاز أن يصون لها حريتها.

أما الرامايانا فهي من أشهر الأسفار الهندية وأحبها إلى النفوس.. وكما أن «الماها بهاراتا» تشبه «الأليـاذة» في كونها قصة حرب عظيمة أنشبتها الآلهة والناس، وكان بعض سببها استلاب أمَّة لامرأة جميلة من أمَّة أخرى، فكذلك تشبه «رامايانا» «الأوذيسة» وتقص عما لاقاه أحد الأبطال من صعاب وأسفار، وعن انتظار زوجته صابرة حتى يعود إليها فليتئم شملهما من جديد..

استطاع «راما» على إثر منافسة، أن يلوي القوس «موضوع الرهان»... فيقدم إليه «جاناك» ابنته «سيتا» بالصيغة المعروفة في مراسم الزواج في الهند:

هذه سيتا ابنة جانك وهي أعز عليه من الحياة
فلتقاسمك منذ الآن فضيلتك، ولتكن أيها الأمير زوجتك الوفية
هي لك في كل بلد، تشاركك عزاً وبؤساً
فأعزها في سرّائك وضرّائك، واقبض على يدها بيدك

والزوجة الوفية لمولاها كالظل يتبع الجسد

وابنتي سيتار زين النساء ـ تابعتك في الموت والحياة

وفي هذه الملحمة نقرأ قصيدة تكاد تحفظها عن ظهر قلب كل عروس هندية، إذ قالت «سيتا» عندما نفي زوجها الحبيب إلى الغابة حيث سيقيم وحيداً:

«العربة والخيل المطهمة والقصر المذهب، كلها عبث في

حياة المرأة فالزوجة الحبيبة المحبة تؤثر على كل ذلك ظل

زوجها...

إن «سيتا» ستهيم في الغابة، فذلك عندها أسعد مقاماً من

قصور أبيها.

انها لن تفكر لحظة في بيتها أو في أهلها، مادامت ناعمة في

حب زوجها...

وستجمع الثمار الحوشية من الغابة اليانعة العبقة

فطعام (يذوقه «راما» هو أحب طعام عند «سيتا»)».

تمتاز أشعار هذه الملحمة بدقة الشعور، وبإعلائها شأن المرأة والرجل إعلاء مثالياً، وبتصوير الحياة تصويراً قوياً «وهو تصوير واقعي أحياناً» (عن قصة الحضارة ـ المترجم ـ) (*).

على سؤال لتلميذه المفضل أناندا: «ما هو السلوك الذي ينبغي لنا أن نسلكه إزاء النساء؟» أجاب بوذا: «كما لو أنك لم ترهن» (ـ «لكن ماذا نصنع لو تحتمت علينا رؤيتهن؟» ـ «كن منهن على حذر تام، ياأناندا»(**).

(*) لم يعرض مؤلف هذا الكتاب إلى هاتين الملحتمين إلا لماماً، فرأيت أن أقدم للقارئ ملخصاً وجيزاً لهما، نقلاً عن قصة الحضارة، للمتعة والفائدة. ـ المترجم ـ.

(**) من قصة الحضارة ـ المترجم ـ .

العاشقة تضم الحبيب كما العرائش منحوتة من معبد كوناراك في البنغال
(القرن الثالث عشر)

وعلى العكس من «المستنير» «قدم الشعراء البراهميون النساء ومثلوهن بملامح ساحرة للغاية مما أدى إلى نسيان نصائح «مانو» وتحذيراته التي قد تعرض كل من لم يأخذ بها إلى الوقوع تحت تأثير إغرائهن ومفاتنهن الوخيمة العواقب. وعليه لم تفز النسوة بحق من الحقوق وإنما فزن ببعض الاعتبار، فكان الآباء، بتفويضهم أمر بناتهم إلى أزواج المستقبل، يمتدحون الروابط الزوجية ويشيدون بها». (كما سبق وأسلفنا في قصيدة «جاناك» - المترجم -).

لقد كانت المرأة النبيلة الرائعة، التي لا تكتفي بان تكون رفيقة مخلصة تبذل نفسها في سبيل زوجها فحسب، بل وتعرف أيضاً كيف تمنحه المتعة بمداعباتها، محط إكرام وإجلال. وكان البراهمة يذكرون بالحكمة القديمة التي جاءت في الفيدات: »في أحضان الحبيبة ينسى الرجل العالم أجمع، إن كل شيء فيها خارج منها...» ولكي تكون مداعبات الحبيبة مؤثرة ناجعة، كان ينبغي، أن تكون عاشقة ومعشوقة في آن واحد معاً. وقد حافظ البراهمة، في ممارساتهم لوظائفهم الكهنوتية، تمام المحافظة، على عادات نظرائهم وعلى الدوافع التي تخضع لها أفعال بني البشر. فانتهوا، بهذا الصدد، إلى أن قوانين مانو، إذا كانت تنظم مظاهر علاقات الجنسين الخارجية، فإنها لا تسيطر على علاقاتهما الحميمة، فهي لم تشر إلى طرق الاتحاد الحقيقي، وأحكامه وغالباً ما لاحظوا، بأنفسهم، ان امتلاك امرأة ما، حتى تلك الراضية الراغبة، غالباً ما يكون مخيباً للآمال، ان افتقر إلى فرح الحب ومتعته الـ«كاما KAMA» وان متعة الرجل ولذاته تبقى ناقصة إن لم تتجاوب وتتطابق إحساسات المرأة أو، في الأقل، ماتتظاهر بالشعور به، مع إحساسات الرجل، إن إرواء غليل الرغبة الجسدية الغريزية إن هو إلا نشوة سريعة عابرة، ولن يكون، على كل حال، نعيماً حقيقياً، إن بقي العشير بارد العواطف، فالمرأة تستطيع منح جسدها دون أن تستسلم بروحها، تلك هي الحال في زواج المصلحة الذي يبرمه الأهل، أو في مضاجعة الخليلات اللائي يشترين

بالمال. وتبقى اللذة تافهة لا طعم لها، ويبقى العاشق وحيداً في مضجعه على الرغم من وجود امرأة بجانبه، ورجل هذه حاله، لا يستطيع أن يكتم على نفسه انه يدين بهذه الـ«كاما» إلى نفوذ ظروفه، أو إلى ما فصَّله الأهل ودبروه فعقدوا لقرانه بالمال والتجارة، أو إلى ثرائه الذي مكنه من دفع ثمن خدمات خليلاته. إن القبول الفاتر اللامكترث والمذعن لذكورته لابد من أن يؤدي إلى فتور لذة عناقه ولابد من أن يجرح كبرياءه وينال من زهوه.

مداعبات

ولا ترغب الزوجات، قطعاً، في تلك الكاما التي لا يرى الزوج فيها إلا تأدية لواجب الزواج أو تلك التي تمنحه الأمل في الحصول على الأبناء. فهن يرغبن أيضاً في استثارة عواطف العشق والمحبة، ليستطعن، من ثم، التمتع باللذة ومنحها بشغف ومحبة، تلك اللذة التي يفرضها عليهن الواجب. وهن يرغبن في تعلم كيفية استمالة من اصطفين من الرجال والاحتفاظ بهم، وكيفية مساعدتهم وتقديم الخدمات لهم بغية السيطرة عليهم بفضل ما يهبنهم من متع وملذات.

وعلى هذا فلا يكفي المرأة ان تتزين بأحلى الثياب، وان تغنج مزدانة بحليها، وان تتطيب بالعطور وتعتني بجمال جسدها ونظافته، وان تعد أطيب المأكولات وأفخرها، ذلك لأن الرجال الذين يسعون للتسلية والترويح عن النفس خارج بيت الزوجية قد أفسدتهم الخيلات والحظايا البارعات في مهنتهن الجديرة بالاهتمام، إذ وجدوا عندهن الأبواب مشرعة واللهو بالكلام الفالت مباحاً والألعاب الجماعية متوفرة ومشاهد الرقص والموسيقا تسر العين والأذن معاً. ففي بيوت اللذة كانوا يلتقون بأصدقاء، يسعون هم أيضاً، وراء اللهو وتزجية الوقت فيحصلون على ما يسعون وراءه، لكنهم، مثلهم أيضاً، لن يجدوا الحب أبداً.

وقد خفف البراهميون تخفيفاً مؤقتاً من غياب الاستعداد إلى الزواج والتحضير له، هذا الغياب الذي أحال الرابطة الزوجية إلى اتحاد غير سعيد لا يرغب فيه الطرفان، فغدا مجرد مساكنة ليس إلا. وضمنوها تعاليم موضحة بحكايات مناسبة ووصايا بسيطة واضحة تشرح كيفية ممارسة العلاقات بين الزوجين بغية تحقيق فكرة الـ«كاما» الإلهية.

وقد احتفظنا بأسماء بعض معلمي المتعة الجنسية هؤلاء، إذ استفاد مالاناجا فاتسيا يانا، معلم الحب العظيم، مما دونوه في الـ«كاما ـ سوترا». وتعني كلمة سوترا مبدأ، كما تعني تقريراً، أو رواية وحكمة بل ان الـ«كاما ـ سوترا» التي ألفها المعلم فاتسيا يانا هي أكثر من ذلك، انها ملخص متكامل يخلو من تحفظ النظريات ويطبق، عملياً، الحياة الغرامية والجنسية، وهي أيضاً لوحة للأخلاق

زاخرة بالألوان تؤلف منها جميعاً فسيفساء من المشاهد تفوق الحصر.

كسر فاتسيا يانا الطوق فاخترق الأحكام السابقة التي حظرت على النساء معرفة الفيدات فحالت بينهن وبين معرفة الـ«كاما». وقد بلغت هذه الأحكام المغلوطة مبلغاً دفع الرجال إلى منح النساء فرصة تجميع الخبرات الغرامية بفضل ممارستهن نشاطاً جنسياً لا يكل ولا يمل. ومن البديهي ألا تؤدي هذه الممارسة المنقوصة، الخرقاء غالباً، إلى تحقيق المتعة الصحيحة وما يجود به الجسد من مسرات وأفراح.

فلابد، والحال هذه، من تربية نظرية وعملية، ولا بد من التحرر والانعتاق من التحفظات ليصعِّد الإنسان من حساسيته ويحرر اتحاد الأجساد الطبيعي، بكافة الأشكال التي تلبسها هذا الاتحاد، من فقدان الثقة ومن عثاره وفضيحته ومما علق به من فساد أخلاق وإخلال بالآداب، إذ أن الفحش نقيصة الفكر وحده، لا الجسد. وليست أعضاء المرأة والرجل الجنسية أشياء قذرة بل هي وسائل الـ«كاما» الخيرة التي ينبغي للجنسين للنجاح في الحب، معرفة طاقاتها وتعلم استخداماتها. وقد حبا الله الإنسان بالعيون للرؤية والشفاه للتقبيل، والـ«لينغام ـ العضو المذكر» ما وجد إلا للتلذذ بالمتع والإنجاب في مهبل الأنثى ـ الـ«يوني» وعلى العشيرين ألا يتركا هذه المتعة تحت رحمة اتفاق مصادفة طارئ غير متوقع. لن يقع «المطلعون» في شراك الصدفة وحبائلها إذا ما تعلموا مبادئ الكاما وامتثلوا للسوترا. وقد يسلِّم فاتسيايانا بأن كثيراً من النساء هن «خبيرات ومجربات» مثل بنات الأمراء والمحاربين، إضافة إلى الخليلات. وعلى هذا فقد اقترح أن تعلم رفيقات الثقة، من هؤلاء النساء، الراغبات في تعلم الحب، الأربعة والستين فناً، وهي توطئات لسعادة مرهفة ناعمة جديرة بالحب، أو تعليمهن بعضاً منها، في الأقل، ان تعذر ذلك لكن الأفضل عموماً، ان تضطلع بمسؤولية تعليم الفتاة المبتدئة إحدى الصديقات المتزوجات أو الخالات أو إحدى الخادمات المسنات أو المتسولات الأليفات أو إحدى الأخوات المجربات، الفت الكاما ـ سوترا لتخص أفراد الطبقات الميسورة والنسوة المقيمات في دور السكن الفاخرة

اللائي أبيح لهن، في محيط من الأبهة والعيش الرغيد، التلذذ بمتع الحب والإلمام بشتى الوسائل واستخدامها لاستثارة اهتمام الرجال واستمالة قلوبهم.

ان تعرف المرأة: تركيب العطور، وشراب العشق، وكيفية العناية بجسدها وتطييبه بالعطور الذكية وان تعرف تضميخ شعرها وضفره وصبغه، وتلوين أسنانها وأظافرها و.... فتلك أمور لا تشكل إلا المبادئ الأولى، إذ كان ينبغي لها أن تتعلم، أيضاً، الغناء، والرقص، والعزف على مختلف الآلات الموسيقية، وان تلم بالأزهار وتبرع في توزيعها على شكل أكاليل لتزين بها بذوق، رهيف، صور الآلهة، والأسرة والوسائد الموزعة فوق الفراش. وكان لها أن تعمل على تطوير رشاقة أصابعها في صنع الأقراط وباقات الريش، وزينات الرأس الفنية، إضافة إلى أشغال الصوف والحرير. وكان عليها أن تتقن ألعاباً تكسبها الصبر، والتلاعب بالألفاظ والدهاء، وان تتقن لغات غامضة تستطيع بواسطتها التحدث مع من تحب دون أن يفقه الآخرون من حولها شيئاً. وكانت تتعلم الكتابة والقراءة بالرموز، ونظم القصائد، ومزج عصير الفواكه والمرطبات.. وكانت في حاجة إلى الإلمام جيداً بما تفرضه المعاشرة من سلوك وآداب، وإلى معرفة آداب استقبال الضيوف في بيت زوجها وتكريمهم كما ينبغي، وكان يتحتم عليها أن تتقن كل ذلك إضافة إلى أشياء أخرى كثيرة لكي تكون، من جهة، محط اهتمام زوجها، رجل المجتمع الملم بالأربعة والستين فناً، ولكي لا تكون، من جهة ثانية، عرضة للإهمال والإبعاد فتحل محلها إحدى الخليلات، ذلك لأن للحظية الخبيرة في فنون الأنثى، الحق في احتلال مكان الشرف في مجتمع الرجال.

وعلى هذا فان الـ«كاما ـ سوترا» كانت تفرض على النساء واجبات والتزامات، بينما كانت تلقي على مسامع الرجال النصح والإرشاد. وكان أول شرط من شروط السعادة «الآرتها ARTHA» الحصول على الثروة، لأن الرجل إن لم يكن ثرياً تعذر عليه الحصول على منزل فاخر تحيط به حديقة غناء ويحتوي على غرف داخلية وقسم مكشوف. الغرف الداخلية معدة

للنساء، أما الغرفة الخارجية فلابد من أن تكون طافحة بالعطور الذكية، والأطياب البلسمية، وتضم سريراً وثيراً مجوفاً في وسطه، يغطيه نسيج كتاني أبيض مزدان بأكاليل الزهور، وتنتثر على بساطه بتلات نضرة متعة للنظر، أما ما تبقى من الغرفة فيتم اعداده وتنظيمه بعناية فائقة ـ حيث العطور للعناية بالفم وطاولات اللعب بالنرد.. ولابد أيضاً من أن تضم الحديقة: أرجوحة دوارة وأخرى عادية، إضافة إلى عريش مزدان بنباتات مزهرة مع منحدر خضير للجلوس عليه. وينبغي للرجل أن يحرص تمام الحرص على هندامه كما المرأة. وعليه أن يتأكد، دائماً، من أن أنفاسه تفوح عطراً، وعليه أن يستحم كل يوم، وان يضمخ جسده بالزيوت العطرة كل يومين، وأن يزيل العرق من إبطيه، وألا يترك لها أثراً، وعليه أن يحلق جمجمته ووجهه كل أربعة أيام، كما كان عليه، قبل أن يبدأ عمله اليومي كل صباح، أن يتأكد من أنه قد صبغ شفتيه وجفنيه بصبغة تتناسب مع سيمائه.

ترى هل هذا الرجل، المثالي الذي وصفته الـ«كاما ـ سوترا» وقد استعد بعناية فائقة لمقابلة امرأة من اختياره، ليس إلا مجرد مغرور بسيط معتد بنفسه، أم أنه لم يبذل الكثير من الوقت للعناية بمظهره إلا لترضى به تلك التي قابلها في أحد الأعياد أو في إحدى المآدب حيث احتلت، هي أيضاً، مكانها بين المدعوين، ذلك لأنها تنتمي إلى الطبقة نفسها التي ينتمي إليها هو؟

كان العالَم الذي يتحرك فيه رجلنا هذا، حتى هبوط الليل، عالماً مذكراً، إذ كان يمضي ساعات نهاره مع أصدقائه، ثم أنه لم يكن ممنوعاً أو مثيراً للريب أن يمنح أحد أصدقائه دالة جنسية زائدة إن أحس هو وعشيره بالحاجة إلى عدم الاكتفاء بالعلاقات الروحية. والحق ان استسلام الرجال للمتع الجنسية المثلية لم يكن مناف للعادات أو غير منسجم معها.. ذلك لأن تعاليم فاتسيا يانا كانت تقضي بأن يتبع الإنسان ذوقه الشخصي فيما يتعلق بموضوع الحب والعشق و لم يضف إليها إلا قيداً واحداً: «وفق عادة البلد» ثم إنه رأى أن المنع يولد الرذيلة

في حين أن الأفعال التلقائية المتحررة من القيود، أياً كانت أشكالها، تسمو بالفكر والروح معاً، شريطة ألا تتسبب في أذية الآخرين.

والرجل المثالي، سواء كان برفقة أصدقائه، أو بدونهم، كان يتوجه إلى الحدائق العامة ممتطياً صهوة جواده ويسير وراءه بعض من خدمه، حيث يشاهد عراك الديكة وعصافير السمان وصراع الأكباش ويمضي سهرته، عند الاقتضاء، مع خليلته، فيتنزهان في ضوء القمر ويتناولان طعامهما في الغابة إذا ما اخضوضبت البراعيم، ويلعبان ألعاباً جماعية. وقد حظر على الرجل ممارسة الـ كاما مع امرأة تنتمي إلى طبقة أعلى من طبقته، أو مع امرأة من طبقته إذا ما كانت ملكاً لرجال آخرين. غير أنه كان يتمتع، مع ذلك، بحرية زائدة تخوله اللهو مع الخليلات، وأن يمرح ويسرح مع نساء من الطبقات الدنيا، أقصين عن طبقاتهن أو تزوجن للمرة الثانية.

فإذا ما رغب الرجل في الزواج، بامرأة من طبقته طبعاً، عليه أن يتأكد من أنه لن يسعى وراء فتاة ذات «أنف أقنى أو منخرين خانسين أو فخذين مقوسين أو ظهر أحدب» وعليه ألا يسعى قط إلى الزواج بفتاة لا تحب النظافة، وغير طاهرة الذيل لعلاقتها برجل آخر.

كانت الأعياد الدينية والتظاهرات الرياضية تمنح الرجل فرصة مراقبة الفتاة العذراء إذ يستطيع طالب الزواج التأكد من أنها تروق له من الناحية الجسدية وان مظهرها وسلوكها مناسبان وسليمان. وعلى أبيه وأمه إضافة إلى أصدقائه أن يتوسطوا له لعقد قرانه.

كان يتحتم على رجل المجتمع الحق ألا يلجأ إلى مغازلة من اختارها أثناء أيام الخطبة الأولى، حتى إلى ما بعد الاحتفال بالزفاف رسمياً، إذ كان ينبغي له، قبل الاقتران بها في الـ«كاما» ان يسعى للتقرب منها والتودد إليها ليفوز بحظوتها ورضاها، وأن يحترس من اللجوء إلى العنف إزاءها مخافة ان يجرح حساسيتها، ولكن عليه، في الوقت نفسه ألا يبالغ في احتجازه لنفسه مما يدفعها إلى الاعتقاد

بأنها غير مرغوبة. وجرى العرف أيضاً أن يرقد الزوج الليالي الثلاث الأولى لينام على الأرض بالقرب من زوجه الحديثة العهد، وأن يمتنع العروسان، في الوقت نفسه، عن التمتع بملذات العشق، أما النهار فسوف يتيح لهما فرصة التعارف والألفة مما يساعد الزوج الشابة على الاطمئنان إلى زوجها فيزول فزعها من محاولات تقرب عشيرها العجولة.

وفي الأيام السبعة التالية يتناول الرجل والمرأة طعامهما معاً، ويقومان بزيارة الأصدقاء الذين حضروا زفافه. وعليهما، بحضور الآخرين، ألا يتصرفا كعاشقين وإنما كصديقين حميمين. غير أنه يتحتم عليهما، إذا ما وجدا على انفراد، أن يستحما معاً، إذ لابد من أن يدفعا عنهما كل حياء، وأن يتعرف كل منهما على جسد قرينه عارياً قبل أن يتحد الاثنان جنسياً، وفي هذه الحالة، ستساعد الموسيقا المولدة للنشوة على استرخائهما وتخفيف توترهما، إذا ما تأمل كل منهما عري عشيره المثير والمهدد معاً.

إن النساء الملمات بالحب كما جاء في الكاما ـ سوترا على علم بأن متعة الحواس التي تنتظرهن أو تعصى عليهن منوطة بتكوينهن الجسدي أو ببنية الرجل الذي سيستسلمن له. وقد تعلمن أيضاً كيف يكون بمقدوره ومقدورهن معاً معالجة فقدان الانسجام فيما بين حجم الأعضاء الجنسية الخاصة بكل منهما. وعلى هذا، فقد أصبح بالإمكان مد يد العون إلى الطبيعة لكي يعزز العمل الجنسي، الذي باشره الطرفان بفن ورهافة، الروابط الزوجية ويمنح كلاً منهما أمتع النشوات وألذها.

وليس للحياء المزيف مكان في الكاما ـ سوترا، ذلك لأن النساء المطّلعات على مضمون كتاب الحب هذا يعرفن أنه يوجد ثلاثة أصناف من الرجال وفق أبعاد أعضاء ذكورتهم المسماة لينغام، فبعضهم يكونون أرانب، وبعضهم الآخر ثيراناً، والصنف الثالث والأخير هم الأحصنة: يدعى الرجل من الصنف الأول بالرجل الأرنب، ومن الصنف الثاني بالرجل الثور، ومن الصنف الثالث بالرجل الحصان، وقد صنفت النساء أيضاً، تبعاً لعمق مهبلهن الـ«يوني» أو اتساعه، في

ثلاث فئات: في الفئة الأولى تدعى بالمرأة الظبيـة، وفي الثانيـة بـالمرأة الفـرس، وفي الثالثة بأنثى الفيل.

الرجل الأرنب يتناسب والمرأة الظبية والرجل الثور مع المرأة الفرس والرجل الحصان مع أنثى الفيل، ومن المحتم على كل من العشيرين ألا تبرد همتـه أو تخـور عزيمته إن لم تحقق الصدفة هذا الوفاق، ذلك لأنه يتوفـر لكـل منهمـا العديـد مـن الوسائل الطبيعية والاصطناعيـة لتـدارك هـذا التفـاوت الجسـماني. فالأهميـة أولاً وأخيراً تعود إلى حمية الهوى وشدة الرغبة، وبخاصـة اسـتعداد الزوج وكفاءتـه في إطالة فترة الجماع ليبلغ بالمرأة ذروة حساسيتها ويـروي رغبتهـا، في ذات الوقت الذي يروي فيه غليله بـالقذف في مهبلهـا، فمـن واجـب الـزوج أن ينتظـر متعـه زوجه وبلوغها ذروة النشوة الجنسية، ألا وهي رعشة الجماع. وبالمقابل فإن على المرأة أن «تعامله بالمثل وتقابله جميله بأجمل منه» وان تخضع لإتقان كافة ضـروب الحب والجماع التي يتضمنها الكاما بتمامه.

وتساعد إرشادات الـ«كاما ـ سـوترا» الرجـل علـى تبديـد كـل مـا ينتـاب زوجه البتول من نفـور وخـوف وتردد، ففـي مقـدوره أن يطمئنهـا ويؤكـد لهـا بأحاديثـه الرقيقـة وقبلاتـه العذبـة ومداعباتـه الناعمـة لفخذيهـا وخاصرتيهـا، إن ملامسة الشفا واللسان والأصابع لن تسبب لها ضيقاً أو إزعاجاً وبذلك يستطيع أن يقودهـا، بكثـير مـن الحـب والحذق، إلى الاستسـلام لهـواه، فـلا تهـاب منـه احتكاكاً ولا يخشى منها رفضاً. أما إذا ما استمرت تبدي بعض التحفظ فعليه أن يسارع إلى التغلب على ذلـك فيشرح لهـا، بكثـير مـن المراعـاة والمداراة «فنـون الاتحاد الجنسي»، مع الاستفاضة باعترافات حبه وهواه.. إن فضول جسـد المـرأة الفتي، ورغبته في اكتشاف المجهول، ومخيلتها الفتية المتوقدة، تدفع بالمرأة إلى قبـول الحب والاستسلام له. ويجئ دور تبادل القبلات، منحها وقبولهـا قبـل كـل شـيء آخر، وذلك وفق تعاليم الكاما ـ سوترا، عندئذ تتحدث الزوج بلطف مع زوجها فلا تمنع عنه ملامسة نهديها وتسمح له بـ«عناق الملامسة» ثـم تلتصـق بـه بشـدة

لتنفذ فيه إن صح التعبير، بنهديها ويدعى هذا العناق بـ«العناق الثاقب أو الحاد»... فإذا ما احتك جسد بتولي بجسد مذكر سمي هذا العناق بـ«العناق المتأرجح أو المتذبذب». وتجذب المرأة أثناء «العناق الضاغط» رأس عشيقها لتحصل منه على قبلة. وما أن يعانقها وقد «تشابك العشيران كما العرائش» تسقط إذاك جميع القيود، ويدخل كل منهما في الآخر، الفم بالفم، العين على العين، والجبهة على الجبهة.. عندئذ تشرع «عجلة الهوى في الدوران، فليس ثمة قاعدة ولا نظام... لكليهما معاً وفي كليهما».

هذه الجملة، في الـ«كاما ــ سوترا» تختتم «فن العناق» وهي تعني: أن هوى العشاق يجد أساليبه الخاصة في الكاما. وعليه فانه لا يلتمس عوناً أو نصحاً ما مهما كان نوعه، بل يعرف، من تلقاء نفسه، أن يبلغ بالاتحاد الجسدي أقصى درجات المتعة.

بيد أن «العشق يذوي والزواج يبقى». وعلى هذا، فإن الزوجين في حاجة إلى التعلم لكي يستمر الحب ويبقى على أشده. وقد أوردت الكاما ـ سوترا هذه التعليمات والإرشادات في فصل: «أنماط مختلفة من العلاقات الجنسية» الذي يشرح للنساء طريقة معالجة الصعوبات الشاقة وتجاوزها، تلك الصعوبات التي تتأتى عن تباين بنيتي العشيرين. وهكذا فان على المرأة الظبية الانسجام مع الرجل غير الأرنب إن هي تبنت «الوضعية المفتوحة» ويكون المهبل واسع الفتحة. أما «الوضعية المغلقة» فإنها تسمح للمرأة الفرس أن تحتجز في مهبلها قضيب الرجل الأرنب، وتسمى هذه الوضعية أيضاً وضعية «الفخذين المضمومين»، وعلى هذا فإن لكل وضع صالح لاستثارة اللذة الجنسية وتأجيجها تسمية خاصة به متناسبة معه، فإن اتحدت المرأة المتكئة على جدار أو عمود بالرجل وهي واقفة، دعيت هذه الوضعية بـ«وضعية الاتكاء أو الاستناد» أما إذا استقبلت عضو الرجل وهي جاثية على ركبتيها ثم انحنت إلى أمام فتكون قد شكلت وضعية «البقرة».

وقد تضمنت الكاما ـ سوترا أيضاً توجيهات دقيقة تعلم المرأة ما ينبغي لها القيام به ان هي تبنت، في الجماع، دور الزوج، فإن كان متمدداً على ظهره:

ينبغي لها إذن أن تمسك به «كما الكماشة» أو أن تروِّح عنه بحركة «القارب» إذا ما ارتفع بجذعه. أما «الاتحاد الفموي» القائم على تقبيل الرجل للـ«يوني ــ المهبل» أو تقبيل المرأة للـ«لينغام ـ القضيب» فان الكاما ـ سوترا لم ينصح به بوجه خاص، بل جاء ذكره مع التعليق الوحيد التالي: من الممكن أن «يقوم الطرفان بهذه الأشياء أو أن يمتنعا عنها ولذلك تبعاً لذوقهما ومزاجهما، انه لعمل حميم».

«فلا تصلح مختلف أنماط ملذات العشق في كل وقت أو لأي كان، بل إن لكل نمط منها وقتاً مناسباً ومكاناً محدداً». وتعدد الكاما ــ سوترا كل أوضاع العشيرين الممكنة وتختتم ذلك بأبيات الشعر التالية: «بمقدور البارعين من الرجال والنساء تنويع أنماط جماعهم باستلهامهم واسترشادهم بأمثلة من تزاوج مختلف الحيوانات والطيور.. بما يتناسب وذوقهم الشخصي.. إن مختلف أنماط الجماع هذه تستثير قلوب النساء إلى الحب، وتستحثهن على طلب الحظوة والصداقة والمحبة».

وينبغي للزوجين، إذا ما اصبح كل منهما ملكاً للآخر، في حب حميم أليف «أن يذهبا إلى حجرة النظافة وبيت الخلاء، باحتشام، ودون أن ينظر أحدهما إلى الآخر، ليعودا، من ثم، إلى السرير أو إلى مستشرف المنزل، يقضمان قطعة من الحلوى أو يرشفان كأساً من عصير الفواكه المنعش وهما يتبادلان أحلى الأحاديث وأعذبها. وللرجل أن يُري زوجه، إذا ما أسندت رأسها إلى صدره، ما في السماء من كواكب ونجوم.. نجمة الصبح.. ونجم القطب... والدب الأكبر».

ولشد ما أسهم هذا الوصف الرومانسي، لما جاء في قصيدة الحب الزوجي الغزلية، في انتشار الكاما ـ سوترا وشعبيتها، إنها، حقاً، نهج حب ونمط حياة، يتمناها الآباء لبناتهم، وفيها أيضاً ما يرغب الرجال في نواله من نسائهم من تدليل وما تتمناه النساء، من الرجال، من تدليع. بيد ان الكاما ــ سوترا، على الرغم من ذلك، لم ترد إلى الزوجات في الهند ما كانت الفيدات قد سلبتها منهن

من حقوق قديمة، فهن، والحق يقال، يدعين سيدات البيت لكنهن، في الحقيقة لسن سوى أسيرات للحب ومسترقات لوفاء زوجي غير مشروط، فإن حدث وانتهكن الأمانة الزوجية طردن من منزل جَمَّلنه بالحب وزيّنه بالهوى، أما هن فعليهن، بالمقابل، ألا يتمردن أو يعترضن إن عاند أزواجهن وأبوا إلا أن يلهوا مع خيلاتهم أو مع نساء أخريات مستعدات للاستسلام «لرجال يروقون للنساء».

لم يكن كتاب فاتسيا يانا وقفاً على النساء الشرعيات فحسب، بل نراه في السوترا يتعرض بالوصف أيضاً إلى السلوك الخاص بكل من النساء والرجال الجائعين والتواقين إلى التمتع خارج الزواج، فمنح تعاليمه مشجعاً كل امرأة وكل رجل متشوق إلى الإسهام في الكاما. كما خص بحديثه الخليلات، ذلك أن الزبون يتمنى أن يجد عندهن إلماماً بمبادئ مهنتهن وقد حصلن على كافة أشكالها وصورها، البسيطة منها والرفيعة المستوى، فمن المحتم عليهن، وهذا أمر بديهي، أن يكن «خبيرات» في فنهن، كما كان لابد لهن أيضاً، من أجلهن ومن أجل زبائنهن، من أن يعرفن جميع أشكال آداب السلوك، ثم إن الحظية الماهرة الظريفة تعرف تمام المعرفة أن تقدر أيضاً «ما في الإنسان من خصال ومزايا أخرى»، كما قدرت ما في الثروة من فوائد لا ينبغي الاستهانة بها. وينبغي لها أن تتصرف بطريقة تدفع بعشيرها إلى أن يعزو فورات حبها وهواها إلى رغبتها وشهوانيتها لا إلى جشعها وطمعها. وعليها أن تبدي إلى الأشخاص، ممن يستطيعون مساعدتها ورعايتها، صداقتها ومودتها دونما استغلال أو طمع.. وعليها أن تصون مكانتها فتمسك عن الكلمات السوقية وعن القهقهة وأن تمتنع عن كل اتصال بالرجال المرضى أو الغلاظ، والسيئي الظن، والقساة، والجشعين والنصابين.

وعلى الرجل، بالمقابل، أن يكافئ خدمات خليلته بما يتناسب وثروته، وطبيعة العمل الذي قدمته له. أما النساء الأخريات، ممن يرغب في الفوز بهن، فعليه أن يقترب منهن بحذر ودراية، مع مراعاة بالغة لميولهن وأفكارهن. وتقدم الكاما ـ سوترا، لمن يسعى وراء المغامرة من العزاب والأزواج، قائمة

بـ«من يسهل الفوز بهن» من النساء، وقائمة أخرى أيضاً بمن يتحتم عليهم تجنبه منهن، ذلك لأن في أزواج هؤلاء النسوة نقائص وعيوب بدءاً من الوساخة وانتهاء بالغيرة وبدءاً من الخسة والجبن وانتهاء بالطيش والضياع، وبدءاً من العجز الجنسي وانتهاء بسرعة القذف والتهيج القصوى، تلك الصفات التي «تكدر النساء».

فإن قاومت النساء، أحياناً، محاولات تقرب الرجال منهن، فذلك، حسب اعتقاد الكاما ـ سوترا ما جاء إلا بدافع من حبهن لأزواجهن أو مراعاة لعائلاتهن وأطفالهن، وبخاصة، لخشيتهن من اكتشاف أمرهن أو لارتيابهن في أن الرجال لم يحاولوا التقرب منهن إلا بتحريض من أزواجهن لامتحان إخلاصهن واختبار وفائهن.

حرر النصوص، التي اعتمدها فاتسيا يانا، البراهمة الذين يتوجهون بكتاباتهم إلى البراهمة دون غيرهم، أما الكاما ـ سوترا فلابد لها، لمقاومة تعاليم البوذية حول بطلان الوجود الأرضي، من أن تصل إلى جميع الطبقات وتدركهم.

وقد سيطرت المتعة المنتصبة كما العقيدة، ليس فقط، على نمط حياة الأغنياء من الهنود الذين كرست هذه الدروس في الأصل لهم، بل سيطرت أيضاً على نمط حياة أفراد الطبقات الدنيا الذين يستطيعون الإسهام في الكاما كما أسهم فيها أصحاب الامتياز بالولادة.

فغدت، قواعد اللياقة والأحكام المحددة لآداب السلوك مع القريب وفي العلاقات الجنسية، والأوصاف المرتكزة على اختبار المتع المباحة والممنوعة ومراقبتها، خيراً مشتركاً عم جميع الطبقات والأفراد ممن يرغبون في التمتع بالحياة، إن كل شخص يمتثل للكاما ـ سوترا لن يرتكب خطيئة ولا إثماً ضد الدين. وقد بارك البراهمة العملية الجنسية شريطة ألا تُمارس بالقرب من أحد المعابد، وبخاصة، في داخلها، كما راق لهم (أي البراهمة) الرجال الذين يحافظون على مظهرهم وظرفهم، والذين يسمون بفن الحياة إلى رتبة الفضيلة وقد استسلموا، كلياً، إلى مسرات الحب ولذاته.

إن الانقسام الصارم إلى طبقات، الذي أوجده البراهمة وفرضوا على الجميع، دون رحمة أو شفقة، احترامه والتقيد به، لم تتهدد سلامته أو يتعرض للخطر قط إن تقيد الرجال والنساء معاً، بالكاما ـ سوترا في حبهم وعلاقاتهم الجنسية. وقد شجع الكهنة طقوس عبادة الكاما إلى حد بلغ فيه المهبل والقضيب (اليوني واللينغام) المعبودين الأثيرين في أوساط الشعب. فقامت النصب التي اتخذت شكل الـ«لينغام» على جانبي الطرق، ونحتت على واجهات المعابد الكبرى الحجرية دروس اللذة الشبقية، لكي تبلّغ رسالتها إلى جميع الرجال المتشوقين إلى المعرفة وإلى جميع الفضوليين والمتفرجين، ولكي تشدد من إيمانهم في أصل الجماع وغايته الإلهية.

كلمة أخيرة لابد منها نختتم بها الحديث عن الكاما ـ سوترا ونعرض فيها بالتفصيل لما في كتاب الحب هذا من معان فلسفية قد تغيب عن مدارك غير المطلع على ثقافة الهند وتراثها ومعتقداتها وقد جاءت هذه الكلمة، بقلم الكاتب: MARC DE SMEDT توطئة لكتاب الـ«كاما ـ سوترا» الصادر عن «SOLAR» ـ المترجم ـ.

الكاما ـ سوترا، هذا النص المقدس

كاما ـ سوترا: هذا الاسم الذي يبعث فينا، على الفور، تذكرات شبقية خفية، ذلك لأننا نعتقد، لابل ونعرف، حتى لو لم نقرأ كتاب الحب هذا، إنه يعني بحثاً يتناول مختلف أوضاع الحب التي سجلها التقليد الهندي وفهرسها. إن الكاما ـ سوترا، بالطبع، بحث في الحب دونه، نحو القرن الثالث للميلاد، أحد البراهمة: فاتسيا يانا الذي تناول، بالبحث والتكثيف والتلخيص، تعليماً هندياً قديماً بنصوصه الباطنية المقدسة التي تناقلها الهنود، يوماً بعد يوم، عبر طقوس نظمت العلاقة بين الناس.

غير أن مفهوم الحب ومعناه في هذا البلد، الذي ازدهرت في ربوعه إحدى أعظم الحضارات على كوكبنا الأرضي، لم يقتصر، بالطبع، على بعض حركات

الجسد والتواءاته التي يمكن أن نلاحظها في سلوكنا الغرامي. ذلك لأن حركات العشق هذه ليست، في جوهرها، إلا تتويجاً لمشهد حب حقيقي بكامل أجوائه، تتحدث فيه العيون والأيدي والعطور والألوان والحلي والشعر والموسيقا وعدد من الصور الأخرى، معبرة عن العواطف بجميع خلجاتها والرغبة بكامل درجاتها والتودد وتنويعاته الحاذقة. أضف إلى ذلك، أن الكاما ـ سوترا (حِكَمٌ حول الحب) قد اندرج ليحتل مكانه، في صميم نص ديني هندي يسدي إلينا النصح والإرشاد لبلوغ اتحاد منسجم يقوم بين الأفراد في المجتمع، من جهة، وبين الكائنات والنظام الكوني الشامل، من جهة أخرى، بتوجيه من كوكبة الآلهة الهندوسية التي يرمز كل منها إلى طاقة خاصة به، إنه تيار ـ قوة يتوقف عليه حسن سير مجموعة نظامنا في المجرة.. وعليه، فإن لهذا البحث علاقة وثيقة بالفيدات التي تندرج في قائمة أقدم النصوص المقدسة التي نعرفها، وتشكل أسس أقدم الديانات في العالم وأكثرها ثراء، بنظريتها المعقدة في نشوء الكون، وميتولوجيتها الغزيرة، وفنونها في التأمل مثل: أشكال اليوغا وتنوعاتها والبرانياما PRANYAMA (مراقبة التنفس والتحكم به)، دونما إغفال لقانون الأخلاق المولوي SEIGNEURIAL والبراهمية، ونظام الطبقات، وقد تبين أن العلاقات مابين الآلهة والبشر، في الهند، غير قابلة للفكاك مادامت تشكل جزءاً من لحمة نشوء الكون نفسها: الروح الفردية «اتمان» والروح الكونية «براهمان» تشكلان كلاً واحداً، إنهما وليدتا خلق واحد. ومع ذلك فقد اشتقت كلمة يوغا من ويغ: رابطة، ربط، نير، وإن مبدأ التمرينات التي تقترحها تهدف، تماماً، إلى ربط الكائن بالطاقات الكونية.

أسطورة الخلق:

فما هو إذن دور الحب في كتاب كهذا؟ إن الحب، هو أيضاً، حاضر في كل مكان، ذلك لأنه بانعدام الرغبة، الوجود البدئي، لم يكن لبراجاباتي (بوروشا ـ بدء كل شيء) أن يرغب في إنسال الخليقة... بوسعنا أن نذكر هنا إحدى هذه الأساطير المسلية ذات النصوص المتعددة المتنوعة:

«في البدء كان هذا الكون عدماً فيما عدا «النفس»
على هيئة إنسان، فتطلعت حولها ورأت ان
لا شيء عداها، فكانت صحيتها الأولى:
إنه أنا...
ثم أدركها الخوف من الوحشة، لكنها فكرت:
إذا لم يكن ثمة غيري، ففيم خوفي؟
ومن ثم رحل الخوف
لكنها كانت مع هذا لا تزال مفتقدة البهجة
(تماماً كما نفتقد البهجة في وحدتنا)
حسناً، هذا الكون، هذه النفس،
كان في حجم رجل وامرأة متعانقين، ومن ثم قسمت النفس
ذاتها إلى شطرين، الجزء الذكر، والجزء الأنثى
من النفس أو من الكون
ثم عانق الذكر الأنثى، ومن هذا العناق ظهر
الجنس البشري
وسألت الزوجة نفسها قائلة:
كيف استطاع مضاجعتي بعد أن أخرجني من نفسه
فلأختف
واختفت في صورة البقرة
وانقلب هو ثوراً، فزاوجها
وكان بازدواجهما ان تولدت الماشية
فاتخذت لنفسها هيئة الجواد
ثم أصبحت هي أتاناً

فأصبح هو حماراً
وزواجها حقاً»

وولدت لهما ذوات الحوافر، وانقلبت عنزة فانقلب لها تيساً، وانقلبت نعجة فانقلب لها كبشاً، وزاوجها حقاً، وولدت لهما الماعز والخراف، وهكذا حقاً كان خالق كل شيء، مهما تنوعت الذكور والإناث، حتى تبلغ في التدرج أسفله إلى حيث النمال، وقد أدرك هو حقيقة الأمر قائلاً: «حقاً إني أنا هذا الخلق نفسه، لأني أخرجته من نفسي، من هنا نشأ الخلق» (في هذه الفقرة الفريدية، نلمس بذرة مذهب وحدة الوجود وتناسخ الأرواح، فالخالق وخلقه شيء واحد، وكل الأشياء وكل الأحياء كائن واحد فكل صورة من الكائنات كانت ذات يوم صورة أخرى ولا يميز هذه الصورة من تلك ويجعلها حقيقة إلا الحس المخدوع وإلا تفريق الزمن بينهما. (من قصة الحضارة ـ المترجم ـ).

كما هو الحال في جميع النظريات التي تناولت نشأة الكون فإن رغبة بدئية، إرادة الخلق، تكمن في أساس عالمنا وأشكاله وكائناته. إن كل جزء من هذا الكل يرتبط بالآخر على شكل سلسلة حيوية وصبغية، وخلوية، تلك هي الحياة نفسها. حياة يستحيل وجودها بانعدام الرغبة في الحياة والانسال وفي استمرارية سلسلة التطور. ففي أساطير هندية أخرى نجد تصويراً لبيضة ذهبية تطفو فوق مياه العدم فتخصبها وبذلك يبرز الوجود. ولكن أياً كانت النصوص والروايات المختلفة المقترحة، فإننا نرى، دائماً، في حركة التكوين، نوعاً من اللعب الجنسي يدور بين كيانين يتمم أحدهما الآخر. احتكاك مولد للحرارة، وولوج، وتمخيض (واحدة من أقدم الأساطير تستخدم هذه العبارة: الجبل الأصلي ماندارا «يمخض» محيطاً من حليب لا نهاية له)، هناك، على الدوام، صورة لاتحاد ما وتنافذ مخصب يحوّل (الزوجين) إلى طاقة جديدة: ١ + ٢ + ٣، إن تكاثر الأعداد هذا، يمكن أن يتوصل إلى مالا نهاية، وانطلاقاً من هذا البدء، ومع ذلك، فمن الغريب، كما نلاحظ، أن جميع هذه الأساطير لا تطعن بنتائج العلم الحالية، ذلك العلم الذي

يرى الحياة تولد في نهاية عملية كيميائية وكهربائية على سائل من جزئيات المحيط (الأوقيانوس) الأصلي.

ثم إننا نجد، على الدوام، ثلاثة من الآلهة الرئيسة تنجح في إرساء سلطانها وسيطرتها على جميع الآلهة الأخرى وعلى الكائنات والطبيعة: وتشكل ثالوثاً «TRIMURTI» كيان الانبعاث والطاقة الروحية الحقيقية ـ يتألف من: الخالق براهمان، والحفيظ فيشنو، والمدمر شيفا: وهكذا فإن حلقة الولادة والحياة والموت، الحاضرة في جميع مراحل حياتنا وفي جميع المواقف، تجد كامل تحققها وتحكم الكل. وترافق كل إله من هذه الآلهة شاكتي SHAKTI التي تمثل، في آن واحد، قرينه المؤنث وسلطان تجليه. وهذه «الأمهات الإلهية» هي محط احترام الهنود جميعاً، وعليه فإن كل امرأة تُعد تجسيداً لهن، إذ تستطيع أن تكون، من تلقاء نفسها، الأم، والوالدة المكونة، والمكان، والوسيلة، وملاذ الخلق واستمراريته. وهكذا فإننا نلاحظ مدى ما تتسم به علاقة الحب، في الكاما ـ سوترا، من احترام، والدور الذي يلعبه الحب في ربط الروح والمادة برباط لا ينفصم.

إن كل ما في الثقافة الهندية من روحانية موسوم بالجنس والعشق، غير أن العشق هنا قد تحول طبيعياً، إلى نظام منطقي، فلم يصبه ما أصابه في الثقافة الغربية من كبت وإبعاد. إن اللينغا (ذكور حجرية) والليوني (الفروج)، التي تعد بعشرات الملايين، هي محط احترام الجميع في كافة أنحاء شبه القارة الهندية: احترام العضو الخالق والرحم الحاضن، علة الحياة ومصدرها.

وقد اشتهر كرشنا، المجسد لفيشنو، والإله المفضل في مجمع الآلهة، بغرامياته مع الـ«غوبي» معبوداته من الراعيات الأسطوريات، إذ كان يعلمهن فن الوصال الحقيقي مع الجوهر الإلهي، ذلك الوصال الذي يسمو بالحب الجسدي من طريق ممارساته. لقد سحر الراعيات واحدة إثر أخرى، فرقص ولعب معهن وأحبهن جميعاً، فإذا به في آخر المطاف، يختفي بعد أن ظنت كل واحدة منهن أنها امتلكته.. مبيناً لنا ان الوهم هو الذي يسوس الحياة وان على العاشق المثالي، أن

يتجاوز رغبة الامتلاك وأن كل شيء ليس سوى لعبة (ليلا ـ LILA) حتى إن الأشكال الحية ليست إلا انعكاسات للعبة إلهية.

بحدت الهندوسية الاتحاد الجنسي في الزواج وخارجه سواء بسواء، شريطة ألا يرى العشيران في نفسيهما وفي مسرتهما إلا لعبة للطاقات، الإلهية في جوهرها، حينئذ يستنسخ عمل الحب ولادة السيرورة البدئية لخلق العوالم، ذلك لأن المبدأ المذكر هو الذي اتحد مع متممه، الشاكتي، المبدأ المؤنث.

ويلي الاتحاد العشقي هذا التحولان في الجسم والنفس معاً، إذ يقرن الرجل والمرأة شرطهما بـ«الفعل» الذي يمكن، بل، ينبغي له أن يدوم طويلاً، وأن يظهر بكافة الأشكال والصور التي يهبها للعاشقين. المرأة تمنح الرجل ما فيها من متعة، والرجل يمنح المرأة ما فيه من قوة، تلك القوة المنتشرة فيها لا الصادرة عنها. وتشدد النصوص على حقيقة أن: «من ثبت روحه بوحدة اللذة وهويتها في حالتها الفطرية يصير ساحراً في الحال، لا يخشى الشيخوخة ولا يهاب الموت. يقول كانها: إن نحن ثبّتنا في مدخل النفس قفلاً متيناً، وإن جعلنا من الروح، في تلك الظلمة الموحشة المريعة، قنديلاً، وإن لمست جوهرة جينا (JINA) هناك في الأعالي، أقاصي السماء، نبلغ، من ثم، النرفانا ونحن نتمتع بالوجود».

والواقع ان النصح للرجل بعدم توزيع بذاره الذكرية (على الأقل بطريقة التكرار) هو قاسم مشترك تنادي به كافة مؤلفات الحب في الشرق: للرجل الحق في صيانة حيويته بعدم هدرها دونما جدوى وللرجل الحق أيضاً في اكتساب السيطرة على الذات، وفي امتلاك قدرة ذاتية أوسع على النشاط والفعل، وفي التمتع بطاقة نفسية وجسدية تزداد نمواً وثراء، وفي أن يبلغ، أخيراً، حقيقة اللحظة، من الآن.. ان تلبيته رغبة شريكته التي تتفجر حول القوة الجنسية المذكرة الشديدة الصلابة، والتي تمجد معدنه الداخلي، اتحاد وانصهار في وحدة خارج الزمن ينطلق فوق ساحة الوعي العليا: ليحتويه «فراغ» الشريكة لأن لحظة التركز المطلق هذه التي عليها، بل كان يتحتم عليها أن تكون الحب الجسدي، هذه

اللحظة من التواصل التي يلتقي فيها كائنان، هي مـن أكثر اللحظات إجـلالاً في الهند التقليدية: ففي لعبة واحدة تلتقي القوى المتناقضة المتكاملة، فيما وراء الفكـر وأبعد مما يمكن أن يخطر على بال، في رقصة بداية الخلق الكونية ذاتها. إنها إسهام في حركة العالم، واتصال مع سورة الحياة واندفاعاتها، ومرحلة من مراحل معرفـة الذات والكون.

وفي الفترة نفسها، تلك الفترة التي شهدت ظهور الكاما ـ سـوترا، نمـت في النهد، فـوق الموروثـات والذخـائر الفيدية القديمة المقدسـة وتقنياتهـا في التجلـي والإثارة، جذور حديثة ونظريات جديدة في التطبيقات العملية الـتي أثمرت يوغـا جنسـية حقيقيـة، ألا وهـي: التانترية(*) TANTRISME ـ ان اللاحقـة «ISME» المضافة في آخر كلمة «TANTRA» تستثير فينا البوح والامتداد: بقدرات الجسـد ومزاياه ووجدان الروح وسريرتها.

وثمة نص من نصوص التانترية يفصح موضحاً لنا: «على الإنسان أن يسـمو باستخدام علة سقوطه» ومن الممكن أن تكون، مظاهر الطبيعة الإنسانية نفسـها، تلك المظاهر التي تكبلنا وتمنع انطلاقتنا، مثل الحجارة في أركان تحررنا وذلك لأن الدوافع الجنسية، في اقتراب بلغ هذا الحد، تصير درباً سالكاً أمام الحقائق الكونية، نهتدي به إلى وحـدة النهـائي واللانهـائي. وقـد أدت شـعيرة الأسـانا (الأوضـاع الجسدية ASANAS) التانترية في تطورها إلى ولادة سلسلة مثيرة مـن الاختبـارات النفسية الجسدية التي ارتقت بنموذج الانضباط فانتهى، بدوره، إلى التـأمل. ففـي فعل الأسانا (وضع جسدي) يتحـد الرجـل والمـرأة. وفي تجربـة اللـذة واختبارهـا يكمن تحقيق الأسانا. ويذهب المريدون، أثناء الاتحاد الجنسي، بوعيهم بعيـداً عـن المحيط، إذ تتوقف الروح إلى أن تكون حـرة، ويزيـد الكبـح والاحتجـاز في شـدة

(*) التانترية: ترجمها الدكتور علي زيعور في كتابه الفلسفات الهندية بالطانطرية ـ المترجم ـ. والتانترية انضباط ديني مشتق من تانترا. وهو عبارة عن كتيبات دينية عملية لممارسة الطقوس ـ المترجم ـ.

الطاقة الجنسية وحدتها، ويحملها على التوهج إلى حد يتحرر فيه الفيض النفسي من قمقمه.

يهتدي الإنسان بوساطة التانترا أساساً إلى طريق التحكم بالطاقة الجنسية لبلوغ غاية روحية، وتعلمه تقصي أحاسيسه وسبر غورها أفضل مما تعلمه كبتها وقهرها.

تلك هي المظاهر العشرة (الدرجات العشر) للرمزية التانترية التي آلت إلى شاكتي: الطور الأنثوي للطاقة الكونية:

١ ـ كالي KALI،	قوة الزمن وسلطانه
٢ ـ تارا TARA	قوة الراحة والتسلية
٣ ـ سوداسي SODASI	الأشكال الستة عشرة لتجسيد الرغبة
٤ ـ بهوفانسفاري BHUVANESVARI	قوى العالم المادي الجوهرية
٥ ـ بهايرافي BHAIRAVI	التعدد في الأشكال وكائنات لا نهائية
٦ ـ شيناماستا CHINNAMASTA	موزِّعة الطاقة الحيوية في الكون
٧ ـ دهوماباتي أوذوماباتي DHUMABATI،	شريكة الرغبات غير المروية
٨ ـ باغالا BAGALA،	مدمرة القوى السالبة
٩ ـ ماتانجي MATANGI،	القدرة على السيطرة
١٠ ـ كاملا KAMALA،	حالة الوحدة المشكلة ثانية

وتفصح التانترية موضحة باستمرار: أن أولئك الذين استسلموا للحب لأسباب شبقية محضة قد أفسدوا طاقتهم الحيوية بل قد يتعرضون، بفعل ذلك، لفقدانها. في حين أنهم لو استسلموا إلى المتع الجنسية بوعي حاد وألفة روحية (انتخابية كما يقول غوته) تؤلف ما بين قلوبهم، وإن هم نبذوا لعبة الأنا، لأخذ فعل

الحب، عندئذ، بعده الحقيقي التحرري المبرأ، ولأمكن لوعي الوحدة الوجودي، عندئذ فقط، أن يسفر عن نفسه وأن يحقق ذاته بواسطة هذا الإثبات المعلن من خلال كافة أشكال التصوف:

«ليس ثمة فارق مابيني وبينك»

إن ما يتْهونا، يوغا الحب، هي التي تسمح حقاً:

ـ باستثارة الكوندا ليني(*) وبعثها، هذه الأفعى الملتفة، رمزياً، في أسفل العمود الفقري على شكل طاقات كامنة في متناولنا، فتعمل عملها، في عمودهنا الفقري (هذا المحور الحيوي) وفي أعصابنا دون رقيب.

ـ وبمعرفة استخدام تنفسنا الحيوي (برانا) الذي هو الكون نفسه.

ـ وبأن نذوب في الآخر.

ـ وبأن نموت في داخلنا، أيضاً، لنبعث للحياة من جديد بوعي يقظ ومتعاظم.

وهكذا نجد أن العمل الجنسي غير مهمل في ظل اللاوعي وتخيلاته الوهمية، بل هو، على العكس من ذلك، موضع إجلال وإكبار، وقد سلط عليه ضوء عرف كيف يكشف عما في كافة أوجهه التي لا تعد ولا تحصى، من قيمة. فالكاما ـ سوترا، إذن، يرغب في أن يكون قبساً ينير للآخرين، ودليل تربية، ينسجم مع نوع محدود من المجتمعات.

إلا أنه بوسع رسالته تلك أن تبهنا الكثير: رفاهة الإحساسات و بعد ضف، وعذوبة اللذات الاستهلالية، وتنوعات الأوضاع المشتركة ترسم لذة جمالية حقيقية. إنه رومانسية المتعة بلغ كامل مغزاها ومعناها بامتزاجها في منمنمات رائعة... إنه بحث في الحب..

(*) الكونداليني: غدة في أسفل العمود الفقري ملتفة، يشبهها اليوغيون بالأفعى. ـ المحرر.

رسوم من فن ميثيلا

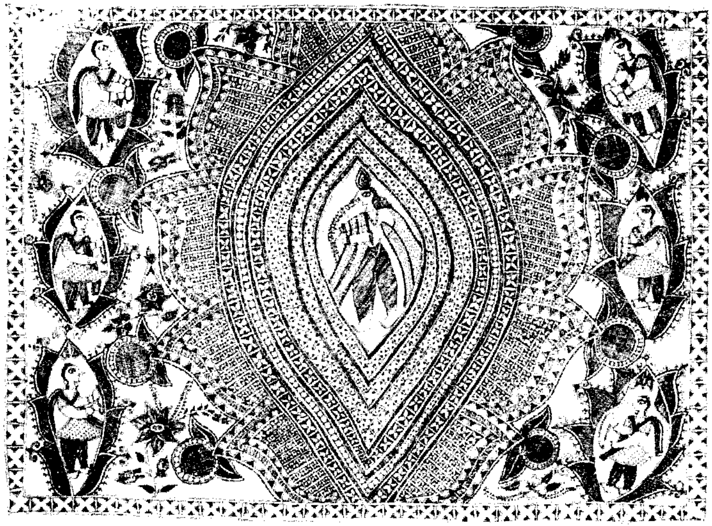

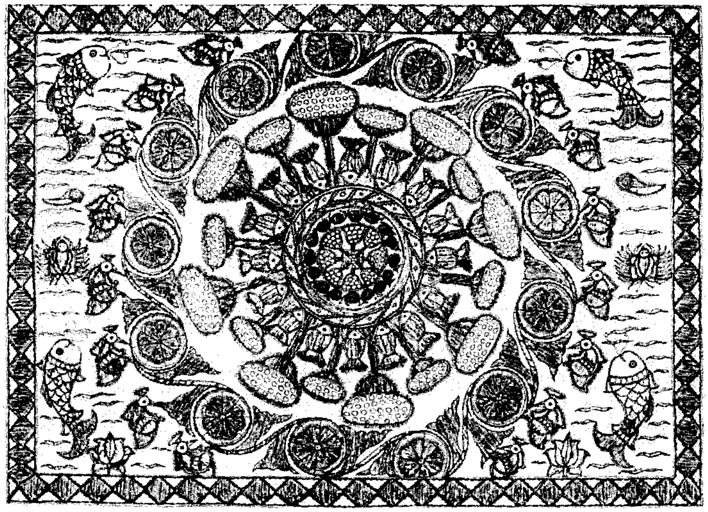

الفصل الخامس

الإســرائيليـون القدماء

كلمة لابد منها

سيلحظ القارئ أن هذا الفصل هو الفصل الوحيد، من بين فصول الكتاب الخمسة، الذي لم يزين صفحاته أي عمل فني، ذلك لأن الأعمال الفنية الخالدة التي قدمتها للبشرية الحضارتان الفرعونية والرافدية، بخاصة، ما كان لها أن تشهد النور لو لم تتهيأ أسبابها من الاستقرار والتأمل والوحدة الثقافية و... تلك الأسباب التي لم تتوفر لليهود في يوم من الأيام.

نقرأ في سفر أخبار الأيام الأول الفصل السابع عشر: «فكان في تلك الليلة أن صار كلام الله إلى ناتان قائلاً: اذهب وقل لداود عبدي هكذا يقول الرب لاتبنِ لي أنت بيتاً للسكن. إني لم أسكن بيتاً مذ يوم أخرجْت إسرائيل إلى هذا اليوم ولكني كنت من خيمة إلى خيمة ومن مظلة إلى مظلة.»، فاليهود حتى القرن العاشر أو التاسع ق.م ـ الفترة التي كان فيها داود على رأس اليهود لمحاربة الفلسطينيين أهل البلاد ـ كانوا جماعة من البدو الرحل ما أن استقر بهم المقام في قسم من فلسطين حتى شتتهم سبي آشور من جديد. وسيلحظ القارئ أيضاً أن الكاتب قد اعتمد، في هذا الفصل، اعتماداً كلياً على التوراة. ولو لم تتوفر بين يدي القارئ العربي مؤلفات عديدة تناولت التوراة بالتحليل والتفصيل، لتحتّم علي هنا أن أمهد للفصل بكلمة تضع القارئ على حقيقة التوراة كما وصلت إلينا اليوم. ولكنني، على الرغم من كل شيء، أدعو القارئ للإطلاع على مؤلفي الأستاذ فراس السواح: مغامرة العقل الأولى ولغز عشتار للتعرف على البنية الإجمالية لثقافة المنطقة وحضارتها وما كان لتلك البنية الثقافية من أثر بالغ في رسم كل جديد لاحق.. وعندها (عند ذلك) سيكتشف القارئ الأصول التي اعتمدتها التوراة فجاءت في أساسياتها ـ المترجم ـ.

تسلسل زمني

نحو ٢٠٠٠ ق.م	أبرام يغادر أور.
نحو ١٢٥٠ ق.م	نزوح موسى عن مصر، ظهور الرب لموسى في سيناء
نحو ١٢٠٠ ق.م	الوصول إلى أرض كنعان
القرن التاسع ق.م	النبي صموئيل
نحو ١٠٠٠ ق.م	داود
١٠٠٠ ـ ٤٥٠ ق.م	الأنبياء
نحو ٩٥٠ ق.م	سليمان
القرن الثامن ق.م	النبي اشعيا
من ٥٨٧ ق.م	الأسر البابلي لليهود

بنو إسرائيل

«حبك أطيب من الخمر»

لم يؤلف «بنو إسرائيل»، قبل الخروج(*)، شعباً، ذلك لأن أفراد الأسرة الواحدة هم الذين تكاثروا على مر العصور، فتوزعوا في قبائل وعشائر. ثم إن إنتماءهم كان يرتكز على عقيدتهم المشتركة أكثر منه على قربى الدم، أما عاداتهم وتقاليدهم فلم تكن مستقرة، بل تغيرت دوماً بفعل التأثيرات الخارجية، ولم يكن لابراهيم نفسه ولا لأبنائه وأحفاده مفاهيم أخلاقية محددة ودقيقة كما لم يكونوا بمدركين لا للخير ولا للشر، لا بالمسموح به ولا بالمحظور، فكانوا يجهلون أيضاً ما يتحتم عليهم القيام به أو الإقلاع عنه ليسلكوا سواء السبيل. أي ما يدعوه العهد القديم بـ«يطيب للرب»، فسعوا جاهدين، وعلى غير هدى، ليكونوا أبراراً، في نظرهم هم قبل غيرهم، وقد تبين لهم دائماً أن محاولاتهم تلك، إن هي إلا آثام وخطايا، ولكن ما هي الخطيئة إذن؟

(*) خروج بني إسرائيل من مصر بقيادة موسى متجهين إلى فلسطين، وقد اختلف العلماء في تحديد تاريخ هذا الخروج: ١ ــ في القرن السادس عشر ق.م، ٢ ــ في منتصف القرن الخامس عشر ق.م. ٣ ــ نحو عام ١٢٩٠ ق.م، ٤ ــ في عصر منفتاح أو حوالي ١٢٣٠ق.م. ـ المترجم ـ.

ارتكب الرجال والنساء المعاصي واستسلموا للرذيلة، غير أنهم لم يكونوا بمدركين لانحرافهم عن طريق الهداية، مادام الرب الإله لم يُظهر لهم سخطه وغضبه، بأن أنزل بالمذنبين عقاباً ما.

كانوا سلماء النية سذجاً غير مدركين. ثم إنهم قاموا بما قام به أسلافهم، إذ تكيفوا مع أخلاق الشعوب والقبائل التي عاشوا بين ظهرانيها، فاقتدوا بعاداتها.. فهل هم، والحال هذه، مذنبون، إن هم جهلوا مواطن الشر(*)؟

فليس ثمة تعاليم بمقدورهم الرجوع إليها خارج قوانين بلاد الرافدين، وخارج البلاد التي جابوها وأقاموا بها، وليس ثمة أحد يملي عليهم كبح غرائزهم وكبتها ومنع نسائهم وبناتهم من المشاركة في العربدات الجنسية التي كانت تقام في أعياد الخصب، وليس ثمة من يحظر عليهم الاقتران بنساء أجنبيات أو يحول بينهم وبين إرواء ميولهم الجنسية المثلية (اللواط ــ السحاق)، كما كانوا يجهلون أو بالأحرى، لما يعرفوا بعد، ما يتحتم عليهم القيام به أو ما ينبغي لهم الإقلاع عنه.

ومن قصص الخطايا التي ارتكبها إبراهيم وذريته، والكفارة التي فرضها الرب عليهم، أدركوا، حقاً، أن بعض الأفعال منافية للأخلاق، وأن على كل منهم، بدءاً من الآن، الإقلاع عنها، كيلا يجر على نفسه سخط الرب وثأره... ونحن نعني بهذه القصص: «كتاب العهد القديم»ـ التوراة ـ

إن الطاعة غير المشروطة، والمصحوبة بثقة عمياء، في كلام الرب، كانت البرهان الوحيد على سلامة سلوكهم وصحته، مادام هذا السلوك غير محدد في أوامر ونواهٍ معلنة وصريحة. وعلى هذا، فقد استمر ابراهيم وذريته،

(*) من الواضح هنا أن المؤلف يتقدم بتبرير ساذج للروايات الفاحشة الواردة في سفر التكوين.

إن صح التعبير، يجرِّبون ويبلون ويركنون إلى بصيرتهم الخاصة كيلا يأثموا ويرتكبوا الموبقات، وإلا فإن الرب سينزل بهم شر العذاب.

وقد نظم سلوك بني إسرائيل الخلقي ما كان يدور بين الرب وأسلافهم من قصص وأحاديث، إلى حين إعلان موسى لوصاياه العشر ولقوانينه الأخلاقية التي سنها للمستقبل. ثم إنهم بفضل هذه التعاليم الملزمة، التي أمرهم بها الرب فخضعوا لها، أخذوا يتميزون عن الآخرين، ليس بمظهرهم وسلوكهم الخارجيين فقط، بل بتجربتهم الروحية أيضاً، ذلك لأن هؤلاء الآخرين لا يقاسمونهم إيمانهم بالرب ولا خضوعهم، غير المحدود لأوامره(*).

وليس ثمة وصف متكامل يشير إلى حقيقة هذا الإله، الكلي القدرة، والكلي الوجود، كما أننا لا نعرف كيف أكمل المؤمنون الصورة الإلهية لوحدانيته وتفرده، تلك الصورة التي حبوها بصفات إنسانية. فهو لم يكن مرئياً، وليس بمقدور أحد يتطلع إليه أو ينظر إليه مواجهة، ولم تكن له ثمة تماثيل، وهو يختلف تمام الاختلاف عن بقية الآلهة الأخرى: إنه مقيم في الفكر والمخيلة.. ومع ذلك، فإن الصفات التي أطلقها عليه العهد القديم وما صدر عنه من أقوال، كانت متناقضة بل تنسجم مع ما كانت عليه طبيعة عباده من الخلق، كان غضوباً ووديعاً، دموياً ومسالماً، معانداً وذا نزوات، والرحمة لا تعرف إلى قلبه سبيلا، فويل لكل من لا يمتثل لصوته لانه لابد رازح تحت لعناته:

«فتكون ملعوناً في المدينة، وملعوناً في البرية، وتكون ملعونة سلتك ومعجنك، وملعوناً ثمر بطنك وثمر أرضك، ونتاج بقرك وغنمك، وتكون ملعوناً أنت في دخولك، ومعلوناً أنت في خروجك، يرسل عليك الرب

(*) لم يخضع اليهود، طوال تاريخهم إلا إلى أوامر الرب في إبادة سكان البلاد، فلطالما، انتهكوا وصاياه الأخرى، والتوراة تثبت ذلك ـ المترجم ـ.

اللعنة والاضطراب والوعيد في كل ما تمتد إليه يدك مما تصنعه، حتى تبيد وتهلك سريعاً، بسبب سوء أعمالك بعدما تركتني، يلصق الرب الوباء بك إلى أن يفنيك من الأرض التي أنت داخل إليها لترثها، يضربك الرب بالضنى والحمى والبرداء والتهاب مع الجفاف والصدى والذبول، فتطاردك حتى تهلك، وتكون سماؤك التي فوق رأسك نحاساً والأرض التي تحتك حديداً، ويجعل الرب مطر أرضك غباراً وتراباً ينزل من السماء عليك حتى يبيدك. يجعلك الرب تنهزم أمام أعدائك، تخرج عليهم من طريق واحدة وتهرب من أمامهم من سبع طرق، وتكون موضوع ذعر لجميع ممالك الأرض. وتصير جثتك مأكلاً لطيور السماء ووحوش الأرض وليس من يقلقها. يضربك الرب بقروح مصر والبواسير والجرب والحكة فلا تستطيع مداواتها. ويضربك الله بالجنون والعمى وحيرة القلب، فتتلمس في الظهيرة كما يتلمس الأعمى في الظلمة، ولا تنجح في سبلك وتكون مستغلاً ومسلوباً طوال أيامك وليس لك مخلص.. تخطب المرأة فيغتصبها رجل آخر، وتبني بيتاً ولا تسكن فيه، وتغرس كرماً فلا تأكل بواكيره، ويذبح ثورك أمام عينيك ولا تأكل منه.. حتى تصير مجنوناً.. يضربك الرب بقرح خبيث على الركبتين وعلى الساقين فلا تستطيع مداواته، من أخمص قدمك إلى قمة رأسك....».

هذه اللعنات وما أنزل «الرب المخيف» من لعنات أخرى قاسية على بني إسرائيل، كان ابراهيم يجهلها، على الرغم من علمه بأن الله قد أنزل عقابه بالبشر «طوفاناً» لما لحق بهم من خزي وعار، وأن سلفه نوح لم يكن لينجو هو وذووه لو لم يكن «باراً» مؤمناً بكلام ربه الذي لم يتطرق إليه الشك مطلقاً ممتثلاً لأوامره وخاضعاً لها.

ائتمر ابراهيم، أيضاً، بأمر الرب، محبة له وخشية منه، وإننا لندهش، حقاً، بصدق العهد القديم وصراحته البالغين في وصفه لابراهيم وأفعاله المثيرة للريب، إذ كان يدعى ابرام، وبخاصة عندما ندرك أن هذا الموصوف سيكون، في المستقبل القريب، محط احترام المؤمنين جميعاً، بوصفه الجد الأكبر للمسيح. بيد أن الكتاب المقدس يرغب، بل ينبغي له أن يكشف عن الحقائق ويعلّمها للمؤمنين، لا أن يخفيها وينكرها، فكان من الضروري أن يصف كيف عاش الناس حياتهم حقاً، لا أن يروي لنا أنهم عاشوا أبراراً، فمن زلاتهم وخطاياهم يستخلص الخلف الدروس والعبر. في البدء نظم كل منهم سلوكه وفق عادات البلاد التي أقام بها أبرام وأسرته وتقاليدها، أو تلك المناطق التي رحل إليها بعد أن أمره الرب «انطلق من أرضك وبيت أبيك، إلى الأرض التي أريك.» وتكيف أبرام وذووه، ما أمكنهم ذلك، مع أخلاق البلد الذي نزلوا فيه، ووفروا لمعيشتهم بالوسائل نفسها التي يستخدمها سكان المناطق التي هاجروا إليها مسالمين(*) كان أبرام مربي ماشية، يسوق هو وابن أخيه لوط، في ترحالهما، وحلولهما، قطعاناً من الأبقار والخراف. ولكن ابراهيم غادر أرض كنعان التي خصصها الرب له، إذ حلت بها المجاعة(**)، وانطلق ميمماً وجهه شطر مصر.

جرى العرف، في بلاد الرافدين، الموطن الذي غادره أبرام، ان يطالب أصحاب المقام وكبار الكهنة، بالنساء الجميلات لخدماتهم الخاصة. وعلى هذا، فإن كل مقاومة، للحيلولة دون ذلك، كانت تذهب هباء. كان ابراهيم على علم بذلك. فخامره الشك أن تلك العادة تسري أيضاً على كافة البلاد.

(*) كانوا مسالمين في بدء إقامتهم. ـ المترجم ـ.

(**) ويريدونها أرض يمن ويسر. ـ المترجم ـ.

ومن ضمنها مصر، فما ان اقترب وزوجه من تخومها، حتى خاطب ابراهيم زوجه العاقر قائلاً: «ساراي، أنا أعلم أنك امرأة جميلة المنظر، فإذا رآك المصريون، قالوا: «هذه امرأته»، فيقتلوني ويبقونك على قيد الحياة. فقولي أنك أختي، حتى يحسن إلي بسببك وتحيا نفسي بفضلك». وما ارتآه أبرام كان الصواب عينه، إذ رآها وأشاد بجمالها، لدى الفرعون، حراس الحدود المصريون وأمراء «الفرعون» معاً وبعد أن اقتيدت ساراي إلى بيت الفرعون، أحسن ملك المصريين وفادة ابرام بسببها، وصار له «لزعمه بأنه أخوها»: «غنم وبقر وحمير وخدام وخادمات وحمائر وجمال.».

ولو لم يضرب الرب فرعون وأهل بيته ضربات شديدة «بسبب ساراي امرأة ابراهيم»، لكان باستطاعة الزوج المتبصر الخدوم، الذي عرَّف بزوجه أختاً له، أن يستقر في أرض مصر عزيزاً رضي البال، غير أن الفرعون لم يشأ أن يدخل في خلاف مع قوة عليا تجلت له قدرتها وعظمتها، كما أنه توجه بالملامة إلى الزوج الذي أميط اللثام عن أكذوبته: «ماذا صنعت بي؟ لِمَ لم تعلمني أنها امرأتك؟ لِمَ قلت: هي أختي، حتى أخذتُها لتكون لي امرأة؟ والآن هذه امرأتك: خذها وامضِ» «وأمر فرعون قوماً فشيعوه هو وامرأته وكل ماله..» وكان أبرام غنياً جداً بالماشية والفضة والذهب، عندما ترك مصر هو وامرأته ساراي ولوط وكل ما كان معه.

وقد تميزت هذه الفترة الزمنية من حياة أبرام المسالمة الهادئة، التي انفصل فيها أبرام، فيما بعد، عن لوط بسبب ما وقع من خصومات بين رعاة ماشيته ورعاة ماشية لوط، بخصيصة من خصائص عادات ذلك الزمان وتقاليده: تلك هي الدعوة التي وجهتها ساراي إلى زوجها: «هو ذا قد حبسني الرب عن الولادة، فادخل على خادمتي، لعل بيتي يُبنى منها». فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن ساراي، الزوجة المثالية، قد تبنت موقف نساء «بلاد

الرافدين» المثاليات، حيث ولدت وترعرعت فنصحت زوجها باتخـاذ حظيـة لإنجاب البنين.. إذ لابد أن يكون للرجل أبناء وبخاصة الذكور منهم.

وامتثل أبرام لـ.. صوت ساراي «واتخذ خادمة امرأته المصرية هاجر زوجاً له، فلما رأت هاجر أنهـا قـد حملـت، هـانت سيدتها في عينيهـا، فقالت ساري لأبرام: ظلمي عليك إني وضعت خادمتي في حضنك فلمـا رأت أنها قد حملت هنت في عينيها. ليحكم الرب بيـني وبينـك». فقـال أبرام لساراي: «هذه هي خادمتك في يـدك، فـاصنعي بهـا مـا يحسـن في عينيك». ان ما حدث يتطابق وقانون حمورابي الذي سُنَّ، على الأرجـح «في الوقت الذي غادر فيه أبرام مملكة بابل(*) وولدت هاجر لأبرام إبنـاً، فسمي ابرام ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل، الذي يكون أباً لأثـني عشـر رئيساً، فقال الرب...«وأما اسماعيل فقد سمعت قولـك فيـه. وهـا أنـذاك أباركه وأنميه وأكثره جداً جداً، ويلـد إثـني عشـر رئيسـاً» سيعيشـون في مراعٍ وقرى من خيام».

واستناداً إلى العهد القديم، فقد جرى العمل بشـعيرة الختـان بنـاء على تعليم مُنزل صريح وواضح، أمـا السَنَة الـتي يُختـن فيهـا الذكـور فقـد تغير ميقاتها، إذ لم يعمد ابراهيم إلى الختان لإقامة الدليل على النضـج الجنسـي أو الاحتفاء به، كما هو الحال في مصر الفرعونية، وإنّما اعتمده ليسـم بـه، منـذ سن مبكرة جميع الذكور، من أهل بيته والخارجين من صلبه.

(*) قانون حمورابي كما نعلم لم ينته بوفاة مشرعه، بل امتد لقرون عدة لاحقة.. وعليه فليس، بالضرورة أن يكون هذا التشريع قد سُن في الوقت الذي غادر فيه أبرام مدينـة أور.. ومـن المفيد أن نعلم أن أسفار موسى الخمسة في شكلها الحالي، وهي التي اعتمدهـا مؤلـف هـذا الكتاب، تعود على الأرجح إلى القرن السادس والخامس ق.م ـ المترجم ـ.

بعد ثلاث عشرة سنة من ولادة إسماعيل، ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة، تراءى له الرب وقال له: «أنا الله القدير، فسر أمامي وكن كاملاً. سأجعل عهدي بيني وبينك وسأكثرك جداً جداً» فسقط أبرام على وجهه. وخاطبه الرب قائلاً: «ها أنا أجعل عهدي معك، فتصير أب عددٍ كبير من الأمم، وسانميك جداً جداً وأجعلك أمماً، وملوك منك يخرجون. وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك مدى أجيالهم، عهداً أبوياً، لأكون لك إلهاً ولنسلك من بعدك.. وأعطيك الأرض التي أنت نازل فيها، ولنسلك من بعدك، كل أرض كنعان، ملكاً مؤبداً، وأكون لهم إلهاً(*)». هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك: «يختن(**) كل ذكر منكم، فتختنون في لحم قلفكم، ويكون ذلك علامة عهد بيني وبينكم. وابن ثمانية أيام يختن كل ذكر منكم من جيل إلى جيل، سواء أكان مولوداً في البيت أم مشترى بالفضة من كل غريب ليس من نسلك. يختن المولود في بيتك والمشترى بفضتك، فيكون عهدي في أجسادكم عهداً أبوياً. وكل أقلف من الذكور لم يختن في لحم قلفته تفصل تلك النفس من ذويها، لأنه قد نقض عهدي» و«بالختان تميز» جميع الذكور في بيت ابراهيم من جيرانهم.

وكان ابراهيم ابن تسع وتسعين عندما تراءى له الرب وأصدر عليه أمره: «ساراي امرأتك لا تسمها ساراي، بل سمها سارة. وأنا أباركها وأرزقك منها ابناً وأباركها فتصير أمماً..» فسقط إبراهيم على وجهه

(*) هذه الفقرة من العهد القديم تدل دلالة واضحة على أن اليهود ليسوا إلا دخلاء، وعلى أن الأرض التي نزلوا فيها ما كانت لهم في يوم من الأيام. ـ المترجم ـ.

(**) الختان عادة مصرية أخذها اليهود من الفراعنة الذين استعبدوهم، ونحن نعلم ما لمصر الفرعونية من علو مقام في العالم القديم.. فلعل اليهود قد أخذوا بشعيرة الختان تيمناً بفراعنة عظام اسقاطاً لما أصابهم من مذلة ومهانة... ـ المترجم ـ.

وضحك، وقال في قلبه: «ألابن مئة سنة يولد ولد.. أم سارة، وهي ابنة تسعين سنة، تلد؟»

ضحك ابراهيم لتشككه، غير أنه، مع ذلك، كان يؤمن، مدفوعاً بخشيته من الرب، بأن سارة ستلد له ابناً، لأن الرب صرح له قائلاً: «وستسميه اسحق، لأنني سأقيم عهدي الأبدي بيني وبينه وبين ذريته من بعده..»

امتثل ابراهيم لأوامر الرب جميعها.. إلا أن سارة، التي وقفت عند باب الخيمة تتسمع، فوجئت بحديث ابراهيم مع رسل الرب الثلاثة الذين استقبلهم ابراهيم بالحفاوة والتكريم، إذ قال أحدهم: «سأعود إليك في مثل هذا الوقت، ويكون لسارة امرأتك ابن» وسارة التي «انقطع عنها ما يجري للنساء» ضحكت في نفسها قائلة: «أبعد هرمي أعرف اللذة، وسيدي قد شاخ؟» فقال الرب لابراهيم: ما بال سارة قد ضحكت قائلة: «أحقاً ألد وقد شخت؟ هل من أمر يعجز الرب؟ في مثل هذا الوقت أعود إليك ويكون لسارة ابن» فأنكرت سارة قائلة: «لم أضحك، ذلك لأنها خافت».

وقضى الله، في السنة نفسها التي بارك فيها اقتران ابراهيم بسارة. أن يدمر مدينتي سدوم وعمورة، إذ علا الصياح والصراخ عليهما واشتد، وخطيئة من فيها قد ثقلت جداً، فتقدم ابراهيم يتضرع للعفو عنهما: «أحقاً تهلك البار مع الشرير؟ لعله يوجد خمسون باراً في المدينة، أحقاً تهلكها ولا تصفح عنها من أجل الخمسين باراً الذين فيها؟ حاشى لك أن تصنع مثل هذا: أن تميت البار مع الشرير، فيكون البار كالشرير، حاشى لك أديان الأرض كلها لا يدين بالعدل» فقال الرب: «إن وجدت في سدوم خمسين باراً في المدينة، فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم» وظل عدد هؤلاء الأبرار ينقص إلى أن قال ابراهيم: «لربما وجد هناك عشرة» فقال له: «لا

أهلك المدينة من أجل العشرة». ومضى الرب عندما انتهى من الكلام مع ابراهيم، ورجع ابراهيم إلى مكانه.

كان يقيم في سدوم ابن أخي ابراهيم، لوط. هبط الملاكان في سدوم مساء، وكان لوط جالساً عند بابها. فلما رآهما، قام للقائهما وسجد بوجهه إلى الأرض، وقال: «سيديَّ ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما، ثم تبكران وتمضيان في سبيلكما». فقالا: «لا، في الساحة نبيت». فألح عليهما كثيراً، فمالا إليه ودخلا منزله. فصنع لهما مأدبة وخبز فطيراً، فأكلاه. وقبل أن يضطجعا، إذا بأهل المدينة، أهل سدوم، قد أحاطوا بالمنزل، من الصبي إلى الشيخ، جميع القوم إلى آخرهم. فنادوا لوطاً وقالوا له: «أين الرجلان اللذان قدما إليك في هذه الليلة؟ اخرجهما لكي نعرفهما(*)» فخرج إليهم لوط إلى المدخل وأغلق الباب وراءه وقال: «أسألكم ألا تفعلوا شراً، يا اخوتي. ها أنذا لي ابنتان ما عرفتا رجلاً: أخرجهما إليكم، فاصنعوا بهما ما حسن في أعينكم. وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً، لأنهما دخلا تحت ظل سقفي».

كان واجب الضيافة، في سدوم، أرفع شأناً من عذرية الفتيات. ولكن لم يكن للوط، على الرغم من عرضه، ولا لضيفيه، أن يمنعوا شرور اللوطيين وعنفهم في سدوم، لو لم يضرب الضيفان المهاجمين، من صغيرهم إلى كبيرهم، بالعمى، فلم يقدروا أن يجدوا الباب. عندئذ نصح المرسلان من لدنه تعالى لوطاً بالرحيل عن سدوم هو وزوجه وبناته. ثم إن لوطاً أراد أن يصطحب معه أصهاره الذين سيتخذون بناته أزواجاً،

(*) عرف امرأته ـ اقترن بها وضاجعها: وعرف الإنسان حواء امرأته فحملت وولدت قاين (سفر التكوين، الفصل الرابع ـ المترجم ـ).

لكنه بدا «كمازح في أعين أصهاره» ذلك لأنهم لم يصدقوا أن المدينة ستهلك عقاباً لها على آثامها وذنوبها. فلما طلع الفجر، أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وابنتيه، لشفقة الرب عليه، وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة. فلما أخرجاهم إلى خارج قال: «انج بنفسك لا تلتفت إلى ورائك ولا تقف في السهل كله، وانج إلى الجبل لئلا تهلك». ويدلنا ذلك على أنه ينبغي للفارين، ألا يأسفوا على ما حلَّ بهم من خسارة مادية، ولا على إقلاعهم عما في سدوم من عادات وتقاليد، كما ينبغي لهم: ألا يفكروا، البتة، بما خلفوه وراءهم.

وعندما أمطر الله على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من السموات، وقلب «تلك المدن وكل السهل وجميع سكان المدن وبنات الأرض» التفتت امرأة لوط إلى ورائها «فصارت نصب ملح» وصعد لوط من صوعر وأقام في الجبل هو وابنتاه معه، لأنه خاف أن يقيم في صرعر. فأقام في مغارة هو وابنتاه. فقالت الكبرى للصغرى: «إن أبانا قد شاخ، وليس في الأرض رجل يدخل علينا على عادة الأرض كلها. تعالي نسق أبانا خمراً ونضاجعه ونقم من أبينا نسلاً» فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، وجاءت الكبرى فضاجعت أباها و لم يعلم بنيامها ولا قيامها. فلما كان الغد، قالت الكبرى للصغرى: «ها أنذا قد ضاجعت أمس أبي، فلنسقه خمراً هذه الليلة أيضاً، وتعالي أنت فضاجعيه لنقيم من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغرى فضاجعته و لم يعلم بنيامها ولا قيامها. فحملت ابنتا لوط من أبيهما».

وولدت الكبرى ابناً وسمته موآب، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم، والصغرى أيضاً ولدت ابناً وسمته بنْعَمِّي، «وهو أبو بني عمون إلى اليوم» فلم

يكن، والحال هذه، للموآبيين ولا لبني عمون، الإسرائيليين اعتباراً ما، إذ كانوا «أبناء فسق وفجور» ـ أولاد سفاح(*) ـ

ومن المحتم ألا تقوم لعادة تسليم الزوجة إلى الغير قائمة، كما فعل أبرام في مصر، فقد ذكر أن ابراهيم، عندما حل في جرار قادماً إليها من بلاد غريبة، قال في سارة امرأته: «هي أختي» فأرسل أبيملك ملك جرار، فأخذ سارة(**) ولم يكن أبيملك قد دنا منها إذ أتاه الرب في حلم الليلة وقال له: «إنك ستموت بسبب المرأة التي أخذتها، فإنها تحت سلطان زوج لها» فسعى أبيملك، محاولاً، في الحلم، تبرئة ساحته: «أليس هو الذي قال لي: هي أختي، وهي أيضاً قالت: هو أخي، بسلامة قلبي ونقاوة كفي صنعت ذلك».

وصفح الرب عن أبيملك وابراهيم كليهما. ثم إن سارة حملت لابراهيم ابناً في شيخوخته في الوقت الذي وعد الله به، وسماه اسحق، وفي اليوم الثامن ختنه «بحسب ما أمره الرب به» لم يرو لنا العهد القديم أفعال ابراهيم وابن أخيه لوط لكي يدينهما، ويكشف لنا عن ضعفهما ووهنهما، إذ ترمي القصص الدينية إلى تعليم المؤمنين، صراحة، أن الله يستهجن ويقاصص بلا رحمة ذوي الأخلاق الشائنة: زنى المرأة المتزوجة، واللذات المثلية الشاذة، والعلاقات الجنسية بين الآباء وبناتهم.

(*) جاء في حاشية من كتاب «كتب الشريعة الخمسة» ان لبني موآب وبني عمون تقليداً يمكنهم من الافتخار بمثل هذا الأصل. ان ابنتي لوط لا تظهران هنا في مظهر الفجور، لأن غايتهما الوحيدة هي بقاء النسل. وتفترض الآية، ٣١، أن يكون لوط وابنتاه الناجين الوحيدين من الكارثة. ولعل قصة سدوم، التي دمرت بسبب خطيئة سكانها، قصة عبرانية أردنية قديمة توازي رواية الطوفان. ـ المترجم ـ.

(**) ترى كم كان عمر سارة عندما أخذها أبيملك؟ ـ المترجم ـ.

وقد برأ الرب ابراهيم من خطاياه، ذلك لأن ابراهيم كان أبداً على أتم الاستعداد للامتثال، دونما تردد، لأوامر ربه، وإلى الإيمان بخشوع بما لا يمكن تصديقه، إذا شاء الرب، وعلمه ذلك، بل كان مستعداً لقتل، حتى ابنه اسحق(*) وحيده، الذي أحبه كل الحب، ليقدمه قرباناً (محرقة) على أحد الجبال: ولما بنى ابراهيم هناك المذبح ورتب الحطب وربط اسحق ابنه وجعله على المذبح فوق الحطب ومد ابراهيم يده فأخذ السكين ليذبح ابنه. ناداه ملاك الرب من السماء قائلاً: «ابراهيم ابراهيم!» قال: «لبيك». قال: «لا

(*) في الأنشودة الجدلية «خوف ورعدة» تأليف الفيلسوف سرن كيركجورد ترجمة فؤاد كامل، ملحوظتان هامتان جاءتا في تذييل الدكتور فؤاد كامل للكتاب هما:

«إن القرآن الكريم لم يحدد، صراحة، اسم الابن الذبيح ولكننا نستطيع أن نستخلص منه فيما يشبه اليقين أنه لم يكن اسحق بحال من الأحوال، وإلا لما ذكره بعد قصة الفداء مباشرة في هذه الآية الكريمة:

﴿وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين﴾ فهذه البشرى كانت تالية لقصة التضحية و لم تكن قبلها».

ونحن نعلم ان اسحق لم يكن وحيد أبيه إذ كان لابراهيم ابن آخر من هاجر هو إسماعيل الذي حضر وفاة أبيه ودفنه.

أما عن المكان الذي دارت فيه أحداث هذه القصة، فهي مكة. والدليل يؤخذ هنا أيضاً من العهد القديم، ففي الآية العشرين من الإصحاح ٢١ من سفر التكوين ان ابن هاجر (وهو اسماعيل) «.. سكن في برية فاران» «وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر» وفاران تطلق على مواضع منها جبال مكة.

أما سبب ذكر اسحق في التوراة بدلاً من إسماعيل، على حين أن الدلائل جميعاً تشير إلى أن اسماعيل كان هو المقصود بالتضحية ـ فذلك لأن اليهود كانوا حريصين على أن يكون أبوهم الذي انحدرت منه سلالتهم هو الذبيح الذي جاد بنفسه في طاعة ربه وهو في حداثة سنه. ـ المترجم ـ.

تمد يدك إلى الصبي ولا تفعل به شيئاً، فإني الآن عرفت أنك متق الله. فلم تمسك عني ابنك وحيدك».

رفع ابراهيم عينيه ونظر، فإذا بكبش واحد عالق بقرنيه في دغل، فعمد ابراهيم إلى الكبش وأخذه وأصعده محرقة بدل ابنه، وعلى هذا فإننا ندرك خضوع ابراهيم غير المشروط.. كما نلاحظ أيضاً أن الله لا يقبل بأن يضحي الآباء بأبنائهم، تلك العادة المسموح بها في القبائل التي كان ابراهيم يعيش في كنفها.

فقد أصبح من المحتم أن يحل محل التضحية البشرية، من الآن فصاعداً، كبش أو حمل.

وخاف ابراهيم وقد بلغ من العمر عتياً، أن يتخذ ابنه امرأة من بنات الكنعانيين الذين يقيم في وسطهم، فأرسل اقدم خدام بيته ليبحث لأبنه عن خطيبة في بلاد الرافدين، عند ابن أخيه بتوئيل(*) الذي كان له ابنة اسمها رفقة. وانتظر الخادم إلى أن تأكد له ان الفتاة كريمة محبة للضيف، إذ لم تقدم الماء له فتسقيه هو وحده فحسب، بل سارعت واستقت جميع جماله أيضاً، فطلب إليها أن تكون زوجة اسحق، ولكي يعقد خطبتهما، وضع لها حلقة أنف من ذهب وزنها نصف مثقال، وسوارين ليديها وزنهما عشرة مثاقيل ذهب. وبعد موافقة أبيها وأخيها لابان قالا للخادم: «ان الأمر صادر من عند الرب، فليس لنا أن نكلمك فيه بشر أو خير، هذه رفقة أمامك، خذها وامض فتكون امرأة لابن سيدك، كما قال الرب» فلما سمع خادم ابراهيم كلامهما، سجد للرب إلى الأرض، وأخرج حلي فضة وحلي ذهب وثياباً وأعطاها رفقة، وهدايا قدمها لأخيها وأمها. حسب ما كانت تقتضيه عادةُ

(*) في رواية أخرى ان رفقة زوج إسحق هي، بنت ناحور، أخي ابراهيم. ـ المترجم ـ.

أهل البلاد. ينبغي للرجل الطيب المنبت أن يتخذ زوجاً له، فتاة عذراء، من أسرة أحسن اختيارها، أو من أسرته هو، إن كان ذلك ممكناً.

«وأحب اسحق رفقة حينما قدمها له الخادم.. فصارت له زوجة، وتعزى اسحق عن أمه».

إن لحقِّ البكورية، الذي يعود إلى الابن الأول المولود من الزوج الشرعية، أهمية بالغة.. وهذا ما تشير إليه قصة يعقوب وعيسو، التوأمان اللذان ولدتهما رفقة لزوجها اسحق.

ومع ذلك فقد كان التوءمان من جبلتين متباينتين تمام التباين، على الرغم من أن أباً واحداً قد أنجبهما، وأماً بعينها قد أخرجتهما من أحشائها، إذ صار عيسو صياداً فخرج إلى الريف والحقول، وصار يعقوب رجلاً بسيطاً محباً للاستقرار، فأقام بالخيام. وأحب اسحق عيسو لأنه كان يستطيب صيده، وأما رفقة فأحبت يعقوب.

وذات يوم، عندما رجع عيسو من جولات صيده، وقد أخذ منه التعب كل مأخذ، طلب إلى أخيه يعقوب أن يطعمه مما أعدَّه من مرق أحمر، فقال له يعقوب: «بعني اليوم بكريتك» فقال عيسو: «ها أنذا صائر إلى الموت، فما لي والبكرية؟» فقال يعقوب: «احلف لي اليوم» فحلف وباع بكريته ليعقوب. فأعطى يعقوب لعيسو خبزاً وطبيخاً من العدس، فأكل وشرب وقام ومضى، وهكذا استخف عيسو بالبكرية. إن هذه الملاحظة لتؤكد لنا انه من الخطأ أن يتنازل المرء عن حق يعود إليه بالولادة، كما تطلعنا أيضاً على أنه لا ينبغي للصياد الصلب العود، من الآن فصاعداً، أن يفضل أخاه الراعي الحريص على أهل بيته.

كان يعقوب هو الأثير عند أمه.. وفضلته كثيراً على عيسو، ثم إن يعقوب تزوج بفتاة من قبيلة أجنبية ساعدته على خداع أبيه ليفوز ببركته

وبحق البكرية، وذلك ان اسحق، لما شاخ، قال لعيسو: «ها أنذا قد شخت ولا أعلم يوم موتي. والآن خد عدتك وجعبتك وقوسك، وأخرج إلى الحقل وصد لي صيداً، وأعِدَّ لي ألواناً طيبة كما أحب، وائتني به فآكل، لكي تباركك نفسي قبل أن أموت». فنصحت رفقة يعقوب بأن يأتيها بجوادين(*) من أفضل جياده لتعدهما لاسحق ألواناً طيبة من الطعام كما يحب: «فتأتي بها آباك ويأكل، لكي يباركك قبل موته». وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي عندها في البيت فألبستها يعقوب، وكست يديه وملاسة عنقه بجلد الماعز، وأعطت يعقوب ابنها ما صنعته من ألوان الطعام الطيبة والخبز.

تعذر على اسحق أن يتعرف على ابنه يعقوب بعينيه الكليلتين، إذ دخل عليه بثياب أخيه عيسو بعد أن كسا يديه بجلد المعز فبدتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه، وقدم لأبيه الطعام. فقال اسحق ليعقوب: «تقدم حتى أجسك يابني، لأعلم هل أنت ابني عيسو أم لا، فتقدم يعقوب إلى اسحق أبيه، فجسه وقال: «الصوت صوت يعقوب، ولكن اليدين يدا عيسو». ولم يعرفه، لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه، فباركه. وقال: «تقدم قبلني يابني» فتقدم وقبله، فاشتم رائحة ثيابه وباركه وقال: «ها هي ذي رائحة ابني، كرائحة حقل قد باركه الرب. يعطيك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض، ويكثر لك الحنطة والنبيذ، وتخدمك الشعوب وتسجد لك الأمم. سيداً تكون لأخوتك، ولك بنو أمك يسجدون لاعنك ملعون ومباركك مبارك». ولما عاد عيسو من صيده وعلم أن أخاه قد خدعه صرخ وبكى واشتكى قائلاً: «أَلأَنَّه سمي يعقوب قد تعقبني مرتين: أخذ بُكريتي، وها هو ذا الآن أخذ بركتي»، ثم قال: «أما أبقيت لي بركة؟».

(*) في سفر التكوين تقول رفقة لابنها يعقوب: «امض إلى الغنم وخذ لي من هناك جديين من المعز جيدين». ـ المترجم ـ.

وبما ان للبركة الأبوية الممنوحة قيمة مقدسة لا تنقض ولا ترد، فإن اسحق لم يرجع عن كلامه، بل أجاب ابنه وقال: «ها أنذا قد جعلته سيداً لك.» عندئذ رفع عيسو صوته وبكى. فأجابه اسحق أبوه وقال له: «بمعزل عن دسم الأرض يكون مسكنك، وعن طل السماء الذي من عل. بسيفك تعيش وأخاك تخدم، ويكون انك، إذا قويت تكسر نيره من عنقك» وتحدد مصير عيسو الصياد بهذا القرار، فحقد على أخيه وتهدده بالقتل، إلا أن رفقة أخبرت يعقوب، ابنها الأصغر الأثير، ونصحته بالهرب إلى لابان أخيها في حاران فدعا اسحق يعقوب وباركه مرة ثانية وقال له: «لا تأخذ امرأة من بنات الكنعانيين». أما عيسو فقد تزوج، إضافة إلى ما ملك من النساء، بابنة اسماعيل، الحفيدة الصغرى لابراهيم وهاجر.

وفي بلاد الرافدين، في بيت لابان خاله، استقبل يعقوب بالحفاوة والتكريم. وبعد انقضاء شهر من الزمان عرض لابان على يعقوب أجراً لقاء عمله. وأحب يعقوب راحيل ابنة لابان الصغرى، وكانت فتاة مليحة الوجه ممشوقة القامة، وتعهد بالعمل عند خاله سبع سنوات لتكون له. فكان عمله ثمناً لشرائها.

أما ليئة، ابنة لابان الكبرى، فقد كانت «قصيرة البصر» وفي الصباح، بعد وليمة الزفاف التي أقامها لابان عند انقضاء سنوات العمل السبع، ثمن شراء راحيل، لم يجد يعقوب في مضجعه راحيل التي أحبها وإنما وجد ليئة أختها الكبرى. فتوجه إلى خاله يعاتبه ويلومه: «ماذا صنعت بي؟ أليس أني براحيل خدمتك؟ فلِم خدعتني؟» فقال لابان: «لا يصنع في بلادنا أن تعطى الصغرى قبل الكبرى.

أكمل أسبوع هذه، فنعطيك تلك أيضاً بالخدمة التي تخدمها عندي سبع سنوات أخرى». فصنع يعقوب كذلك وأكمل أسبوع هذه، فأعطاه راحيل

ابنته امرأة له. فدخل يعقوب على راحيل أيضاً وأحبها أكثر من حبه لليئة. وعاد وخدم لابان سبع سنوات أخرى. وحملت ليئة دون أختها وولدت أربعة بنين. ولما رأت راحيل أنها لم تلد ليعقوب، غارت من أختها وقالت ليعقوب: «هب لي ولداً، وإلا فإني أموت». فغضب يعقوب على راحيل وقال: «ألعلي أنا مكان الله الذي منع عنك ثمرة البطن؟» قالت: «هذه خادمتي بلهة: ادخل عليها فتلد على ركبتي ويبنى بيتي أنا أيضاً منها» فأعطته خادمتها بلهة امرأة، فدخل عليها يعقوب مستجيباً لطلبها. فحملت بلهة وولدت ليعقوب ابناً. فقالت راحيل: «قد حكم الله لي واستجابني فرزقني ابناً».

وعندما حملت بلهة للمرة الثانية وولدت ليعقوب ابناً آخر، تهللت راحيل فرحاً وكِبراً وقالت: «قد صارعت أختي مُصارعات الله وغلبت» إلا أن ليئة التي «توقفت عن الولادة» قدمت لزوجها يعقوب خادمتها زلفة وأدى تنافس الأختين، وغيرتهما، وتوقهما إلى إنجاب البنين من يعقوب زوجهما إلى تكاثر نسل يعقوب الذي غمرته به امرأتاه وحظاياه.

ولكن عندما فتح الله رحم راحيل ووهبها ابناً من لحمها ودمها وسمته يوسف، عزم يعقوب على الرحيل بنسائه وبنيه، إذ خدم خاله بما فيه الكفاية. عند ذلك طلب يعقوب من لابان أن يعطيه أجره، فقد تجاوزت خدمته السنوات الأربع عشرة لتمتد وتبلغ عشرين سنة. وأذعن لابان بعد تردد وأعطى ابن أخته، زوج ابنتيه، جميع الحملان والجداء وجميع التيوس والمعز المخططة والرقطاء والبلقاء والنمراء، التي يمكن أن يجدها بين قطيعه. وبلغ نصيب يعقوب من القطيع، بفضل حنكته وحيلته، حداً أثار غيرة لابان وبنيه فتألبوا عليه وحقدوا. «ورأى يعقوب وجه لابان، فإذا به ليس معه كما كان أمس فما قبل.» فأوحى الرب ليعقوب: «ارجع إلى أرض

آبائك ومسقط رأسك، وأنا أكون معك» وساق يعقوب جميع ماشيته، وجميع الأموال التي اقتناها و«هرب، خادعاً لابان الآرامي و لم يخبره بفراره».

جد لابان في اثرهم، لكنه تمالك نفسه وكظم غيظه ذلك ان الرب أتاه في الحلم وقال له: «إياك أن تكلم يعقوب بخير أو بشر». وشق على لابان أن يمتثل لأمر الرب، لا لأن يعقوب قد هرب خفية، ولا لأنه قد ساق ابنتيه كما يساق أسرى الحرب، ولا لأنه لم يمنحه فرصة تشييعه بابتهاج وأغان ودفٍ وكنّاره، ولا لأنه لم يستطع أن يقبل أحفاده وابنتيه، فحسب، بل لأن لابان قد حسبه لصاً سرق «آلهته» أيضاً «فتلك جريمة لا تغتفر».

ولما كان يعقوب لا يعرف ان راحيل قد أخذت «التيرافيم» وهي أصنام المنزل الأبوي، دعا لابان إلى تفتيش كل ما لديه ليجد ضالته، لكن لابان لم يجد الأصنام في خيمة راحيل التي أخفتها في رحل الجمل وجلست فوقها. وجس لابان الخيمة كلها فلم يجد شيئاً، إذ قالت راحيل لأبيها: «لا يغضب سيدي إن كنت لا أستطيع أن أقوم أمامه فقد حدث لي ما يجري للنساء».

وهكذا احتفظت راحيل، بالقرب منها، بالرموز التي انتهكت حرمتها ونقلتها سراً إلى منزل زوجها ثم إن لابان طالب، أثناء توديعه لبناته، بحقوقه الأبوية، تمشياً مع عادات سكان الرافدين: «البنات بناتي والبنون بني والغنم غنمي، وكل ما تراه هو لي، فماذا تراني اليوم أفعل ببناتي وبالبنين الذين ولدتهم؟» ومع ذلك فقد أخلى سبيل يعقوب وجميع أفراد أسرته وكل ما كسبه، في بلاد الرافدين من أموال وأنعام، وقطع مع يعقوب عهداً: فأخذ يعقوب حجراً وأقامه نصباً. وقال يعقوب لأخوته: «اجمعوا حجارة» فجمعوا حجارة وجعلوها كومة وأكلوا طعاماً فوق الكومة. وقال لابان: «هذه الكومة تكون شاهداً بيني وبينك اليوم».

وحط يعقوب رحاله قبالة مدينة شكيم في أرض كنعان، واشترى بمئة قسيطة(•) قطعة من الحقل حيث نصب خيمته، وأقام هناك مذبحاً ودعاه باسم ايل، إله إسرائيل.

أمل يعقوب ان يعيش في سلام، لكن شكيم بن حمور، رئيس البلد، رأى دينة، الفتاة التي ولدتها ليئة ليعقوب، فأخذها وضاجعها واغتصبها. أحب شكيم الفتاة وتعلقت نفسه بها فخاطب قلبها، ثم تحدث مع أبيه قائلاً له: «خذ لي هذه الفتية زوجة».

وتوسط حمور لابنه لدى يعقوب وأخوتها إذ سمع الجميع بالأمر وعرفوا ان دينة قد دُنست. وقال: «إن شكيم ابني قد تعلقت نفسه بابنتكم، فأعطوه إياها زوجة، وصاهرونا». وقال شكيم لأبيها واخوتها: «أنال حظوة في عيونكم، وما تطلبونه مني أعطيه لكم. أكثروا عليَّ المهر والعطية جداً، فأعطيكم كما تطلبون مني، وأعطوني الفتاة زوجة»، فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه وكلموهما بمكر لأن شكيم دنس دينة أختهم، وقالوا لهما: «لا نستطيع أن نصنع هذا: أن نعطي اختنا لرجل أقلف، لأنه عار عندنا، ولا نوافقكم على ذلك إلا إذا صرتم مثلنا بأن يُختن كل ذكر منكم، فنعطيكم بناتنا ونتخذ بناتكم ونقيم عندكم ونصير شعباً واحداً. وإن لم تسمعوا لنا و لم تختنوا، نأخذ ابنتنا ونمضي».

وحسن كلام يعقوب وأبنائه في عيني حمور وابنه شكيم ووافقا على طلبهم، وأقنعا جميع رجال المدينة معهما «واختتن كل ذكر منهم، كل الخارجين من باب المدينة والداخلين إليها». ولكن، ما أن حل اليوم الثالث، وآلام المختتنين على أشدها، جاء ابنا يعقوب، شمعون ولاوي، أخوا دينة،

(•) في توراة ـ دار المقدس ـ مائة نعجة ـ المترجم ـ .

ودخلا المدينة آمنين، وقد امتشق كل واحد منهما سيفه، فقتلا كل ذكر، وحمور وشكيم ابنه قتلاهما بحد السيف وأخذا دينة من بيت شكيم وخرجا. ثم دخل يعقوب على القتلى وسلبوا المدينة بسبب تدنيس أختهم.. «وأخذوا غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة وما في الحقل.. وسبوا كل ثروتهم وجميع أطفالهم ونسائهم وسلبوا كل ما في البيوت».

فقال يعقوب لشمعون ولاوي: «قد جلبتما الشقاء علي وسودتما وجهي عند أهل البلد من كنعانيين وفرزيين، وأنا نفر معدود، فيجتمعون علي ويضربوني فأهلك أنا وبيتي»(*)، أيجهل أبناء يعقوب يا ترى ما هو الحق أو الباطل في عيني الرب؟ أم أنهم كذبوا وقتلوا ونهبوا لأن آلهة غريبة تلك التي جلبتها راحيل معها، قد حملتهم على ارتكاب جرائمهم تلك ودفعتهم إليها دفعاً؟ وعلى كل حال فإن يعقوب قد أمر أبناءه بالتخلص من تلك الآلهة الغريبة المقيمة بينهم وفرض عليهم أن يطهروا ثيابهم ويبدلوها. وغادر المدينة وأرض شكيم هو وجميع أهله وقومه. وبينا هم في الطريق مخضت(**) راحيل وعسرت ولادتها. فلما عسرت ولادتها، قالت لها القابلة: «لا تخافي فان هذا ابن لك». وكان قبل أن تفيض نفسها، لأنها ماتت، قد سمته «بن أوني(***)» وأما أبوه فسماه بنيامي.

و لم يكن يعقوب سعيداً، كل السعادة، بأبنائه الأثني عشر، ذلك ان ابنه رأوبين، ضاجع سرية أبيه بلهة، وعلم يعقوب بذلك، فلعن، وهو على فراش

(*) يتابع المؤلف تبريراته الساذجة للغش والخداع والسلوك غير الأخلاقي لأبطال عصر الآباء في سفر التكوين. ـ المحرر ـ.

(**) مخضت الحامل: أخذها وجع الولادة والطلق واقتربت ولادتها.

(***) بن أوني: ابن المي. ب.

الموت، ابنه رأوبين: «رأوبين، أنت بكري، قوتي وأول رجولتي. فاضل في الشموخ، فاضل في العز، فزت كالماء: لن تفضل لانك علوت مضجع أبيك، حينئذ دنَّست فراشي علّي». وقد رسمت هذه اللعنة وسَنَّت قانون المستقبل الذي يمنع «اختلاط العلاقات الجنسية» في الأسرة الواحدة.

كما تسبب له بنوه الآخرون، بالألم والحزن. ذلك أن يعقوب، بعد، وفاة أبيه اسحق الذي فاضت روحه وانضم إلى أجداده شيخاً قد شبع من الحياة، وبعد أن أقام في أرض الكنعانيين، أحب يوسف، ابن راحيل البكر، على جميع بنيه، الذين ابغضوا يوسف وحسدوه، إذ صنع له أبوه قميصاً موشى، فأخذتهم الغيرة منه، إذ كان يرى أحلاماً يروق له أن يقصها عليهم: «في حلمه الأول رأى أنه وإخوته يحزمون حزماً في الحقل، فإذا بحزمته تقف وتنتصب فتحيط بها حزم أخوته وتسجد لحزمته» وفي حلمه الثاني «رأى كأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة له، فهل هذا يعني أن أباه وأمه وأخوته جميعاً سيسجدون له إلى الأرض؟ وتآمر الأخوة على التخلص منه، لكنهم لم يقرروا قتله. فباعوه إلى التجار الإسماعيليين بعشرين من الفضة، وأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من المعز وغمسوا القميص في الدم وبعثوا بالقميص الموشى وأوصلوه إلى أبيهم وقالوا: «وجدنا هذا انظر: أقميص ابنك هو أم لا؟ فنظر إليه وقال: هو قميص ابني. وحشٌ ضار أكله. افترس يوسف افتراساً» ومزق يعقوب ثيابه وشدَّ مِسْحاً على حقويه وحزن على ابنه أياماً كثيرة. كما أن يهوذا، الابن الرابع ليعقوب من ليئه، قد تسبب لأبيه يعقوب بالكثير من الآلام أيضاً. وكان في ذلك الزمان أن يهوذا رأى بنت رجل كنعاني اسمه شوع، فتزوجها ودخل عليها. فحملت وولدت له ابناً فسماه عيراً، ثم حملت أيضاً وولدت ابناً فسمته أونان: «واتخذ يهوذا زوجة لعير بكره اسمها تامار. وكان عير، بكر يهوذا، شريراً في

عيني الرب فأماته الرب». فقال يهوذا لأونان: «ادخل ...
بواجب الصهر واقم نسلاً لأخيك». وعلم أونان ...
فكان إذا دخل على امرأة أخيه، استمنى على الأرض ...

وقبح ما فعله أونان في عيني ... فأماته ...
حدث، عبرة لذرية ابراهيم، فمن ... عد تعطيل ... ان ...
الزوج نطفه من بلوغ غايتها الطبيعية (منشودة) ... ضد الطبيعة ...
أطلق على السعي الفردي وراء اللذة الجنسية ... هتك حرمة ...
اسم أونانا، وعدت الأونانية (ONANISME) ... فصاعداً، جريمة ...
عملية تلحق الضرر بالصحة وبالفتية الذين يخترعون ... أنفسهم بأنفسهم.
فهم يخشون أن يتلفوا صحتهم، ويفقدوا ... بالأمراض
التناسلية، فرأوا فيها عاراً مستفحلاً، حتى لو مارسوها سراً. وترمي قصص
العهد القديم وأحداثه إلى إثارة مشاعر القلق والإثم في نساء الشعب
ورجاله، إذ تسرد علينا عادات ابراهيم ... راريه المباشرين، والمخالفات
الأخلاقية التي ارتكبوها.

يفيد تاريخ الآباء هذا ان يكون ... لتدخل موسى في مصير بني
إسرائيل تدخلاً حاسماً. وإسرائيل هو ... الاسم الذي أطلقه العهد القديم على
ذرية يعقوب (الذي دعاه الرب إسرائيل). وفي ... حظي يوسف(*) ...

(*) ... يوسف ... فوطيفار ...
... مصر ...
...
... ذات ...
... الانسانية ... الكتاب ...
الحامي ... كتاب العرب ... جيبه ...

باعه أخوته، بالحفاوة والتكريم: فاحتل أعلى المراتب، وانتهى به المطاف إلى دعوة جميع أفراد أسرته للإقامة معه في مصر.. ولكن بعد ان تجاوز محنته التي أوقعتها به زوجة فوطيفار: وكان بعد هذه الأمور ان امرأة مولاه طمحت عيناها إلى يوسف وقالت ضاجعني، فأبى، وقال: «هوذا مولاي لا يعرف معي شيئاً مما في البيت، وجميع ما هو له قد جعله في يدي، وليس في هذا البيت شيء فوق يدي، و لم يمسك عني شيئاً غيرك لأنك زوجته. فكيف أصنع هذه السيئة العظيمة وأخطئ إلى الله؟ وكلمته يوماً بعد آخر فلم يقبل منها أن ينام بجانبها ليكون معها. فاتفق في بعض الأيام أنه دخل البيت ليتعاطى أمره و لم يكن في البيت أحد من أهله. فأمسكت بثوبه قائلة ضاجعني. فترك رداءه بيدها وفر هارباً إلى خارج. فلما رأت أنه قد ترك رداءه بيدها وهرب خارجاً، صاحت بأهل بيتها وقالت لهم انظروا كيف جاءنا برجل عبراني ليتلاعب بنا. أتاني ليضاجعني فصرخت بصوت عال. فلما سمعني قد رفعت صوتي وصرخت ترك رداءه بجانبي وفر هارباً إلى خارج. فلما سمع مولاه كلام امرأته استشاط غضباً وأودعه السجن».

وباور لورميان وتوماس مان. ومن الموسيقيين: هندل وبيهول روزنبرغ. ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا ما لهذه القصة من قرابة مع تراث المنطقة وبخاصة مع قصة أنوبو وبيتيو الفرعونية. وهي قصة أخوين صغير وكبير ظلا يعيشان عيشة راضية سعيدة في مزرعة لهما، حتى هامت زوجة أنوبو بحب بيتيو الذي ردها عن نفسه فانتقمت منه بأن وشت به إلى أخيه واتهمته بأنه أراد بها سوءاً.

ولصديقنا الشاعر فايز خضور في الجزء الأول من ديوانه - ص١٦٧ - قصيدة تحت عنوان: «زليخة بالملح ترسم عينيها» إنما لزليخة هنا حضوراً معاصراً أثرى وأعمق.

وللصديق فراس سواح، في كتابه لغز عشتار، تحليل عميق يرجع بقصة يوسف إلى أصولها ويكشف النقاب عن أبعادها ومغزاها.

انظر الصفحة ٣٤٠ وما بعدها من كتابه: لغز عشتار - المترجم - .

وهكذا تنتهي هذه التوطئة التي عرضت علينا، بدقة متناهية موحية، الخُطا التي سارت عليها، في طريق الرب، تلك العائلة التي اغتربت عن موطنها الأصلي(*) وعلى العكس من ذلك، فان الأربعمائة والثلاثين سنة القادمة، التي سيعيشها «بنو إسرائيل» في مصر، لم يصفها لنا العهد القديم إلا لماماً وبجمل مقتضبة.

وتلخص هذه الرواية الموجزة أربعة قرون حرر موسى في نهايتها، الشعب من عبوديته، ومنح الرجال والنساء، الذين رزحوا طويلاً تحت وطأة وكلاء التسخير، ومنذ الشهر الثالث بعد الخروج، قانوناً، بلغ في كماله حداً جعله، على الرغم من تعاقب العصور، صالحاً حتى الآن، وترك آثاره عميقاً في أخلاق السواد الأعظم من البشرية(**).

واجتاز بنو إسرائيل، وهم يتضورون جوعاً، البحر الأحمر سيراً على الأقدام، إذ مد موسى يده وجعل الرب له ولشعبه البحر جافاً، ومن خلفهم فرعون وجيشه يجدان في إثرهم ويسعيان لقتلهم.

واجتاز المشاة الجياع البحر الأحمر بعد أن جفت مياهه بمشيئة الرب، وبمشيئته ارتدت أمواجه على الفرعون ومن كان معه، فأغرقهم جميعاً، ثم ساروا في الصحراء وشربوا من ماء الصخرة التي ضربها موسى بعصاه فانبجست مياهها وتدفقت. كانوا نفراً من الهاربين، لا حول لهم ولا قوة ولا يملكون شروى نقير، إذ كانوا رجالاً ونساء خدم مصر وعبيدها، فلم

(*) لا يمكن أن نسلم بصحة كل ما جاء في التوراة التي أملت سطورها عواطف اليهود الأسرى، ونحن وإن قلبنا، جدلاً، بذلك، فإن يهود اليوم لا يمتون بصلة إلى يهود الأمس. ـ المترجم ـ.

(**) نوافق المؤلف على ذلك إذا كان يعني قانون السلب والنهب واغتصاب أراضي الغير بالقوة، وهو القانون الأخلاقي الذي وجه دوماً سلوك اليهود. ـ المحرر ـ.

يكن لهم، في خروجهم، من طعام إلا المن الذين أنزله ا لله عليهم من السماء، ولا يملكون من الثياب إلا تلك التي تلف أجسادهم، كانوا يفترشـون الأرض ويلتحفون السماء.

فإلى هذه الزمرة المستضعفة، التي كانت تحلـم، أثنـاء مصابهـا ومحنتهـا، بلحوم مصر، وترى في مسيرتها الـتي لابـد مـن أن تقـود أفرادهـا إلى الأرض الموعودة، طريقاً لا نهاية لها، إلى هذه الجماعة سنَّ موسى الوصايا العشر وما نتج عنها من شرائع عملية.

واكتنفت «الشريعة» جميع مراحل الحيـاة الإنسـانية، وجميـع مـا يمكـن للإنسان أن يختاره منهـا مـن إمكانـات واحتمـالات، وفـرض موسـى، بدقـة وعناية، سلوك الإنسان القويم في كافة أفعاله الأساسية، منذ ولادته إلى حـين وفاته. فكانت كل مخالفة للوصايا العشر خطيئة تستوجب العقاب، وإثماً بحق الرب الذي تـراءى لموسـى فنطـق بلسـانه، حتـى أولئـك الذيـن يتشـككون بعقـاب الـرب وقصاصـه. وأولئـك الذيـن عميـت أبصـارهـم فاسـتخفوا بهـا وازدروها، قد علمتهم الشريعة أن حياتهم ترتبـط، بربـاط لا ينفصـم، بحيـاة نظرائهم من بني البشر. وقد تحتم على كـل مـن ينتمـي إلى بـني إسـرائيل أن يُخضع نفسه وسـلوكه ورغباتـه وغرائـزه إلى الشـريعة المشـتركة. إن أسـاس الشريعة الراسخ هو وجود ا لله فوق الناس أجمعين. (إنه ا لله الواحـد الأحـد، والكلي الوجود، والقدير المقتدر، وأصل كل حياة، والذي لا شريك لـه)(*). ان كل من يدنس اسمه مآله الموت، فعلى بني إسرائيل ألا ينطقوا باسمه باطلاً،

(*) يضرب المؤلف هنا بعرض الحائط كل الدراسـات التوراتيـة الـتي تؤكـد أن الإسـرائيليين لم يتوصلوا إلى فكرة التوحيد إلا تدريجيـاً وأن هـذه الفكـرة لم تتوصـل إلى أبـوة ا لله للبشـرية جمعاء إلا بعد تعليم السيد المسيح. ـ المحرر ـ.

وأن يلتزموا بكتمانه. وعليهم، حتى في صلواتهم، أن يبدلوا اسمه يهوه، اسمه، ليحل محله أدوناي(**)، ربي، وينبغي للمؤمن أن يحترم السبت، يوم الراحة الأسبوعية. وقد قيل: «واليوم السابع سبت للرب إلهك، فلا تصنع فيه عملاً أنت وابنك وابنتك وخادمك وخادمتك وثورك وحمارك وجميع بهائمك ونزيلك الذي نزل في داخل مدنك لكي يستريح خادمك وخادمتك مثلك».

وقد ذكر النص التوراتي الذي سجل هذا العرف، جميع أفراد الأسرة ماخلا الزوجة: ولا يمكن أن يكون سبب ذلك مجرد إهمال أو نسيان، لأن الزوجة في حياتها اليومية لم تكن تتمتع بحقوق محددة إلا في حالات استثنائية، فالمرأة بزواجها تصبح ملكاً للرجل.

وقد رأى شراح النصوص المقدسة في هذا الحط من قدر المرأة ومنزلتها، الذي أدى إلى رقها واستعبادها، ليس فقط، محصلة لامتياز الأب غير المحدود، بل هو تعبير أيضاً عن خشية الرجال ومهابتهم من نزيف دم النساء الدوري، والمثير للريب «لنجاسته». فالزواج كان للرجال ضرورة لابد منها لكي يخضعوا النساء إلى سلطانهم، ويشبعوا، بفضلهن، حاجتهم الجنسية وينجبوا البنين.

(**) جاء في كتاب أدونيس أو تموز لمؤلفه جيمس فريزر، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا: إن بعض ملوك أورشليم الكنعانيين القدماء لعبوا دور أدونيس في أثناء حياتهم.. لذا ان كان ملوك أورشليم الكهان في القدم يلعبون دور أدونيس على استمرار فلا عجب إذا رأينا نساء أورشليم فيما بعد يبكين على تموز، أي على أدونيس، في باب الهيكل الشمالي.. فكان الملك العبراني يدعى في أثناء حياته «أدوني هاميليخ» أي: «سيدي أو ربي الملك»، وينوحون عليه بعد موته صارخين «هوى آحي هوى ادون» أي: «وا أخواه ورباه» ولا نشك في أن عبارات الأسى هذه على موت ملك من ملوك اليهود هي العبارات نفسها التي كانت ترددها نساء أورشليم في مدخل الهيكل الشمالي على موت «تموز» ـ أدونيس ـ المترجم ـ.

لكن الدم الذي تفقده المرأة في كل شهر، لم يجعلها في نظر الرجال دنسة فحسب، بل و«كافرة» أيضاً. ألم تحرم الشريعة تناول دم الحيوان الذبيحة؟ «لأن الدم هو نفس كل جسد.. وأي رجل من بيت إسرائيل ومن النزلاء المقيمين فيما بينهم أكل دماً، أنقلب على آكل الدم وأفصله من وسط شعبه. لأن نفس الجسد هي في الدم».

في البدء كانت عقوبة العلاقات الجنسية أثناء فترة الطمث الموت.. وفي وقت لاحق نقرأ: «وأية امرأة كان بها سيلان، أي سيلان دم من جسدها، تبقى سبعة أيام في نجاسة طمثها. وكل من لمسها يكون نجساً حتى المساء. وكل من مس مضجعها يغسل ثيابه ويستحم في الماء ويكون نجساً حتى المساء. وإن ضاجعها رجل فصارت عليه نجاسة طمثها، يكون نجساً سبعة أيام، وكل مضجع يضطجع عليه يكون نجساً». وثمة تعاليم مماثلة تتعلق بالمرأة النفساء، وتتمايز تلك التعاليم تبعاً لجنس المولود: «وخاطب الرب موسى قائلاً: «كل امرأة حبلت فولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام، كأيام طمثها تكون أيام نجاستها، وفي اليوم الثامن تختن قلفة المولود، وثلاثة وثلاثين يوماً تظل في تطهير دمها»(*). ثم إن تشريع موسى لم يتطرق إلى ممارسات الرجال الجنسية قبل الزواج، بيد أن قانوناً أخلاقياً صارماً كان يفرض على الفتيات صيانة بكارتهن إلى ليلة زفافهن، فمن أجل حماية الأزواج والآباء الذين يخشون حرمانهم من مهر بناتهن، تضمَّن القانون محرمات صارمة تنزل بكل من ينتهك عذرية الفتاة». دون أن تجني النسوة من ذلك فائدة تذكر: «إذا صادف رجل فتاة عذراء لم تخطب، فأمسكها وضاجعها فوجدا معاً،

(*) تفريق مبين بين الجنسين رسم للأنثى مستقبلاً مازالت تشكو منه وتعاني حتى الآن، لما ترك من آثار سلبية عميقة في وجدان رجال الدين والفكر والفلسفة والآداب ـ المترجم ـ.

فليعط ذلك الرجل المضاجع لها لأبي الفتاة خمسين من الفضة وتكون له امرأة، لأنه أذلها، ولا يحل له أن يطلقها كل أيامه(*)» وعلى هذا فإن الفتاة التي «أمسك بها الرجل، ثم اغتصبها، يكون قد حكم عليها بتكريس جميع أيام حياتها لمغتصبها، وان تنام معه كما شاء له الهوى، وأن تتحمل، حتى آخر يوم من أيام حياتها، استياء يكنه، بلا ريب، ذاك الذي أُكره على دفع خمسين من الفضة إلى حميه الممتهن.

والحال أفضل قليلاً إن كانت الفتاة العذراء «مخطوبة» إلى أحد الرجال فاغتصبها رجل آخر: وإذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل، فصادفها رجل في المدينة فضاجعها، فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا. أما الفتاة، لأنها لم تصرخ وهي في المدينة وأما الرجل، فلأنه اغتصب امرأة قريبه، فاقلع الشر من وسطك. فإذا صادف الرجل الفتاة المخطوبة في الحقل، فأمسكها وضاجعها، فليمت ذلك الرجل المضاجع لها وحده. وأما الفتاة فلا تصنع بها شيئاً، إذ ليس عليها خطيئة تستوجب الموت، فإنما هذا الأمر أمر رجل وثب على قريبه فقتله. ذلك بأنه صادفها في الحقل، فصرخت الفتاة المخطوبة، فلم يكن من يخلصها.».

وعلى كل امرأة انتهكت حرمة الزواج أن تدفع من حياتها ثمن خطيئتها، ولا يعاقب الرجل العقاب نفسه إلا إذا ألحق، من جراء عمله هذا، الضرر بحق ملكية رجل آخر: «إن ارتكب الرجل فاحشة وزنى بامرأة قريبه، موتاً يموت الرجل والمرأة كلاهما.» ولكن للرجل الحق في ممارسة العلاقات

(*) جاء في سفر الخروج، الفصل ٢٢، الآية ١٥: «إن أغرى رجل بكراً لم تخطب فضاجعها، فليجعل لها مهراً فتكون زوجة له. فإن أبى أبوها أن يزوجها، فليزنْ له من الفضة مثل مهر الأبكار» ـ المترجم ـ.

... ع النساء والفتيات ال... ...لائي لا ينتمين إلى قومه، ولا يشكلن ... ... في إسرائيل(*).

... على الرجل الا... ...ته، ولكن، لا يحق له، البتة، أن ... مرة ثانية.

... دو نين صار... ... ...ت «كشف العورة» ويعد ... للعورة ... ...يسه الجنسية المحرمة، إغواء ... ... در على تضييله و... ...ى والفجور.

...ما تعرضت الشريعة ... ...سمالات التي يمكن تخيلها، فذكرتها وبوحت بها صراحة «.. ... أبيك وعورة أمك لا تكشف. إنها أمك، فلا تكشف عورتها. وعو... ...وجة أبيك لا تكشف، فإنها عورة أبيك. وعورة أختك، ابنة أبيك ...ت أو ابنة أمك، مولودة في البيت كانت أو في خارجه، لا تكشف. ...عورة بنت ابنك أو بنت ابنتك لا تكشف، إنها ...حتك، فلا تكشف عورتها، وعورة أخت أبيك لا تكشف، فإنها ذات قرابة لأبيك، وعورة أخت أمك لا تكشف، فإنها ذات قرابة لأمك. وعورة عمك لا تكشف وإلى امرأته لا تقترب، فإنها عمتك.. وامرأة مع أختها لا تتخذ لتكون ضرتها فتكشف عورتها معها وهي حية..

هذه المحرمات تهدف إلى تدارك الإغواء وتجنب الفاحشة، فهي تحول دون ارتكاب أفعال بمقدورها استثارة الرغبة في انتهاك المحارم وغشيانها».

(*) في الواقع ان القوانين الأخلاقية السامية التي أشار إليها المؤلف منذ قليل، هي دوماً قواعد للتعامل بين بني إسرائيل أنفسهم. أما عندما يتعلق الأمر بغيرهم فقد أجاز لهم التوراة كل أنواع السلوك غير الأخلاقي. ـ المحرر ـ.

إن في اتخاذ الرجل لامرأة وأمها زوجتين له انتهاكاً لحرمة الأخلاق: «وكل رجل اتخذ امرأة وأمها، فتلك فاحشة، فليحرق هو وهي بالنار، فلا تكن فاحشة في وسطكم». وإن «كل رجل جامع بهيمة فليقتل قتلاً، واقتلوا البهيمة أيضاً»، و«كل امرأة تقدمت إلى بهيمة لتسفدها، فاقتل المرأة والبهيمة: إنهما تقتلان قتلاً، فدمهما عليهما». و«كل رجل ضاجع ذكراً مضاجعة النساء، فقد صنعا كلاهما قبيحة فليقتلا: دمهما عليهما». كما منعت الشريعة أيضاً، تنكر الرجل بزي امرأة، والمرأة بزي رجل، بوصفه فاحشة، فعلى الرجل والمرأة معاً تجنب مثل هذه البلبلة بين الجنسين، إذ ينبغي للرجل أن يظهر بمظهر الرجل، وعلى المرأة أن تظهر بمظهر المرأة.

وقد حافظ الزواج على مكانته بوصفه أساس الأسرة وعمادها، على الرغم من الاحتقار والامتهان الذي حل بالمرأة، إذ كان باستطاعة أبيها أن يبيعها بيع الإماء قبل بلوغها الحلم، وما أن تتزوج حتى تصبح ملك زوجها الذي اقتناها من أبيها أو من أكبر أخوتها. كانت العزوبة خطيئة، وكان على الكهنة إذا ما بلغ واحدهم العشرين من عمره، ان يتزوجوا امتثالاً لما تقتضيه الشريعة، نظراً لأنه لابد للرجل البالغ من أن يروي غريزته الجنسية كيلا يغوى ويذل فيقترف الخطيئة. أما الزوجات فقد جردتهن الشريعة من الحقوق كافة باستثناء ما استوثقنه، إذا ما أصبحن أمهات، من كبير اعتبار وسط الشعب. عند ذلك ينعمن بحماية الأسرة التي يرتفع مقامها وتقوى مكانتها بما ينجبن من خلف وبنين: «**من يجد المرأة الفاضلة؟ إن قيمتها فوق اللآلئ. قلب رجلها يثق بها فلا يحتاج إلى غنيمة. تأتيه بالخير دون الشر جميع أيام حياتها. تلتمس صوفاً وكتاناً وتعمل بحذق كفيها. فتكون كسفن التاجر تجلب طعامها من بعيد. تقوم في الليل وتعطي لبيتها أكلاً ولجواريها وما**

يكفيهن. تتأمل حقلاً فتأخذه وبثمر كفيها تغرس كرماً. تُنطّق حقوبها بالقوة وتشدد ذراعيها. تذوّق ما ألذ تجارتها فلا ينطفئ في الليل سراجها. تلقي يديها على المكب وأناملها تمسك المغزل. تبسط كفيها إلى البائس وتمد يدها إلى المسكين.. لا تخشى على بيتها من الثلج لأن أهل بيتها جميعهم لابسون الحلل.. تصنع لنفسها أغطية موشاة ولباسها البز والأرجوان. رجلها معروف في الأبواب حيث يجلس بين الشيوخ. تصنع أقمصة وتبيعها وتعرض مناطق على الكنعاني. لباسها العز والبهاء وهي تفرح في اليوم الأخير. تفتح فاها بالحكمة وفي لسانها سُنّة الرأفة. تلاحظ طرق بيتها ولا تأكل خبز الكسل. يقوم بنوها فيغبطونها ورجلها فيمدحها: إن بنات كثيرات قد انشأن لهن فضلاً أما أنت ففقت عليهن جميعاً. النعمة غرور والجمال باطل، والمرأة المتقية للرب هي التي تُمدح. أعطوها من ثمر يديها، ولتمدحها في الأبواب أعمالها».
(الإصحاح الأخير من الأمثال ـ المترجم ـ).

ويُعد منع الحمل انتهاك صارخ لحرمة الزواج، وإضرار كبير يلحق بملكية الرجل، وتحويل منحرف يبدد نطفه، ودنس تبلغ رائحته الخبيثة السماء، ويستنزل من العقاب ما ينزل بالزاني. وقد حظر على المرأة المتزوجة بشدة كل انحراف جنسي، كما تحتم أن تقتصر غاية علاقات النساء الجنسية مع أزواجهن على الإخصاب والإنجاب وليس على بعض المتع الشهوانية. وتعد المرأة زوجاً مثالية إن اقتصر اهتمامها، كلياً، على زوجها وبيتها وأحاطتهما بعنايتها. جاء في سفر يشوع بن سيراخ، الإصحاح السادس والعشرون، مايلي: «**رجل المرأة الصالحة مغبوط، وعدد أيامه مضاعف. المرأة الفاضلة تَسُرُّ رجلَها وتجعله يقضي سنيه بالسلام. المرأة الصالحة نصيب صالح تمنح حظاً لمن يتقي الرب. فيكون قلبه جذلاً ووجه بهجاً كل حين غنياً كان أم**

فقيراً.» ثم نقرأ في إصحاح آخر: «**لطف المرأة ينعِّم رجلها. وأدبها يسمِّن عظامه. المرأة الحيية نعمة على نعمة. والنفس العفيفة لا قيمة توازنها. الشمس تشرق في عُلا الرب وجمال المرأة الصالحة في عالم بيتها. السراج يضيء على المنارة المقدسة وحسن الوجه على القامة الرزينة. العَمَدُ من الذهب تقوم على قواعد من الفضة، والساقان الجميلتان على أخمصي ذات الوقار الأسس تثبت على الصخر إلى الأبد، ووصايا الرب في قلب المرأة الطاهرة**».

ولكن حتى هذه المرأة المثالية، الجديرة بثناء زوجها وتكريمه، ليس لها أن تستوثق من حبه وإخلاصه، إذ حق له أن يمتلك العديد من النساء، وحق عليها، إن تُوفي عنها، ان تستقبل بذار (نطف) أخيه أو أقرب أقربائه الذكور إن لم يكن للميت أخ: أو ليست المرأة مخلوق للولادة فحسب؟ كما حق للزوج الذي قام بما عليه من واجبات حيال الإنسال وتخليد جنسه، أن ينعم بحريته في اللهو مع نساء أخريات. ولكن، والحق يقال، إن هؤلاء النسوة الأخريات «مخلوقات ضالة» و«بغايا» وقد اتخذت العديد من الإجراءات لمنع «النساء الفاحشات» من الإقامة بالقرب من المدن والقرى.

ومع ذلك، فإن الرجل، يطغى ويبغي وينتهك ناموس الرب، إذا ما استسلم إلى الفسق والفجور في الجوار، فذهب به الحال إلى اقتراف الفاحشة مع نساء عابدات للأوثان، فيكون بذلك قد اقترف إثماً لا يثقل ضميره فحسب، بل ينمي في نفسه الخوف والرهبة أيضاً: فإن ذاعت خطيئته وانتشرت، طاله «مجلس الأقدمين»، الذي يشكل الكهنة فريقاً من أعضائه، فيطالبه بعرض أفعاله ليدفع من نفسه ثمن كفارتها؟ لقد شوَّه سمعته ولن يسلم من الأقاويل وأصبح، من الآن فصاعداً، أمراً مشبوهاً ومثيراً للريب، حتى وإن كانت طبيعة ما اقترف من جرم ومخالفات لا تدخل في عداد ما سنته

الشريعة من عقاب وقصاص. أما إذا تكرر انحرافه فزاد تيهاً وضلالاً، فقد التحف بالعار وحلت عليه اللعنة، ثم إنه قد أساء إلى عائلته وعرَّض وحدتها وتماسكها للخطر، تلك العائلة التي يتحتم عليه رعايتها والحفاظ عليها أياً كان الثمن، ذلك لأن في هذه الوحدة وفي هذا التماسك رمزاً لتضامن أسباط(*) إسرائيل، أحفاد يعقوب وذرية أبنائه الإثني عشر.

كان بنو إسرائيل على يقين لا يرد، بحقيقة قوانينهم الأخلاقية وصحتها. وتشهد على ذلك نصوص العهد القديم التي تعرض لجميع ما عاناه بنو إسرائيل من محن وبلايا(**) ولكل أشكال الغزو والسبي التي حلت بهم عقاباً لهم من عند ربهم لما اقترفوه في حياتهم من آثام وذنوب. لقد أثموا، وهذا ما يدلنا على أنهم خالفوا وانتهكوا وصايا الرب العشر التي أعلنها موسى وشرحها باسم الرب. والمعصية التي يقترفها بعض الآثمين من الرجال والنساء تحل لعنتها على الطائفة برمتها، فالخطيئة تخصهم جميعاً، وعلى كل منهم أن يدفع ثمن هذه الخطيئة وأن يكفر عن الجميع، وعلى الجميع أن يكفروا عن الفرد، فقد شبه الأنبياء، في لغتهم الرمزية الشعب الخاطئ بـ«النساء الزانيات».

إن أسوأ تقريع يمكن أن تقذف به المرأة هو اتهامها بأن لها علاقات جنسية قبل الزواج أو خارج بيت الزوجية: «**هكذا أيضاً المرأة التي تترك بعلها وتجعل له وارثاً من الغريب. لأنها أولاً عصت شريعة العلي، وثانياً خانت**

(*) مفردها سبط من الكلمة العبرانية شبط ومعناها «عصا» أو جماعة يقودها رئيس بعصا، وكانت تطلق عادة على أبناء يعقوب. ـ المترجم ـ.

(**) لم تسلَم شعوب الأرض قاطبة من المحن والبلايا، لكن اليهود، بخاصة، قد جروا على أنفسهم ما جروه لاعتقادهم بأنهم فوق الجميع ديناً وفكراً و.... ـ المترجم ـ.

رجلها، وثالثاً تنجست بالزنى، وأقامت نسلاً من رجل غريب. فهذه يؤتى بها إلى الجماعة وتُبحث أحوال أولادها. إن أولادها لا يتأصلون وأغصانها لا تثمر وهي تخلف ذكراً ملعوناً وفضيحتها لا تمحى».

ونقرأ: «زنى المرأة في طموح البصر ويعرف من جفنيها واظب على مراقبة البنت القليلة الحياة لئلا تجد فرصة فتبذل نفسها. تنبه لطرفها الوقح ولا تعجب إذا عقتك. تفتح فمها كالمسافر العطشان، وتشرب من كل ماء صادفته، وتجلس عند كل جذع وتفتح الكنانة تجاه كل سهم».

لكن اللوم الأشد يقع على أولئك الرجال الذين يستغلون مجاملة الفاسقات من النساء ويستسلمون، دونما قيد، إلى شرب المسكرات، مثلهم مثل جيرانهم الكنعانيين والفلسطينيين عبدة الأوثان، لأن «روح الفسق والفجور والميل إليهما قد أغوتهم فكفروا بالرب، وحنثوا في ايمانهم، على قمم الجبال يقدمون الأضحيات وعلى الهضاب يحرقون البخور...» «لا تكن ذا بأس تجاه الخمر، فإن الخمر أهلكت كثيرين، الاتون يمتحن الحديد الممهى، والخمر تمتحن قلوب المتجبرين في القتال. الخمر حياة للإنسان إذا اقتصد في شربها. أي عيش لمن، ليس له خمر. أي شيء يعدم الحياة: الموت. الخمر في البدء خلقت للانبساط لا للسكر. الخمر ابتهاج القلب وسرور النفس لمن شرب منها في وقتها ما كفى. الشرب بالرفق صحة للنفس والجسد. الإفراط من شرب الخمر خصومة ونزاع. الإفراط من شرب الخمر مرارة للنفس. السكر يهيج غضب الجاهل لمصرعه، ويقلل القوة ويكثر الجراح. في مجلس الخمر لا توبخ القريب ولا تحتقر في سروره». إنهم أمثولة تدفع بمحتذيها إلى الفساد، فبادرت الشريعة إلى تحذيرهم بلسان الرب: «....إذا عكفت بناتكم على الفسق والفجور، وإذا زنت عروسكم الصبية، فلسوف لن أعاقب

بناتكم لعكوفهن على الفجور، ولا زوجاتكم الصبايا لاقترافهن الزنى...» **النساء الزانيات والفتيات الفاجران لن يعاقبهن الرب، بل الشريعة هي التي تنزل بهن القصاص إذا ما اضطر مَن حُباً وشغفاً بعشاقهن «أولئك الذين يملكون أعضاء كأعضاء الحمير، ونطفاً كبذار الخيول...»** إلا أن الرجال يدنسون اسم الرب بمعاشرتهم للمومسات، فهم يقترفون الفاحشة، لا لأنهم قد استسلموا إلى لذة آثمة فحسب، بل لأنهم أيضاً يعرِّضون أنفسهم، من جراء هذه اللذة، لغواية عبادة الأوثان وخدمتها.. بل من المحتمل أيضاً أن ينجرُّوا فيشاركوا في العربدات التي ينظمها كهنة بعل وعشتارة، إلهة الحب عند الفينيقيين، تلك الإلاهة التي تضحي عابداتها النهمات بعذريتهن بالقرب من المذابح، ويضاجعن، في حرم المعبد، كل مجهول يلتمس منهن ذلك.

والحال هذه فلا مناص، في نظر بني إسرائيل، من عقاب الرب الذي لا يرحم للتكفير عن الخطايا، فالرب وحده من يعرف وزنها وتقديرها حق قدرها. ولا يفرض هذا الرب الواحد الأحد التوبة، إنه لا يتوق إلى الأضحيات، إذ جاهر أنبياؤه: «الطاعة خير من الذبائح» وقد أملى على الأنبياء أوامره: **«لقد أبغضتُ أعيادكم ورذَّلْتها ولم تطب لي احتفالاتكم، إني إذا أصعدتم لي محرقاتكم وأضحياتكم لا ارتضي ولا التفت إلى ذبائح السلامة من مُسمَّناتكم، أقصِ عني زجل أغانيك فإني لا أسمع نغم عيدانك، بل ليجر القضاء كالمياه والعدل كنهرٍ لا ينقطع».**

الحق والعدالة ليسا هبة من السماء بواسطتهما كشف الرب لعبده موسى الجوهر، وبواسطهما وضعت التوراة القوانين وأرستها. حدد القانون المسموح به المنهي عنه، ويصح ذلك على الرجل والمرأة كليهما. ولكن

أليست الشريعة مهددة، إن أسلم الشعب قياده، أثناء محنته، إلى أحد الملوك؟ أو ليس الرب وحده ملك إسرائيل؟ إن النبي صموئيل قد أوجب على الشعب ألا يمنح ثقته إلا للرب وحده، وحذره من عبادة آلهة غريبة إن أراد هذا الشعب التغلب على ما يحيكه الفلسطينيون. فنصح بني إسرائيل بالعدول عن تولية ملك عليهم في خطبة وصفت بأمانة أخلاق ذاك العصر: «... **هذه سنة الملك الذي يملك عليكم، يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لعجلته وفرسانه، فيركضون أمام عجلته. ويتخذ لنفسه رؤساء ألف ورؤساء خمسين وأكرةً لحرثه وحصاده وصناعاً لآلات حربه وأدوات عجلاته ويتخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات. وحقولكم وكرومكم وأفضل زيتونكم يأخذها ويعطيها لعبيده. ويأخذ عشوراً من زرعكم وكرومكم ويعطيها لخصيانه وعبيده. ويأخذ عبيدكم وإماءكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم في شغله ويعشّر ماشيتكم وأنتم تكونون له عبيداً. فتصرخون في ذلك اليوم من ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم، فلا يجيبكم الرب في ذلك اليوم**».

وعلى الرغم من تحذيرات صموئيل تولى المُلك شاؤول القائد المقدام، لكنه «تمرد على شريعة الرب» ولم يسمع لصموئيل. وتخلى روح الرب عن شاؤول «ليحل روح الشر من لدن الرب، وأخذ يهذي في داخل بيته». «ثم إن داود الفتى اليافع ذا العينين الجميلتين والقامة المشوقة» قد مسحه صموئيل من بين أخوته فحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعداً، فصار ملكاً عظيماً وانتصر في ميادين القتال وجمّل أورشليم التي جعلها عاصمته. لكن لم يمتثل بسلوكه للمشيئة الإلهية على الدوام، ففي شبابه كان موسيقياً يعزف على الكنّارة كأحسن ما يكون العزف، وتغلب داود على جليات الفلسطيني العملاق، وصرعه ثم قطع رأسه وجاء به إلى مليكه،

وأحبت ميكال ابنة شاؤول داود الذي دفع ثمناً لشرائها مئة قلفة(*) من الفلسطينيين. وبعد أن هرب من حميه تزوج داود، دون أن يردعه رادع، بامرأتين أخريين، في الوقت الذي أعطى شاؤول، الذي تعلقت نفسه بنفس داود وأحبه كما يحب نفسه: «**قد ضاق ذرعي عليك يا أخي يوناتان لقد كنت شهياً إلي جداً وكان حبك عندي أولى من حب النساء وقد أحببتك حب أمٍ لابنها الوحيد**».

واستحثت داود رغبة مطلقة العنان في العيش والتمتع بالحياة، فدفعته دفعاً إلى إنتهاك الشريعة بلا انقطاع ليستسلم إلى غرائزه الجموح. كان يرقص بكل ما أوتي من قوة، شبه عار، أمام تابوت العهد، حيث تُحفظ كتب الشريعة الخمسة، ثم إنه رأى ذات يوم، بينما كان واقفاً على مشرف منزله، امرأة رائعة الجمال تستحم، فأرسل رسله في طلبها، فجاءت إليه ونام معها، دونما حياء أو رادع. كان اسمها بتشابع وهي زوجة أوريا الحثي، والملك داود يعرف ذلك، ويعرف أنها كانت تستحم لتتطهر من دنس دورتها الشهرية. ثم رجعت إلى بيتها. وحملت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إنني حامل، فسارع داود واتخذ تدابيره بأن وجه أوريا حيث يكون القتال شديداً.. «وارجعوا من ورائه فيُضرب ويموت» وقُتل أوريا، ونما إلى بتشابع خبر مقتله و«ناحت على بعلها». ولما تمت أيام مناحتها أرسل داود وضمها إلى بيته فكانت زوجة له، وولدت له ابناً.

ساء ما فعله داود في عيني الرب. وضرب الرب المولود الذي ولدته امرأة أوريا لداود حتى يئس منه «تضرع داود إلى ا لله من أجل الولد

(*) طلب أبو شاؤول مهراً لابنته مائة قلفة إلا أن داود قدم له مئتي قلفة، حسب ما جاء في سفر الملوك الأول. ـ المترجم ـ.

وهام وبات مضطجعاً على الأرض، فلما كان اليوم السابع مات الصبي. ونما الخبر إلى داود، فنهض عن الأرض واغتسل وادَّهن وغير ثيابه ودخل بيت الرب فسجد ورجع إلى بيته وطلب فوضعوا له طعاماً فأكل». ذلك أن داود قد أدرك عدم جدوى أنينه ونواحه في نشر ابنه وإحيائه «عزَّى داود بتشايع زوجته ودخل عليها واضطجع معها فولدت ابناً فدعاه سليمان وأحبه الرب».

لم تقتصر مخالفة قانون الأخلاق، في قصر داود الملكي، على داود وحده، بل انتهكه بنوه أيضاً، ذلك أن أمنون ابنه قد تدله في تامار أخته من أبيه حتى سقم، فتمارض وطلب من أبيه أن يرسل إليه أخته لتعتني بصحته، ومضت تامار إلى بيت أمنون أخيها وهو مضطجع، فأخذت طحيناً وصنعت له كعكاً، وقدمت له ليأكل فأمسكها وقال: «تعالي اضطجعي معي يا أخية...» فقالت له: «لا تذلني ياأخي لأنه لا يُفعل هكذا في إسرائيل فلا تفعل هذه الفاحشة. فأما أنا فأين أذهب بعاري وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء في إسرائيل، والآن فكلّم الملك فإنه لا يمنعني منك، فأبى أن يسمع لكلامها ولكن تمكن منها وغصبها وضاجعها». ولما ثاب إلى رشده وأدرك عظم فعلته «أبغضها أمنون بغضة شديدة جداً، وكانت كراهيته لها أعظم من الحب الذي أحبها إياه. وقال لها أمنون قومي وانصرفي.. وكان عليها قميص موشى، لأن بنات الملك العذارى كن يلبسن أقمصة مثل هذه.. فجعلت تامار رماداً على رأسها ومزقت القميص الموشى الذي كان عليها، ورفعت يدها على رأسها وذهبت وهي تصرخ». خفف عنها أخوها وواساها: «كفي الآن يا أخية إنه أخوك، ولا يأخذ من نفسك هذا الأمر». و«سمع داود الملك بجميع هذه الأمور فاغتاظ جداً، ولكنه لم يحزن نفس أمنون ابنه،

لأنه كان يحبه إذ كان بكره» في حين أن أبشالوم قتل أخاه وهرب ثم إنه أخذ يؤلب الشعب على أبيه، فجمع من الرجال ما جمع، وحارب بني قومه في مواقع عدة إلى أن سقط مضرجاً بدمائه في واحدة من أشد معاركه هولاً.. ولما نما إلى داود الخبر ارتعش وصعد إلى علية الباب وهو يبكي ويردد: «أبشالوم يابني، يابني أبشالوم، ياليتني مت عوضاً عنك، يا أبشالوم ابني يابني».

حتى يعقوب نفسه لم ينج من عقاب الرب عندما اقترف الخطيئة، إذ أنزل الله به عقاباً لا يرحم على الرغم من عمق توبته وشدة إخلاصه في خدمة الرب بين أبناء شعبه، وقد رفع العهد القديم من شأن الملك داود دون أن يقلل من حجم خطاياه أو أن يختلق له المعاذير. لقد كان ملكاً عظيماً، مسيح الرب، مختاراً، ولكنه كان أيضاً إنساناً لا يملك مقاومة غرائزه فاستسلم إلى الخطيئة، ذلك لأن الخطيئة جزء لا يتجزأ من الطبيعة الإنسانية، وأن زمن الطهارة(*) لم يأت بعد، ثم إن سليمان، ابن داود من المرأة الزانية بتشابع، لم يعيش حياته على الشكل الأمثل على الرغم مما أحيط به من مظاهر الأبهة والترف. لقد شرف اسمه، المشتق من كلمة شالوم، التي تعني: السلام، وغدا ملكاً مقتدراً ذا شأن وسلطان، ووطد في مملكته العدل والنظام، وأسبغ على شعبه رغد العيش والحياة الهنية وجمع لنفسه كل غالٍ ونفيس، فبلغ

(*) ويتحقق هذا التطهير الجذري بطقس المعمودية التي تستمد فاعليتها من الصليب، فقد ضحى المسيح بنفسه من أجل الكنيسة ليقدسها ويطهرها بماء الاستحمام «بينما كانت الفرائض القديمة لا تحدث إلا تطهيراً خارجياً، فإن مياه المعمودية تحررنا من كل قذارة باتحادنا بيسوع القائم بين الأموات». فالطهارة هي طهارة الروح والجسد معاً ـ من معجم اللاهوت الكتابي ـ المترجم ـ.

من الثراء مبلغاً عظيماً، واشتهر بحكمته التي صارت مضرب الأمثال. بيد أن ولعه بالمتعة ذهب به كل مذهب، وبلغ بـه حـداً غيَّب وراءه حكمتـه وثـراءه. وأقـام لنفسـه بيـت حريـم ضـمَّ «سـبعمئة مـن الزوجـات وثلاثمئـة مـن السـراري والخليلات».

وقضى حياته في بيت الحريم مستسلماً فيه إلى ألـوان الحـب، وأي حـ... ذلك أن سليمان كان ماهراً في فن الهوى الرهيف والمتعة الرفيعة.

يُعد نشيد الأناشيد من أجمل القصائد التي نظمها بنو البشـر. وقـد تـأثر بنو إسرائيل بهذا النشيد غاية التأثر فأدرجوه في الكتب المقدسة، على الرغـم من أن موضوعه مجاهرةٌ صريحةٌ بما يختلج في قلب العاشق. كانت خطيئـة آ... وحواء الأصلية باعثاً على إقصائهما من الفردوس، غير أن الحـب خارج جنة عدن، قد أُجيز لبني الإنسان، شريطة ألا ينتهكوا، بما يغرفونه من متع، شريعة موسى، لكن سليمان نصَّب نفسـه فـوق الشـريعة ورأى مـن حقـه، بوصفه ملكاً، أن يطالب بامتيازاته فيعشق ويُعشق على مثال الملوك.

كانت النسوة، بين أحضانه، يتنهدن متلهفات:

«قبلني بقبلات فمك، لأن حبك أطيب من الخمر، أدهانك طيبة العـرف واسمك دهن مهراق فلذلك أحبتك العذارى. أنـا سـوداء لكـني جميلـة يابنـات أورشليم كأخبية(*) قيدار كسرداق سليمان، لا تلتفتن إلى كونـي سـوداء فـإن الشـمس قـد لوحتـني. قـد غضـب علـيَّ بنـو أمـي فجعلونـي نـاطورة للكـروم والكرم الذي لي لم أنطره. أخبرني يامن تحبه نفسي أين ترعى وأين تربض عنـد الظهيرة. لماذا أكون كمن يغشى عليه في إثر قطعان أصحابك.

(*) الأخبية هي الخيام، وقيدار اسم لقبائل عربية ـ المحرر ـ.

ـ هو: ما أجمل خديك بسموط وعنقك بخرز.

ـ هي: صرة المر حبيبي، بين ثديي مبيته، حبيبي عنقود فاغية لي في كروم عين جدي.

ـ هو: جميلة أنت ياخليلتي، جميلة أنت وعيناك كحمامتين.

ـ هي: جميل أنت ياحبيبي وعذب وحجلتنا ذات أزهار، جوائز بيوتنا أرز وروافدنا سرو».

وفي النشيد الثاني نقرأ:

ـ «هي: أنا وردة الشارون وسوسنة الأودية،

ـ هو: كالسوسنة بين الشوك، كذلك خليلتي بين البنات،

ـ هي: كالتفاح في أشجار الغابة، كذلك حبيبي بين البنين.

قد اشتهيت فجلست في ظله، وثمره حلو في حلقي

أدخَلَني بيت خمره، ورايته عليَّ محبة

أسندوني بأقراص من الزبيب

أنعشوني بالتفاح فقد أسقمني الحب

شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني

ـ هو: استحلفكن يابنات أورشليم بظباء الصحراء وأيائلها أن لا تنهضن ولا تنبهن الحبيبة حتى تشاء».

* * * *

«صوت حبيبي هو ذا مقبل، وهو يطفر على الجبال ويقفز على التلال...

إني نائمة وقلبي مستيقظ، إذا بصوت حبيبي قارعاً أن افتحي لي ياأختي ياخليلتي ياحمامتي ياكاملتي فإن رأسي قد امتلأ من الندى، وغدائري من قطار الليل، قد نزعت قميصي فكيف ألبسه. قد غسلت

رجلي فكيف أوسخهما. حبيبي أرسل يده من النافذة فتحركت له أحشائي، فقمت لافتح لحبيبي وكانت يداي تقطران مراً وأصابعي تجري بالمر على مقبض المزلاج.. حبيبي أبيض وأشقر علم بين ربوة. رأسه نضار إبريز وغدائره كسعف النخيل حالكة كالغراب. عيناه كحمامتين على أنهار المياه، تغتسلان باللبن وهما جاثمتان في وقبيهما. خداه كروضة أطياب وخضيلة رياحين، وشفتاه سوسن تقطران مراً ذكياً. يداه حلقتان من ذهب. وجسمه عاجٌ يغشّيه اللازورد. ساقاه عمود رخام. وطلعته كلبنان جليل كالأرز.. حلقه أعذب ما يكون بل هو بجملته شهي».

ويستجيب الرجل، في سكرة عشقه وانتشاء هيامه، لرغبات المرأة الوهى الفاقدة الرشد، فيتغنى بحبها ويمتدح مفاتنها: «جميلة أنت ياخليلتي جميلة أنت وعيناك كحمامتين من وراء نقابك، وشعرك كقطيع معز يبدو من جبل جلعاد. أسنانك كقطيع مجزوز قد طلع من الاغتسال كل واحدة منه متئم وما فيه عاقر. شفتاك كسمط من القرمز ونطقك عذب.. خداك كفلقة رمانة من وراء نقابك. عنقك كبرج داود.. ثدياك كخشفي ظبية توءَمين يرعيان بين السوسن. كلك جميلة يا حبيبتي ولا عيب فيك.. شفتاك تقطران شهداً أيتها العروس، وتحت لسانك عسل ولبن.. وعرف ثيابك كعرف اللبان. أختي العروس جنة مقفلة ينبوع مقفل وعين مختومة».

«دوائر فخذيك كحلي صاغتها يد صانع حاذق
سرتك كأس مدورة مزاجها لا ينُقصُ
وبطنك صُبْرة حنطةٌ يُسيجها السوسن
قامتك مثل النخلة وثدياك مثل العناقيد...»

(في نشيد الإنشاد «أو نشيد الأناشيد» وجهات نظر ثلاث مختلفة:

ـ الرأي الأول ينظر إلى السفر نظرة حرفية تاريخية ويقول: إن هناك ثلاث شخصيات رئيسية هي: الراعية شولميت وحبيبها الراعي الشاب والملك سليمان الذي يحاول أن يجذبها إليه، بما توفرت لديه من مغريات، إلا أن الفتاة بقيت وفية على محبتها لخطيبها إلى أن يتزوجا في النهاية، والذين يقولون بهذا الرأي يرون أن القصة موضوعة على شكل رواية ذات فصول ومناظر ستة.

ـ أما أصحاب الرأي الثاني فإنهم يقصرون القصة على اثنين فقط وهما: شولميت وسليمان، إلا أن هذا الرأي لا يفسر ما جاء في هذا النشيد من إشارات إلى الحبيب الراعي والمراعي والجبال، مما لا يتفق وحياة سلميان الذي نشأ في أورشليم وعاش فيها.

ـ أما الرأي الثالث فهو الرأي الرمزي أو المجازي، وذلك أن هناك معنى خفياً في كل دقيقة من دقائق النشيد، فكل محبة إنسانية بشرية صحيحة في رأي الرمزيين والمجازين إن هي إلا رمز لمحبة الله لشعبه وانعكاس لهذه المحبة الإلهية.

وقد أخذت هذا التفسير الرمزي الكنيسة المسيحية وفسرته بوصفه تعبيراً عن محبة المسيح للكنيسة التي لا يمكن أن تنفصل عنه مهما كانت إغراءات العالم).

وقد اختلف المفسرون أيضاً في مؤلف النشيد، فبعضهم يقول إنه سليمان، وبعضهم الآخر يعتقد أن هذا السفر كتب عن سليمان. (ملخص ما جاء في قاموس الكتاب المقدس ـ المترجم ـ).

إن العهد القديم كتاب صارم بحكمه متزمت بأخلاقه. يُعرِّي، دونما مواربة، خطايا الإنسان الذي لا يني، لضعفه وتمرده، ينتهك أوامر الرب

وشريعته، ويجني على نفسه فيصب الرب عليه جام غضبه وشديد قصاصه. ومع ذلك فإن الكتابات المقدسة تلك تصف لنا، بصراحة مؤثرة أخلاق بني إسرائيل وتقاليدهم، الحميدة منها والفاسدة. أما نشيد الإنشاد(*) فإنه أغنية إنسانية تشيد بالحياة ومسراتها وتدعو الرجال والنساء معاً إلى الشبع والإرتواء وممارسة الحب.

(*) يعود نظم (تأليف) هذا النشيد إلى النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد - من قاموس المؤلفات العالمية. - المترجم -.

الجزء الثاني

الحضارتان اليونانية والرومانية

الفصل السادس

الإغـريق

تسلسل زمني

نحو ٢٦٠٠ ـ ١١٥٠	ق.م	الثقافة الكريتية الميسينية
نحو ١٨٠٠	ق.م	مينوس
نحو ١٢٠٠	ق.م	حرب طروادة ـ الاجتياح الدوري
القرن العاشر	ق.م	(؟) ليكورغ (ليكورغوس)
نحو ٨٠٠ (؟)	ق.م	هوميروس
في عام ٧٧٦	ق.م	إقامة أولى الألعاب الأولمبية
نحو ٧٠٠	ق.م	هزيود
نحو ٦٤٠ـ٥٦٠	ق.م	صولون
نحو ٦٤٠ـ٥٤٧	ق.م	طاليس وميليت
نحو ٦٠٠	ق.م	سافوليسبوس: الكايوس
نحو ٥٠٠ـ٤٢٥	ق.م	انكساغوراس
نحو ٤٩٥ـ٤٢٩	ق.م	بيريكليس
نحو ٤٨٤ إلى ما يقرب من عام ٤٣٠	ق.م	هيرودوت
نحو ٤٨٠ـ٤١٠	ق.م	بروتاغوراس الأبديري
نحو ٤٧٠ـ٣٩٩	ق.م	سقراط
نحو ٤٥٠	ق.م	فيدياس

نحو ٤٥٠ ـ ٤٠٤	ق.م	الكيبياد
في ٤٢٧ـ٣٤٧	ق.م	أفلاطون
في ٤٣٢	ق.م	الحكم على اسباسيا
في ٤١١ـ ٤٤٥ق.م)	ق.م	ملهاة أرستوفان ليسيستراتا (ولد نحو
٣٨٤ـ٣٢٢	ق.م	أرسطو
٣٥٦ـ٣٢٣	ق.م	الاسكندر الأكبر
نحو ٣٥٠	ق.م	براكستيل
١٤٨	ق.م	أصبحت مقدونيا ولاية رومانية
١٤٦	ق.م	دمار كورنثه ـ نهاية استقلال بلاد الإغريق

«العبقرية لا السوقية هي الأمر الشائع في اليونان، فلم يحظ شعب بعباقرة بمثل ما حظي به الشعب اليوناني برغم ضآلة عدده، وحسبه انه كان له من العباقرة نحو من خمسمائة في قرن واحد. عاش سكان هذا العالم الصغير على وئام مع بيئتهم بعد أن عمروها بآلهتهم الذين عاشوا معهم على ألفة مكينة. إن الكون اليوناني هو أبلغ صورة لوحدة الفكر والعقل معاً».

(عملاق ماروسي ـ هنري ميلر ـ المترجم)

الإغريق

«الجميل خير والخير جميل»

«كريت بلد تتلاطمه أمواج يم سحيقة الغـور، وأرض خصيبـة تـأنس بهـا النفس، وتحيط بها المياه من كل جانب، وفيها خلـق كثيرون يخطئهـم العـد...» بهذه الكلمات يتغنى هوميروس بجزيرة كريت، إلا أنه لم ينقـل إلينـا كيـف كـان يعيش سكان مدنها التسعين، بل راق له، بالمقابل أن يبعث الحياة في حلقات الرقص التي كانت تدور في أيام الأعياد في قصر كنوسوس الملكي، وفيها نـرى فتيانـاً بعمـر الزهور «وفتيات يُحتفى بهن لجمالهن» يرقصون وقد تشابكت أكفهم.

لم تكن جميع الرقصات في الرسوم الجداريـة الـتي استخرجها المنقبـون مـن أطلال كنوسوس رقصات رزينة حييـة، ذلـك أن هـؤلاء الفتيـات «المحتفـى بهـن لجمالهن» الرقيقات الخصور والضامرات البطون، واللائي انتقلن إلى الخَلَـف علـى شكل تماثيل صغيرة خلابة، كن يُبرزن للعيان، بفتون طلق، نهودَهن الكاعبة، مـن دون حياء أو خجل. أما ثيابهن الفاخرة فقد فصّلهـا خيـاط مـاهر لتحجـب عـن الأنظار مكامن سحرهن، من جهة، وتبرز، مـن جهـة أخـرى، الجيـد والكتفـين، وتجعل منها جوهرة بين ما تتجمل به النسوة من جواهـر ثمينـة، فـالخدود مخضبـة، والشفاه محمرة، واستدارة الحاجبين خطتها يد ماهرة، والأهداب الطويلـة الثخينـة تبعث الحياة والألق في نظراتهن، وتدلل الرسوم الجدارية أيضاً علـى أن النسـاء في

كريت كن يشاركن الرجال في أعمالهم ومعيشتهم من دون تكلف أو إكراه، وإن الرجال لم ينهوهن عن أمر، و لم يذيقوهن قهراً أو يتفضلوا عليهن، بل منحوهن حقوقاً مثل حقوقهم، ان لم تكن أفضل، وذلك إن نحن اعتمدنا، في استدلالنا هذا، على المكان[1] الذي كن يحتللنه بين مشاهدي الألعاب التقليدية التي كانت تنظّم بمناسبة الأعياد السعيدة أو الاحتفالات الشعائرية.

وكان الرجال في كريت يتحلون ويتجملون، كما النساء، بالأساور والسلاسل والخواتم، ويلبسون المآزر والتنانير القصيرة التي لا تبلغ كعابهم إلا في المناسبات الخاصة، وكانوا يعاملون نساءهم بكل المودة واللباقة، ويغازلونهن ويتوددون إليهن بأدب جم. لكننا ما برحنا نجهل مرامي هذا التودد، ترى أبقصد الزواج هو أم أنه لا يعدو معاشرة عابرة باعثها المتعة وتزجية الوقت؟

وتدل نتائج التنقيبات كافة على أن الكريتيين قد عبدوا إلهة عليا؛ إنها إلهة الطبيعة التي كانت تقهر الموت بولادتها لحيوات جديدة: إن الإنسان والحيوان والنبات يدينون لها جميعاً بحياتهم ونمائهم ورخائهم. لكن الولادة تقتضي جماعاً، وعليه فإن الكريتيين يرون أن القوة المذكرة تتجسد في كل من الثيران والأفاعي، ومنه فإن قضيب الثور الخارق القوة وشكل الأفعى المنتصب كانت رموزاً ذكرية محترمة وجليلة. ويدل كشحا الإلهة الأم المستديران وثدياها المنتفخان على سجاياها واستعداداتها الطبيعية للحمل والولادة والرضاعة. لكن هذه الإلهة لا تكتمل إلا بالأفاعي التي تلتف حول جسدها وتنبجس من شعرها.

---

(1) في تقديري إن المكان الذي تحتله النساء بين المشاهدين لا يعكس مكانة المرأة الكريتية ذلك لأن الغالبية العظمى ممن يؤم هذه الاحتفالات من النساء كن من بنات الهوى والعشيقات والمخطوبات وهؤلاء جميعاً محط اهتمام الرجل وتدليله، أما المرأة الزوجة والأم والجدة فهن لاريب قابعات في بيوتهن يرزحن تحت عبء المعاملة القاسية والواجبات الأسرية المرهقة. ـ المترجم ـ.

المرأة ذات الأفاعي، ١٦٠٠ ق.م، وُجد التمثال في كنوسوس، ولعله تمثال لإلاهة أو ملكة أو أميرة

كانت هذه الأم المجهولة قد ولدت في إحدى المغارات الإبن الإلهي فولكانوس، ونحن نجهل من كان أب هذا الإله الذي يبجله الكريتيون بوصفه تجسيداً للرطوبة المخصبة؛ ففي كل عام يذوي مع ذبول النبات ليُبعث من جديد مع ارتداء الأرض حلتها الخضراء[1].

وقد عظم دور هذا الإله في عقول المؤمنين عندما عزوا إليه قدرة الثور المذكرة. ترى هل ضاجع، وهو على صورة ثور، باسيفاي زوجة ملك مينوس الأسطوري فولدت له المينوتور المسخ: ثور مينوس؟

وتشهد أطلال مملكة كريت على عظمتها وتألقها،

[1] لاحظ القرابة بين هذه الأسطورة وأسطورة تموز، المترجم.

لكنها جزيرة بلا تاريخ يدون لها سجلها، كما إن ماضيها قد ضاع في الأسطورة وتاه. ترى أثمة ملك يحمل اسم مينوس أم ان مينوس هو لقب ملكي فحسب؟ هذا مما لا نعلمه، ذلك أن هوميروس كان قد نقل إلينا أخبار مينوس بعد ترقيته في عالم الجحيم «قاضياً على الأموات» تكريماً ومكافأة له إذ كان في حياته الدنيا العادل والمنصف لرعاياه.

تمثال نصفي لهوميروس، نسخة رومانية عن عمل يعود إلى الفترة الهيللينستية، نهاية القرن الرابع ق.م

أما رجل التاريخ الإغريقي توكيديد (توكيديديس[1]) فقد كتب: «كان مينوس، حسب ما تناقلته الروايات المأثورة، أول من أحدث أسطولاً بحرياً، مما أدى إلى سيطرته على القسم الأعظم من البحر الذي ندعوه بالبحر الإغريقي، وهو لكي يستطيع أن ينعم، وفق هواه، بما غنم وكسب، سعى جاهداً

[1] يختلف لفظ الأسماء اليونانية عنه في اللغة الفرنسية، وعليه فإننا سنحاول أن نقرن أحياناً اسماء الأعلام باللغتين معاً، المترجم.

حسبما نتصور، إلى تنظيف البحر من القراصنة والقضاء عليهم».

وقد استطاع مينوس، سواء أدل هذا الاسم على ملك ما أم دل على أسرة ملكية حاكمة، أن يستغني، بفضل أسطوله، عن تحصين مدنه، وأن يعفي نفسه من تجنيد الجيوش وإعالتها. وعليه فقد صار بمقدوره ومقدور شعبه أن ينعموا بحياتهم وأن يزيدوها رخاء. كانت قصور الملك فاخرة البناء، وكانت لبيوت مدنه طوابق عدة تتصل فيما بينها بسلالم وأدراج سهلة العبور، ومن هذه الأشياء وغيرها من أدوات الاستعمال اليومي والمحتويات التي أمكننا العثور عليها نقف على ما كان يتمتع به أشد الكريتيين تواضعاً من بحبوحة وهناء.

كان الكريتيون يختلفون إلى المسارح والمدرجات لمشاهدة ما يدور عليها من ألعاب في الملاكمة والمصارعة، وبخاصة مصارعة الثيران الشعائرية ذات المكانة المتميزة، وفيها نرى أشد الرجال بأساً وهم يتصدون للثيران، رمز الذكورة ومثالها، وفتيات يافعات يشاركنهم ألعابهم هذه، فالرسوم الجدارية تظهرهن للمشاهد وهن يتواثبن ويقفزن بخفة لا تخطر على بال فوق ثيران هائجة.

لقد صور الكريتيون الأزهار والنباتات والحيوانات ولكنهم لم يخلّفوا لنا أعمالاً، لا في النحت ولا في التصوير، تدور حول الحب. ترى هل كان من غير اللائق أن يصوروا نساء عاريات كلياً أو رجالاً منهمكين في متع الحب ولذائذه؟ وهل كان جمال الذكور والإناث الشهواني طاهراً حقاً؟ أم ان أخلاق الكريتيين الرفيعة المرهفة تنهاهم عن رسم الشهوانية الفاحشة فاضحة وصريحة؟

واستمرت أساطير الجزيرة، وما ارتبط بها من خرافات، حية في أذهان الناس على الرغم من دمار قصورها وخراب مدنها التي اجتاحتها جحافل الأعداء والتهمتها ألسنة النيران. ومن أشهر هذه الأساطير التي تروي لنا مغامرات باسيفاي الجميلة وابنتيها الفاتنتين أريانة وفيدرا اللائي دارت حولهن قصص حب كانت تزينها على الدوام تفاصيل جديدة. لكنها حافظت، على الرغم من ذلك، على متانة لحمتها وتماسكها، مما ساعد في أن يعير الإغريق، هذه القصص، قيمة

تاريخية امتدت زمناً طويلاً، وتزامنت مع إيمانهم بـالقصص التعليمية الـتي كـانت أساس السلوك الأخلاقي وعمـاده، وانتهـت في الوقـت الـذي ذهـب فيه الإيمان بالآلهة والأبطال الذين ابتدعتهم مخيلتهم الخاصة بهم.

وحتى القرن السابق للميلاد، رأى الأثينيـون في مينـوس، ملـك كريـت في حياته و«القاضي بين الأموات» في مماته، شخصية تاريخية. ثم إن المركـب الـذي أبحر بملكهم الأسطوري تـيزه (تيسيوس) إلى شـواطئ كريـت ليعـود منهـا سـالماً منتصراً نراه مصوراً في تذكار للنصر أمام أحد المعابد.

حتى أرسطو، الذي لم يتناول أحداث الأقدمين إلا بعـد تدقيـق وتمحيـص، كان قد درس مصـير باسـيفاي دراسـة تنـاولت القصـة المختلقـة وكأنهـا حقيقـة واقعة. وبناء على زعمه فإن مينوس أراد أن يحد من ازدياد عـدد السكان، ذلـك لأن أراضي جزيرته وضيق رقعتها كـانت عـاجزة عـن إطعـام أعـداد أخـرى مـن السكان. وفي سبيل تحقيق هدفه في توفير الطعام لشعبه، أدخـل الشـذوذ الجنسـي ليحول دون إخصاب الرجال للنساء مع عدم حرمانهم، في الوقت نفسـه، ممـا في العلاقات الجنسية من متع وملذات. وعليه فإن مينـوس لم يـرم إلى التخفيـف مـن غلواء شهوانية المتع وجماليتها، تلك المتع التي يتوق إليها الكريتيون، ولكنه أراد أن يروي شهواتهم بطريقة مغايرة.

لم يبـين لنـا أرسـطو مـا إذا كـان السـكان في جزيـرة كريـت سـعداء بمـا استحدثه ملكهم، لكن النساء أبَيْن ذلـك واسـتنكرنه وعلـى الخصـوص باسـيفاي زوجة الملك مينوس التي تحدثنا الأسطورة عنها بتقديم تفسـيرات أخـرى لخيانتهـا وعدم وفائها: إذ يحكى أنه لما ولد للملك، جراء مغامراته العاطفية مع العديد مـن نساء المملكة، نسل من المسوخ والحيات والعقارب، تجنبت باسيفاي الـتي أنجبـت للملك أطفالاً أصحاء معافين، أن يكون لها مع الملك علاقـات جنسـية، مخافـة أن تحمل وتلد مسوخاً مشوهة ومخيفة، ولكن أين لها أن ترفض الإرادة الملكيـة وتمنـع نفسها عن معاشرته؟ هنا يهرع أحد الآلهة لنجدة الملكة التي كـانت، هـي أيضـاً،

من أصل إلهي، فيخلصها ولكن بطريقة جاءت على غير ما كانت تتمناه. ذلك أن بوسيدون (بوزايدون) ، إله البحار، قد أخرج من أمواج اليم، بناء على التماس من الملك، ثوراً إلهياً، ليقدمه الملك قرباناً له، فما أن رأى الملك الثور حتى أعجب به أيما إعجاب، لقد كان ثوراً جميلاً، أبيض اللون ورائعاً، قوياً وسميناً، لم ير البشر له مثيلاً، فأراد أن يحتفظ به لنفسه وقدم للإله ثوراً بديلاً دون أن يحفل بالعواقب. أما بوسيدون فقد رأى في تصرف الملك إهانة لشخصه وإذلالاً لجلاله، فاستشاط غضباً وعزم على الانتقام من مينوس.. وطلب من إلهة الحب أن ترسل بسهامها الدافئة نحو صدر باسيفاي التي أحست على الفور برغبة جامحة نحو الثور الإلهي. يقول أوفيد في كتاب فن الهوى ساخراً:

«لكم تاقت باسيفاي الملكة شغفاً أن تصبح يوماً للثور خدينة. وكم حقدت على البقرات الوسيمة تتفرسهن حاسدة واجدة. وما بوسع كريت التي تضم مائة مدينة أن تنكر ما كان وإلا كذبت. فلقد قيل أن باسيفاي، كانت تجمع بيديها المرهفتين الأعشاب الغضة من أنحاء المرج تعلف بها آسر قلبها، و لم يثنها عن أن تنخرط في القطيع ما كان لزوجها من مكانة.

وهكذا أتاحت لثور أن يتغلب على مينوس المليك. لم تعد ثياب الملك الأرجوانية ذات جدوى لك ياباسيفاي. أتتجملين بها وحبيبك ثور لا يلقي بالاً للزينة؟ وما غناء المرأة عندك، آبقة بين القطعان، على سفوح الجبال؟ أتخالين أيتها العاشقة أن جمال جدائلك المضفورة يلفت إليك معشوقك. هلا ردتك إلى وعيك مرآتك! وهل تراءيت فيها غير واحدة من البشر... لا البقر؟ كيف تمنيت أيتها الملكة أن ينبت بجبينك قرنان؟ أي باسيفاي، تبغين الزنى وأنت المعجبة بزوجك مينوس؟ وإذا كان لا معدى لك عن أن تفجري، فلتختاري لك فاجراً من البشر...» [1].

---

[1] ثروة عكاشة ـ الإغريق بين الأسطورة والإبداع.

وحسدت باسيفاي الإلهة أوربا أن ضاجعها جوبيتير في هيئة ثور، وتمنت لو مسخت بقرة شأن ايو عندما واقعها رب الأرباب. ثم أتاحت للثور الفاتن، رمز الذكورة الحي، أن يجامعها ويودعها نطفته، حين خدعته مستخفية في بقرة من خشب صنعها ديدالوس، ونسلت منه دنساً لوثت به سلالتها، فجاء مسخاً نصفه رجل ونصفه الآخر ثور، المينوتور المروع.

ونحن لا ندري ما إذا كان مينوس قد علم بمصابه فور وقوعه، فهذا مما لم تكشف لنا عنه الأسطورة. وإلى ديدالوس العظيم، وهو الذي لجأ إلى جزيرة كريت في ذلك الزمن الغابر، هرع الملك مينوس يطلب عونه، فقد كان من أمهر أهل زمانه وأحذقهم، فاستجاب إلى طلبه، وساعده على أسر المينوتور الرهيب وسجنه في متاهة عجيبة (اللابيرنت) شيدها ديدالوس ليدرأ عن البشر بليته، ويدفع عنهم أذيته وشروره. ثم إنه نُمي إلى الملك أن ديدالوس هو الذي هيأ السبيل إلى باسيفاي لمضاجعة الثور الذي عشقته وهو الذي ساعدها في إشباع رغباتها الشاذة، فأمر بحبسه وابنه في المكان الذي يعيش فيه المينوتور. لم يكن ديدالوس المبتكر والمهندس المعماري والنحات فحسب بل كان أيضاً صانعاً ماهراً واسع الحيلة بارعاً في كل الأعمال. وبفضل دهائه اكتشف مخرجاً.. اتخذ لنفسه ولابنه أجنحة من الريش والشمع وطارا بها بعيداً متجاوزين جدران المتاهة وحواجزها، وحلقا فوق البحر متجهين صوب الغرب. يقول أوفيد يصف لنا فرار الأب وابنه:

«كم من كارثة فتقت أذهاناً عن حيل مبتكرة. أو يمكن أن نعقل أن الإنسان يطير! دايدالوس صف رياشاً في أبرع صورة، شكل منها جناحين كمجدافين، وثبت هذا التكوين الهش بخيوط من تيل، ثم أسال الشمع المذاب على الأطراف لتتماسك، انظر، ما أعجب هذا الإبداع إذا اكتمل بناؤه! غلفت الدهشة وجه إيكاروس إذ أمسك بأجنحة الريش، لم يك يدري أن سوف تشد على كتفيه. وقال أبوه: انظر هاك سفيننا عليها نقلع، نفر بها من مينوس ونعود

إلى أرض جئنا منها. لم يبق لنا غير الأفق ملاذاً بعدما أوصدت في أوجهنا كل الطرقات. خذ صنع يدي هذا واجهد أن تعلو في الجو وستنجح حتماً. لكن حذار من برج العذراء وكوكبة الجبار حامل السيف رفيق راعي الشاء. غض الطرف ولا تتلفت لهما واتبعني بجناحيك إبداع يدي. سأكون القائد والهادي، فلتمض في اثري غير هياب، ولتصلن بإرشادي في أمن كامل. واحذر أن تعلو قرب الشمس. قد ينفد صبر الشمع أمام توهجها، أو تهبط صوب البحر فيبتل الريش بزبد الموج. طر بين الاثنين وخذ حذرك من ريح منطلقة، فإن حملتك الأنسام انشر في التيار جناحيك لتدفعهما»[1].

أخذت نشوة السفر في الفضاء ايكاروس، على الرغم من تحذيرات أبيه، ففي غمرة الفرح والسعادة، نسي نصيحة أبيه، وأخذ يعلو ويعلو بعيداً عن سطح البحر، وظل يرتفع ويرتفع ظناً منه أنه قادر على أن يصل إلى قبة السماء وأن يلمس بيديه جدرانها المضيئة.. اقترب من الشمس.. وذاب الشمع وتفكك الريش وأصاب الوهن ذراعيه، وهوى من عل وهو يصيح.. أبتاه.. أبتاه...، وارتطم جسده بالأمواج المتلاطمة. أما أبوه فقد هبط في صقلية بحرص شديد، وراح يعلم سكان الجزيرة المضيافين ما كان قد مارسه في اليونان من فنون، فازدهرت الجزيرة بما نقل إليها من ثقافة كريت الصناعية والفنية.

أما المينوتور فما برح مقيماً في المتاهة يترقب ضحاياه، وما كان على الملك، والحال هذه، إلا أن يوفر له الطعام.

وشاءت الأقدار أن تقع حرب بين كريت وأثينا الناشئة الفتية، فقهر مينوس بأسطوله أسطول أثينا الحديث العهد، وفرض على الاثينيين جزية قوامها سبع فتيات وسبعة فتيان يقدمونها له كل تسع سنوات، ليرمي بها إلى الوحش طعاماً سائغاً. ففي كل تسع سنين، كنا نسمع نحيب أباء هؤلاء الضحايا

[1] ثروة عكاشة ـ الإغريق بين الأسطورة والإبداع.

الأحداث البائسين وأمهاتهم، ينعون مصير فلذات أكبادهم المروع، ويتألمون مما أنزل بمدينتهم من عار القصاص. فلما حل الموعد الثالث للوفاء بهذه الجزية المذلة عمل تيزيه الوسيم على أن يكون هو نفسه من بين الشبان السبعة، ورضي ايجيوس بذلك على كره منه شديد، فقد قر عزم تيزيه على قتل المينوتور. وبرفقة فتية آخرين نذروا أنفسهم للموت، قصد شواطئ كريت.. أشفقت أريانة (ارياندي ـ أدريدني) على الأمير الأثيني، وأحبت فيه جماله وذكورته، وراحت تخف إلى سجنه تزوره في ظلمة الليل مأخوذة به هائمة بهواه، وصارت خدينته.. وقدمت إليه سيفاً مسحوراً وبكرة خيط، وأوصته أن يثبت البكرة قرب المدخل.

انطلق تيزيه على رأس فتيات أثينا وفتيانها، بعد أن لف على معصمه الخيط الصوفي، حتى وجد الميتوتور فصرعه، ثم عاد أدراجه على هدي من الخيط الذي كان قد حله بعناية، حتى جاء أريانة واصطحبها معه عرفاناً منه بجميلها، إذ آل على نفسه أن يتزوجها إن هو استطاع الفرار من كريت.. ولما وصلا إلى جزيرة نكسوس تزوجها وفاءً بوعده ولكنه مالبث أن غدر بها، إذ أقلع هو ورفاقه من الجزيرة عندما كانت العروس، الحديثة العهد، على سرير الزفاف، تنال قسطاً من الراحة في إغفاءة لذيذة، تاركاً للقدر خليلة أيام طوال وعروس ليلة واحدة.

وعلى شاطئ ناكسوس لقي ديونيسوس، إله الخمر، أريانة الحزينة المقهورة بعد أن هجرها تيزيه، فأعجب بها واتخذها زوجة له، فولدت له الكثير من الأبناء، ثم رفعها بعد موتها، إلى السماء، وصارت الكوكبة المعروفة باسم «الإكليل» هذا ما ترويه، في الأقل واحدة من الأساطير، ففي رواية أخرى نجد أريانة وقد قضت عليها الإلهة ارتيميس بطلب من ديونيسوس الذي أراد التخلص منها.

يختلف مصير الشخوص الأسطوريين تبعاً لشطحات خيال الشعراء ورجال الدين، وطبقاً لما على القصص أن تغرسه في أذهان المؤمنين من دروس وعبر. فإن رأى القصاصون، أنه من الأنسب أن تواسي الآلهة وتكافئ من غُرر بهن من النساء المهجورات تعويضاً لهن لما عانينه من عذاب وآلام، فذلك لكي يتأثر

المستمعون والمستمعات التأثر الحسن، ولكي يحذوا حذوهن. وإن رأى الرواة أن من الملائم وصف من خدع الرجال من النساء واغتصبوهن وغدروا بهن وصفاً دقيقاً فذلك لأن أشد خدع الأبطال صفاقة، وأبلغها أذى، لن تمس، لا من قريب ولا من بعيد، شهرة هؤلاء الأبطال وسمعتهم الراسخة الأركان في المأثور والموروث. فمهما بلغت خسة أعمال هؤلاء العظام، فإنها أعمال حميدة أبداً، أو أنها، في الأقل، مما يمكن الصفح عنه وتبريره، ومادامت منزلتهم تسمو بهم، بوصفهم أبطالاً، فوق البشر جميعاً، فإن عجزهم لن ينال، في كل حال، من عظمتهم وجلالهم. وقد لعب ما أسبغه الإغريق من سعة العقل على حركات الرجال والنساء وسكناتهم دوراً حاسماً في أساطيرهم، ووسم، بقوة، عادات هذا الشعب المتعدد الألوان وتقاليده، إذ وصفه أفلاطون بقوله: «لقد نزلنا في شواطئ البحر كما تنزل الضفادع حول بركة ماء».

وقد كان هؤلاء الإغريق جميعاً: سكان شبه الجزيرة، وسواحل آسيا الصغرى، وصقلية وإيطاليا وجزر بحر إيجه الكثيرة العدد، يرون في سلوك الآلهة وأنصاف الآلهة وأبطال أساطيرهم وفي طريقة حياتهم وموتهم، مثالاً يحتذى وقدوة تنتظم وفقها عاداتهم وتقاليدهم. فنسبوا إلى الآلة التي يعبدون فضائل ومثالب إنسانية، لذلك فقد فهموها وأحبوا أن يسلكوا سلوكها. وهم لكي يزيدوا في بهاء صورتهم الذاتية وسناها، عزوا إلى الإنسان صفات الآلهة وملامحها، ليتردد، من ثم صداها في شخصهم هم، فجاءت حياتهم وحبهم وكراهيتهم صورة، طبق الأصل، عما أضفوه على الآلهة من حب وكراهية وما منحوه لها من حياة. ثم انهم نقلوا إلى قصص منشئهم عداوات الأزمان الغابرة وأحكامهم المسبقة لكي يمنحوا مشاعر حقدهم الدفينة حريتها ويطلقوا العنان لها. وعليه فقد قدر الأثينيون، إذ فرض مينوس على أسلافهم التضحية بأبنائهم وبناتهم، أسطورة الأميرة الكريتية فيدرا، التي تزوجت تيسيوس بعد أن هجر أختها أريانة، ثم ان فيدرا، الشبيهة بأمها باسيفاي التي هامت، فيما مضى، بالثور

المقدس فاستوقد الوجه ضلوعها، قد كلفت هي الأخرى، بابن زوجها هيبوليت (هيبوليتوس) وتدلهت به فضرم الحب أنفاسها، وقد رأى الأثينيون في ذلك عقاباً عادلاً نزل بتيسيوس إذ اقترن بفتاة من أعداء مدينتهم، أما الأب المطعون في شرفه الزوجي، فقد توجه إلى بوسيدون يرجوه هلاك ابنه، فانبجس على الفور، من أمواج اليم، ثور دب الرعب والفزع في جياد هيبوليت، فهاجت وانطلقت تعدو تجر وراءها جثة هيبوليت. غير أن الحقيقة لم تلبث أن تكشفت، وظهرت براءة هيبوليت فانتحرت فيدرا. وهكذا فإن حالة زوجة الأب التي لم يستجب ابن زوجها لهواها كحال زوجها العمه الذي اتهم، باطلاً، ابنه البرئ، إذ خفي عليه ماكان يستوحف فؤاد زوجه المذنبة من شبق مجنون.

كان للعلاقات بين الرجال والنساء وبين الآباء والأبناء والاخوة والأخوات الدور الرئيس والأهم في عقائد القبائل التي اكتسحت الأرض الإغريقية عنوة، أو تلك التي استوطنت فيها بسلام. وقد اتحد قادة هذي القبائل من الملوك ورجال الدين، واشتركوا معاً في الإيمان بأسطورة الخلق هذه، إذ أدخلوا عليها أهم ما فيها، فامتزج ما أدخلوه، في نسيج واحد، مع صور الشعب الهليني الأسبق الدينية. فمن عماء فراغ كان يغشى العالم ومن خواء لا حدود له خرجت الأرض ذات الأثداء الواسعة العريضة وخرج معها ايروس. «الأجمل بين الخالدين قاطبة»، سيد فكر الآلهة وبني البشر وسلطان قلوبهم جميعاً.

في البدء كانت الرغبة. وأورانوس، قوة التناسل السماوية، ذلك الأفق اللازوردي الشاهق اللامتناهي، لم يستطع كبح جماح ما اعتراه من رغبة في الجماع. وما كان من جيا، الأرض، إلا أن تستسلم بدورها لنداوته الدافئة وإغرائها، وفتحت نفسها تحتضن عناقه المستعر وتودعه في داخلها، فولدت، إذ لقحت، «قوت الحيوان ورغيف الإنسان»، وولدت معهم التيتانوس ـ أولئك الذين اشتق اسمهم من الفعل «انتصب» الذي يوحي بقضيب الذكورة المنتصب ـ والسيكلوب ذوي العين الواحدة، والعمالقة ذوي المائة ذراع الذي تتجسد فيهم

القوى الطبيعية، فأقلقوا بقوتهم أورانوس الذي سارع فألقى بهم في أعمق أعماق الأرض، في وهدة تارتاروس، ووضع الأغلال في أعناقهم تحرزاً مما يمكن أن يدهمه من أخطار، لكن جيا، الأم الحنون، ضاقت ذرعاً بتصرفات أورانوس، الأب، الذي لم يبال، في يوم من الأيام، بما كانت تكابده من حزن وشقاء، فنزلت بنفسها، بعد أن يئست من استرحام زوجها، إلى وهدة تارتاروس، وراحت تحرض أبناءها على الثورة لتنال ممن حشر نسلها في أحشائها ملحقاً الضرر بها متسبباً في أذيتها. رفض الجميع دعوتها باستثناء واحد منهم، إنه أصغر أبنائها كرونوس المتكتم، فقد ثارت ثائرته وأعلن عن استعداده لمد يد العون لها، مصمماً على الانتقام من والده وانتزاع صولجان الملك منه.

أطلقت الأم سراحه وسلحته بمنجل رهيف، وزودته بنصائحها وأرسلته ليضع حداً لجبروت أبيه. راح كرونس، الزمن، يترصد أباه في عتمة الليل، ويحصي عليه غدواته وروحاته، إلى أن حانت ساعة الثأر، وذلك حين كان أورانوس يستعد لافتراش الأرض جيا في عناق ليلي لذيذ. خرج كرونوس من مكمنه وعاجل أباه بطعنة قاتلة بترت مذاكيره العملاقة فتناولها كرونوس وقذف بها خلفه. فاضت دماء أورانوس على وجه الأرض، غزيرة مثل مياه جدول منحدر المجرى، فنفذت إلى جوفها وأخصبتها في لقاء وداعي أخير، فولدت إلهات الانتقام والعمالقة وجميع شياطين الشر. أما قضيب أورانوس فقد سقط في مياه البحر وهو ينزف، ومن زبد نطفه الإلهي الأبيض خرجت أفروديت إلهة الحب والجمال.

لم تَرُقْ أسطورة «ولادة أفروديت من دون أم» لكل الكهنة والكاهنات الذين كانوا يقدمون الأضحيات في المعابد إلى الإلهة المولودة من زبد البحر التي كانت «ملكاً للشعب كله». وهذا ما دفعهم إلى تخصيص هذه الإلهة، التي تستثير شهوات الرجال والنساء الجنسية وتوحد فيما بينهم، بأصل أجمل يليق بها. وأفروديت هذه لم تكن وليدة بذار عضو مبتور. وإنما جاءت من التحلد لذيذ

وسعيد يليق بسحرها السماوي، وعليه فقد اشتهرت بوصفها ابنة ديونة بنت تيتان الأوقيانوس، الذي احتضن الأرض بمياهه ولججه، صحيح أن أفروديت مولودة من زبد الأمواج، لكن أباها ليس أورانوس بل هو زيوس الابن الأصغر لكرونوس الذي أحب ديونه حباً رقيقاً.

لما يولد زيوس بعدُ عندما خصى كرونوس أباه أورانوس وانتزع منه سلطانه المطلق. اتخذ كرونوس غب انتصاره أخته ريا زوجة له فأنجبا خمسة أبناء: ثلاث فتيات: هستيا وديميتر وهيرا، وولدين هما: هاريس وبوزيدون، لكن كرونوس كان يخشى أبناءه وبناته، ذلك أن أمه جايا وأباه أورانوس أنبآه بأن أولاده سيجردونه من امتيازاته، ولكي يفلت من المصير الذي فرضه هو نفسه على أبيه، إلتهم كرونوس أبناءه، لكن ريا التي حملت منه من جديد أرادت إنقاذ وليدها الأخير، فقدمت لزوجها وأخيها الفظ الغليظ القلب بدل المولود الجديد حجراً ملفوفاً بالأقمطة، أسوة بالإلهة الكريتية الأم، فابتلعه.

وترعرع زيوس سراً في المغارة، ثم أكره كرونوس على لفظ ما ابتلع من الأخوة والأخوات، وعلى التخلي عن سيادة العالم والتنحي عن العرش. وقام زيوس بما قام به أبوه. وتزوج هو أيضاً باخته هيرا التي كان لها معه علاقات جنسية قبل الزواج. و لم تصبح هيرا حامية الزواج فحسب، بل غدت أيضاً حارسة للعشاق الذين لا ينتظرون احتفالات الزواج الرسمية لينعموا قبل الزواج بملذات الحب، فما من أحد كان يطعن في سلوك هيرا بوصفها أختاً لزوجها، ويعيب انخراطها معه في علاقات جنسية استوجبت الذم والاستنكار في زمن لاحق. وراحت الألسن تلهج بالثناء عليها، بوصفها مثالاً للزوجات، والمحققة لآمال العذارى. كانت غيرتها الحادة وسورات غضبها، التي تستثيرها انحرافات زوجها، إنسانية، بل إنسانية بإفراط. فلماذا لا تثابر إلهة الزواج على مراقبة إخلاص زوجها الإله ووفائه للروابط الزوجية حتى لو لم تنجح هي في أن تضمن ذلك لنفسها؟

كان زيوس أبو الآلهة، ورب الأولمب ـ مقر إقامته السماوي الحريز على بني البشر ـ وسيده بلا منازع، قد احتفظ بالأولمب لنفسه عندما اقتسم العالم مع أخويه مانحاً بوزيدون مملكة البحار، وهاديس جوف الأرض (العالم السفلي)، ومد الأخوان يد العون لأخيهما في صراعه ضد كرونوس والتيتان، دون أن ينازعانه، جراء عونهما، هيمنته على الأولمب، ومنحهما بدوره حرية التصرف بمملكتهما شريطة ألا تتعارض سلطاتهما مع أهدافه ومخططاته، أما دميتر أخته «أم الأرض» فقد وهبته جسدها، أسوة بجيا، وأنجبت منه ابنة اسمها برسفوني اتخذها هاديس زوجة له واصطحبها معه إلى الجحيم بموافقة كبير الآلهة، شريطة ألا تتجاوز إقامتها في كل عام ثلاثة أشهر ذلك لأن دميتر ستحجم عن تدبير شؤون الانتاش الربيعي إن لم تغادر العالم السفلي. أما الأخ الثالث بوزيدون فقد غازل بدوره دميتر وطارحها الغرام، واتخذ شكل حصان فحل ليبني بها بعد أن اتخذت لهذه المناسبة شكل فرس.

كانت حياة العشق بين الآلهة أخوة وأخوات نشطة وفعالة، مثلها في ذلك كمثل حياة بني البشر الغرامية على الأرض، أولئك الذين كانوا يؤمنون بهذه الآلهة والآلهات، ويسرون بالاقتداء بمجونها وتهتكها ليستسلموا بدورهم لغرائزهم الخاصة في كل مناسبة.

وحدها هستيا، إلاهة النار والمأوى الزوجي، لم تنجر وراء المغامرات الغرامية فكانت «العذراء السماوية» التي تأبت على المتع الجسدية لتنجز دونما موانع مهامها الأسرية. وكانت الفتيات العوانس على الأرض ينذرن لها (يخصصنها) بحنان لا يعرف الحدود، وود شديد التسامح: «إن هناك في الأولمب أيضاً كائناً أنثوياً محروماً من إلفه».

كان زيوس، بالنسبة لسكان اليونان قاطبة، المثال الذي لا يضاهى، فهو الذي يدير شؤون مملكته وما عليها من آلهة وبشر بحكمة ورجاحة عقل، وهو الذي يدين له الكون بنظامه الأخلاقي. وكان بوصفه الحامي للأسرة، لا يرضى

إلا بإكرام الأبناء للآباء، ولا يسكت عن نكران الابن لأبيه. وكان يحمي الغريب، والمنفي، إذا ما حل في أرض غريبة، يتذرع باسمه طلباً للضيافة، قوته وإقدامه لا نظير لهما، بيد أنه لا يشكو إلا من ضعف واحد: الحب، ولا يجبن إلا خوفاً من زوجه، فقد كان عليه أن يقف إلى جانب زوجه هيرا لإنقاذ الزواج وحمايته، ولكنه، خلافاً لذلك، كان يخون رسالته في كل فرصة سانحة، بل كان يتفنن على الدوام في خلق فرص جديدة إرواءً لعطشه الصدي للحب.

افتتن زيوس، قبل اقترانه بهيرا، بجمال ميتيس الحكيمة ابنة التيتان (المردة) فحاولت عبثاً الإفلات منه بتحولاتها العديدة والمتنوعة، لكنه نجح في امتلاكها على غرة، وعندما حملت تنبأت جيا لحفيدها زيوس ان أبناء ميتيس سيسلبونه سلطانه كما فعل هو نفسه مع كرونوس. فابتلع زيوس عشيقته الحامل وابتلع معها حكمتها، لكن النطفة التي أخصبت رحم ميتيس كبرت في زيوس فتعاظمت وتاقت إلى الحياة، مما اضطر زيوس إلى شق جمجمته لتأتي إلى العالم أثينا إلهة الحكمة.

ولكن هذه العملية المؤلمة لم تثن زيوس عن عزمه و لم تثبط همته، بل راح يطارد نساء السماء بدون كلل. ففتن تيميس، أخت أبيه، وبنى بها، فولدت له الحوريات (HORES) آلهات الفصول. وخادن منيموسينا التي أنجبت له ربات الفنون السبع «MUSES» ومن ليتو «LETO» أيضاً كان له توأمان: أبولو إله الشمس، وأرتيميس إلهة الصيد.

أما هيرا فقد منحت هذا الزوج المتقلب المزاج والعاطفة بنتين وصبيين: البكر أريس إله الحرب، الذي نعته دعاة السلام تحقيراً في وقت متأخر «ملتهم البشر»، والابن الثاني الأعرج هيفايستوس، الذي اكتسب شهرة واسعة لمهارته في صناعة المعادن وسبكها وتنفيذ كل أنواع الحدادة، وطرق سيوف الآلهة والبشر ودروعهم وخوذهم على سندانه.

كانت ايليثيا الابنة البكر تساعد أمها هيرا في تخفيف آلام مخاض نساء الأرض، وتعمل على تسريع ولادتهن، في حين كانت أختها الصغرى هيبة Hébé تخدم الآلهة على موائدهم وتسقيهم شراب الخلود وطعامه. وافتتن زيوس، في وقت لاحق، بالمراهق الجميل غانيميد «GANYMIDE»، فاقتاده إلى الأولمب ليروي بهذه الطريقة أيضاً رغباته الجنسية التي لا ترتوي. وكان على هيبه أن تقتسم وغانيميد الساقي مهمتها في خدمة الآلهة على موائدهم.

وفي واحدة من جولات زيوس العديدة في الأرض، أخصب زيوس حورية الجبال مايا MAIA، فولدت في أحد الكهوف ابناً دعته هرمس «Hermés» للتذكير بكومة الحجارة التي استخدمتها مهداً له. وأظهر ابن الآلهة المبكار هذا منذ نعومة أظفاره براعته وكفاءته في المواقف مهما بلغ شأوها. وقد بلغت كفاءته من الكثرة حتى إنا لنرى فيه إلهاً للتجارة والرعاة والعابرين والمسافرين. إن حذاءيه المجنحين المثبتين في عقبيه يدللان عليه بوصفه السريع «رسول الآلهة»، يعمل على خدمة أبيه وإخوته وأخواته. كان إلهاً عطوفاً يهب البشر النوم العميق والأحلام اللذيذة، ولكن على المحيطين به الاحتراز من أصابعه الرشيقة السريعة في اختلاس الأشياء التي يرغب. كان يعشق الطيران ويتلذذ بخداع محدثه بعباراته المعسولة والحاذقة ويستفيد من إضراره بالآخرين. كان يحمي من كان على شاكلته من البشر، لكنه كان يعمل على تنمية مشاريع أولئك الذين كانوا ينصبون له التماثيل ويعمل على إنجاحها، وتماثيله كانت عبارة عن أعمدة حجرية مربعة الزوايا بلا ساقين ولا ذراعين، يتوجها رأس رجل ملتحٍ ويتوسطها عضو الذكورة المنتصب. ومن يمتلك هرمساً هذه صفته يعلن لكل غادٍ بأنه سيكون، في حقله وميدانه، السيد بلا منازع، بفضل حارس كحارسه هذا الذي سيعاقب دونما شفقة كل من تسول له نفسه أن يمس أملاكه أو امتيازات فحولته.

ومن مخيلة الإغريق المتوثبة انبثقت الكثرة الكثيرة من آلهة الأولمب، التي زاد زيوس في عددها جراء مغامراته العاطفية مع بني البشر الفانين. فمنحوا ما كانوا

يلحظونه من ظواهر طبيعية مبهمة وما يصدر عنهم من نزوات لا يمكن تفسيرها أسماءً إلهية. وكانوا يصوغون الآلهة ويفصِّلونها على صورة البشر. فكان عالم آلهتهم كما أرادوه هم ورغبوه. وانطلاقاً من هذا الواقع كانوا يشعرون باتحادهم مع هذا العالم الذي يوفر لهم الأشياء وفق رغباتهم. ولكي يبرروا حبهم الجامح للحياة وحاجتهم النهمة للملذات كانوا يهبون آلهتهم مسرات الوجود وشهوانية كانوا يتمنونها لأنفسهم: كانت حياة آلهتهم انعكاساً لأحلامهم.

كانت القبائل الإغريقية جميعها تعتمد تقاليد قديمة، جعلت منهم، على الرغم من تعدد الأمهات، ذرية لزيوس. إن قدرة الإغريقي على التباهي هكذا بالأصل السماوي، وعلى اشتقاق اسمه الشخصي من أسماء أنصاف الآلهة. وعلى أنه الوليد المباشر أو غير المباشر لزيوس، كانت تدغدغ حواس الإغريق جميعاً وترضي حب الذات في جبلة كل واحد منهم.

كان الإغريق فخورين بوصفهم ذراري هجينة وأبناء زنا الآلهة والأبطال. فكانوا جراء ذلك لا يتورعون عن أن يتصرفوا تصرف أسلافهم المقيمين في السماء، وسواء أكان ذلك بالمباغته أم بالحيلة والخداع وهذا أفضل، راح الرجال يجعلون من النساء أو الفتيات اللائي حملتهم الصدفة على ملاقاتهن، أمهات لذريتهم غير الشرعية.

إن قصة اريكتونيوس، ملك الأثينيين الأسطوري، تشهد على أهمية الإيمان بأصل إلهي. ذات يوم ذهبت أثينا لملاقاة هيفايستوس ليضع لها لأمتها (عدة المحارب). وبينما كانا يتبادلان بضع عبارات تملكت هيفايستوس رغبة جامحة لامتلاك أثينا. فولت أثينا الأدبار، فطاردها وأوشك على اغتصابها. لكن أثينا دفعته بعيداً عنها فتفجر منيه على ساقها. وباشمئزاز وقرف مسحت الإلهة بسبيخة من صوف ما علق بها ورمت بالسبيخة الملوثة على الأرض، ومن هذا المني الساقط على الأرض ولد اريكتونيوس الذي ربته أثينا سراً لأنها أرادت أن تجعل منه ملكاً خالداً على المدينة التي خصَّته بها.

والأغرب منها أسطورة أغديتيس. لقد حدث لزيوس أن احتلم فقذف بمنيه ليسيل حتى يبلغ الأرض، فولد كائناً بأعضاء جنسية مذكرة ومؤنثة. هذا الكائن الخنثى (الثنائي الجنس) كان أغديتيس. لكنه ماعتم أن صار أنثى بعد أن استأصلت الآلهة أعضاء ذكورته، كان الفريجيون سكان آسيا الصغرى يعبدون اغديتيس أو سيبيل، «الأم الكبرى». فمن أعضائه المبتورة انبعثت شجرة لوز تحمل ثماراً. ونانا، ابنة الإله ـ النهر، كانت تخفي حبات لوز هذه الشجرة بين نهديها، تحت صدارها، فتلقحت بها. واجتاح اغديتيس ــ سيبيل حبٌ جارف تيمها بأتيس، الابن الذي ولدته نانا، فأقلقت فكر الفتى الجميل، الذي كان على وشك الزواج بأميرة، وبلبلت لبه إلى حد دفعه إلى إخصاء نفسه. وتوسلت أغديتيس إلى أبيها زيوس ليعيد إليها عشيقها ولكن دونما جدوى.. إنما زيوس وعدها بأن جسد الفتى، الذي نزف جراء جرحه ففقد كل دمه، لن يفسد أبداً وسيبقى لها خنصره حياً ليتحرك كرمى لها، ولكن مغامرة أبي الآلهة التي يستذكرها اليونانيون بسرور عظيم هي مغامرة «الليالي الثلاث» التي أمضاها مع ألكمين، زوجة الملك أمفيتريون، بعد أن اتسم بسمات أمفيتريون الغائب وملامحه. هل ألكمين الجميلة مذنبة زانية على الرغم من جهلها أن عاشق الليالي الثلاث، الذي لا يكل ولا يمل وشبيه زوجها في كل نأمة وحركة وصورة هو شخص آخر؟ هل كان لها أن تحزر أنه من المحال على أي فان كان أن يحب كما أحبها زيوس؟ ويمتدح البشر أمفيتريون لصفحه عن زوجته الخائنة دون علمها. وتحلم النسوة بعشق فيه لبس وإبهام مثل عشق ألكمين. إنما الكمين سلكت ما يتوجب على كل امرأة شريفة أن تسلكه، ذلك لأنها إن لم تهب جسدها لزيوس عندما شاركها فراش الزوجية بوصفه زوجها الشرعي، فإنها ستكون بذلك مقصرة في واجباتها الزوجية تقصيراً خطيراً.

كان لابد لليالي الغريبة هذه من أن تنجب شخصاً غريب الأطوار: هرقل (هيراكلس). وكان نصف الإله هذا الذي عانى آلام البشر وأنجز مهاماً تفوق

قدراتهم وطاقاتهم، معبود الإغريق، فخصّوه باثني عشر عملاً أسطورياً برهنت تفاصيلها المتجددة على الدوام ان قوته لاتقهر، وإن دهاءه لا حدود له. لكن هذه الأعمال في الواقع تمثل أساس النشاط الإنساني وجوهره: تحويل مجاري المياه وينابيعها، وتجفيف التربة واستصلاحها، وإبادة الوحوش الخطرة المقيمة في الغابات. وهكذا تعزوا القبائل اليونانية إلى هرقل، السلف الغابر المزعوم للعديد منها، أعمالاً أنجزتها تلك القبائل نفسها عبر العصور المغرقة في القدم.

وعلى الرغم من استدعاء زيوس هرقل (نصف الإله) للعيش في الأولمب في أواخر حياة عاشها عبر أشغال مضنية، فإن هرقل أحب وتألم كما يحب البشر ويتألمون. إن أي إنسان، مهما بلغ شأنه في القوة والدهاء، سيجد نفسه ضائعاً تائهاً أعزل السلاح لا حول له ولا قوة، ما أن يستعبده هوى مجنون لامرأة. وكان هرمس قد باع هرقل لأومفال ملكة ليديا بناء على أمر من أبيه زيوس لامتهانه حرمة معبد أبولو. وتنعَّم برعاية أومفال إلى حد تخليه عن كبرياء الرجال في سبيل إرواء رغباته الجنسية، في الليل كان الإلف الملاطف الذي يرضي عشيقته ويسعدها، وفي النهار كان يغزل بمغزله كما المرأة، كان الخرع والرخو والمخنث في ثيابه الأنثوية. سنة بكاملها ذهبت هباء ليضحي بها كرمى لشهوات امرأة ومفاتنها من دون أن يخطر ببال أحد أن يتهمه بخيانة الرجولة، ألم يكن هو دون غيره الذي فض في واحدة من مغامراته، بكارة خمسين عذراء في أسبوع واحد؟

كانت أخلاق الإغريق الجنسية، نساء ورجالاً، رخوة ومتوانية، مثلهم في ذلك كمثل أخلاق آلهة الأولمب الجنسية، فالكل لا يخضعون إلا لنزواتهم ورغباتهم.

عدد من ذوي الاختصاص يرجعون مصدر عقيدة الإغريق هذه في عشقهم للحياة وولعهم بالمتع إلى شعيرة الموتى التي لم تفرض على الرجال والنساء إلا ما قل من المحظورات لتسمح لهم، في المقابل، بكل أنواع التهتك والفجور. وتؤكد الحفريات ان المأوى الذي دفن في أسفله الأموات في وضعية القرفصاء، صار

مذبحاً مقدساً، حوله يجتمع أقرباء الميت من الأبناء والبنات والأحفاد وأحفاد الأحفاد، للاحتفاء بذكراه، تكريساً لتهدئة روح الأجداد وإسعادها بالأضحيات والصلوات، فهم القادرون، إن أرادوا، على صنع الخير أو الشر للأحياء. وفي هذه الاحتفالات الورعة يمتدحون بإفراط مزايا الأموات، فيغدو المتوفيّ من المحاربين البسطاء بطلاً مغواراً، ويجعلون نفاذ بصيرة فلان فوق الطبيعة ولم يكن في حقيقة أمره إلا من متوسطي الذكاء والفطنة، إن مثل هذه المبالغات التي لم تصدر إلا عن قلوب غلبها التأثر والانفعال، تسببت في منافسات جدية دارت بين القبائل والأسر. فكل منها كانت تعمل على تأكيد أفضلية أسلافها وتفوقهم، ومع انتقال التقليد من جيل إلى جيل كانت تنضاف إلى مزية الخلف واستحقاقاته مفاخر جديدة تجعل من الأسلاف المرحومين آلهة تحمي القبائل والأسر.

زد على ذلك ان هذه الأسر والقبائل قد توحدت فيما بينها واندمجت، مما أدى إلى اعتراف السكان أجمعين بالأغلبية العظمى من الآلهة، على الرغم من احتلافهم في تقدير شأنها. وكانت القرابة لزيوس، القريبة منها أو البعيدة، او لما أنجب هذا الإله من أبناء وبنات، هي التي تحدد المكانة التي يمنحها كل فرد إلى هذا البطل أو ذاك من أنصاف الآلهة، ويتمنى تأكيد انتسابه إليها.

ولكن تقاليد الإغريق وعاداتهم لم يملها إيمانهم بآلهة الأولمب العظام أو بذراريهم، ذلك ان للإغريق حساً فنياً استثنائياً وموهبة استمتاع مدهشة بالاستعراضات التي كانت تقدم لهم. فلم يقنعوا بالنهوض بكافة القوى التي تتجلى في المشاهد الرائعة إلى مصاف الآلهة فحسب، بل راحوا يقدسون أيضاً أدق المظاهر وأرقها. فكرسوا شعيرة، ليس للقوى الكبرى فحسب، بل للتافه من الأماني أيضاً. ان كل ماتدركه حواسهم وكل ما يثيرهم أو ينفرهم، يبدو لهم حياً بفعل نسمة فوق طبيعية، فاستشعروا ان هناك تحتها روحاً طيبة ومخلوقاً سماوياً محسناً أو شيطاناً رجيماً مقلقاً أو وحشاً بحرياً غداراً. وحول هذه الظواهر التي اختبرها

الإغريق أو ارتابوا بنعمها وأخطارها، نُسجت الخرافات والأساطير. لتتردد هذه التقاليد على شكل أمثال سائرة أو تنتشر عبر صيغ وتضرعات سحرية.

كانت الآلهة عند الأغلبية العظمى حليفة للحيوانات، تتجسد فيها أو تتقاسم معها هذه أو تلك من المزايا، وهكذا سميت هيرا «تلك التي لها عينا بقرة» واشتهرت البومة بوصفها شعاراً لـ بالاس أثينا. أما رموز التناسل، التيس والجدي فقد كرسا لأفروديت إلهة الحب والمتعة، إضافة إلى الأرنب لكفاءته في التزاوج السريع، وعصافير الدوري التي تتقاتل حباً دونما انقطاع، والحمامة التي سماها الإغريق، بعد تعرفهم على عبادات آسيا الصغرى، عصفور عشتار الإلهة الغريبة التي تشبه إلى حد ما أفروديت. وفي مغامراته العاطفية انتحل زيوس بطيب خاطر مظاهر ثور، وبغية سفادها، كان يحوِّل موضوع رغباته إلى بقرة. ومع ليدا (Léda)، زوجة الملك تاندار، اتحد زيوس بها تحت هيئة بجعة. وباضت ليدا بيوضاً خرجت منها هيلين الجميلة وكليتمنسترا والديوسكير: كاستور وبوليكس. وكانت مذابح أفروديت تزين بالآس والريحان، ويلقى على أرضها بالتفاح، فإن قدم أحد العشاق تفاحة أفروديت إلى إحدى الصبايا فهذا "يوازي طلباً بالزواج: «إني أرمي إليك بهذه التفاحة، فإن أردت محبتي، تناوليها وامنحيني بكارتك، وإن لم ترغبي، خذي التفاحة، لتعلمي لكم الصبا سريع الزوال».

حتى زيوس نفسه كان خاضعاً لجميل أفروديت، ولو كان خضوعه هذا خضوعاً غير مباشر. فإن لم تنعم إلهة الحب على المرأة المشتهاة بلمسة من السحر المثير، فإن أبا الآلهة لا يستسيغ حباً يعوزه السحر. كان لأفروديت حزاماً ثميناً يخفي بين طياته رعشات اللذة بكل صورها، وتوقد الشهوانية ونهمها. وعندما تحلت هيرا بكل ما في الصبا والجمال من محاسن، وهبت نفسها لزيوس، ولكنه لم يشته جسدها ولم يطمع بها إلا عندما أعارت أفروديت زوجة أبيها هذا النطاق «طلسم الحب والرغبة آسر قلوب الآلهة الخالدات والبشر الفانين» وافتتن

زيوس أيما افتتان وخضع ايما خضوع لسحر هيرا التي اتحد بها بشغف شديد أنساه الكون وما عليه.

كانت أفروديت معبودة، ليس بوصفها إلهة الحب فحسب، بل بوصفها ربة الجمال الأنثوي أيضاً. لقد كان جسمها بالغ الروعة إلى حد تشييد معبد خاص له قُدِّم هدية للإلهة «ذات العجيزة الرائعة» وبنى هذا المعبد لأفروديت «حسنة الكفل» أختان اثنتان لأنهما تدينان بسعادتهما الزوجية لجمال استدارة مؤخرتيهما عطية الإلهة أفروديت وهبة منها.

كان الجامل من الكهنة والشعراء يروي بسرور قصة زنا أفروديت، زوجة الأعرج هيفايستوس، لمواساة النساء والتأثير فيهن تأثيراً حسناً أو لتثقيفهن، لقد كن نساء مرغوبات ولكنهن كن أيضاً محرومات من متع العلاقات الزوجية ولذائذها، إما لأن أزواجهن لايلبون حاجاتهن وإما لقصور جسدي في جبلة هؤلاء الأزواج. إن مسؤولية إخفاق هذا الزواج المبرم في السماء، لا تقع على أفروديت وحدها، ذلك لأن تهالك حداد الآلهة المتطرف في عمله، على حساب همته الزوجية، رأى فيه الكثيرون المسؤول الأول عما آلت إليه حال أفروديت. فلو أنه خصص لزوجه من الوقت والاهتمام ما يرضيها لضربت صفحاً عن ساقي هيفايستوس المعوجتين ولتغاضت عن وجهه الذي دهمه السخام لتنظر بعين الرضى إلى سعة صدره وجبروت ساعديه. لكن هيفايستوس صرف كل اهتمامه في عمله ولم يكترث بزوجته العطشى للحب. في حين كان لأريس إله الحرب من فراغ وقت كان الصانع المجهد يشغله في صنع أسلحة أريس. اغتنم أريس وحدة أخته ووحشتها وراح يخطب ودها ويطارحها الهوى. فأهاجت رغبة آريس شهوة أفروديت، وصارا زوجين يلتقيان في الخفاء، وارتسمت مباهج الحب وطيباته جمالاً وحسناً على أفروديت إلى درجة أثارت دهشة آلهة الأولمب، في حين كان الزوج المخدوع آخر من يعلم. ومع ذلك فإنه لما أدرك مصيبته عزم على الثأر منهما، لكنه لم يسلك سلوك رجل شريف من البشر اكتشف مهانته،

بل كان يُدخل في روع الآخرين أنه جاهل بما يدور حوله وراح يتحين الفرص لضبط الأخ وأخته وهما يرتكبان عملهما المشين، ولينزع عنهما القناع جهاراً وعلى رؤوس الأشهاد، بالمعنى الحقيقي للكلمة، ومن أجل هذا الغرض صنع شباكاً غاية في الدقة. وفي لحظة عناقهما الحميم أطبق بشبكته على العاشقين بقوة، وأحكم قبضته عليهما فلم يستطيعا الفكاك أحدهما عن الآخر، وسعى في طلب آلهة الأولمب جميعاً لكي يهزأوا من العاشقين وهما في هذه «الوضعية المثيرة للسخرية». لم تسخر آلهة الأولمب من آريس وأفروديت وإنما من هيفايستوس الذي عرض بوقاحة ورعونه بلايا حياته الزوجية، حتى إن أبولو الذي لم يحتقر متع الهوى، راح يسأل بخبث رسول الآلهة: «أي هرمس، أنت ابن زيوس ومراسله، وموزع الجميل من الأشياء، أيروق لك أن تكون هكذا مكبلاً بقوة وترقد في مضجع أفروديت الذهبية؟» فأجابه رسول الآلهة السريع، وهو لم يكذب القول هذه المرة: «أيا! حبذا لو يتحقق ذلك.. حتى لو قيدتني شباك لا نهاية لها تفوق تلك ثلاث مرات، حتى لو كنتم جميعاً آلهة وآلهات ترنون إلي، نعم لكم أشتهي أن أنام مع أفروديت الذهبية». إن إطراء كهذا لابد من أن يشجع الإلهة ويدفعها بقوة إلا الاستسلام لملذات الحب. فاستجابت لهرمس ولبت رغبة أطلقها العاشق بصراحة لا لبس فيها. وتولهت بأدونيس، المراهق الجميل، مثلما شغفت عشتار بتموز، وتمتعت بملذات أدونيس الجسدية العذبة طوال فصلي الربيع والصيف، وأراحها أدونيس العذب من غزوات عشيقها آريس وعنف فحولته، لكن إله الحرب الغيور تحول إلى خنزير بري وقتل أدونيس، وبات لزاماً على أدونيس اللحاق بالعالم السفلي، فراحت بيرسفوني تنازع أختها على هذا الحبيب الفتان. ورفعت الأختان شكواهما إلى أبيهما زيوس، وزيوس بدوره شاء ألا يرفض لكل منهما طلبها موضوع أمنيتهما، وعليه فقد قرر أن على أدونيس من الآن فصاعداً أن يمضي نصف سنة (ستة اشهر) عند بيرسيفوني، وأن يصعد في النصف الآخر من السنة إلى أفروديت لكي يسعدها

ويثلج صدرها وصدور النساء اليونانيات اللائي ينذرن لـه الزهـور في نهايـة كـل صيف ويرثين موته القادم، وفي الربيع ينتظرن أوبته بحنين.

وفي سبيل البرهان على أنها توزع ملذاتها ومسراتها على الرجـال والنسـاء بعدل وإنصاف ولدت أفروديت لعشيقها هرمس مولوداً ذكراً وأنثى في آن معاً، وأطلقـت علـى هـذا الكـائن الثنـائي الجنـس اسمـاً يحمـل اسمـي الأب والأم معـاً: هيرمافروديـت، وكان لهذا اليافع أعضاء جنسية مذكـرة ولكنـه في الوقـت نفسـه يتمتع بنهدين رائعين يستحثان على المداعبة، وقد بلغت شعبيته حد إقامة تماثيل له في كل مكان، إنه المعبود بوصفه صورة للثنائية التامة المتكاملة. وتكشف الخنـاث رمزياً عن حقيقة يعوزها حتى الآن الأساس العلمي، لكننا نستشعرها وندركهـا: يحمل الرجال والنساء جميعاً خصـائص الجنـس المقـابل وعندمـا يمتزجـان في اتحـاد جسدي يجد كلا الجنسين نفسيهما من جديـد، وفي رحـم الأم يتحـد الاثنـان في وحدة واحدة، والـولادة وحدهـا هـي الـتي تقـرر إلى أي جنـس ينتسـب المولـود الحديث الولادة، إن نداء خفياً يدعونا حال الولادة، ومـن الآن فصـاعداً، لنصبـو طوال حياتنا إلى الجنس الآخر، وهكذا فإن المخنث بالنسبة للرجال والنساء علـى السواء هو دعوة خفية إلى مراعاة النظام: على الجميع ألا ينسوا أن كل فرد منهم يحمل في ذاته خصـائص جنسية مذكـرة ومؤنثـة، الجسـدية منهـا والمعنويـة، وأن أحاسيس الرجال والنساء أحاسيس قابلة للتبادل.

أثمرت علاقات أفروديت الغرامية اللاهية فولدت من أريس إيروس، الصـبي المجنح «الذي يخترق بسهامه قلوب البشر والآلهة معاً». صحيح أن ايروس «كـان موجوداً من زمان» إلا أن عناق أريس لأفروديت بعاطفته المشبوبة نبهته، وهو في أحشاء أمه، إلى شكل جديد من أشكال الحياة. ومنذ ذلـك الحـين لم يـرض قـط بتشجيع الرجال والنساء على الولادة فحسب، بل راح يحملهم على طلـب المتعـة وعلى الاهتمام باللذة الشخصية، وعلى إسعاف الإلف والعمل علـى زيـادة حـدة المتع الجنسية. وراح ايـروس يغـدق علـى كـلا الجنسـين بهدايـاه بفضـل سـهامه،

فصار، إذا مـا كـان الوقت مناسباً، يسـهل علاقـات الحب المثليـة (الجنوسـة ـ اللواط)، وعدها شيئاً مباركاً، وكان يوزع ملذات الجسـد، حتى انه هـو نفسه كان مولعاً ببسيشه (Psyché) الروح الإنسانية أياً كان جنسها.

ومن إله الخمر ديونيسوس، الذي تذوقت معه نشوة الخمر ومتعة الجسـد، كان لأفروديت ابن جلف وفاحش، إنه برياب (Priape) التجسيد المقدس لعضو الذكورة في حالة انتصابه، فلم يغب هذا الإله الصغير قط بل كان حاضراً في كل اتحاد جنسي. وكان يروق لليونانيين التنذر والضحك من هذه الشخصية الغريبـة، ولم يعرف الرجال ولا الناس قدراً لجماله. ومع ذلك كان علـى برياب الإسـهام في كل علاقة حميمـة، لأنها بدونـه ستبقى علاقـة ناقصة وغـير مكتملـة، كـان العشاق يمتدحون «موزع اللذة» هذا، أما المتظاهرون بالحشمة فإنهم لم يستطيعوا نكران دوره بل اعترفوا به واحداً من آلهة الخصب الكثيرة العدد. إضافة إلى ذلـك فإن عضو الذكورة (Phallus) الهـائل الـذي يمثـل بريـاب ويسـتخدم في شـعيرته كان العشاق في أعياد الخصب يحملونه بمظاهر الانتصار والجـلال، حتـى خصـوم برياب أنفسهم كانوا يعرضونه في حدائقهم لإفزاع الطيور وطرد اللصوص. أمـا سكان الريف فكانوا يقدمون له العسل أو شحم الخنزير، ذلك لأنهـم يـرون فيـه حارساً لمربي الخرفان والماعز والنحل، فمن أراد أن يحظـى بنعـم بريـاب، ويتمتـع جيداً بجسده، كان عليه أن يقدم له حماراً، ومما لاشك فيه أن الحمير كانت تعـد من فحول الحيوان وذات طاقة جنسية جبارة. إن برياب، الصفيق وغير الرصـين، والفاجر الداعر، كان سر أبويه فعلاً وحقاً. فمـن دونـه لكـانت حيـاة أفروديـت ناقصة، ولكان أبوه بحاجة إليه بين أفراد ثلتـه الطـروب. لقـد كـان بريـاب رمـزاً للتسالي جميعها التي تلي الاحتفال بتدشين خمر جديد.

على الرغم من احتلال ديونيسوس المقام الثاني بعـد إلـه اليونـانيين المفضـل زيوس، وعلى الرغم من تأثيره في أخلاقهم أكثر من الآلهة الأخـرى جميعـاً، فـإن هذا الإله لم يكن وليد مخيلة الإغريق، بل كان إلهاً أجنبياً قدم من الخارج مهـاجراً

إلى اليونان. وكانت الأعياد لا تقام والاحتفالات لا تبدأ والمدائح لا تصدح إلا عندما تبرعم الكرمة ويتذوق الرجال والنساء عصير العنب المختمر، فيثملون ويغيبون عن المكان، ويصيرون «entheos» «العامرة قلوبهم بالإله» والمأخوذين بالحمية الإلهية.

وما أن تجنس هذا الإله القادم من الخارج وصار إغريقياً بات عليه أن يعد ابناً لزيوس، وبما أن الكرمة تنبت من الأرض توجب على الأم إذن أن تحمل به في داخل الأرض وجوفها، فكيف اتفق ان كانت أمه هي بيرسيفوني دون غيرها، وهي التي أخصبها زيوس قبل أن يخطفها أخوها هاديس إلى الجحيم؟ كان قد سبق لهيرا أن استنكرت حب زيوس لأختها دميتر Déméter، لكنها استشاطت غضباً وخرجت عن طورها عندما بيرسيفوني نفسها (ثمرة علاقات زوجها الآثمة مع دميتر) ولدت «طفلاً أقرناً» ثمرة علاقاتها مع أبي الآلهة. فاستثارت التيتان (أبناء أورانوس وغايا) وحرضتهم على قتل هذا الطرح غير المرغوب فيه، ولكي يدفع عنه شر التيتان وينقذه من موت محقق حوَّل زيوس الطفل الأقرن إلى تيس، لكن التيتان كشفوا خديعة زيوس وأوقعوا بأدونيس في الفخ وأمسكوا به ومزقوه إرباً. كانت أثينا على علم بحنو أبيها وحبه للطفل الأقرن. فأنقذت قلب التيس ليعهد زيوس به إلى سيميله Sémélé الأميرة الفانية التي وجدت نفسها عشيقة لزيوس وهي تجهل أن الرجل الذي استسلمت له هو ملك الأولمب. واكتشفت هيرا ان سيميله كانت حاملاً بقلب الطفل الأقرن. وها هي هيرا الغيري من دميتير ومن بيرسيفوني قبلها تكاد الغيرة من سيميله تمزقها، «فأقسمت أن تنزل العقاب بالفتاة نفسها، لاسيما أنها تحمل في أحشائها دليل جرمها، ثم نهضت عن عرشها وتلفعت بسحابة ذهبية واقتربت من عتبة دار سيميله، ولم ترفع عنها السحابة حتى كانت قد تخفت في صورة عجوز يغطي الشيب فوديها، وتملأ التجاعيد بشرتها، وقد احدودب ظهرها، واهتزت، وارتعش صوتها من أثر الشيخوخة، وبدت في صورة شبيهة تماماً بمرضعة سيميله، وأخذت تتحدث إلى

سيميله حديثاً طويلاً عرجت في نهايته على زيوس قائلة: لكم أتمنى أن يكون زيوس حقاً هو الذي منحك هذا الجنين فإن شكاً كبيراً يؤرقني، وكم من رجل تسلل إلى فراش فتاة بريئة منتحلاً لنفسه شخصية الإله. وأياً يكن فإن ادعاءه بأنه يزوس لا يكفي، ولابد أن يقدم الدليل على حبه، فاطلبي إليه أن يظهر لك في صورته الإلهية مجللاً بهالة عظمته ومجده التي يظهر بها لهيرا في السماء، ودعيه يضمك إلى صدره بعد أن يرتدي ثياب ربوبيته..» وهكذا سألت الفتاة زيوس أن يعدها بتحقيق طلب لم تكشف عنه فوعدها الإله فقالت له: «فلتظهر لي كما تظهر لهيرا ساعة تطارحها الغرام، وحاول الإله إمساك شفتيها عن الكلام، غير أن عبارتها العجلى كانت قد طفرت من شفتيها وانتشرت في الهواء، فرثى لها زيوس بعد أن فات الوقت.. وحرص الإله على حمل أقل قدر ممكن من قواه، فتخفّف من حمل النيران مستبدلاً إياها بصاعقة أقل ضراوة، ودخل زيوس دار سيميله بهذه الصاعقة، غير أن جسد سميله البشري لم يقو على تحمل الاشعاعات المنبعثة من صاعقة الإله فاحترقت وأصبحت رماداً، وأسرع الإله فانتزع الجنين الذي لم يكن قد اكتمل نموه وأخرجه من بطن أمه، وأفسح له مكاناً في فخذه وهو مايزال مضغة ثم خاطه عليه حيث يقي شهور الحمل، ثم حضنته خالته اينو حتى عهدت به إلى حوريات نيسا اللاتي خبأنه في غارهن وأخذن يغذينه باللبن....»، إن كلمة حورية **Nymphe** تعني «عذراء». وقبل أن يدرج ديونيسوس ويشب بينهن، اشتهرت الحوريات، بنات زيوس، المترددات إلى الجبال والأشجار وينابيع المياه وأمواج البحار «بالعرائس الطاهرات». وسرعان ما ارتبط إله الخمر المتقلب بصداقة مع الشهواني بان بن هرمس وإحدى الحوريات، ومع سيلين الذي يرى فيه السكارى مثالاً يحتذى وإليه يضرعون كان لبان جذع إنسان وله من التيس قرناه ولحيته وقدماه وذيله (نصفه إنسان والنصف الآخر تيس). وكان ينزو على الماعز ليزيد في عدد القطعان، ويفترع الحوريات، ويواقع الرعيان إذا ما نازعته رغبته التي لا ترتوي.

كان ديونيسوس يطوف الحقول والغابات، وحيداً أو مشيعاً برفقة الساتير ذات القائمتين وشياطين الغياض والجبال بمظاهرها الحيوانية، في موكبٍ جميع أفراده من السكارى والمتهتكين. كانت شهوات ديونيسوس النهمة تعكر صفو حياة الحوريات وتقض مضاجعهن، لقد كان هو وبطانته الماجنة يلوثون طهارتهن ويغتصبون بتولتهن، ولكن سرعان ماكانت هؤلاء النسوة الأثيريات يتخلين عن تحفظهن ورزانتهن أمام مشهد السَرَبنده (Sarabandes) والرقصات العنيفة الداوية لهذه المخلوقات الغلمة والشهوانية المواكبة لديونيسوس وقد لعبت بها انخطافات السكر والعربدة فذهبت بها كل مذهب. ولم يكن لبرياب أن يتغيب عن حفلات القصف هذه قط، فهو إما أن يُبرز للعيان فحشه ويتباهى بفجوره، أو أن يتوارى مؤقتاً، إذا ما فرضت عليه آداب السلوك الكياسة واللياقة وحسن الأدب، متحيناً أولى الفرص ليظهر من جديد ويفعل ما يفعل لتأكيد فحولته.

واحتفاء بديونيوس وتكريماً له ولبطانته، كانوا يحملون على رأس الموكب، إبان أعياد قطاف العنب، قضيباً مقدساً (Phallos) هائل الحجم، رمزاً للخصوبة. وكان قاطفو العنب يحتفلون بالإله، التيس الذي مزقته التيتان في الأمس البعيد، وهم يخفون وجوههم خلف أقنعة على شكل رؤوس التيس، بغية استسلامهم لغرائز اللذة، ومن دون المخاطرة بالكشف عن هوياتهم. فالقناع ينزع عن الإنسان هويته، ويخلصه من كل حياء، ويحيله شبيهاً ببان أو بأحد الساتير أو بسيلين أو بيرياب.

وهكذا كانت تثور ثائرتهم عبر الموكب برفقة أعداد أخرى من مريدي ديونيسوس، وهم يصدحون بأغانيهم السفيهة، ويمتدحون ملذات الخمر والحب والجسد.

وفي بعض المناطق كانت تتواكب في أعياد قطاف العنب العروض الأسطورية مع طقوس العربدة الجنسية. وكان المريدون ينتحبون بصخب ينعون موت الطفل الأقرن الذي قتلته التيتان ومزقته إرباً، ويطلقون صرخات الابتهاج

المدوية مرحبين بانبعاث ديونيسوس وليد حب زيوس وسيميله. كان موته رمزاً للشتاء: وحفنات العنب تجف هي أيضاً في فصل الصقيع هذا. ولكن عندما تزهر الكرمة في الربيع وتبرعم، فإن زمن الانبعاث يكون قد آن أوانه. وللاحتفاء بالربيع الوافد ـ المتجدد ـ هذا، كانت أمهات ونساء وفتيات قاطفي العنف يصعدن إلى فراديس الكرمة ويحتسين الخمر إلى أن ينخطفن في نشوة وحشية. وتكريماً للإله كن يمزقن تيساً ويبتلعن دمه ويلتهمن لحمه نيئاً تعبيراً عن الرغبة الحماسية في الاندماج الكلي في الإله ديونيسوس وفي تمثل شخصيته، وهؤلاء النسوة اللائي استخفت بأرواحهن النشوة كان يطلق عليهن كاهنات باخوس نسبة إلى الاسم الذي كان يحمله ديونيسوس في تراقيا. وكانوا يُسمُّونهن أيضاً الميناداات «الممسوسات» وكن لا يسمحن لأي كان من الرجال بمشاركتهن رقصاتهن المجنونة، بل كان قاطفوا العنب يرضون لنسائهم، دونما شعور بالغيرة، أن ينغمسن في شعيرة الإله المتهتكة هذه.

ومادام ديونيسوس هو الذي يقدم لهن النبيذ، فمن الملائم تدارك سخطه، والفوز بنعمه الحميدة بإقامة الصلوات والأعياد والمشاركة في المواكب وتقديم الأضحيات.

كان ديونيسوس الوافد الجديد إلى عالم الآلهة اليونانية. وكان يقال أنه أتى من وراء البحار، عندما سبق لآلهة الأولمب وشكلت، منذ أمد بعيد، أسرتها العظيمة والجليلة، التي كان أفرادها يتحلقون حول مائدة واحدة، ويرقدون في سرير واحد. فلم يكن في الأولمب ثمة نبيذ.. وكانت الآلهة تشرب الكوثر (شراب الآلهة)، وتقتات من طعام الآلهة، الطعام الذي يمنح أفرادها الخلود. أما بالنسبة للفانين من بني البشر، فقد كانوا يرضون، إلى حد ما، بالنبات غذاء. مرات ثلاث في اليوم كانوا يأكلون الفاصولياء حساء أو عصيدة، ومن طحين القمح أو الشعير ينضجون خبزهم أو يطبخون حساءهم. وكان اللحم من الكماليات النادرة، فسواء كان مشوياً أو مسلوقاً أو مملحاً ومدخناً، فإنهم لا يأكلونه قط إلا

بعد تقديمهم للأضحيات، عندما تبدو الآلهة سخية كريمة، وتطغى على الكهنة الأريحية والسخاء. لكن هذه الوجبات البسيطة والخفيفة لم تكن لتؤثر في حب اليونانيين للحياة وفي تمتعهم بها، فمنحوا آلهتهم بطيب خاطر مآدبها السماوية شريطة أن تمنحهم بدورها المتع التي تروق للآلهة والبشر على السواء.

تروي أوديسة هوميروس وإلياذته بأسلوب نبيل وشاعري تاريخ أوائل الإغريق «في عصرهم البطولي». صحيح أن هوميروس لم يذكر إله الخمر ولكنه أبرز لنا بطانته وآثارها التي تفعل فعلها في العقول فتستثير الأحاسيس وتبلبل أفكار الأبطال ونسائهم، كما تكدر الآلهة والإلاهات وتلقي بذور الفتنة بينهم.

كان الآخيون المتهالكون على الانتقام والغزو، والطرواديون المحاصرون والمغلوبون في نهاية المطاف، أنسباء ينتمون إلى عرق واحد ـ العلم أكد ذلك ـ. لقد كانوا يؤمنون بالآلهة عينها، وكان لهم الطبائع والأخلاق المتشابهة، وكانت معتقداتهم ومبادئهم التي اعتمدوها في الموت كما في الحياة قد انتقلت إلى الدوريين الذين اكتسحوا أرض اليونان بعد سقوط طروادة، تلك المبادئ والمعتقدات التي حافظ عليها الأيونيون الذين عرفوا كيف يذودون عن مدنهم ويدافعون عن مواقعهم ضد الغزاة. وعندما كان هوميروس يؤلف إلياذته كان جبروت الممالك ومجدها قد اندثر منذ زمن بعيد، تلك الممالك التي انحدر منها أغاممنون قائد الآخيين العام إبان حصار طروادة، وأخوه مينلاس زوج هيلين الجميلة المخدوع.

وكانت المدن الملكية مثل: ميسينا وتيرانثه وبيلوس خرائب وأطلال من رماد، في حين استمرت عادات الآخيين وتقاليدهم حية في القصائد الهوميرية وفي حياة الناس أيضاً. وقد انسجمت هذه العادات تمام الانسجام مع البلدان والبشر إلى حد اضطرنا لانتظار عصرنا هذا لنكتشف، حصيلة للحفريات ولنتائج

التنقيبات، إن الآخيين لم يكونوا من الميسينيين، بل كانوا قبيلة من بين العديد من قبائل السيلت الشقر، الذين دمروا، قبل مجيء الدوريين على الأرجح، الحضارة الميسّينية، لكنهم تبنوا جزئياً أخلاق المغلوبين.

وفرت تنقيبات ميسينا وطروادة شهادة متنوعة لماض عظيم الثراء، ولكنها، في ذات الوقت، لم تقدم لنا مايكفي من القرائن والأدلة التاريخية. ترى ماذا حدث في داخل طروادة وإزائها؟ و لم نشبت الحرب الموصوفة في الألياذة؟ إننا لا نملك وثيقة أياً كانت لتأكيد تلك الوقائع. إن الإلياذة والأوديسة قصص أسطورية وسير لآلهة وأبطال، مزدانة، لا ريب، بتفاصيل شديدة الواقعية لدرجة تدفعنا إلى أن نعزو ما جاء فيها إلى حقيقة تاريخية. فلم يكن الآخيون وحدهم من دك مدينة طروادة، ذلك لأن المدينة التي استطاعت بأسطولها أن تحول دون دخول الهيلسبونت «Hellespont» إليها كانت في الماضي البعيد نهباً لغارات الأعداء يدمرونها فيعاد بناؤها من جديد، إن الذكريات المتوارثة لصراعات الأبطال الذين كانوا يتقاتلون بمساعدة الآلهة أو ضد مشيئتها يشكلون لحمة القصائد الهوميرية التي أثرت تأثيراً حاسماً في ديانات الإغريق وطبائعهم.

كانت مدينة طروادة أكثر من ميدان للمبارزات البطولية والتلاحمات الجسدية الدامية، لقد كانت مسرحاً لمناوشات ومشادات تدور بين آلهة وآلهات نسجت بلهوها المتقلب هذه الحرب الضروس الدامية، وكما يفعل البشر بمناسبة الأعياد عندما يدعون أحد الحكام لاختيار المرأة الأجمل في الحفل، قررت الآلهات: هيرا وأثينا وأفروديت التنافس فيما بينهن، ونصّبْن حكماً لم يخترنه من بين الآلهة الخالدات، بل اخترن واحداً من غير المحابين من بني البشر، فكان حكم هذه المباراة الإلهية باريس، وهو أمير طروادي جميل القوام والطلعة. كانت أمه قد حلمت قبل أن تلده بأنها ستلد جذوة من نار، مما دفع والديه إلى هجره فوق هضبة إيدا.. وكان على باريس أن يقدم التفاحة الذهبية المنقوش عليها «إلى

الأكثر جمالاً» إلى الجديرة منهن بهذا اللقب، ولبث باريس حائراً مشدوهاً وهو يستمع إلى حجج الآلهات الثلاث: رأى في هيرا امرأة كبير الآلهة ذات الهيبة والسلطان، وفي أثينا ربة الحكمة والأمر بالمعروف، لكنه ما ان وقع نظره على أفروديت بجمالها الفتان ولفتاتها الساحرة حتى مال إليها، وزاد من ميله وعدها إياه بأن تزوجه أجمل سيدة على وجه البسيطة، فإذا هو يؤخذ بهذا وذاك ويقدم في غير وعي واضعاً التفاحة الذهبية بين يديها على الرغم من تحذير حبيبته أونونيه - إحدى عرائس البحر - إياه. وما ان قبضت أفروديت على التفاحة الذهبية حتى أخذت تختال في زهو لتكيد بذلك أثينا وهيرا.

ومكافأة لباريس على إيثاره لها بالتفاحة الذهبية، وجهته الإلاهة أفروديت لملاقاة هيلين الجميلة، زوجة الملك مينيلاس، الجدير بالاحترام، والتي سبق لها أن وضعت بنتاً.. ونزل باريس ضيفاً على الملك بغية إغواء زوجته.

كان كل من الرجل والمرأة، جراء سطوة أفروديت وسحرها، يضربان صفحاً عن كل وازع أخلاقي، فغدا باريس عاشقاً للزوجة الملكية غير آبه لواجبات الضيف نحو من أكرمه ورحب به في منزله، وانتهكت هيلين بدورها حرمة الزواج بصفاقة لا يردعها رادع، لقد أحست بنفسها، وقد غيبها سحر أفروديت، تنجر عنوة نحو باريس، فسلك الفانيان ماكان يمكن لآلهتهما الخالدات أن تسلكه دونما تحرج أو كتمان. وغدا الاثنان عاشقين مدلهين، واختطف باريس هيلين وحملها إلى وطنه طروادة. وكان هذا الزنا مناسبة لاندلاع حرب طروادة، وهو سبب تافه في ذاته، فضلاً عن أنه قابل للصفح، وذلك لاستسلام المذنبين، وهما لا حول لهما ولا قوة، لسحر أفروديت وسلطانها.

انتهك باريس حرمة التقاليد الآخية انتهاكاً مضاعفاً، فقد نال، من جهة أولى، من قدسية الزواج، وألحق الضرر والأذى، من جهة ثانية، بحرمة الضيافة وهذا أخطر. وحمل الآخيون السلاح للدفاع عن قوانينهم ومبادئهم، ولعلهم باشروا بأعمالهم العدوانية - التي ستكلف المغلوبين، في النهاية، حياتهم جميعاً،

والمتصرين حياة معظمهم ـ لدوافع أخرى نجهلها. ولعل هذه المناسبة راء...
استجابة لطموح كان يدغدغ أحلامهم منذ زمن بعيد، فقد كانوا يحلمون ...
بالقضاء على الهيمنة الطروادية وسطوتها، والاستيلاء على منفذ حر يصل بهم إلى شواطئ البحر الأسود الخصيبة عبر الهيلسبونت (الدردنيل ـ م). وكانت هذه المُنية الدافع الفعلي للحرب، فليس من المعقول أن يجتمع كل هذا الحشد من ملوك الإغريق وأبطالهم للدفاع عن شرف الملك الزوجي والثأر له.

ولا نعتقدن ان الملوك والأبطال الذين غادروا لقتال طروادة، أمراء من ذوي السلطان، أو أسياد من ذوي السعة والرخاء. فلم يكن الملوك الآخيون إلا مجرد فلاحين غلاظ، يعيشون على ما يزرعون وعلى ما ينتجون. فالأرض التي يحرثونها يتعذر استصلاحها. لقد كانت أرضاً حصباء وسبخة أو أرضاً مغطاة بكثيف الغابات. وقد صور هوميروس قلق المزارعين إثر إخضاعهم للطبيعة العذراء بمساحة من الأرض حرثت حديثاً،... عندما «يحمل سيل جارف، زاده الخريف امتلاء وجبروتاً، الجسور في مجراه المتسارع.. وحباك (أسيجة من قصب) الحقول المخضوضرة لا تحول دون تدفق لجته الهادرة» لا مراء أن الماشية كانت ترعى في المراعي، ولكن كم كان على الفلاح أن يبذل من الجهد والعناية لـ«مضاعفة القطعان»! ففي هذا البلد الفقير كان الغني فيه فقيراً، وكان الكثيرون، حتى أمراء السلاح منهم، صياغاً لأسلحتهم الخاصة يطرقونها بأيديهم، ونجارين يصنعون الكراسي والطاولات والأسرة يُزوِّدون بها بيوتهم. أما ذاك الذي لا يمارس مهنة كتلك، فقد كان بمقدوره الطلب إلى جاره أن يصنع له ذلك. مقابل مال يدفعه، أو كلمات طيبة يمتدحه بها. وعليه فإنه إذا ما سنحت لأحدهم فرصة التذرع بحجة مقبولة ونعم بشيء من رغد العيش بقوة السلاح، لأوجب على نفسه، كائناً ما كان، تجاه أسرته وقبيلته ونفسه، أن يجني الفوائد من الطعان والمبارزة، بدل أن يعمل في سبيل ذلك معتمداً على جهده وعرق جبينه. وعليه فإن الآخيين، ملوكاً وأمراء، قد اتفقوا سريعاً على الثأر لاختطاف

هيلين الجميلة. وعلى إنزال العقاب ليس بباريس وحده، بل بطروادة كلها أيضاً. واتّخذ القرار، وأدار الأبطال الشراب، إن ولائم كهذه تكون في العادة، بسيطة ومتواضعة، وفيها لا يستعملون الشوكة ولا الملعقة، بل كانوا يتناولون اللحم بأيديهم بعد تقطيعه بالسكين. وكان نسيج الثياب بسيطاً ويحيكونه في أماكن سكناهم. وكان الرجال طوال القامة أقوياء البنية ولهم شعر مرسل طويل ولحى كبيرة، وكانت أعظم هدية يستطيع الرجل أن يهديها أن يقص شعر رأسه ويقربه قرباناً أمام كومة الحطب التي تحرق عليها جثة صديقه. وكان النساء والرجال يغطون أجسامهم برداء مربع يطوونه فوق الكتفين ويشبكونه بدبوس ويصل إلى قرب الركبتين. وتضيف النساء إلى هذا نقاباً أو حزاماً ويضيف الرجال غطاء للحقوين. وكانت النساء صارخات الجمال يسلبن العقول بكل ما في هذا التعبير من معان، حتى إن المناطق المسكونة بالآخيين كان يطلق عليها «**Kalligynaix**» (الغنية بالنساء الجميلات)، فإذا كانت الكسوة بسيطة ومتواضعة، فلا تعدم الخفة والتأنق والغنج المرأة من الفوز بحقوقها، وكان من الشائع أن تدهن الزوجة جسدها بالزيوت المطيبة بالورود لإرضاء زوجها.

كان جمال المرأة شرطاً لا غنى عنه، لكنه غير كاف للزواج. وعلى الرجل الراغب في الزواج أن يشتري عروسه من أبيها، بيد أنه لن يقدم على ذلك إلا بعد تحديد البائنة قبل العرس وهي الأهم من «ثمن الشراء» الذي يتكون من الماشية إجمالاً، فشراء العروس، في جوهره، كان مقايضة بقطعان من الماشية، والرجل الذي يقتني امرأة كان يتسلمها علاوة على الصفقة، فإن هي وهبته أطفالاً، زيادة على ذلك، تكون قد حققت أحلامها كلها في الحب والزواج، وصارت رفيقة زوجها في السرير كما في الحياة. وكان بإمكانه الاعتماد على إخلاصها، حتى لو كان هو نفسه يتمتع بحريات واسعة، وفي الزواج تغدو المرأة جزءاً لا يتجزأ من أملاك الرجل، مثلها في ذلك كمثل الخيول والأبقار والأغنام والخنازير، ومثل ما كان يقتنيه من الحظايا اللائي يقدمهن بسخاء إلى ضيوفه، إذا

ما عن له ذلك، لكي يتمتعوا بهن. كان الرجل سيد البيت، وربه الذي لا ينازع، فكان يكن لزوجه الشرعية الاحترام الواجب عليه حياها شريطة ألا تخيب آماله في السرير، وألا تقطع عقبه لتوكيد استمراره في نسله.

وكان بمكنة النساء الآخيات الدفاع عن حقوقهن على الرغم من رجحان مقام الرجل. فإذاما زوجها والدها احتلت الصدارة في حفل الزفاف العائلي والاجتماعي معاً، وكان من مظاهر الاحتفال كثرة الطعام، والرقص والمرح، الذي تنطلق فيه الألسنة. وكانوا يسيرون بالعروسين في وهج المشاعل من حجراتهما ويخترقون بها المدينة وسط أغاني العرس ...ة، وكان الشبان يرقصون وهم يدورون، وتعلو بينهم نغمات الناي والقيثارة ... العروس أقرب أقربانها ... يفارقونها إلا بعد الوصول بها إلى سرير الزفاف.

عازفـــــة النـــاي

ومتى تزوجت المرأة أصبحت من فورها ربة بيتها ونالت من التكريم بقدر ما تنجب من الأبناء. وتتحول قضية الزوج الذي كان يلحق بعروسه، بعد الزواج، ببعض الأذية، من شأن خاص إلى شأن عام يتناوله الأب والرجال في العائلة، بل وتتداوله الألسن في المدن والأماكن المنذورة للآلهات وكهنتها أيضاً. وكانت المرأة تُهيأ للأمومة، وما أن تلد الأم وليدها حتى يدرك الأب أن اليوم الذي «لا يتعرف فيه الابن على أبيه»

ليس ببعيد، ولا يحتفظ الآخيون إلا نادراً بذكرى غامضة عن العصر الأمومي هذا، إن كل شخص كان يرفع بناظريه إلى السماء، ناحية الأولمب، كان يعلم أن أبا الآلهة يتصرف بالأمانة الزوجية على هواه، بيد أنه كان يكن لزوجه هيرا احتراماً يليق بها.

وعليه فإن من الحكمة للفاني من البشر ألا يعامل النساء باستخفاف فمن بمكنته المجازفة بتعريض نفسه لسخط أثينا، إلاهة الحكمة، بل والأدهى من ذلك لأفروديت التي كانت تستطيع، بدافع الانتقام، أن تمنع عن الرجل التمتع بضروب الحب قاطبة، وأن تحرمه من إرواء غليله وإشباع شهوته؟ كانت أفروديت تصفح عن الإضرار البريء بالزواج، وعن شطط لا ذيول له يرتكب في اللحظة الملائمة، وفي مكان مريح، ومع إلف مناسب، وتغض الطرف عن طيش عبادها، ومع ذلك فإن بعضاً من الفطنة والاحتراس مطلوبان، إن لم يشأ الرجال أن يكونوا عرضة لغضب أرتميس (Artémis) العذراء، إلاهة الصيد، إن أي شخص يراود فتاة عذراء، رغماً عنها، يستوري على نفسه حتماً غضب ارتميس وانتقامها الأشد تنكيلاً، لاسيما وإن أخاها التوأم أبولو سيمد لها يد العون، وهو الذي كان يقف إلى جانب أخته مجاملاً في دفاعه عمن يتضرع ملتمساً العفو، وذلك لأنه هو نفسه كان يعشق المتعة والمحظور منها بخاصة. فمن كان يرغب في التمتع بحياته ووجوده، وفي العيش طويلاً، عليه أن يكشف للآلهة حقيقة أمره، وأن يلتمس غفرانها ويفوز بحظوتها بما يقدمه إليها من أضحيات.

وليس من السهل دائماً أن يصنع الفاني ما يروق للآلهة حقاً، أو أن يمتنع عن القيام بما يكدرها. فليس بمقدور أحد، كائناً ما كان، أن يعرف المصير الذي اختارته الآلهة له. إن امرأة أو رجلاً هذا شأنه هو بريء حقاً لكنه، رغم ذلك، مذنب، وذلك لأن أحد أسلافه كان قد أهان الآلهة وعجز عن الوفاء بالتزاماته نحوها، إن أي شخص سليل أحد الفانين ممن تثقل كاهلهم لعنة نزلت عليهم من السماء، يرث منزلة سلفه وأمواله معاً، ولكنه يرث أيضاً عواقب اللعنة التي

تسببت بها آثام هذا السلف. لقد كان أجممنون، القائد العام للملوك الآخيين، والذي غادر بلاده لقتال طروادة ومعه أخوه مينيلاس، يجهل أنه مرغم على التكفير عن آثام كل من تانتال (تنتالوس) والد جده وبلوبس جده وأتره (أتريوس) أبيه.

كان تانتال (تانتالوس) يرزح تحت وطأة وزر مضاعف، إنه ابن زيوس من الحورية بلوتو، والأقرب إلى قلب أبيه الذي أحاطه بحبه ورعايته، وأولاه اهتماماً منقطع النظير، ومنحه الجاه والسلطان، ونصبه ملكاً على ليديا. سمح له أن يروح ويغدو بين آلهة السماء، وشرَّفه بمشاركة الآلهة طعامها وشرابها. لكن تانتال الجاحد العاق أفشى أسرار السماء وآلهة الأولمب وأباحها لبني البشر، فسرق شرابها وطعامها سر خلودها. كان زيوس سيصفح له اختلاساته وفلتات لسانه غير المتحفظة، لكن الوليمة المروعة التي أولمها تانتال لأبي الآلهة وسكان الأولمب الآخرين، أثارت نفور الضيوف النبلاء واستنكارهم إلى حد استوجب الحكم على تانتال بقصاص صارم لا رحمة فيه. والحقيقة هي أن تانتال كان قد شوى ابنه بيلوبس بعد أن قطع أوصاله وفصل رأسه. وقضى القصاص وأوجب على تانتال أن يعاني في الجحيم آلاماً تذهب مثلاً: ... وتقرر أن يعيش تانتال في العالم السفلي إلى الأبد وهو يقاسي ثلاثة أنواع من العذاب، العطش الأبدي والجوع الأبدي والخوف الأبدي. وذلك بأن يقف وسط بركة غير عميقة تغطي المياه جسده حتى الخصر، ويرتفع الماء حتى يبلغ أسفل فمه فإذا حاول أن يشرب غاض الماء ثم عاد ليعلو من جديد، ومن فوق رأسه تتدلى قطوف دانية ما يلبث أن يمد يده ليظفر بثمرة منها حتى تطوح الريح بها بعيداً، ويظل على هذه الحال يكويه جوع وعطش أبديين، وأرسلت الآلهة صخرة تعلق فوق رأسه على الدوام وكأنها على وشك السقوط لتسحقه فيعيش في رعب أبدي. وأحيا زيوس بيلوبس الذي ضحى به أبوه بصورة مروعة، ورمم الكتف التي التهمتها ديميتر المذهولة حزناً على فقد ابنتها بيرسيفوني. سمى بيلوبس جزيرته بيلوبونيز باسمه.

لكنه كان على شاكلة أبيه يطرب لخداعه الآخرين، أحب بيلوبس الفاتنة هيبوداميا، وبادلته الحب، بيد أن أباها أونيومايوس ملك إيليس كان يرفض تزويج ابنته وريثة ملكه إلى كل مطالب بالزواج يعجز عن التغلب عليه في سباق العربات، أضف إلى ذلك ان الخاسر في السباق يخسر حياته أيضاً. اثنا عشر منافساً من الفتيان تحتم عليهم دفع حياتهم ثمناً لولعهم بهيبوداميا.

كان الملك ينطلق بعجلته السحرية التي يقودها ميرتيلوس السائق المحنك، ويجرها زوج من الخيول السريعة، فيلحق بمنافسه الشاب ويطلق عليه حربة سامة يغرزها في ظهره فتقضي عليه في الحال. تنبهت الآلهة إلى الخطر الذي أصبح يهدد بلاد الإغريق، وأرادت أن تضع حداً لغطرسة أونيومايوس، وأن تحطم غروره، فأرسلت إليه شاباً إغريقياً جسوراً، إنه بيلوبس الذي قابل هيبوداميا وتبادل الحب معها، ولضمان فوزه في السباق رشى مير تيلوس، سائق عربة الملك، ووعده أن يقتسم وإياه المملكة وسرير العروس بعد أن عاين تيتمه بهيبوداميا وتلهفه لامتلاكها.

استبدل ميرتيلوس المسمارين الفولاذيين اللذين يثبتان العجلات بالقاعدة بقطع من الشمع.. وقُتل الملك. احتفل بيلوبس بليلة زفافه مع عروسه هيبوداميا من دون ميرتيلوس لأن بيلوبس قذف به في اليم ناكثاً بوعوده، وراح ميرتيلوس يردد قبل أن يغرق في اللج، عليك اللعنة يابيلوبس، عليك اللعنة يابيلوبس، عليك اللعنة وعلى ذريتك أجمعين.

كان لبيلوبس من هيبوداميا ولدان توأمان: أتريه (أتريوس) وثييست (ثويستيس)، أغوى ثييست ايروبي، زوجة أتريه، على الرغم من كونه متزوجاً. ونمى إلى أتريه خيانة زوجه وأخيه فدعا أخاه إلى وليمة، وقدم له أولاده الثلاثة طبقاً رئيساً في الوجبة.

أكل ثييست حتى شبع وشرب حتى ثمل. فجأة أومأ اتريه إلى الخدم إيماءة ذات معنى. أحضر الخدم على الفور وعلى صحاف من ذهب رؤوس أبناء ثييست الذبيحة.

لعن ثييست أتريه وولى الأدبار. لكن الآلهة لعنته هو أيضاً كما لعنت أخاه. ذهب ثييست إلى نبوءة دلفي. يستطلع رأي الإله أبولو. ونصحته النبوءة أن ينجب طفلاً من ابنته بيلوبيا، لأن هذا الطفل سيثأر له. فاغتصب بيلوبيا التي ما لبثت أن أصبحت عشيقة أتريه ومن ثم زوجته، فقد سبق لأتريه أن قتل زوجته ايروبي أم ولديه أجاممنون ومينيلاس، وولدت بيلوبيا ابناً من ثييست اعتقد اتريه أنه ابنه.

وسمي هذا الابن ايجيست (إيجستوس). ونمت إليه جرائم أتريه فانتقم منه وثأر لضحاياه. ولم يشارك في حملة الآخيين، ومكث في أرغوس بالقرب من كليتمنسترا، أخت الجميلة هيلين وزوجة أجاممنون، وكان لها ثلاثة أولاد: الكترا وايفيجيني وأورست.

إن قصة زنى أتريه وارتكابه المحارم، وقصة اللعنة التي تعقبت ذريته، ازدادت مع الزمن ثراء بما تضمنته من تفاصيل مختلفة كان الغرض منها تفسير المصائب التي حلت بأجاممنون وبأسرته. لم تصدر من أفعال أجاممنون، على النقيض مما ارتكبه أسلافه من فظائع، إلا زلات طفيفة، وهفوات معقولة، ولكن كان من الضروري إقامة الدليل والبرهان القاطع على ان خداع الآلهة، وقتل الأبناء، والاغتصاب، تجر على مرتكبيها عقاباً من آلهة الأولمب لا يرحم، وعلى ان هذا القصاص أو هذه اللعنة لا تستثني أبناء المذنب وأحفاده، حتى لو كانوا على جهل بالجريمة وبريئين منها. فلا يمكن التكفير عن شر موروث يجري في عروق أسرة إلا بدم مسفوح، ولا وجود لوسيلة ناجعة تؤثر في قدر مستحق على الجميع ومحتوم، ولكن من الممكن لكل مؤمن، إذا ما توفر له حق اختيار قاطع وأكيد، أن يلتمس من الآلهة النصيحة بوساطة الكهنة والكاهنات. ففي العديد من المعابد الإغريقية، رجال «مستنيرون» يعرضون، مقابل تعويض مناسب، خدماتهم في قراءة النجوم، وتفسير الأحلام، وتمحيص أحشاء الحيوانات، ومراقبة طيران الطيور، بغية التنبؤ بمستقبل زبائنهم السذج. لكن نبوءة أبولو في دلفي

وفيما كان الرجال يقاتلون، كانت نساء طروادة ينجزن مهـ ـهن ـيـة. كن يتجملن ويحضّرن وجبات الطعام لاستقبال المحاربين العائدين من المعركة بما يليق بهم من حب وتبجيل، وكن «وفيات وفاء ... كما يبدو، كانوا هم أيضاً مخلصين، فما عرف أن كان ... حطاباً، باستثناء باريس، الذي لم تغفر له زوجته ايونيا ... ليلوذ بالجميلة هيلين. إن سعادة أبناء بريام الزو... على الدوام، مثالاً سائراً بين الأزواج في اليونان».

وبعد خراب المدينة، كانت فتيات ملك طروادة العزباوات ... وقعن سبايا في أيدي الآخيين المنتصرين، عذراوات. لقد افتتن الإله أبولو ... ندرا، لكنها أبت أن تستسلم له، فهي لا تحبه، وهو لا يستطيع الزواج بها ... ـنى أبولو، بعد أن صدته عنها وخاب أمله فيها، أن تستحيل موهبتها في كشـ... الغيب، التي أنعم بها عليها، إلى نقمة تقض مضجعها، فلكم تنبأت لمواطنيها وحذرتهم من مصيرهم المفجع، فعمل أبولو على ألا يصدق أحد نبوءاتها. وعندما نهب الآخيون طروادة، راحت كاسندرا تبحث عن ملجأ لها بالقرب من تمثال الإلاهة أثينا، وهناك وجدها البطل أجاكس (اياس) واغتصبها، لتؤول من ثم إلى أغاممنون عند اقتسام مغانم الحرب، وتدخل في عداد عبيده.

كانت كاساندرا تحذر، على الدوام، إخوتها وأخواتها وزوجات إخوتها، ولكنهم جميعاً لم يصدقوها، وعبثاً كانت تردد على مسامعهم ان حياة الطرواديين الزوجية السعيدة لم ولن تلزم الآلهة بحماية المدينة التي حكم عليها بالخراب، لقد ضاعت «اليون المقدسة» على الرغم من انتصارات هكتور المتواصلة، وعلى الرغم من مرتجاه في دحر المهاجمين، وردهم إلى البحر. ففي الوقت الذي جندل فيه هكتور حظي آخيل، بتروكل الأمجد، واستولى على شكة (عدة المحارب) آخيل التي يلبسها صديقه، كان آخيل، المنزوي في خيمته رافضاً القتال آنئذ، قد

تصالح مع أغاممنون. لكن مظاهر الحزن على العشيق الأعز أيقظت في آخيل حمية المحارب وغلواءه، فراح، وقد لبس لأمة (عدة المحارب) جديدة صاغها له هيفايستوس، بناء على تضرع أمه الإلاهة، يزرع الرعب والفوضى في صفوف الطرواديين، كان هكتور وحيداً آنذاك خارج أسوار ايليون، فطارده آخيل حول أسوار المدينة وقتله بعد معركة دامية، ثم شد جثمان عدوه الصريع إلى عربة القتال وجره حتى معسكر الآخيين.

ونظم آخيل أثناء مأتم بتروكل المباريات الرياضية تكريماً للميت، وقص شعْره وضحى باثني عشر طروادياً من الأسرى عربون صداقته لبتروكل وتعبيراً عن حزنه عليه. ولكن قسوة آخيل البائس المروعة دفعت به، مع ذلك، للإذعان إلى نزعاته النبيلة، عندما طالبه الملك العجوز بريام بجثة ابنه هكتور، فسمح للأب الحزين أن يجلس إلى جانبه ليتناول العشاء معه. ثم يأمر آخيل فتغسل جثة هكتور وتطيب بماء الورد، ثم تلف في نسيج من كتاب مصر الغالي الثمن، ويعود بريام إلى أهله حاملاً جثة ابنه وتشعل النار لإحراقها، وترتفع الأصوات باكية، فلقد بكاه والداه وإخوته وزوجته وأصدقاءه أحر بكاء.

كان البطل الحقيقي يمتاز بسورة غضبه الصارمة والجامحة في حومة الوغى، ومع ذلك فإنه كان من المناسب واللائق أن يؤدي التحية الأخيرة، تحية الوداع، للمغلوب الصريع.

إن الميتة الشجاع لعدو مقدام تستدعي احترام المنتصر للميت وتبجيله، فالشجاع الشهم يستحق أن يوارى جثمانه مع كل آيات التقدير والاحترام، فتلك هي رغبة الآلهة وما تستدعيه العادات التي تحوم فوق رؤوس المتحاربين وعداواتهم.

بعد مقتل هكتور تلقى الطرواديون المحاصرون واليائسون، بتدبير من العناية الإلهية، نجدة حلفاء أتوا من بعيد.

أبولو. وإذعاناً لأمر العراف وحرصاً منه على انتصار قواته، أعاد أجاممنون الفتاة إلى أبيها الكاهن، ولكنه لم يرض بالحرمان من صاحبة تدفئ فراشه، فطالب بريسييس (Briséis) فغادرت خيمة عشيقها الحانق لتقيم في خيمة القائد أجاممنون. وذهبت احتجاجات آخيل الغضوب سدى: «خيامك زاخرة بكل نفيس، والعديد العديد من النساء في خيامك، نساء مختارات، فما أن نستولي على مدينة، حتى يقدمهن الآخيون لك أولاً على الدوام».

لم يكن أجاممنون الوحيد بين أقرانه ينعم بلياليه بين أحضان السجينات الجميلات، لقد وجد معظم الأبطال بدائل لزوجاتهم، باستثناء مينيلاس الذي لم يجد من يحل محل زوجه، فكان من المحال، بالنسبة له، لأي امرأة، أياً كانت هذه المرأة أن تضاهي الجميلة هيلين، كان يتمنى استرجاعها هي دون غيرها.

ما كان لأي امرأة، أياً كانت، أن تبهج آخيل وتسعد لياليه بعد أن حرمه أجاممنون من بريسييس (بريزيئيس). لزم آخيل خيمته معتزلاً الحرب، تنهشه كراهيته لأجاممنون، قانعاً بصداقة باتروكل (باتروكليس) الرقيقة، صديقه المفضل.

في السنة التاسعة من حرب طروادة، اتفق الآخيون والطرواديون، بعد أن أريقت دماء غزيرة، وذهب المرض والحنين إلى الوطن بحماس المحاصرين وحبهم للعراك، على أن يضعوا حداً للضغائن والنزاعات في مبارزة تدور بين مينلاوس وباريس، وللسلاح الفصل بين المتبارزين، الزوج والعاشق، والبت في أيهما الأفضل والأقوى، والفائز من ثم بهيلين إلى أبد الدهر. تغلب مينلاوس على باريس، لكن أفروديت غيبت حظيها عن الأنظار، ونقلته، بعد أن طيبته بالزيوت الثمينة، وعقصت شعره بمهارة، إلى «سرير العاشق» الذي يجمعه وهيلين، فطلبت الحسناء من باريس أن يبين عن رجولته في مكان آخر غير السرير، ودعته لتحدي مينلاوس مرة أخرى. ولكن باريس كان يتحرق شوقاً لامتلاك عشيقته، فاستثارت أفروديت أحاسيس هيلين لتندفع مستسلمة إلى رغبة فاتنها. وروحت المداعبات عن باريس وعوضته هزيمته وإخفاقه، وعملت أفروديت على أن لا

ينال الأسى من هيلين لتسامحها، ولكن نار الحرب الضروس استعرت من جديد، فتلك هي أمنية الآلهة والآلهات باستثناء زيوس الذي كان يميل نحو السلم.

كان يحكم المدينة المحاصرة، التي يدعوها أهلها اعتزازاً «ايليون المقدسة» الملك بريام. وهناك خلف أسوارها الحصينة كان الملك قد وضع في حرز أمين ما حصله الطرواديون من ثروات بالتجارة والمكوث. وجمع أكداساً من المؤن كيلا يعوز الطرواديين والطرواديات شيء أثناء الحرب. فمازالت حظائر القصور والبيوت، بعد تسع سنوات من الحصار، تؤوي الأبقار والنعاج السمان، وكانت الأقبية طافحة بالخمور، والأفران عامرة بالأرغفة المقرقشة، وكانت الجياد «تقتات بالعلس (الحنطة الرومية) و«الشعير الذهبي» وهي تنتظر بسروجها المحاربين الذين كانوا لا يألون جهداً في حماية أرواحهم الغالية بفضل عربات القتال مثار حسد المهاجمين الغزاة. كان لبريام خمسون من البنين. «تسعة عشر ابناً من بطن واحدة، أما البقية الباقية، فقد أنجبتهم من خليلات لي يعشن في منزلي» وكان الوليد الأول، بين أولاده التسعة عشر، الذين ولدتهم هيكوبيا، هيكتور «ذو الخوذة المزينة بالريش» «ذو الخوذة البراقة»، الذي يجمعه وزوجته أندروماك حب رقيق، فكان لها الأب والأم والأخ و«الزوج الممتاز». توسلت أندروماك إلى «بطل الشعب المقدام» ترجوه ألا يعرض حياته للخطر خارج الأسوار الحصينة، وتضرعت إليه أن يشفق عليها وعلى الابن الذي ولدته له: «لا تجعل ابنك يتيماً وزوجك أرمل»، لكن هيكتور أعرب عن تهيبه وكشف عن عظيم تخوفه من: «رجال طروادة ونسائها بذيولهن السابغة» إذا ما هرب من حومة الوغى هروب جبان رعديد. «لن ينجو أبداً الفاني من بني البشر من قدره، بدءاً من اللحظة التي تحمل به امرأة، سواء أكان نبيلاً هذا الإنسان أم وضيعاً حقيراً». وراح هيكتور ينصح أندروماك بتزجيه الوقت في العمل: «عودي إلى منزلك وتفرغي لأشغالك، وتناولي مغزلك، وارجعي إلى نولك، ومري خادماتك واستنهضيهن للانكباب على عملهن».

كانت الأكثر شهرة بين التنبؤات جميعاً، والتنبؤات التي تدلي بها بثيبا دلفي كانت تجيء، في الأغلب، على شكل أقوال غامضة ومتفككة يفسرها الكهنة كإجابات على استشارات الحجاج حول مصائرهم ومشاريعهم، ومن يحزر معاني هذه التنبؤات ويفسرها بدقة يمكنه التأكد من أن أبولو يعطف عليه ويوجه خطاه.

لم يكتف الإغريق بالاعتقاد أن بمقدور الآلهة التأثير في الأعمال الإنسانية قاطبة، وأن العمل الذي تباركه هو وحده الصائب دون غيره. فرأوا أن لا مفر لهم من وقاية أنفسهم من الأرواح الشريرة لأن «صغار الجن» موزعون في كل مكان، فمن الممكن طردهم أو تحييدهم، على اقل تقدير، شريطة أن يحافظ المرء على «طهارته» ليس بالاغتسال وحده بل بتجنب كل دنس وعدم الاقتراب منه، وعلى كل من ينزل بيتاً فيه ميت مسجى، أو مريض طريح، أن يُنضح بماء مبارك كي يبرأ من أرواح الموت أو المَرض. وإضافة إلى ذلك دون غيره من التبعات الضارة التي يتسبب بها الطمث وقذف المني. ولا يستطيع اليوناني، إذا ما قابل مجنوناً فاقد الرشد، أن ينجو من آثار هذا اللقاء المؤذية إلا إذا «بصق هلعاً على ثيابه التي يرتديها». وعليه، إذاما اعترضت طريقه قطة، ألا يتابع طريقه قبل أن يقذف خلفه بثلاث حصى. كان الخوف من الأشباح واسع الإنتشار إلى حد ان المتطيرين تحرزاً واحتراساً، كانوا ينتضحون كل صباح بالماء المبارك من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، ويضعون في أفواههم طول النهار ورقة من الغار. ولكنهم كانوا يرون أن التطهر على أيدي الكهنة من أكثر التحرزات ضماناً.

وإن العبارات السحرية هي الترياق الأكثر فعالية وكان المختارون الذين يشاركون الآلهة في «كشف الغيب» (التبصير)، محط احترام الناس وتبجيلهم إلى حد اعتبار تنبؤاتهم قانوناً، وكلامهم كلاماً صادراً عن الآلهة، حتى إن الملوك أنفسهم أخضعوا أحكامهم إلى حكم العرافين، فليس من خطر يعادل خطر التصرف ضد إرادة الآلهة ورغباتها.

كانت الآلهة أحياناً تشفق على البريء من البشر الفانين، لكن تلك التذبذبات في العواطف ماهي إلا نزوات عابرة تدخل في أصول لعبة سكان الأولمب. وقد تصفح الآلهة الخالدة عن عدوها، إن اختلط أبناء المصائر البشرية فيما بينهم إلى حد يستلزم إصدار عفو يشمل الجميع، أو أن خلاصاً قضت به الآلهة قد استلزم انقلاباً ما. لقد عرف هوميروس أن يمزج فنياً نزوات آلهة الأولمب في مجرى الأحداث.. وعليه فقد اقتضى الوضوح في سير الأحداث أن يضحي أجاممنون بابنته ايفيجيني «Iphigénie»، ويقدمها قرباناً للإلاهة ارتيميس لتصب عليه زوجته كليتمنسترا جام غضبها وكراهيتها.

كانت التضحية التي فرضها أحد العرافين على أجاممنون قصاصاً لقتله أيلّة الإلاهة ارتيميس، ورغبة منها في معاقبة الصياد الأخرق، منعت الإلاهة العذراء أسطول الآخيين من مغادرة المرفأ والإقلاع نحو طروادة. فكان على أجاممنون أن يضحي بابنته ايفيجيني، التي استقدمها إلى أوليس بدعوى زفها إلى المحارب آخيل (أخيلوس)، لترضى الإلاهه فتسخر لهم ريحاً مواتية. لقد تنكر أجاممنون لواجبات الأبوة حين ضحى بابنته ونذرها للموت، لكنه قام بواجبه قائداً. وكان شديد الأسى ولكنه كان متيقناً بأنه عمل بما يمليه عليه الواجب. وسواء اقترف جوراً أو ارتكب خطيئة، فإنه كان على جهل بذلك، بل وأكره، قبل أي شيء آخر، على الانصياع إلى متطلبات عادات بلده وتقاليده خيراً كانت هذه العادات أو شراً.

وعندما رست سفن الآخيين الشراعية، وهي في الطريق إلى طروادة، على اليابسة للتزود بالماء والطعام، اختطف المحاربون أيضاً عدداً من الصبايا. كان الحرمان الجنسي عذاباً مبرحاً يحاول الجنود في الميدان التحرر منه بسبي النساء واستباحتهن، وبما أن أجاممنون هو القائد الأعلى، فمن حقه الاستئثار بأجملهن، فاستولى على الشقراء كريسييس. وكان على آخيل، المولود من رجل فان وإلاهة بحرية، أن يرضى بالشقراء بريسييس. لكن أحد العرافين هدد أجاممنون بانتقام أبولو: كريسييس هذه، التي اختطفتها واغتصبتها، هي ابنة كاهن من كهنة الإله

مقطع من معركة تدور بين الطرواديين والآخيين، على مزهرية من كورنثة، القرن السابع ق.م

لقد كانوا جماعة من الفرسان الغريبة غير المألوفة، زرعت الرعب في قلوب أعتى الآخيين وأشدهم صلابة: إنهن نساء يمتطين الجياد على أردانها، ويرمين بسهامهن، ويقذفن بمزاريقهن (رماح قصيرة)، ويقاتلن بضراوة تفوق ضراوة الرجال. إنهن الأمازونات (امرأة بلا ثدي) اللائي ينقضضن، بقيادة ملكتهن ثنثيسيليا، على الآخيين الذين ما استطاعوا التغلب عليهن إلا بعد مقتل «الضارية» بنثيسيليا، في مبارزة لها مع آخيل. وتروي الأسطورة أن آخيل قد جن حباً بالملكة المقاتلة عندما أزاح قبالة خوذة القتيلة كاشفاً عن وجهها.

هؤلاء الأمازونات من أين جئن يا ترى؟ هل هن شخصيات نسجتها بنات أفكار هوميروس الذي ألفناه يتحدث عن الرجال بخاصة، وقد تخلين عن جنسهن بانسحابهن من الحياة الزوجية؟ أم هل هن، فتيات وأخوات، أرامل قبائل السكوذيون «Seythes»، تلك القبائل المتوحشة التي يحكى عن أفرادها أنهم يشربون دماء أعدائهم ثم يمسحون شفاههم بجلود سلخوها عن جماجم الموتى؟ ويرى أن هؤلاء العمالقة الملتحين، الذين نذروا حياتهم للقتال، قد ضربهم الوباء باستثناء نسائهم اللائي بقين على قيد الحياة، فتابعن اصطياد الرجال ممتطيات صهوات جياد أزواجهن الموتى، ويقال أيضاً أنهن لا ينفككن عن مقاتلة أعدائهن مادمن عذراوات، وأنهن لا يضحين ببكارتهن إلا بعد أن تصرع الواحدة منهن ثلاثة رجال على الأقل. «.... وتلك التي اختارت زوجها تنقطع عن ركوب الخيل مادامت الحرب العامة لكامل شعبها لا تحول دون ذلك، ومع عزوفهن عن ممارسة الجنس مع الرجال فقد كن يقمن بحملات مضاجعة لذكور الأقاليم المجاورة، يستهدفن بذلك الإنجاب حفاظاً على تجدد نسلهن، فإذا أنجبن ذكوراً ترددن بين خنقهم في مهودهم أو الرجوع بهم إلى آبائهم، غير أنهن يسعدن بما ينجبن من إناث يدربنهن منذ نعومة أظفارهن على التصدي والعراك، ويحرقن لهن الثدي الأيمن بقضيب من النحاس أعد خصيصاً لهذا الغرض، حتى يكتسبن مزيداً من الحرية والمرونة والقدرة على استخدام القوس وقذف الرمح».

مع غنائمه من طروادة، ليقوم أورست بن أغاممنون وكليتمنسترا بقتل الأم والعشيق معاً. فبات على أورست أن يحمل، إضافة إلى اللعنة التي نزلت بسلالته منذ بيلوبس وأتريه، وزر جريمته هو أيضاً، لكن الإلاهة أثينا برأت ساحته وطهرته من جريمة قتل الأم. لقد أنجز ما على الإبن من واجب لا يرد، يدفعه الثأر لأبيه، حتى لو كانت المذنبة والزانية الخؤون هي أمه.

إن خصال أبطال هوميروس المتكاملة، وآراءهم حول الخير والشر، واختبارهم للحكمة والشنار، تقدم للإغريق جميعاً ما يحتاجونه من تعاليم ضرورية، حتى إلى ما بعد غارات الدوريين التي شطرت القارة الإغريقية إلى معسكرين متخاصمين، ومع ذلك فإن اشتراكهما في الأسطورة واللسان غير كاف لتندمج أخلاق الأيونيين، الذين صدوا الغزاة، مع أخلاق غزاة قساة كانوا يعرِّفون بأنفسهم وباعتزاز بوصفهم أحفاد هرقل «هيراكليدس». إن تشريعات متغايرة كلياً طورت عادات وأعرافاً متغايرة عند كل من أحفاد الدوريين المقيمين في البيلوبونيز مؤسسي أسبارطة من جهة، وعند الأيونيين ومركزهم الروحي أثينا من جهة ثانية. كان كل فريق منهما يتصور الآلهة نفسها بصورة تختلف تمام الاختلاف عن صورة الفريق الآخر، وأفروديت إلاهة الحب مثالاً يؤكد ذلك، تماثيل إلاهة الحب في أثينا تعرض عارية بلحمها ودمها وبكامل جمالها الحسي، أما في أسبارطة فكانوا يحجبون مواطن فتنتها، ويزودونها بسيف في جنبها الأيمن، ويضعون القيد في قدميها، القيود الرمزية تحد من حرية حركة الإلاهة، والسيف سلاح القتل، يذكِّر المشاهد بالمعارك التي وقفت الإلاهة إلى جانبها وراهنت عليها، ويعلن لرجال أسبارطة ونسائها إن على العلاقات الجنسية ألا تهدف إلى المتعة الشخصية، بل يجب أن ترمي إلى ازدهار الدولة المقاتلة التي خلقها المشرع ليكورغ. ونحن لا نملك عن هذا الليكورغ الذي يعني اسمه «رسول النور» أي دليل تاريخي، والتقليد يريدنا أن نعلم أنه كان قريباً من بيت أسبارطة الملكي، وأنه تلقى من الآلهة أنفسهم القوانين التي أعادت تنظيم «لاسيديمونا المتمنطقة

بالهضاب المحببة إلى النفس»، هذا ما يقوله هوميروس. وتشكلت أسبارطة، المدينة «المتناثرة» من اتحاد قرى خمس كانت تنتشر في سهل مشمس على ضفتي نهر ايروتاس، وعلى سفح جبل تايجيت القاتم المكللة قممه بالثلوج الأبدية، وهناك كانت تقيم واحدة من القبائل الدورية على أثر غزو البيلوبونيز، كما هو حال الآريين، إلى حد ما، في وادي الأندوس (نهر السند - م -).

ونصَّبوا أنفسهم أسياداً على البلاد، فلم يستسيغوا، وقد تغلبوا على أهل البلاد، العمل هم بأنفسهم، فاستعبدوا المغلوبين، وأسموهم الهيلوت، نسبة إلى مدينة هيلوس التي دكوها دكاً، وأتوا على الأخضر واليابس فيها. و لم يُبدِ الأسبارطيون إلا قليل اهتمام بما كان يجري بين هؤلاء الرجال والنساء من العبيد المستعبدين، و لم يداخلهم القلق لا من أخلاقهم ومعتقداتهم، ولا من علاقاتهم الغرامية، شريطة أن ينجز هؤلاء الهيلوت ما خصص لهم من أعمال، وأن يسلموا نتاج أعمالهم إلى أسبارطة. إضافة إلى ذلك كان الهيلوت ملزمين بالخدمة العسكرية، فإن هم رفضوا ذلك حكم عليهم بالموت، أما إذا برعوا في الحرب وفنونه، فمن الممكن أن يفوزوا بحرياتهم، ولكنهم، مع ذلك، لا يصيرون أسبارطيين، أي أعضاء في طبقة الأسياد، المفضلة عند الآلهة. إن كل تقارب وكل مؤاخاة بين الهيلوت والأسبارطيين يعدان جريمة. وإضافة إلى الهيلوت كان يوجد في مملكة أسبارطة، التي ما برحت تمتد وتتسع، البيريبك (المرتدون).

وكان مرخصاً لهؤلاء العمل في الحقول، ورعي قطعان الماشية في القرى الجبلية أو في أطراف الدولة على الحدود. وكان بمكنتهم ممارسة التجارة ومختلف المهن إن هم دفعوا ما كان يفرض عليهم من ضرائب، وخضعوا لفروض الخدمة العسكرية. ولكن كان عليهم ألا يتمتعوا بما منحوا من حريات إلا فيما بينهم، فكان يحرَّم عليهم أن يرتبطوا بمصاهرات مع الأسبارطيين وإلا كان جزاؤهم الموت، مثلهم في ذلك مثل الهيلوت.

لم تعد تحلو له منذ فترة طويلة، فها هوذا في المغارة المقوسة يرقد ليلاً بجانبها وقد خلا فؤاده من كل حب «والإلاهة الولهى تلزمه باحترامها وولائه لها».

هل كانت كاليبسو تنوي الثأر لنساء أغتصبن فأذعن لرغبات أوليس وصحبه الآخيين؟ أم أنها كانت تشبع رغباتها الليبيدية (الشهوانية) النهمة مع أفضل رجل يمكن لها أن تقابله؟ وهل كانت تنحو منحى نساء الأزمان الغابرة اللائي كن يستسغن السيطرة على الرجال؟ أم أنها كانت رمزاً للرجال وعبرة تدعوهم إلى عدم الخضوع للنساء؟ إن كل من كان يتمتع بأفضال النساء ومحاسنهن يخاطر بأن يصير عبداً تكبله أغلال الحب، مثله في ذلك مثل صاحبنا البحار القوي الشكيمة، ضحية فحولته الطاغية، الذي انتهى باستنزال اللعنة عليه. سمحت كاليبسو لأوليس بالرحيل، ومع ذلك فإنه لن ينجو من قدره، صحيح أن دهاءه وحضور بديهته عادتا عليه بالنفع، فتخلص من كهف السيكلوب (عملاق بعين واحدة) بوليفيم، بعد أن فقأ له عينه الوحيدة وحرقها، وصحيح أنه نجا بنفسه عندما تهددته مخاطر أخرى عديدة، من بينها غناء عرائس البحر الوحشيات الشديد الأذى، لكنه اضطر، مع ذلك، أن يسلخ من عمره سنة بكاملها في خدمة حورية الماء العذب سيركه الفاتنة، قبل أن توافق على إطلاق سراحه لينتهي به الأمر ويجنح إلى بلاد الفياسيان، وهناك تولهت به العذراء ناوسيكا ولهاً شديداً، فاضطر الأب إلى عرض يد ابنته على الغريق الذي أنقذوه.

أثمة حب جديد سيكبله؟ أم إن إرادة امرأة ستستعبده مرة أخرى، فتلزمه، مقابل استسلامها له، بالتنازل عن طموحات الفحول من الرجال؟ ولكن أوليس سيد المخادعين بلا منازع، سينقذ نفسه هذه المرة بالنطق بالحقيقة، فقص على أبي ناوسيكا رواية قدره، فرق الأب لحاله، وأطلق سراحه، وسمح له بالإبحار إلى ايتاكا.

ها هو المسافر المجتهد يؤوب إلى دياره، ولكن هل هو يا ترى رب هذا البيت حتى الآن؟ إنه يبحث عن مأوى يؤويه، فيلجأ إلى خص (كوخ من قش) راعي خنازيره، لأن في قصره عشرين من طالبي الزواج يرتعون ويقصفون،

ويطمحون جميعاً إلى الزواج من امرأته بنيلوبا، لكنها لم تمنح محاسنها إلى أي منهم، ورفضتهم جميعاً دونما استثناء، ثم راحت تماطلهم، فادعت أنها «سوف ترجئ البت في هذا إلى ما بعد إعدادها كفناً لوالدها الشيخ المشرف على الموت. وإذا كانت بنيلوبا غير جادة فيما اعتذرت به وكان هذا منها حيلة، فقد أخذت تنقض في ليلها ما نسجته في نهارها من غزلها الذي اتخذت له مكاناً قصياً حتى لا تقع العيون على ما تفعل، وحتى تكون بعيدة عن صخب المختلفين إليها وضجيجهم، إذ كانوا يملؤون عليها البيت، يطعمون ويشربون ويلهون صخباً وغناء، حتى إذا ما لعبت الخمرة برؤوسهم كادوا تتخطفها عيونهم».

وسلّم أوليس - ومن كان معه ممن يصغون إلى رواية مغامراته البطولية - بأن سعادة الإنسان، حتى أكثرهم ذكاء وفطنة، وأوسعهم حيلة، وأعظمهم موهبة، منوطة بدوام حب الزوجة له، حب عاشقة مخلصة وفية، إن الذي يخسر حب زوجته معرض أيضاً لفقدان كل أملاكه، ليس ما يملك فحسب، بل أملاكه ومعها أسرته أيضاً. ولا مراء أن بنيلوبا ربت وليدها كما لو كان الأب حاضراً أبداً كي يترعرع ويشب جديراً بأبيه، ومع ذلك، لم يكن من السهل على القادم الجديد، بعد أن قتل طالبي الزواج المتغطرسين جميعاً، أن يهدئ من روعها ويقنعها بأنه زوجها فعلاً وحقاً، ذلك لأن الزمن والأحداث قد غيرته، في حين مازالت هي على حالها، فكان لزاماً عليه، والحال هذه، أن يجهد في الفوز بها من جديد.

يهيمن على قصة تيهان أوليس وعودته إلى الديار، على امتداد الأوديسة، انتصار المرأة وتأكيد سيادتها في ميداني الحكمة والمتع الجسدية.

كثيرات هن النساء اللواتي لم يسلكن، إذا ما غاب أزواجهن، سلوك بنيلوبا الذي لم تشبه شائبة، فحصدن شرور أفعالهن. وهذا ما يكشفه لنا مصير كليتمنسترا. لقد خانت زوجها وغدرت به مع ايجيست (ايجستوس)، وهي لم تشأ، وقد عاد زوجها، هجران عشيقها، فقتلت وايجيست زوجها اغاممنون «في حمامه اللذيذ الدافئ، حمام العودة إلى الديار» وقتلا معه كاساندرا التي عاد بها

هل كانت الأمازونات حقاً سليلات نساء قبائل السكوذيون (سكيثيون) اللائي ورثن حمية الرجال فأقاموا شكلاً من أشكال المجتمع الأمومي؟ أم ان هؤلاء المحاربات قد قدمن من آسيا الصغرى واتحدن تحت حماية الإلاهة ارتيميس للتحرر من وصاية الذكور على ألا يخضعن، في أي شيء كان، للجنس القوي؟ وهل الأساطير وسير الأبطال في روايتها لمعارك الأمازونات تستعيد ذكرى صراعات قديمة وقعت ضد قبائل البوادي الآسيوية ذات البنى الأمومية. لقد أُسند إلى الأمازونات إدارة أقدم معبد من معابد الإلاهة ارتيميس في افيسيا «Ephése». وقد شاء التقليد ألا تتفرغ النسوة للأعمال المنزلية ولا للعناية بالأطفال، بل كان يخلو لهذه الأعمال ماكن قد اخترنه من الرجال لكي يشاركوهن الفراش ويعملوا على خدمتهن، فلا يمكن، لمثل هذه القوانين، المتناقضة كلياً مع أخلاق الآخيين وأعرافهم، أن تكون محط ثناء الخلف وتقديرهم، وعليه فقد كان من الضروري أن ينتصر آخيل وصحبه في المعركة وأن يقطعوا دابر هؤلاء النسوة اللائي اغتصبن سلطة الحرب وقيادتها. إن العالم الإغريقي عالم يخص الرجال وحدهم، فهم الذين يشغفون بالنساء ويغوونهن، وهم الذين يتزوجون بهن مقابل مهر مناسب، وهم الذين يصفحون عن خياناتهن وفي الوقت الذي يشاؤون، مثلما صفح مينلاوس عن الجميلة هيلين بعد سقوط طروادة. وكان لابد أيضاً من أن تكون الحسناء لطيفة ومحببة إلى النفس مثل هيلين. لقد كشفت تلك الحسناء عن «نهدين كاعبين كما التفاحتين» وعرضتهما لزوجها المسحور بمرآهما، وهي تقسم، ويدها فوق قلبها، أنها كانت تعاني آلاماً مبرحة أنزلتها بها أفروديت: «إنها افروديت التي حملتني إلى هناك، بعيدة عن وطني وعن ابنتي وعن فراش زواجي، وعن زوجي الكامل النبيل، النبيل في جسمه، والنبيل في روحه».

كرست الأوديسة، وهي تتمة الإلياذة، لرواية مغامرات أوليس الواسع الحيلة وأوبته إلى دياره، لم يكن المقصود بها قطعاً ملحمة بطولية تروي مآثر ذاع صيتها لتمجيدها، بل قصد بها وصف ماعاناه أوليس وكابده، والمخاطر التي

تتهدد حتى المنتصرين الذين ... نقوم به الزوجات أثناء غيابهم، فهل كن مخلصات يا ترى؟ أم أنهن ... يسعين وراء الرجال لبحظين ... ومن كان بمقدوره، بعد مرور سنوات طوال، التنبؤ بما كان يجري في الوطن؛ ... الممكن المستطاع أن ينقض ... الوطن أعداء متغطرسون وقحون، كما انقض الآخيون أنفسهم على المدينة ... وعلى العديد من المدن والأقطار. وهاهو أوليس يروي بلا حياء ... ساعة السلب والنهب لم يوفر أحداً، بل راح يتبجح مفاخراً ... «... حينذاك فتكت بالمدينة وذبحت أهلها، لكننا تقاسمنا الصبايا وكل ثمين بانصاف» فليس من المتعذر إذن أن ينقض على مدينة إيتاكا Ithaque ... التهالكين تهالكه، فيختطف زوجته بينلوبا ويغتصبها، ويقتل ... ثم ابنه تيليماك Télémaque (تليماخوس)، ... كلها، ... الأخضر واليابس.

كان الغم والحنين يلازمان أوليس في جولاته وتيهاناته، وكادا أن يجهزا ... شجاعته لولا مبادرة أثينا، إلاهة الحكمة، وحمايتها له. في المعركة أقام الدليل على مروءته وعنف رجولته، ومن الصعاب والمكائد مهما بلغت كان يتخلص بواسع حيلته، ومن سار على هدي مشورته دل على عظيم نباهته. كانت قد تكشفت عن أوليس، أثناء الحرب، فنون الحيلة و ... والكتمان، فارتفعت به إلى مستوى المواقف قاطبة، ومنحته تفوقاً جلياً على محدثة مهما بلغت فصاحته. أما الآن، وقد غرقت سفينته لتتقاذف رجولته أنواع شتى من المحن، فإن عليه البرهان على أصالة معدنه. ولولا مساعدة أبي الآلهة وعونه لم يكن في وسع ... التي كان يحلو لها الإشادة بـ«الداهية الأريب ذي المكائد التي لا تخيب»، أن تخلصه من محنته يضوي فيها ويدنف سنوات مديدة. والحقيقة هي أن أوليس وجد نفسه رغماً عنه، والضرر الذي أصابه، عاشقاً للإلاهة كاليبسو، سيدة الجزيرة التي آل إليها. فكانت له معها حياة لا أحلى ولا أعذب، ولكن الحورية

يبدو أن هذا التمييز العنصري الظالم لمختلف الطبقات كان ذا نفع، لولا وجهة نظر محددة، وهي ان الهيلوت والبيريك كانوا يتكاثرون بشكل خطير، فعلى الرغم من ضروب النواهي السياسية والاجتماعية المفروضة عليهم، فإن هؤلاء العبيد ضاعفوا من أعدادهم حتى إن الإسبارطيين لم يشكلوا أكثر من عشر عدد السكان الإجمالي. ولكي يفرضوا إرادتهم على هؤلاء الرعايا، بل ولكي يتغلبوا على جيرانهم أيضاً، كان لابد لهذه الأقلية من الأسبارطيين أن تزداد جلداً وقسوة إلى حد يمكّن الإسبارطي من الصمود بمفرده أمام عشرة من خصومه، بل وأكثر من ذلك. وكان في ذلك ضرورة لا مناص منها لطبقة الأسياد إذا ما أرادت الاحتفاظ بسيطرتها والتوسع بها. وقد استوجب ذلك خضوع الرجال والنساء لقواعد أخلاقية تدفع عنهم كل أشكال التخنث، وتعزز لدى كل فرد منهم كمال نموه الجسماني وصلابة بنيته وجلدها. فواظب الأسبارطيون على الفكرة القائلة: إنهم يصنعون من أسبارطة مدينة «الأخيار».

إن الكلمة الإغريقية المرادفة لـ«الأفضل» هي «أريستوس Aristos». لقد أعلن ليكورغ ان الأرستقراطية، حكم الأفضلية (النخبة)، يجب أن تقوم على الكفاءات الخاصة بالصفوة، وإن تناسلاً يحكمه العقل لابد أن يخلق مواطنين مؤهلين للخضوع لنظام صارم، وراح ليكورغ الذي كان يسخر من الغيرة ومن احتكار الأزواج يقول: «... إنه لمن بالغ الجنون والعمه الأعظم أن نقتدي بقوانين أناس آخرين، فيناهم يستجلبون أفضل الفحول لسفاد كلباتهم وأفراسهم، مقابل تعويضات يدفعونها للمالك، أو كلمات طيبة يمتدحونه بها، نراهم يوصدون الأبواب على نسائهم، ويسهرون على رقابتهن، ليختصوا بهن في إنجاب أولادهم، حتى لو كانت نفوس هؤلاء الرجال مضطربة مختلة، وأعمارهم بالية، وأجسامهم واهنة عاجزة».

كان على زواج الأسبارطيين أن يرتكز على قوة الزوجين وعلى صحتهما، وكان يقال عن الزواج هاربازين، والمعنى الحرفي للكلمة «الإمساك، السيطرة».

فعلى الأسبارطي أن يمتلك الفتاة التي وعد بها عنوة واقتداراً، والفتاة بدورها عليها أن تعنف في مقاومة فتاها، فبقدر طول مقاومتها، يعظم شأنها في نظر من اختطفها ليخصبها، والاتحاد الجنسي لا يهدف إلى اللذة وإنما يرمي إلى الإنجاب. ومع ذلك إذا ظهر على الوليد، الحديث الولادة، تشويهات خلقية، ولم يبشر بأسبارطي رياضي أو بأم قوية، حقَّ للوالد أن يقتله، بل وكان يؤتى به، فضلاً عن ذلك، أمام مجلس من مجالس الدولة مكون من مفتشين، فإذا ظهر أن الطفل مشوه ألقي به من فوق جرف في جبل تايجيت ليلقى حتفه على الصخور القائمة في أسفله. وكان ثمة وسيلة أخرى للتخلص من ضعاف الأطفال نشأت من العادة التي جرى عليها الأسبارطيون، وهي تعويد أطفالهم تحمل المشاق، والتعرض لمختلف الأجواء. فكان يجب ألا يعيش سوى الأفضل، ولا يكبر ويجامع إلا النخبة لإنجاب الصفوة المختارة.

كان البوليس السري المسمى كريبتيا Kryptéia يُكره آباء المراهقين والمراهقات على عدم القبول بتزويج أبنائهم إلا إذا كان هذا الزواج يبشر بإنجاب ذرية نبيلة. فلم يكن ثمة احتفالات زفاف، ولم تكن العروس تشترى، وليس ثمة مهر ولا بائنة. يروي بلوتارك إن ليلة الزفاف، على أية حال، لا تبدأ على الدوام بالشجار: «كان الزواج يتم باختطاف الفتى لصبية بالغة غير صغيرة اكتمل بلوغها، وصارت أهلاً للزواج، وكان هناك ثمة خادم مهمتها الاعتناء بالعروس، فكانت تستقبل المختطفة، وتقص شعرها، وتلبسها ثياب الرجل ونعليه، وتضعها على محفة من قش، لتتركها وحيدة في العتمة، ويدخل العريس الشاب بكامل وعيه غير ثمل، وغير منهك بالقصف، بل هو لم يدن من الشراب قط، ولم يأكل إلا ما اعتاد أن يأكله في يومه مع صحبه جلساء المائدة، ليندس خلسة إلى جانبها، ويحل حزامها، ويحملها إلى مضجعه وبعد أن يمضي معها وقتاً قصيراً، وبعد أن يجامعها (يواقعها) يغادرها باحتشام، لينام في مكانه المعتاد برفقة شبان آخرين. وكان يكرر في غده ما قام به في أمسه، يمضي نهاره بين رفاقه وينام معهم ليزور

عروسه سراً باحتراس وحيطة شديدين، لأنه كان يستحي من افتضاح أمره ويخشى أن يضبطه أحدهم في منزله. وكانت العروس تساعده في تحقيق مقصده، وتعرف على الدوام تدبر أمر اجتماعهما في الوقت المناسب ومن دون علم الآخرين، وهكذا تتكرر لقاءاتهما السرية مدة طويلة، وقد تمتد هذه اللقاءات حتى يغدو الشاب أباً لعدد من الأبناء من دون أن يرى زوجته في وضح النهار. إن زواجاً كهذا كان لا يساعد في التدرب على التعفف والاعتدال فحسب، بل كان يعزز الإخصاب أيضاً، لأن الأزواج والزوجات كانوا يتعانقون بشوق شديد دائم الجدة والنداوة، ماداموا يحتفظون بعد كل لقاء بجذوة من نار المودة والحب المتبادلين، بدلاً من أن يرتووا فيسقمهم الوهن بتكرار المتعة وتواترها». ولكن الحنو والحب لا يوحدان ولا يقيدان هؤلاء الأزواج الذين يمتلكون بعضهم بعضاً في الظلام. وكان من الشائع أن يشارك الإخوة والأقارب أو الأصدقاء الأزواج في نسائهم، ليكونوا من ثم على ثقة تامة ان الحمل قد تم، وان الدولة ستجني ثمار هكذا اتحاد. ولم يكن من اللائق إدانة علاقات الأخيار مع الأخيار الجنسية وتجريمها بالزنا. وليس من المقبول إطلاقاً هجران الزوجة للزواج بأخرى أكثر شباباً وجمالاً، فما أن يقع الاختيار حتى يكون اختياراً قاطعاً ليمتد العمر كله. إن كل شخص يرغب في قليل من اللهو ما عليه إلا التوجه إلى إخوته وأقربائه أو أصدقائه: فإن وجدوه جديراً، وجد هو نفسه، بين أحضان زوجاتهم في العتمة، ما كان يبتغيه من لهو ومتعة (شريطة أن يخدم في لهوه هذا الإنجاب).

وهذه العتمة التي تكتنف الضم واللمس والوصال كانت مجرد إجراء شكلي، وتقليد متبع، وقاعدة من قواعد آداب السلوك الخاصة بالعلاقات الجنسية، لأن الرجال والنساء لم يألفوا الحرج من التعري المتبادل، كانوا يتخالطون وهم عراة، وكان من المألوف أن يشارك الجنسان في الرقص والاحتفالات العامة دونما ثياب حتى أخفها تستر أجسامهم: فالفتيات يرمين إلى منح الرجال فرصة التعرف على أجسادهن، وتحريضهم على الاختطاف الزفافي،

والرجال لأنهم كانوا يجهلون كل مظاهر الحياء لاعتيادهم على الظهور عراة في الألعاب والتمارين الرياضية منذ نعومة أظفارهم. وحدهم الرجال العازبون لا يحق لهم حضور المواكب العامة التي يرقص فيها الفتيان والفتيات عرايا، حتى ان العزاب أنفسهم كانوا يُرغمون على أن يمشوا بين الجماهير عرايا صيفاً وشتاء ينشدون نشيداً فحواه أنهم يقاسون هذا القصاص العادل جزاء لهم على مخالفة قوانين البلاد. وكان الذين يصرون على عدم الزواج عرضة لأن تهاجمهم في أي وقت من الأوقات جماعات من النساء يؤذينهم أشد الأذى. ولم يكن العار الذي يلحق بمن يتزوجون ولا يلدون ليقل كثيراً عن العار الذي يُلحق بالعزاب، إن لم يستطيعوا بفضل شهود مخولين إثبات أن العجز عن الإنجاب لا يعود إليهم، بل يعود إلى عقم نسائهم، وكان المفهوم ان من لا أبناء لهم من الرجال غير خليقين بذلك الإجلال الديني الذي يقدمه الشبان الأسبارطيون لمن هم أكبر منهم سناً.

وكان على الأولاد مغادرة البيت الأبوي في سن السابعة لتتكفل الدولة بتربيتهم في زمر وجماعات، فكان القيم على الأولاد (بايدونوموس) يشرف على التمارين التي تساعد في تقوية عودهم، وتمنحهم قوة ومقاومة استثنائيتين. فكان المراهقون ينامون ملتحفين السماء في كل الأجواء. ولم يكن للمرض ولا للتعب أن يبررا فتور همتهم، إن من يضعف في مواجهة المشاق منذ حداثته سيغدو، وقد نضج وبلغ، عاجزاً عن مواجهة كل موقف، وقاصراً أمام كل صعب، كان الجلد والشجاعة والاستعداد لتحمل أسوأ المشقات، هدف التربية الأسمى. إن أدنى علامة جبن كانت عاراً وشناراً، ولكي يتعلم الأولاد تحمل الألم بصمت، كانوا يُجلدون بالعصي والسيور الجلدية حتى ينزفون، ففي كل عام كان يجلد جهاراً وعلى رؤوس الأشهاد، أمام مذبح الإلاهة أرتيميس، عدد من تلاميذ النخبة المتفوقين في المنافسات الطقسية: الجري والملاكمة وقذف الرمح أو رمي القرص، وعندما ينزفون وتخضب دماؤهم الحجارة دون أن تصدر منهم نأمة من شكوى، يكونوا قد اجتازوا الاختبار النهائي. وكانت إلاهة هذا المذبح العذراء تدعى

«ارتيميس المنتصبة»، ويقال إنها استحقت هذا النعت، المشتق من الكلمة «أورتوس» (منتصب)، لأنها كانت تعاقب الفتية البالغين بجلدهم بالسياط عندما تبدأ أعضاؤهم الذكرية بالانتصاب مهدِّدة عذرية الفتيات، هذا التفسير يؤكده التقليد الذي يلزم الغلمان والبالغين، إذا ما أقيمت حفلات الرقص وبدأت التمارين الرياضية العامة، بسحب الحشفة قدر المستطاع وعقدها برباط، منعاً لاستثارة الرغبات الجنسية وما تلحقه هذه الاستثارات من أضرار بنتائج المباريات البدنية. وقد جرت العادة أن يرتبط المراهقون بعلاقات حميمة مع رجال بالغين. ففي معسكرات المضارب وجماعاتها التي يدخل في عدادها، ليس جماعات الأولاد أثناء تربيتهم فقط، بل الأسبارطيون كافة منذ بلوغهم سن الثلاثين حتى الستين من العمر أيضاً، كانوا يرتبطون بصداقات ذكورية تؤدي بالضرورة إلى علاقات أكثر حميمية وأرق من العلاقات الزوجية القسرية. كانت قوانين ليكورغ صريحة وقاطعة: «... وما من أحد يستطيع أن يصير مواطناً صالحاً إذا خلا مضجعه من الصديق» وقد عبر خصوم اللواطة عن تشككهم في صحة هذا الزعم، في حين كانت اللواطة في أسبارطة تفرض نفسها طبيعياً لأنها تسهم في تكوين الشباب اجتماعياً وعسكرياً.. وقد زعم بلوتارك أن ما يتسبب به جمال المراهقين من اكتفاء جنسي لدى الكبار لا يستثير رغبات ليبيدية (شبقية) ولا يدفع إلى اتصال جنسي، وبالمقابل، فإن كل بالغ يغتصب غلاماً أو مراهقاً تحت الحماية يفقد شرفه وتسوء سمعته.

إن ما بحوزتنا من علاقات تدور حول المودة المتبادلة بين الرجال والمراهقين تثير تفسيرات كثيرة ومتنوعة تبعاً لوجهة نظر كل فرد، فمنهم من يتحامل على اللواطة لأن فيها مظان وأحكام مسبقة، ومنهم من يرى فيها رؤيته للعلاقات الجنسية الغيرية، فمن الممكن أن تصدر من غريزة طبيعية سوية.

وهكذا فإن أفلاطون ينفي أن تكون المودة المجردة من الجنس فكرة مقبولة، وثمة مؤلفون آخرون، في المقابل، يعتقدون أن بوسع رجال أسبارطة أن يعجبوا

بجمال الأولاد ... بجمال التماثيل، وإن العديد من الرجـال يتعلقـون بمراهـق واحد، وأن مراهقاً واحداً يتعلق بالعديد من الرجال مـن دون أن يصلوا بتعلقهـم هذا حد العلاقات الجسدية. فلا الأعمال التشكيلية ولا الوثائق المخطوطة تسـمح لنا بالكشف عن شكل التقارب الجسدي أو العلاقة الجنسية التي بلغتهـا مسـاكنة البالغين والمراهقين في أسبارطة. ومع ذلك فإن ما كان يتمتع به الرجال والنسـاء من حريات في علاقاتهم الجنسية تسمح لنا بأن نخلص إلى أن الرجـال لم يفرضـوا على الرجال أي حظر كان، وانهـم لم يسلّموا قيادهم إلا إلى غرائزهـم. وكـان لابد للصداقة المشبوبة العاطفة، التي كانت تنشأ بين الرجل والحدث قسراً، عندما يُعجب الأصغر ويتمنى الاقتـداء بالأكـبر، وعندمـا يجهـد الأكـبر في إتمـام تثقيـف الأصغر، من أن تؤدي في أغلب الأحيان إلى تقارب جسـدي. إن حيـاة التقشـف الطوعي لا تستثير رغبات شهوانية قطعاً لأنها تحول بينهم وبين ما ينشأ في عهـود السلم من تدهور وانحطاط، فكان يحرم عليهـم «أن يقضـوا حيـاتهم في البيـوت، وأن يناموا على الفراش الوثـير، ويطعمـوا الطعـام الشـهي، ويسـلموا أنفسـهم إلى أيدي أمهر الطهاة، يتخمونهم في أركان الدور كما يتخمون الحيوانات الشـرهة، فلا يفسدون بذلـك عقولهـم فحسـب، بـل يفسـدون أجسـامهم أيضـاً، فـإذا مـا انحطت قواهم بسبب الانهماك والافـراط، أصبحـوا في حاجـة إلى النـوم الطويـل والاستحمام بالماء الساخن والتحرر من العمل؛ وجملـة القـول أنهـم يصبحـون لا يعنون بعمل شيء ولا يشرفون على شيء وكأنهم مصابون بعلة دائمة لا يبرؤون منها». ولم تكن تلك طريقة الأسبارطيين، فحياة التقشـف ونكـد العيـش كـانت واجباً مفروضاً على الأسبارطيين جميعاً بلا استثناء، وكان لابد من تعليـم الأولاد الحرمان وقهر الذات، وكان محظراً على الرجال شرب الخمور والـتزين، فـالجميع يرتدي الشملة نفسها وقميصاً من الصوف للوقاية من تقلبات الجو، فللثياب نعـم وأما للحلي والزينة فلا، لأن كل فائض عن الحاجة كان مقيتـاً، فكـان لابـد مـن ترسيخ الاعتدال والقناعة في أذهان الفتية، والسعي حصـراً إلى جعلهـم أشـد قـوة

وأكثر حيوية وأعظم شجاعة من البيرييك والهيلوت الذين يحكمونهم، ومن رجال الدولة المجاورة التي تحتم عليهم منافستها في الحرب وفي المباريات الرياضية.

إن إيديولوجية هيمنة الأخيار (النخبة) كانت تفرض على الرجال حياة بائسة بما فيه الكفاية، على الرغم من احتفاظهم بالسلطة المطلقة في المملكة الأسيديمونية... والأكثر سعادة هن النساء اللائي كن «يتدبرن بأنفسهن شؤون بيوتهن»، كان مركز المرأة في أسبارطة بصفة عامة خيراً منه في أي مجتمع يوناني آخر، فقد احتفظت فيها أكثر من سائر المدن اليونانية بمكانتها الهوميرية العالية وبالمزايا التي بقيت لها من أيام المجتمع القديم الذي كان الأبناء فيه يُنسبون إلى أمهاتهم.. ومع ذلك يقول بلوتارك إن النساء الأسبارطيات كن يمتزن «بالجرأة والرجولة وبالتشامخ على أزواجهن.. وكن يتحدثن بصراحة حتى في أهم الأمور»، وكان من حقهن أن يرثن ويورثن، وقد آلت لهن على مر الوقت نصف الأملاك الثابتة في أسبارطة بفضل ما كان لهن من سيطرة قوية على الرجال. وكن يعشن في بيوتهن عيشة الترف والحرية، على حين كان الرجال يقاسون أهوال الحروب التي لا تنتهي أو يطعمون الطعام البسيط مع سائر الرفاق؛ ولقد تعودت النساء كما الرجال على الجلد منذ طفولتهن، ماخلا لزومهن المنزل الأبوي، فالنساء، بعد الزواج، مرخص لهن القيام بما يحلو لهن، فكان باستطاعتهن التلذذ بما يفضلنه من الطعام، وارتداء ما يروق لهن من الثياب وما يستثرن به شهوات الرجال. وهكذا فقد أبدعن دُرْجة التنانير المشقوقة، وكانت القلة القليلة من الأجانب الذين استطاعوا زيارة أسبارطة يعاملون النساء «عارضات الأفخاذ» باحتقار. لقد فازت المرأة الأسبارطية بأوسع النفوذ، فأثرت في الأعمال العامة، وفرضت كلمتها في المسائل الجوهرية، وراحت إضافة إلى ذلك، تقلد أخلاق الرجال اللوطية. يذكر بلوتارك أن الحب بين النساء في أسبارطة كان أمراً مألوفاً وشائعاً: وهكذا انتهى الأمر ليترسخ في أسبارطة، المغرقة في الذكورة حسب زعمهم، شكل بديل عن النظام الأمومي القديم.

وبقي تشريع ليكورغ على حاله لقرون عدة دونما تبديل يذكر، ممتنعاً عن كل تطور؛ ولقد ترسخ نهائياً ان على الأسبارطيين كافة، رجالاً ونساء وأطفالاً أن يعيشوا على الدوام في حالة استنفار مقيم «استعداداً للأسوأ». وكان الموت في ساحة الوغى هو الشرف الأسمى الذي يستطيع الأسبارطي بلوغه، والسعادة الأكمل التي بمقدوره أن يؤول إليها. كان الأسبارطي يعيش ليموت، في حين كان الأثينيون يمتدحون «ليس الحياة فحسب، بل الحياة الجميلة والرغيدة أيضاً». إن التعارض بين أخلاق الدوريين وأخلاق الايونيين المتجسدة في أعتى تشكيلتين سياسيتين على الأرض الإغريقية، أسبارطة وأثينا، تخف حدته في جزر المتوسط وشواطئه التي يقطنها أحفاد الدوريين والأيونيين معاً، وهناك تغلّب حب التمتع بمباهج الحياة الطبيعية لدى المهاجرين الدوريين غير المتكيفين مع الشروط الجديدة على ما كان لهم من عادات وأعراف في وطنهم الأم، فتشبّه الدوريون خارج القارة الإغريقية بالأيونيين واندمجوا معهم، ليستفيق فيهم حب الحياة الذي كانت تكبته في أسبارطة الرغبة في موت كريم. إن البغضاء المخبوءة التي تكنها الدولة الأسبارطية والأثينية أخرت من دون أن تمنع اندماج اليونان كلها في وحدة هيلادية (هيلاد = هيلاس = وسط اليونان، ويقابلها البيلوبونيز = اليونان كلها لاحقاً ـ م) هيمن عليها حب الحياة.

ولم يكن اكسانوفون يمل من الثناء على أساليب الأسبارطيين، كما لم يكن أفلاطون وأفلوطرخس يملان من الثناء عليهم. ولا حاجة إلى القول بأن أسبارطة هي التي وجد فيها أفلاطون الخطوط الرئيسة لمدينته الفاضلة، التي طمس معالمها بعض الشيء إغفاله العجيب للمثل العليا. وشرائعها بعد أن ملوا ما في الديمقراطية من انحطاط وفوضى وأوجسوا في أنفسهم خيفة منها.

والحق أنهم كانوا يستطيعون الثناء على أسبارطة لأنهم لم يضطروا إلى المعيشة فيها، ولم يروا عن كثب ما في أخلاق الأسبارطيين من أنانية، وبرود، وقسوة، ولم يتبينوا ممن يرونهم من الصفوة التي التقوا بها منهم، أو من الأبطال الذين يمجدونهم عن بعد، ان الشرائع الأسبارطية كانت تخرج جنوداً بواسل ولا

شيء غير الجنود، وانها جعلت قوة الجسم وحشية مرذولة لأنها أماتت الكفايات العقلية كلها تقريباً. ذلك أنه لما أصبح لهذا القانون المقام الأول في البلاد أصاب الموت فجأة جميع الفنون التي ازدهرت قبل سيادته، فلم نعد نسمع بعدئذ عن شعراء أو مثالين، أو بنائين في أسبارطة بعد عام ٥٥٠ق.م، ولم يبق فيها إلا الرقص الجماعي والموسيقى لأن فيهما يمكن أن يتجلى النظام الأسبارطي وأن يختفي الفرد ويضيع في المجموع. ولقد كان أثر حرمان الأسبارطيين من الإتجار مع العالم ومنعهم من الأسفار، وجهلهم بعلوم بلاد اليونان وآدابها وفلسفتها الآخذة في الظهور والنماء، أن أصبحوا أمة من الجنود المشاة المدرعين الثقال، لا ترقى عقليتهم فوق مستوى الذين قضوا في هذه الجندية حياتهم كلها: ولقد كان الرحالة اليونان يعجبون من هذه البسيطة الخالية من الرونق والبهاء، ومن هذا القدر الضئيل المقيد من الحرية، وهذه المحافظة الشديدة على كل عادة وكل خرافة، وفي الشجاعة التي كانت موضع الإجلال، وذلك النظام الصارم، وهذا الخلق النبيل، وذاك الفرض الدنئ الذي لا يؤدي إلى غاية. وعلى بعد لا يزيد على مسيرة يوم واحد على ظهور الجياد كان الأثينيون يشيدون من آلاف المظالم والأخطاء صرح حضارة واسعة المدى، قوية في أعمالها، تتقبل كل فكرة جديدة، حريصة على الاتصال بالعالم، متسامحة، متنوعة، معقدة، مترفة، مبتدعة، متشككة، واسعة الخيال، شعرية، مشاغبة، حرة، إن مابين أثينا وأسبارطة من التناقض هو الذي صبغ التاريخ اليوناني بصبغته المعروفة ورسم خطوطه الرئيسة.

إضافة إلى الرابطة الأسطورية واللغوية، عرف الإغريق هوى مشتركاً: الرياضة وفي مقدمتها الرياضة البدنية التي كانت تجري في الأولمبيا كل أربع سنوات. فكان الرسل قبل شهر من الشروع بالمنافسات التي كانت تقام على شرف زيوس أبي الآلهة، ينادون في المدن الإغريقية قاطبة مطالبين بوقف الاقتتال، لكي يتسنى للمتنافسين والمشاهدين الشروع بالسفر دون أن يخامرهم القلق، كما لو كانوا في حج إلى الأماكن المقدسة. وكان تعليق أشكال البغضاء والعداوات

كلها قبل الاحتفال وإبانه عادة مقدسة تعود إلى أزمان هو ميروس البطولية. فمن كان يبجل زيوس سيداً على العالم، ويحترم شرائعه ويمتثل لها، عليه أن يتجنب الغدر وإراقة الدماء. لأن القصاص الإلهي يضرب كل من ينتهك الهدنة الاولمبية. ولا تقوم المنافسة على المهارة والتفنن في ألعاب الحرب مثل السيف والقوس.. بل تقوم على الحيوية والخفة البدنيتين، محط احترام، ليس أسبارطة وحدها، بل الأصقاع الهلينية كلها أيضاً، بوصفهما شرطين لابد من توافرهما في كل محارب مقدام. وكانت كل مدينة توفد إلى أولمبيا نخبة من مواطنيها الفتيان، يتم اختيارهم لاتزانهم وقوتهم ولـ«روعة فحولتهم» أيضاً. ولم يكن بمكنة الجميع بلوغ ذلك، ولكن كلاً منهم كان يحظى بإعجاب الجميع وثنائهم لكمال جسمه. وقد جرت العادة أن يتدرب الأبطال المختارون للمشاركة في الألعاب على أيدي مدرِّبين رياضيين محترفين، وأن يؤدوا اليمين لزيوس جهاراً ويقسموا بأن يحترموا قواعد المباريات وأصولها. وكان على اللاعب أن يتصدى لخمسة ضروب من المنافسات، وأن يربح ثلاثاً منها على الأقل ليفوز من ثم بلقب بطل المباراة الخماسية. كانت المباراة تبدأ بالوثب الطويل من دون قوة دافعة، ويلي ذلك تباعاً رمي القرص، والقذف بالرمح، والجري حول الملعب، لتختتم المباراة الخماسية بالمصارعة من وسط الجسم. وينال الفائزون جميعاً أكاليل من أغصان الزيتون، فتلك كانت الجائزة الوحيدة المخصصة في الأولمبيا. ولكن المدينة التي حمل إليها الفائز شرف النصر كانت تحتفي بالبطل بمواكب الابتهاج والفرح، وتتدبر من ثم العناية به مدى الحياة. وقد خلدت الأغلبية العظمى من الفائزين بالجوائز فأقيمت لهم تماثيل تنسخ جمال أجسامهم المفتولة العضلات، وهكذا كان باستطاعة النساء حتى المتزوجات منهن والمحظر عليهن حضور الألعاب الأولمبية ومشاهدتها، تأمل هؤلاء الفتية الرائعي الجمال والقوة.

ولم تكن الفتيات ولا النساء، خارج أسبارطة، يشاركن في التمارين البدنية. إن كلمة «Gymnas» تعني العاري؛ فليس من اللائق إذن أن ترى النساء

رجالاً أغراباً في عريهم الطبيعـي، ولكنهـن نلـن كفـايتهن مـن الفرص فشـاهدن أشكالاً لا تحصى من أعضاء الذكورة، بتأملهن التماثيل والرموز القضيبية المنتصبة في الأحراش المقدسة، وأمام بوابات المدن، وأمام رموز اللـذة الجسـدية هـذه كـن يمارسن فروضهن الدينيـة، ويتضرعـن للآلهـة يلتمسـن إخصابـاً ميمونـاً، ويقدمـن الأضحيات بغية الفوز بحلول يوم مسـرات الجسـد. وكـن يحتفظـن أيضـاً بتمـائم منحوته على صورة برياب، هذا الإله القزم الداعر وليـد أفروديـت وديونيسـوس. وكان يحظر على النساء، تحت طائلة العقوبة الصارمة، اختـلاس النظـر إلى العـراة من المراهقين والبالغين المنكبين على تمارينهم البدنية مـن غـير مـآزر ولا شمـلات. كانت النسوة الإغريقيات مبعـدات عـن عـالم الرجـال، لقـد عهـد التقليـد بهـن وباطراد، إلى البيت الأبوي، ومن ثم إلى بيت الـزوج، ليعتكفـن أخـيراً في جنـاح الحريم داخل البيت، المكان الوحيد الذي أعد خصيصـاً لهـن، فلـم تكـن الزوجـة تدخل غرفة الزواج، ولا تدنو من المائدة المشتركة إلا إذا رغـب الـزوج في ذلـك وسمح به. فالزوج يمضي جـل وقتـه خـارج البيـت، ولم يـرض قـط بـأن تشـارك زوجته في المآدب التي كان يدعو إليها أصدقاءه.

كـانت الوجبـات اليوميـة متواضعــة، ولكــن الطهــاة المحــترفين، إكرامـاً للمدعوين، كانوا يعـدون مـا يقدمـه سـيد الـدار مما لـذ طعمـه وطـاب، وكـان المضيف نفسه يحافظ على ترتيـب الأطبـاق، ويراقـب طريقـة إعدادهـا، ويطمئـن باعتزاز إذا ما قيل له بأنه سيد بيت ممتاز؛ فبقدر ما تكون الوليمة فاخرة، والخمرة في الدنان رائقة، يغدق المدعوون المديح على المضيف، فلا يكتفي صاحبنـا بمـلء بطونهم، بل كان يشنف آذان أصدقائه ويطربهم، فهناك على مقربة منهـم يقـف عازفو وعازفات الناي والقيثارة يواكبون المآدب، وكأننا في احتفال عام، وهكـذا كان الأولاد والمراهقون يؤهّلون لفن الموسيقى، فليـس مـن اللائـق دعـوة فتيـات رخيصات إلى بيت فاضل. وكـان الجـو المحمـل بـالعطور النـافذة وروائـح الخمـر المتغلغلة في المكان، تستثير الحواس. وفي خضم هـذا الاحتـداد، كـان بمقـدور مـن

تملكته رغبة في الرقص آسرة أن يلهو مع الموسيقيين أو رفاق المأدبة من دون أن يخامره الخجل إذا ما تجاوز حدود الحشمة، مادامت المرأة غائبة عن المكان فتوجه إليه اللوم. و لم يكن الجنس الضعيف رفيقاً أنيساً يُفرِّج الغم ويُلقي على مسامعه نكات ماجنة أو يلعب معه لعبة الكوتابوس (هذه اللعبة الخفيفة تقوم على قذف محتويات القدح بمهارة، ومن مسافة معلومة، لتصيب هذا الشيء أو ذاك)، والنساء عاجزات عن تأليف الأشعار أو حل الألغاز، وأنى لهن تعلم ذلك، والمكان الذي نشأن فيه يخلو من كل أشكال الثقافة؟

وإذا وصل الخط من قدر الزوجات والإضرار بهن إلى هذا الحد في أثينا بل وفي اليونان كلها ماخلا أسبارطة، فإن هزيود، الفلاح البيوسي في مزرعة، قد تطرق في قسم من أشعاره إلى هذا الواقع؛ وكان لقصيدته المسماة تيوغونيا (نسب الآلهة) تأثير غير مألوف، ففي هذه الأشعار، التي كان ينشدها في المباريات الشعرية القروية، أكبر المستمعون بساطتها وحسها الديني، وقدم الشاعر من خلالها عالم آلهة الأولمب المختلف الألوان، وعرف أن يقارن فيما بين التجارب الإنسانية على الأرض وحركات الآلهة وسكناتها في السماء، وهذا مالم يفعله هوميروس. واكتسب هزيود شهرة شعبية واسعة بما كان يردده من حكم وأقوال: إن زيوس «راعي العدالة القدير» لا يحمي كبار القوم من البشر فقط، بل والحقير منهم أيضاً، الفلاح وما يعانيه من عناء وضنك، والأجير الرازح تحت سطوة سيده. كان هزيود، على مثال هوميروس، يروي ما ترتكبه الآلهة من فواحش وما تقوم به من مغامرات عاطفية عابرة، لكنه أضاف إليها تفاصيل مؤثرة تثير الشجون. فكان ينصح الرجال بالعدول عن الإقتداء بهذه الآلهة المفرطة في آدميتها؛ فعلى الرجال أن يمنعوا عن نسائهم ماهو مسموح به لآلهات السماء، و لم يستطع هزيود أن يقطع برأي في الزوجات، وما من شك في أنه كان عازباً أو أرمل، لأن من كانت له زوجة حية لا يتحدث عن المرأة بهذا الغل الشديد، نعم إن الشاعر يبدأ في آخر القطعة الباقية من قصيدته ثبتاً بأسماء النساء كله

...امة ر [illegible] لى مسامعنا قصص تلك الأيام الخوالي التي كان عدد البطلات [illegible] لا يقل عن عدد الأبطال وحين كانت أكثرية الأرباب من النساء، ولكنه يذ[illegible] في كتابيه الكبيرين في اغتباط الحاقد الشامت إن معظم الشرور التي في العالم من فعل بندورا الحسناء، وإن زيوس لما غضب على بروميثيوس حين سرق [illegible] السماء أمر الآلهة أن تخلق المرأة لتكون هدية يونانية إلى الرجل: «فأمر هيفستوس ان يمزج من فوره التراب بالماء وأن يهب المزيج صوت الرجل وقوته، وان يجعل وجه الفتاة الحسناء جميلاً كوجه الآلهات الخالدات. ثم أمر أثينا أن تعلمها كيف تنسج القماش المتين، وأمر أفروديتي الذهبية أن تنشر حول رأسها الرشاقة والشهوة الملحاح، والقلق الذي يتلف الأعضاء، ولكنه أمر الرسول هرمس أن يمنحها عقلاً كعقل الكلاب وأخلاقاً كلها ختل ودهاء. وأطاعوا كلهم زيوس.. ووضع رسول الآلهة في جوفها صوتاً جذاباً، وسمى هذه المرأة بندورا لأن كل الساكنين في البيوت الأولمبية قد أهدوا إليها هدية لتؤذي بها الرجال المبدعين»[1].

«ثم يقدم زيوس بندورا إلى إيميثيوس، وقد حذره أخوه بروميثيوس من قبول هدايا الآلهة، ولكنه رغم هذا التحذير يشعر بأنه لا حرج عليه من أن يخضع للجمال هذه المرة. وكان بروميثيوس قد ترك مع إيميثيوس صندوقاً خفياً عجيباً وأوصاه ألا يفتحه بحال من الأحوال. وغلب على بندورا حب الاستطلاع ففتحت الصندوق فطار منه عشرة آلاف شر أخذت تنغص على الناس حياتهم، ولم يبق فيه إلا الأمل وحده. ومن بندورا، كما يقول هزيود، نشأ جنس النساء الرقيقات، ومنها نشأت سلالة مؤذية، وتسكن طوائف النساء الشديدات الأذى مع الرجال وهن لا يُعنّهم على الفقر المدقع بل يعنّهم على التخمة، وبهذه الطريقة وهب زيوس الرجال نساء ليكن مصدر الشر والأذى».

---

[1] من قصة الحضارة ـ ترجمة: محمد بدران.

ثم يقول الشاعر المذنب بعدئذ في حسرة ولوعة ان العذوبة لا تقل شراً عن الزواج لأن الشيخوخة مع امرأة شقاء أيما شقاء، ولأن أملاك من لا ولد له تعود بعد موته إلى عشيرته [illegible] من مصلحة الرجل أن يتزوج ـ وإن كان عليه ألا يتزوج [illegible] الثلاثين [illegible] مصلحته أن يكون له أولاد ـ وإن كان الواجب ألا [illegible] ولد واحد حتى لا تنقسم ثروته بعد [illegible]

وفي [illegible] له «الأعمال والأيام» وبأشعار غير موز[illegible] يمتدح هزيود حياة الفلاح الذي يقتات، باستقامة، بما يجنيه من عمل [illegible] كان يعلّم الإنسان الحر: «إذا ماتوّج النضجُ فخر رجولتك، فخذ بيدك إلى بيتك زوجة راضية، وخير سن الزواج هي سن الثلاثين، فلا تنقص منها كثيراً، لا تزد عليها كثيراً؛.. واخترها عذراء حتى تطبع الأخلاق الطاهرة صدرها بطابع الحب القائم على الحكمة والعقل. ولتكن الهدية التي تهدى إليك فتاة من جيرتك معروفة لك، ولتكن حذراً غاية الحذر لئلا تسيء الاختيار فتكون أضحوكة لجميع من يسكنون حولك. وخير ما تهبه الحكمة الإلهية للإنسان امرأة جميلة فاضلة؛ وشر ما يصيب الإنسان زوجة صغيرة تقضي كل وقتها في الطعام والشراب. إن هذه المرأة لتحرق بغير نار متقدة جسمك الذي أنهكته المتاعب، وتشعل النار في عظامك القوية التي في داخل جسمك، وتسبب لك الشيخوخة وأنت لا تزال في عنفوان الشباب».

إن أمثالاً كهذه ستروق بالطبع للرجال؛ فالعفة واجبة على النساء الشريفات جميعهن، والتقيد بآداب الزواج وأعرافه يستحيل الخروج عليها، والرجل إذا ما طلب الزواج عليه أن يناقش موضوع قرانه مع أهله، أما زوجة المستقبل فتكاد لا تعرف طالب الزواج، فإن كان «الرجل المناسب» حصل على بائنة الفتاة. وآلت عقود الزيجات إلى صفقات بحتة، مما اضطر صولون، رجل الدولة الأثينية الأعظم، إلى استصدار قانون عاجل ليحول دون تحول الزواج «المكرس لإنجاب الأولاد واقتران الرجل بالمرأة» إلى قضية مالية، وندد أفلاطون

بعد قرنين من الزمان بالتعسف الجائر الذي يكره الخطيبين على ألا يعرف أحدهما الآخر قبل الزفاف إلا لماماً، ودعا إلى «اختلاط حر» يتم بين أزواج المستقبل لتجنب إخفاقات مابعد الزواج، فكان عليهم أن يتراءوا عرايا «بقدر ما تسمح به الحشمة واللباقة»، ولكن مثل هذا «الاختلاط الحر» للخطيبين يتعارض وما لأثينا من أعراف، فالرجال فيها يريدون من النساء الظهور بمظهر أمهات المستقبل الصالحات، فكان لزاماً عليهن أن يتحلين بالعفة والرزانة، وأن يبرعن في الأشغال اليدوية بأنواعها، سواء أكان ذلك لممارسة هذه الأعمال أم لتعليمها إلى خادماتهن، وكان يكفي أن تعنى الأم بأولادها وأن تحسن تربيتهم لتعد زوجة صالحة، كما كان عليها ألا تثلم شرف زوجها أو تحط من سمعته، كأن تظهر بمفردها في الطرقات مثلاً. وكان عليها على الدوام، وتلك كانت مسألة مهمة، أن تكون أصغر من زوجها بكثير، لأن قوة الرجال تدوم طويلاً، في حين أن نضارة المرأة تذوي سريعاً.

يُعد الشتاء من أفضل فصول الزواج وأحسنها. وكانوا يقدمون قبيل الزواج الأضحيات إلى كل من هيرا وزيوس مع الحرص على استئصال صفراء الأضحيات للربة أفروديت الذي يأتي في المحل الثاني. وما أن تبدأ أنشودة الزفاف حتى ينشأ الحب لا محالة بين العروسين؛ عندها سيفترع إله الزواج (Hymen = إله الزواج = زواج = غشاء البكارة ـ م) العروس ويسلبها عذريتها.

كانت النسوة في الماضي يدللن على قبولهن بالزواج بأن يتخلين عن حزامهن على مذبح المعبد، ويتناولن من ثم خبز الزفاف الطقسي. وفي ثيابها الزاهية الغنية بالألوان، ووشاحها الذي يغطي رأسها، تحتل مكان الشرف حول مائدة الزفاف بين الزوج وصديقه الأثير، وحيدة بين ثلة من الرجال. ثم يقودها المدعوون على ضوء مشاعل الزواج، ووقع غناء المنشدين، وأنغام الناي، حتى يصلوا بها إلى باب المنزل حيث ينتظرها فراش الزفاف الموشى بالأزهار والرياحين.

وكان على العروس الصبية أن تقاوم الخطيب إذا ما جتاز بها عتبة الدار محاولاً حملها بين ذراعيه. وما أن يغلق الباب من الداخل بالمزلاج، حتى تعلو أنشودة الزواج ترددها أصوات جهورية كيلا تطرق مسامعهم صرخات جذع العروس وآلام تضحيتها بعذريتها. وشيئاً فشيئاً يسود الصمت لتبدأ ليلة يكتنفها الغموض، وتضع حداً لصبا العروس وأيامها الخوالي، وهذا الغموض تكشف عنه (من جهة أخرى) أغنية الزفاف: «العذراء التي تضحي بزهرة عفافها لسوف يحتقرها الصبيْة ويتجنبنها الفتيات» والمرأة المتزوجة لا عشاق لها ولا أصدقاء. لقد أصبحت زوجة راضخة صاغية، وسيدة بيت يقظى. وهذا المصير وصفه لنا الشاعر يوريبيدس بدقة بالغة في مسرحية (مأساة) ميديا عندما تعلن البطلة: «لم أر بين جميع الأشياء التي تنمو ويسيل منها الدم، شيئاً تهشم كما تهشمت المرأة... إن علينا أن نقدم ما جمعناه من الذهب وادخرناه لهذا اليوم الوحيد لنبتاع حب رجل، ولكننا نبتاع به سيداً ليتصرف بأجسامنا! وهذا لعمري أشد ما يؤلمنا في هذا العمل المشين ولا نعرف بعد ذلك هل سيكون هذا السيد إنساناً خيراً أو شريراً، وذلك هو خطر يتهددنا طوال حياتنا.. إن بيتها لم يعلمها أحسن وسيلة تهدي بها ذلك الشيء الذي ينام بجانبها سبل السلام.. وان التي تجد بعد جهودها المضنية الطويلة وسيلة تجعله يحسب لها حسابها، فلا ينفض عن ظهره عبأها بعنف، تعد نفسها سعيدة. أما التي تعجز من النساء عن العثور على تلك الوسيلة فلتتمن الموت. إن زوجها إذا مل رؤية وجهها في داخل المنزل غادره، وذهب إلى مكان أروح من المنزل وأحب منه إلى قلبه، أما هي فقد كتب عليها البقاء حيث هي، لا تقع عيناها على نفس واحدة، ثم يقولون بعدئذ أنهم هم الذين يلبون نداء الحرب، على حين إننا نجلس في عقر دورنا وفي حمايتها بعيدات عن كل خطر! إن هذا لسخرية وبهتان! ولأن أنزل ثلاث مرات إلى ميدان القتال، أخوض المعارك وترسي في يدي لأحب إليَّ من أن أحمل طفلاً واحداً».

وكان لابد من مواساة الرجال الذين تعوزهم الوسيلة للارتواء من الزواج، وقد تحسَّب تشريع صولون لمثل هذا الأمر. فكان المشرع الحكيم يؤكد ان النظام الاجتماعي الجديد مبني جيداً على مبدأ مساواة بني البشر الأحرار أمام القانون. بيد أنه لم يكن صديقاً للنساء، وكان يرى فيهن «عبئاً ثقيلاً» فأبى أن يكره العازبين على القبول بأعباء الزواج. وانطلاقاً من رغبته في التخفيف عن الرجال المتزوجين، نهى النساء أن يكون لهن من الملابس أكثر من ثلاث حلل: حلتان يمكن غسلهما وارتداءهما بالتناوب داخل البيت، أما الحلة الثانية فتخصص للقداس الإلهي. ولكن صولون لم يمنع النساء، بالمقابل، من التطيب بالعطور والزيوت ومن دهن أجسامهن، لأن تقييداً كهذا قد يكدر الفقراء من الأزواج الذين اقتصرت علاقاتهم على زوجاتهم حصراً دون غيرهن لإنجاب ذرية معترف بها شرعاً: على «الوالدات» أن يؤدين رسالتهن وألا يُنفرّن أزواجهن ويكدرنهم. ولكن الرجال يحظون بمسرات الحب ومتعه، وبلذة المداعبات المتحررة من كل قيد لدن صواحبهم المتحررات كلياً من إنجاب الأولاد ومن أعباء الزواج، وأقام صولون بأموال الدولة المواخير العامة، لتعود أرباحها إلى بيت المال. وكرس معبداً خاصاً لأفروديت تطهيراً للدعارة المهنية وتقديساً لها، وأطلق على أفروديت بهذه المناسبة أفروديت بانديموس «Pandimos»، أي إلاهة الشعب كله. كانت النسوة اللعوبات المحظيات ممن يمارسن مهنتهن في المواخير العامة، يلتمسن العون من أفروديت بانديموس لتدفع عنهن خطر النسوة اللعوبات اللائي يستسلمن من تلقاء أنفسهن إلى حب يباع ويشترى في أحياء الميناء. كان الأثينيون يمتدحون أفضال ولي نعمتهم (صولون) الذي كان حكيماً في تحسبه لمتطلبات أجسادهم واحتياجاتها: «طوبى لك ياصولون! لقد ابتعت المومسات لخير المدينة، ولوقاية أخلاق المدينة الغاصة بالشبان الأشداء، ولولا تشريعك الحكيم، لضايق هؤلاء الفتيان فضليات النساء ونشروا في المدينة الفساد والاضطراب». لقد صان صولون حقاً شرف النساء الفاضلات بسنّه قانوناً يقضي بدفع غرامة قدرها مائة دراخما

على كل من يعتدي على عرض امرأة حرة. لاشك ان هذا المبلغ يزيد كثيراً على ما كان يدفعه طالب اللذة ثمناً لتمضية وقت ممتع بين أحضان امرأة من بيوت الدعارة العامة. وقد أدرك صولون، بوصفه عالم رياضيات ممتاز، ولخسرانه كل شكل من أشكال الرومانسية خلال الكثرة الكثيرة من مغامرات شبابه المضطرب، إن كل رجل عاقل سليم الحس لا ينحر وراء ميوله ليرتكب أعمالاً وحشية باهظة التكاليف إن كان بمقدوره الحصول على ما يريد من الملاطفات بأقل الأثمان.

وإن كان صولون قد عَدَّ البطالة جريمة، ومنع عن المواطنين ممارسة كل نشاط سياسي، فإنه لم يُملِ قانوناً ضد اللواطة قط، بل اكتفى بمنع الأحداث من الاتجار بمحاسنهم، فإن هم انتهكوا هذا القانون وقعت المسؤولية على الأباء. وفيما يتعلق بكرام الرجال الراغبين في حب الغلمان، فقد أوصاهم، إذا ما أرادوا الفوز بمرادهم وغاية أمانيهم، بأن يقدموا لهم هدية دجاجة أو أرنباً، أما بالنسبة للإكرامية التي كانوا يمنحونها بعد إرواء غليلهم فهذا أمر يعود إليهم وحدهم. لعل حكمة صولون الطاعن في السن لم تمل عليه ما يجب من التسامح، ومع ذلك هل يستطيع هو نفسه أن يدين جهاراً وعلى رؤوس الأشهاد ممارسة اللواطيين، والشعب كله يعرف أشعاره معرفته لقوانينه؟ أو لم يصف ما كان يشعر به هو نفسه عندما قال: «أحلم بفخذ المراهق واستدارته، وبـ... الرقيقة الناعمة»؟ ثم ألم يأخذ أبو الآلهة زيوس الغلام جانيميد إلى الأولمب لكي يتمتع بظرافة شبابه وحلاوته؟! ففي أثينا تجهل الحواس القواعد كلها، والغرائز لا تعرف قيداً ولا رادعاً، مادامت الطبيعة التي تحبو الإنسان بنعيمها خيرة طيبة.

كان صولون أول مشرع في التاريخ لم يدَّع كما ادعى غيره ان إلهاً ما قد أنزل عليه هذه الشرائع، وهذا العمل في حد ذاته مما يكشف عن مزاج ذلك العصر ومزاج المدينة ومزاج صولون نفسه، ولما طلب إليه أن يجعل نفسه حاكماً بأمره مدى الحياة أبى وقال إن الدكتاتورية «مُقام جميل حقاً، ولكن ليس ثمة طريق للنزول منه»، وكان المتطرفون ينتقدونه لأنه لم يسوِّ بين الناس في الملك

والسلطان، والمحافظون ينددون به لأنه منح العامة الحقوق السياسية وأجلسهم فوق منصة القضاء، حتى إن صديقه انكرسيس قد سخر من دستوره الجديد وقال في ذلك إن الحكماء قد أصبحوا يترافعون، والحمقى يحكمون وأضاف إلى ذلك قوله إنه لا يمكن أن تقوم بين الناس عدالة دائمة لأن في وسع الأقوياء والمهرة أن يُحوِّروا أي قانون يُسن كي يتفق مع مصلحتهم الخاصة، ولأن القانون أشبه ببيت العنكبوت يقتنص الذباب الصغير ويفلت منه البق الكبير. وقد أجمع مواطنوه على وضعه في عداد الحكماء السبعة ومع ذلك فإن صولون لم يهمل الحياة الخاصة للأفراد فهذا أمر لا يفكر فيه إغريقي مهما كان:

«سعيد حقاً من له أولاد يحبهم وخيول لها صهيل وكلاب تتمتع بحاسة حادة في الشم وأصدقاء يبحرون البحر» وفي مكان آخر يقول:

«حبيبة إلى نفسي أفعال القبرصية (أفروديتي) وديونيسوس وربات الفنون، فهي تجلب إلي السرور والمتعة».

يجمع صولون هنا بين غريزة الجنس وشرب الخمر وصناعة الشعر كوسائل محببة إلى نفسه لأنها تجلب إلى قلبه المتعة والسرور، وصولون، لا يكره الشيخوخة ولا يخشاها ويتمنى أن يعيش حتى الثمانين بل يرى أنه كلما تقدمت به السن توسعت معارفه[1].

وقريباً من الوقت الذي منح فيه المعبد الأثيني تفويضاً كاملاً لصولون، تم إبعاد الشاعرة سافو، التي حيا فيها أفلاطون «ربة الشعر العاشرة»، من مدينة ايريسوس مسقط رأسها، ونفيها إلى لسبوس لاشتراكها في دسائس سياسية.

يقولون إن ربات الشعر تسع، ألا ما أكثر غباءهم

[1] أحمد عثمان ـ الشعر الإغريقي ـ عالم المعرفة.

فليعلموا إن سافو اللسبوسية هي العاشرة! [٢]

كان ألكايوس المتواطئ معها شاعراً مشبوب العاطفة يُفضل سلاح الكلمة على سلاح المعركة، ومع ذلك فقد تغنى بالحرب على إيقاعات مستحدثة، لكنه كان يوصي بالثمالة أنجع الأدوية طراً لمعالجة كل داء:

«ينزل مطر زيوس، وفي السموات العلا تثور العاصفة ويمسك البرد بقبضته الثلجية مجاري المياه.

إذن فقم! وتغلب على الشتاء، وأشعل النار عالية، عالية
وامزج الخمر الكثيرة حلوة كشهد النحل
ثم اشربها ولفاعة الصوف المريحة قد لفت حول صدغيك.
إن علينا ألا نستسلم للأحزان أو نضني أجسامنا بكثرة
المشاغل التي تذهب بقوانا؛
لأن الحزن ياصاح لا يعود علينا بأقل نفع
ولا يصلح حالنا بأي حال
أما خير دواء لنا
فهو الخمر نطرد بها الأفكار» [١]

وكان ألكايوس عاشقاً لسافو التي كتب إليها: «أي سافو: أيتها المقدسة: يا ذات الشعر البنفسجي والبسمة العذبة، يامن أحترمها قدر خشيتي منها، إني أتلهف إليك بيد إن الحياء يمنعني».

لكن سافو تتجنب عروضه الحيية لتعرض إليه مبادلتها الأشعار لا القبلات:

---

[٢] أفلاطون.

[١] قصة الحضارة.

«إن كانت الرغبة في قلبك من أجل الخير والجمال فحسب

وإن كان لسانك عفاً لم ينبس ببنت شفة خبيثة

فإن الحياء لن يحجب عني بريق عينيك».

وعلى الرغم من ارتباط اسم الشاعرة لاحقاً بالجنوسة النسوية (الحب المثلي عند النساء ـ السحاق) فإن سافو لم تصد الرجال جميعاً، بل واقترنت، في المنفى، بأحد التجار الأثرياء لتعيش معه حتى مماته، ونحن نجهل ما إذا كان زواجهما سعيداً أم لا. وبعد أن آلت إليها أملاك زوجها المتوفى صار بمكنتها الاستسلام كلية إلى حبها للترف والمتع السريعة التي كانت تحبها قبل إبعادها. ولدى عودتها إلى لسبوس، أسست الأرملة الثرية مدرسة الفتيات الصغيرات.. وكانت تدعو تلميذاتها بحنان باد «الصواحب»، وغدت «الصواحب» أنداداً للرجال، وبرهن بما بلغنه من مستوى فكري أنهن جديرات بذلك؛ فالرجل الذي لا يقدِّر المرأة التي يريد الاقتران بها حق قدرها، لا يستحق أن يكون زوجاً لها، والرجل الذي يفضل صحبة الغلام وحبه على حب فتاة مثقفة ما عليه إلا أن يبقى عازباً، ذلك لأنه لم يصنع للزواج، أوليس من الأفضل للمرأة أن تبقى عزباء من أن تكون زوجة بائسة عطشى؟ لم تتضمن أشعار سافو إلا بعض التلميحات إلى ميلها الجنوسي، ومع ذلك تدل مناجاتها العاطفية وانفجارات غيرتها المشبوبة على ما كانت تكنه لصواحبها من عواطف رقيقة، لقد ترعرعن في مدرستها و«شاركنها شعورها في العذوبة والرقة والجمال» ولكن الأشعار التي تدل على أن سافو كانت تشتهي من أحبتهن جسدياً كانت نادرة.

لكننا نقرأ في قصة الحضارة:

«لم تشتهر سافو بجمالها، فقد كانت صغيرة الجسم، ضعيفة البنية، وكان شعرها وعيناها، وبشرتها أسود مما يحبه اليونان، ولكنها كانت تسحر الناس

برشاقتها، ورقتها، ودماثة أخلاقها، وحصافة عقلها الذي لم يبلغ من «السفسطة» درجة تخفي رقتها وحنانها». ومما قالته هي عن نفسها: «إن قلبي كقلب الطفل» ويستدل من شِعرها على أنها كانت ذات عواطف جياشة، وأن ألفاظها «كانت تمتزج باللهب» لقد أحبت سافو تلميذاتها واحدة بعد أخرى، وقد قالت في إحدى القطع الباقية من أشعارها: «لقد هز الحب قلبي كما تهز الريح القوية أشجار البلوط» وتقول في إحدى القطع الأخرى: «لقد أحببتك ياأثيس من زمن بعيد، حين كانت أنوثتي كلها أزهاراً، وقد حسبتك وقتئذ طفلة صغيرة سمجة». فلما تقبلتْ أثيس حب شاب من متليني، عبرت سافو عن غيرتها بألفاظ تبدو فيها قوة العاطفة:

«إنه ليبدو لي هو والآلهة سواء، ذلك الرجل السعيد الذي يجلس ويراك بعينيه أمامه، فهو يجلس بالقرب منك ويستمع إليك وهو معقود اللسان تتحدثين حديثك الفضي وتضحكين ضحك الحبيب في غير صوت عال. إن هذا، هذا وحده، ليكفي لأن يثير قلبي المكلوم في صدري ويبعثه على الاضطراب! لأني إذا رأيتك لحظة قصيرة خشع صوتي من فوري، وانعقد لساني، وسرت في ضلوعي نار تلظي يُسمع من حولي حسيسها، ولا تبصر عيناي منها شيئاً.. ويتصبب جسمي عرقاً فيجري أنهاراً، وترتجف جميع أعضائي، ويصبح لوني أكثر اصفراراً من لون الكلأ في الخريف، وتنتابني آلام الموت المترصد لي فاضطرب وأضلُّ في سكرات الحب».

وبكت أثيس بكاء مراً لفراقنا وقالت: «واحسرتاه ما أتعس حظنا، وأقسم لك ياساف إن فراقي إياك كان على الرغم مني» فأجبتها: «سيري في طريقك منشرحة الصدر ولكن اذكريني لأنك تعرفين هيامي بك. فإذا لم تذكريني، فإني سأذكِّرك، بما تنسين، ألا ما أعز وأجمل الأيام التي قضيناها معاً: لقد كنتِ تزينين غدائرك المتماوجة بتيجان القرنفل والورد الجميل وأنت إلى جانبي، وتزينين

جبينك الرقيق بعقود مجدولة من مئات الأزهار، وبالأدهان الكثيرة الغالية الخليقة بالملوك دهنت إهابك الأبيض النضر وأنت بين ذراعي، و لم يكن في المكان كله تل، أو موضع مقدس، أو غدير ماء لم نذهب إليه.. لن أرى أثيس بعد اليوم ولا فرق عندي بين هذا وبين الموت»[1].

لم تكن الكلمة الإغريقية هيتايراي (Hétaïraï ـ مومس رفيعة المستوى) تدل على النساء المكلفات بالترويح عن الرجال، وبيع مفاتنهن السهلة المنال بما فيها من الشهوانية وحسن المعاشرة، مقابل هبات أو مبالغ مالية، إلا في تاريخ لاحق؛ فلم تكن مومسات سافو للبيع، وإذا كن قد تثقفن وتدربن على فن إثارة لواعج الهوى، فلم يكن ذلك إلا بدافع الميل إلى الحب. لقد تدربن على تليين أجسادهن وتلطيفها في الرقص، وعلى استعمال الآلات الموسيقية برقة، وعلى النطق بكلمات الحياة الاعتيادية البسيطة بفن ومهارة، و لم يكنَّ يتطلعن إلى مستقبلهن ويتحسبن له تحسب الفتيات الإغريقيات جميعهن، فيتهيأن للحياة الزوجية المعزولة والخانقة، إذ كانت الزوجات الإغريقيات سيدات البيت المخدومات، وصواحب الفراش العديمات الشأن، محط ازدراء الأزواج واحتقارهم، يُنفِّرن أزواجهن ويضجرنهم، حتى إن لقب أم لم يمنحهن بعضاً من التقدير أو الاعتبار.

وقد ثأر ذكور الأجيال التالية لأنفسهم من سافو بأن نقلوا عنها، أو اخترعوا من عندهم، قصصاً وروايات، فجعلوا منها «سحاقية» شهوانية، وامرأة فاحشة تشبع غرائزها الجنسية بـ«Tribeï ـ الاحتكاك» المتبادل بامرأة أخرى. إن هذا الزعم يتناقض، من جهة أخرى، مع الأسطورة التي تروي إن سافو ماتت قتيلة هيامها برجل لم يبادلها الحب. لعل هذه الخرافة قد ابتكرتها الثريات من مومسات مختلف المدن الإغريقية اللائي كن يتخوفن من نعتهن بـ«السحاقيات»

---

[1] قصة الحضارة ـ ترجمة محمد بدران ـ المترجم.

ويحترزن من الارتياب فيهن «لمطاردتهن الفتيات بلحاظهن الناعسة» فمن الحري بنا أن نبرئ ساحة سافو التي أحدثت في لسبوس، على الرغم من كل شيء، أول مدرسة نسوية في التاريخ، وتطلعت إلى النهوض بالمرأة لتصل بها إلى المصاف الذي يحتله الرجل.

وتقول الروايات المتواترة إن سافو عادت فتعلمت حب الرجال. وهاهي ترد على اقتراح عرضه عليها أحدهم بأن تتزوجه فقالت: «لو ان ثديي قد بقيا قادرين على إرضاع الأطفال، ولو ان رحمي قد بقي قادراً على حملهم، لجئت إلى فراش الزوجية بقدمين ترتجفان، ولكن الزمان قد خط على جسدي خطوطاً كثيرة، والحب لا يسرع إلا بما يحمله من هدايا الآلام».. وتراها في آخر قطعة لها تلوم في غير عنف من لا يُقرون بأن غناءها قد انتهى فتقول:

إنكم يا أطفالي تحللون بالعار هبات ربات الشعر القيمة حين تقولون: «سنتوجك ياسافو الحبيبة، يا خير من يعزف على القيثارة أوضح الأغاني وأشجاها، ألا تعرفون إن إهابي كله قد تجعد من طول العمر، وان شعري قد استحال من أسود إلى أبيض؟ وكما ان الليل ذا النجوم يخلف حتماً الفجر ذا الذراع الوردية، وينشر الظلام في طول الأرض وعرضها، كذلك يقتفي الموت آثار كل حي ويمسك بتلابيبه آخر الأمر»[1].

كان المواطنون في المدينة الايونية ميليت، القائمة على شاطئ آسيا الصغرى، يكثرون من الترحال، ويهتمون بكل شيء، ويعرفون العالم على سعته، وكانوا يفخرون كل الفخر بكون مواطنهم طاليس الأول بين الحكماء السبعة. ومدينة ميليت هذه كانت تجهل أي شكل من أشكال الأحكام المسبقة التي تحد من حرية الحياة الجنسية. كان علم الطبيعة المسمى فيزيولوجيا يقيم الدليل على أن مظاهر الانحرافات نفسها الدخيلة على ما يسمى بالسلوك الطبيعي كانت

---

[1] قصة الحضارة.

أموراً طبيعية. وكان لابد للبنيان الروحي العظيم الذي شيدته مدينة ميليت من أن يصبح قاعدة للفلسفة الإغريقية. لقد زعمت الفلسفة إنها تدرس «بداية البدايات» ونهاية الحياة بمعزل عن العقائد التقليدية.. وكان طاليس قد أعلن انه «من أرقى أشكال العدالة الإنسانية هو... ألا نفعل نحن ما نلوم غيرنا على فعله»، وسئل عن أصعب الأشياء، فأجاب بقوله الحكيم الذي جرى مجرى الأمثال: «أن تعرف نفسك» ولما سئل عن أسهل الأشياء قال: «أن تسدي النصح».

كان الأحرار في ميليت لا يلومون في الآخرين إلا ما يختلقونه من عوائق محتملة على الحرية. إن هذا التسامح إزاء الضعف الإنساني يمتد ليطول الميادين كلها. وقد بلغ الميليتيون (نسبة إلى مدينتهم) مابلغوه من البحبوحة ورغد العيش بما امتازوا به من براعة مهنية ومهارة في استخدام الموارد التجارية. إن كل بضاعة تجد من يشتريها تستحق صنعها وتوفيرها.. ففي مصانع الغزل والنسيج وفي المدابغ كانوا يحولون صوف خراف آسيا الصغرى الناعم إلى ملابس تتمشى والدرجة الرائجة، ويحولون إهاب (جلد غير مدبوغ) الحيوانات إلى جلود رقيقة رفيعة الذوق. وكانت نساء أثينا ونساء الجزر المجاورة من أفضل الزبائن؛ فإليهن كانت ورشات ميليت تصنع أشياء خاصة فريدة من نوعها، مصنوعة من جلد ناعم طري ومن صوف مضغوط توفر للنساء المنبوذات من أزواجهن أو من عشاقهن التمتع بملذات الجسد بعيداً عن أحضان الذكور. إن أعضاء الذكورة المصنوعة في ميليت، وبكافة القياسات التي يمكن تخيلها، وما جاء منها تحفة فنية أو حاكى الأصل جيداً، كانت بضاعة مرغوبة تحتفظ بها النسوة في بيوتهن، وتباع للرجال أيضاً لتمد لهم يد العون في حال عجزهم الجنسي. إن أمثال أدوات اللذة الذاتية (olisbos) هذه، كانت عزيزة على السحاقيات، إما لعجزهن عن الاستغناء كلياً عن الشركاء الذكور، أو لانعدام الرغبة في العدول عنهم نهائياً، والملاهي الشعبية لم يفتها الحديث عن ذلك بصراحة مطلقة على خشبة المسرح، أضف إلى ذلك ان النساء الفاضلات العاقلات كن يحصلن على

بديل لبرياب (إله جنسي داعر) دونما تحرج يذكر لاطراد طموحهن إلى الاستقلال كلياً عن الرجال، أو لضعف إيمانهن المطرد بالأمور الإلهية التي بدأت الفلسفة بتبديدها.

ومن ميليت وفدت إلى أثينا في عصر بيريكلس، المسمى بالعصر الذهبي، امرأة شابة سرعان ما أصبحت ملكة المدينة دونما تاج، عندما كانت المدينة في ذروة مجدها. كانت هذه المرأة تدعى أسباسيا، مجهولة الأصل والنشأة. لكننا من مظهرها الخارجي نعرف أنها «ذهبية الشعر» و«مقوسة القدمين صغيرتهما»، وكانوا يمتدحون صوتها «الفضي الرنة». تُرى من أين حصلت أسباسيا على وسائل تأسيس مدرسة نسائية للخطابة والفلسفة؟ فالموروث لا يبين عن شيء أياً كان.. لكن معاصريها حتى أعداءها كانوا يمتدحون شجاعة «المومس المهاجرة» التي انتصرت للأثينيات المهملات المرذولات وشرعت في تربيتهن.

لم تكن ميول أسباسيا لمجتمع الذكور بخافية، كما إن خصومها لم يتهموها ويتقولوا عنها أنها سحاقية، ولكنها «مومس من ميليت» قدمت إلى أثينا لتزيد في ثرائها بالدعارة، ولتهيئ الفتيات الصغيرات اللائي يترددن إلى مدرستها للعيش في مواخير أثينا وغيرها. ولكن مامن أحد ينكر خبرة أسباسيا الواسعة في فنون العشق وأهليتها الاستثنائية في تعليم الحب. كانت دروس أسباسيا ذات وقع وتأثير، وكان يتردد إلى مدرستها نساء الأسر المرموقة وفتياتها، فلم يكن من اللائق أن تشارك المرأة الرجال في تعلم الفلسفة. وكان يتردد عليها أيضاً فلاسفة بدافع الفضول للوقوف على ما كانت تقوله امرأة مثل أسباسيا حول مشاكل الفلسفة العالقة والقابلة للجدال. وكان يقال إن انكساغوراس نفسه كان في عداد المستمعين، وهو الذي شكك في كتابه عن الطبيعة بألوهية الشمس واصفاً إياها بأنها شبيهة بكتلة من نار قوامها «نطاف» ملتهبة. بل كان يقال بأنه كان أستاذاً لأسباسيا مثله في ذلك مثل بروتاغوراس الذي أعلن في بحثه الفلسفي عن الآلهة: «وعن الآلهة لا يمكننا بأي حال أن نعرف ما إذا كانوا آلهة حقاً أو لم

يكونوا، لأن هناك أشياء كثيرة تمنعنا من معرفة ذلك: أضف إلى ذلك غموض الشيء في ذاته مثل قصر حياة الإنسان».

وإلى منزل أسباسيا المضياف كان يتردد أيضاً سقراط. وكانت أسباسيا تخشى من ترداد تعاليم اكسينوفان المنتهكة للمقدسات ومن إثارتها والتعليق عليها، فقد أعلن أن هوميروس وهزيود وصفا الآلهة بكافة الأوصاف التي هي في رأي بني البشر مخجلة بل ومرذولة مثل: «السرقة، والزنا، والخيانة المتبادلة» فالآلهة في رأيه ليست كما يراهابنو البشر. وفيدياس أيضاً «نحات الكمال» كانت له مع أسباسيا علاقات حميمة، مثل بيريكلس الذي شغل من أجل الشعب وباسمه، منصباً مرموقاً في الدولة، وشيد أروع المعابد وبنى أفخر المباني تكريماً للآلهة.

وماذا بعد؟ ماهي الأشياء التي لما يروونها عن أسباسيا بعد؟ كانت ألسن السوء تزعم ان سقراط كان عشيقها المفضل، قبل أن تهب محاسنها إلى بيريكلس، الذي طلق امرأته ليقترن بـ«فتاة اللذة المهاجرة»، فتعرض زواجهما لهجوم عنيف شنه أعداء رجل الدولة، إذ رأوا أن مقام الزوجة يتعارض مع نبالة الزوج، وإن رفعة محتد الأيثني لا تنسجم مع أصل أسباسيا الغريب وماضيها المريب، بل وتمادوا في هجومهم ونعتوها بالقوادة. وقد قيل إن تأثيرها في بيريكلس ونفوذها عليه يعود إلى ما كانت تتحفه به من مومسات أشرفت بنفسها على تدريبهن. وللهروب مما أثير حوله من فضائح انسحب بيريكلس من الحياة العامة لينزوي مع أسباسيا داخل داره لا يخالط إلا الخلص من الأصدقاء، في حين كان يستخدم كل ما في حوزته من سلطات لكي يوفر للأثينيين حياة سعيدة واسعة النعمة، فبنى «مسرح ديونيسوس» وراح يُعوِّض لمن يحضر من المواطنين عما ينفقوه من وقت لمشاهدة العروض المسرحية. ففي رأيه إن الرجل المثقف هو المواطن الوحيد الذي يستحق كامل حقوقه، وان على كل مواطن يرغب في خدمة الصالح العام أن يكون واسع الثقافة، ذلك إن تحسين الحياة وإصلاحها، بالنسبة له، هو أن تزيد في جمالها. وقد حسن هو نفسه وبفضل

أسباسيا حياته وجملها باستقباله في عقر داره وفي أكثر حناياها ألفة فحول الشعر وكبار المفكرين، يؤلف بينهم ويجمعهم حب مقيم لا يزول... بينما كان الحساد يضمرون الحقد لهما إلى حد ملاحقتهما قضائياً متهمين أسباسيا بالإلحاد.. ودافع بيريكلس عن المتهمة أمام مائة وخمسين من المحلفين ليفوز بتبرئتها. ولكن أكثر الافتراءات صفاقة ما انفكت تلوكها الألسن حتى نالت من مكانة رجل الدولة وأطاحت بنفوذه. إن نكران الشعب لجميله، ذلك الشعب الذي كرس له سني حياته، انتزع من بيريكلس حبه للحياة ليموت بعد ثلاث سنوات من مرافعته، فتقترن أسباسيا برجل عديم الشأن، لتسقط هي نفسها في عالم النسيان مع بقاء نفوذها واستمرار تأثيرها.

وبقيت أسباسيا (أسبازيا) في نظر الهيتايراي مثالاً لا يبارى، لقد كانت زعيمة قضيتهن بلا منازع، وكان على الراغبات من النساء في التشبه بها أن يبذلن الكثير من الوقت والجهد للفوز بمكانة شبيهة، ولكنهن بقين مبعدات عن حياة الرجال اليومية، وعن مجريات الحياة في الساحات العامة، أو في التدريبات الرياضية وأماكن الاستحمام التي تستخدم عادة صالات للتمارين الرياضية وتدريباتها. ولم يغير التقدم الثقافي شيئاً في وضع المرأة الدون، وبقي المجتمع محافظاً على مبادئه القديمة نفسها، تلك المبادئ التي لخصها جيداً أحد الخطباء الجماهيريين قائلاً: «فتيات اللذة لإمتاعنا، والخليلات كفايات يومنا لابد منهن لأجسادنا، أما بالنسبة لزوجاتنا، فإنهن الوالدات لأحفادنا الشرعيين، والحارسات الأمينات لبيوتنا». وكانت النساء يُشبَّهن بـ«أفروديت شبقة مأجورة». وكن ينتقمن من وضعهن هذا بأن يطالبن بأجور مرتفعة لقاء عملهن. ولكي يحصلوا أجوراً أفضل من أجور فتيات الشوارع الوضيعات أو مومسات المواخير، كان على الهيتايير اللائي يمارسن مهنتهن بحرية أن يفضلن زميلاتهن بما يقدمنه لزبائنهن، فكان عليهن أن يخلبن ألباب الرجال بكل الوسائل الممكنة، وأن يبرعن في طلي وجوههن بالمساحيق (المكيجة)، وأن يبتدعن الدرْجه (الموضة) في الزي

والشكل والسلوك. كانت الهيتايير يستخدمن مساحيق التجميل والأصباغ من كل نوع، ويضعن على رؤوسهن شعوراً مستعارة يثبتنها بالمشابك، وكن يتجملن بالقلائد، ويتطيبن بالعطور المتقنة الصنع، ويُزينَّ ثيابهن بشرائط أرجوانية لتمييزهن من غيرهن من النساء، وكانت المومس (الهيتايراي) تأبى مناداتها في وسط الشارع، حرصاً منها على سمعتها. فمن كان يصبو إلى وصالها عليه أن يحصل على توصية من أحد الأصدقاء، أو يشرك إحدى القوادات لتحديد ثمن اللقاء المشتهى.

سقراط (قبل ٤٦٩-٣٩٩ ق.م)
أحد أعظم المفكرين اليونان

وإذا ما أصابت الهيتايراي نجاحاً، فالشرف كل الشرف لمن يحظى بلقائها ووصالها. فكانت لا تمنح جسدها لأي كان، وهناك وسائل تعود إلى تلك الحقبة تدل على أنه كان من العسير الوصول إلى الهيتايير الذائعات الصيت. فكن، إن لم يرق لهن طالب اللذة لليلة واحدة، يطالبنه بأجر يتجاوز إمكاناته التي تعرف الحسناء تقديرها بنظرة واحدة. إن معرفتهن الرجال حق المعرفة، وبراعتهن في التلهي بهم كانت موضوعاً تناوله معاصروهن من الشعراء وتغنوا به.

أما ذاك الذي كان يفضل على سرير الزوجية، وعلى الوحدة

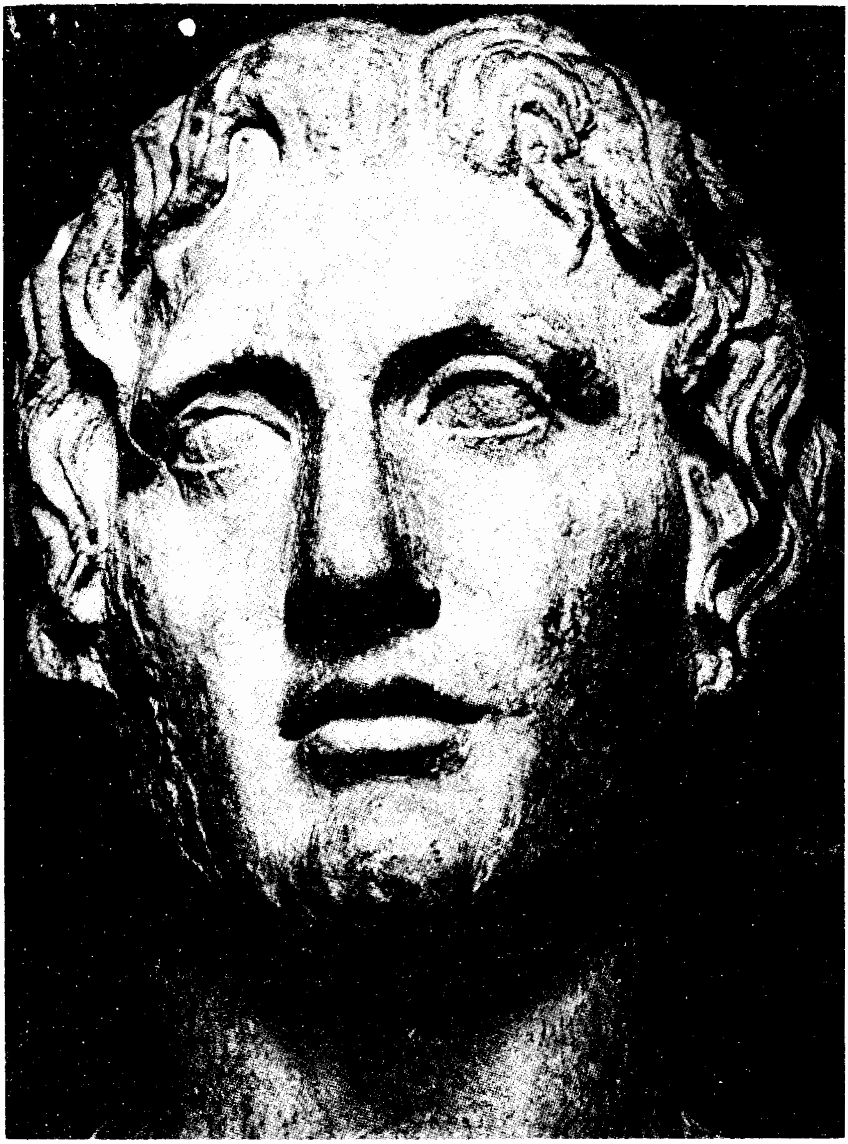

تمثال الإسكندر الكبير (نحو ٣٣٠ ق.م) نسخة رومانية

ووحشتها، صحبة امرأة بارعة، ليس في ممارسة الحب فحسب، بل وفي العلاقات الجنسية اللاهية والممتعة أيضاً، فإن عليه أن يدفع ثمن ذلك.

حتى سقراط الحكيم كان يتردد على مومسات الهيتايير، وفي حديث له مع المومس تيودوتا «التي كان لها نهدان يفوقان كل وصف»، أعلن أن الجمال وحده لا يكفي للفوز بأصدقاء أوفياء، فلابد من أن نجمع الجمال مع التسامح والرقة في عطية من النعم والمحاسن المنتقاة جيداً.

كان أفلاطون من أفضل تلاميذ سقراط، ومن أنجب تلاميذ أفلاطون كان أرسطو الذي غدا بدوره إستاذاً للاسكندر الأكبر.

زعم أرسطو أنه أكد «علمياً» تفوق الرجل ومزاياه، وأظهر من ثم دونية المرأة، ثم أوضح ذلك بقوله إن بين الرجل والمرأة العلاقة نفسها التي بين الشمس والأرض، وتلك العلاقة هي علاقة الطاقة بالمادة. إن مني الرجل يهب الحياة ويحدد الشكل، أما المرأة فإنها على الرغم من إسهامها في تشكيل الطفل بدم الحيض «مني غير ناضج» لا تتساوى مع الرجل في فعل الإنسال. ولكن أرسطو، على الرغم من هذه التأملات النظرية، لم يحتقر الجنس الآخر ويزدريه. وقد أكدوا، دونما مراء، إن له من إحدى المومسات واسمها هربيليس ولداً اسمه نيكوماك، وأنه قد أحب تلك الخليلة حتى وفاته، «لقد وجدت احتياجات الفيلسوف فيها التعاطف المرغوب». وقد قيل عن أرسطو هذا، أرسطو الذي أراد البرهان «علمياً» على دونية المرأة، إن الهيتايراي الجميلة فيلليس كانت تتلهى به بأن تجعل منه دابة تضع على ظهره البرذعة وتشد عليه السرج كما يشد على البهيمة، ليمشي على أربع قوائم. وقد راق لكثير من الفنانين أن يصوروا هذه الطرفة المسلية فرسموا الجمال ينهال على الحكمة ضرباً بالسوط.

ولا ندري ما إذا كان ثمة تعاليم أعدت خصيصاً للهيتايير، على الرغم من سيطرتهن على حياة اليونان الجنسية لقرون عدة، جراء براعتهن في فنون الحب الشهواني وحسن المعشر إلى حد أنهن كن يجمعن بين حسن الشكل والسلوك

من جهة والحزم والصرامة من جهة أخرى، مما دفع رجال الدولة والشعراء والنحاتين على اختلاف مشاربهم إلى الارتباط بهؤلاء السراري، سواء أكان ذلك بدافع العشق أم الصداقة. وما كان للكتاب مثل لوسيان وألكيفرون وأريستانتوس أن يجمعوا مذكرات «العاشقات المدلّهات والمعشوقات المدلّهات» إلا بعد مرور قرون عديدة، لينشروها على شكل محادثات ورسائل وأقوال مأثورة للشهيرات من سيدات الهوى وغير الشهيرات: تاييس ولاييس ونيكوس وكريسيس وميرتال وميلتيا ولميا وغْناثلينا...

واختلط في المقتطفات الأدبية هذه الواقع مع الخيال، واقْتُبس هذا الواقع مما كانت تتضمنه المسرحيات الإغريقية من مشاهد تدور حول الأخلاق والأعراف، تلك المسرحيات التي اشتهرت بشعبيتها في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد. وجاء الشعر ليساعد على إتمام الصورة المقبولة التي كان الكاتب يرغب في تقديمها إلى معاصريه. وكان هؤلاء الفتيات من النساء الملاطفات يخضعن دونما ريب إلى حوافز نفعية ومألوفة، كما أن أحاديثهن ومناجاتهن لا يخفى سرها على أحد: «بالمال وحده أقيس درجة حب الفتيان، لا أعرف برهاناً على الحب أفضل من برهان المال.. كنت أستمع مراراً إلى أختي وهي تقول إلى أصدقائها وهي محقة في ذلك: أنتم تحبون الجمال، وأنا أحب المال، فلنشبع إذاً رغباتنا المتبادلة وبلا خجل» فلا شيء بلا ثمن: اللذة مقابل المال، ولا أجر من دون عمل. هذا ما كانت تلقنه أم أرملة لابنتها غير العذراء (الثيب)، التي كان بمقدورها إطعام تلك التي ولدتها، فضاقت بالأم سبل العيش في حين استأثرت ابنتها لنفسها بالحلي الجميلة والثياب المبرقشة والعبيد: «يكفيك من ذلك أن تعربدي بصحبة الشبان، أن تنامي معهم للحصول على المال.. ولا غضاضة في ذلك!» ألا يكمن النجاح في حياتك مومساً في «أن تعاملي الرجال جميعاً بما يليق من أدب من غير أن تخدعي أولئك الذين يأتون لرؤيتك أو يسعون في طلبك، ولكن دون أن تتعلقي بواحد منهم؟ قد تجدين بينهم الأقوى أو الأجمل ولكنك لن تجدي ذاك الذي

يجمع في بنيته الميزتين معاً وذلك القوام الرائع الجمال، ولكن تلك التي تنام مع مثيله بالتمام والكمال ستفوز لابد بأفضل الصلات. إن أقوياء البنية من الرجال يتطلعون إلى الاستيلاء على كل شيء اعتماداً على طلعتهم البهية، فحري بك أن تحرصي كل الحرص على أن تفوزي برجل هذا شأنه أكثر من حرصك على الفوز بالأسخياء من العشاق....»

وكان لابد لها أيضاً من أن تتعلم بالتفصيل كيفية الفوز بالرجال، فعلى الهيتايراي أن تحسن التصرف وأن تكون لطيفة المعشر بأن تخفف من جذلها وأن تحذر من زهْوها باحتراس خلاب، وألا تغرب في الضحك أو يستخفها الطرب فتثمل، فلا شيء يجعل منها أضحوكة أكثر من ذلك «فالرجال يحتقرون المنهومات بالخمر والنهمات اللائي يحتسين دونما حدود. إن المرأة الحريصة على الظهور بمظهر حسن ترتشف الخمر ارتشافاً ولا تعبه عباً، وتتحدث دونما إسفاف، ولا تسخر من مدعوويها، فلا تنظر إلا إلى ذاك الذي يدفع لها. وإذاما حان وقت الذهاب إلى الفراش، فعليها ألا تخلع العذار دفعة واحدة من دون أن تظهر بمظهر المرأة الباردة على الإطلاق، وألا تصبو إلا إلى هدف واحد: أن تجتذب إليها حبيب الفراش وتستثير شهوته». كانت هذه النصائح تخص المبتدئات فاقتصرت على قواعد المهنة الأولية. فكان على كل هيتايراي أن تكمل هذه المبادئ وتثريها بما تختبره في حياتها من تجارب مريرة، ولكن بمقدورها أن تأمل في الحصول على الاعتبار والثراء مثل الهيتايراي فرينه التي كانت، في أعياد الإله أبولو، تنزع ثيابها على رؤوس الأشهاد قاطبة وتسدل شعرها على جسمها، وتنزل البحر لتستحم، ووقفت هكذا عارية أمام النحات براكستيل العظيم لينحت على صورتها أفروديت كنيد. وقد أثْرت فريني من عشاقها إثراء أمكنها من أن تبدي استعدادها لإعادة بناء أسوار طيبة إذا وافق الطيبيون على نقش اسمها على هذه الأسوار، ولكنهم أصروا على رفض هذا العرض. ولعلها تغالت فيما طلبته إلى يوثياس من أجر لها، فثأر لنفسه منها باتهامها بالإلحاد، ولكن أحد

أعضاء المحكمة كان من زبائنها، كما كان هيبريدز الخطيب من عشاقها المفتونين بها، ودافع عنها هيبريدز ولم يستخدم في هذا الدفاع بلاغته فحسب بل شق أمام المحكمة جلبابها وكشف عن صدرها. ونظر القضاة إلى جمالها وبرؤوها من تهمة الإلحاد في الآلهة.

وصار النزاع الحاد الذي كان يدور بين الهيتايير للفوز بالزبائن مضرباً للأمثال، فكانت كل واحدة منهن تجهد على الدوام في إقصاء منافستها وتعمل على اجتذاب أثرياء العشاق إليها وحدها. ورحن يحفظن عن ظهر قلب الأشعار ليرددنها على مسامعهم، ويتعلمن العزف على القيثارة أو الناي، وكن يدفعن للقوادات ويكافئنهن أو يمنحن أجسادهن لأحد أصدقاء بعض الأثرياء للإفادة منه وسيطاً يصلهن بهم. ولكن عندما يتكشف لهن إخفاق مساعيهن، يهرعن إلى معبد برياب حاميهن. فيقدمن الأضحيات لنوال حظوة الإله «الوديع بتأثير المداعبات النسوية».

كانت أسفل طبقة من العاهرات هي طبقة البرناي، ويسكن معظم أفرادها في مواخير عامة يسهل على الجمهور الاستدلال عليها بصورة قضيب برياب المعلقة عليها. وكان رسم الدخول إلى هذه المواخير أوبلة واحدة، وكان الداخل يجد فيها البنات في أثواب لا تكاد تستر منهن شيئاً، ولذلك يسمين الجمناي (العاريات)، وكن يجزن لمن يريدون ابتياعهن أن يختبرونهن كما تختبر الكلاب في بيوتها. وكان في وسع الرجل أن يعقد الصفقة التي يريدها والزمن الذي يبتغيه، ويتفق مع ربة البيت على أن يستأجر منها بنتاً تعاشره أسبوعاً، أو شهراً، أو سنة. وكانت البنت أحياناً تؤجر بهذه الطريقة لرجلين أو أكثر من رجلين في وقت واحد توزع وقتها بينهم حسب مواردهم المالية. وتلي هذه الطبقة طبقة العازفات على القيثارة، وأولئك يستخدمن، كما تستخدم المسامرات في اليابان، في الليالي الحمراء يمرحن ويعزفن، ويرقصن رقصاً فنياً أو خليعاً مثيراً للشهوات ثم يبتن مع من يريديهن من الرجال. وكانت قليلات من عجائز العاهرات يدرأن

عن أنفسهن شر الفاقه بإنشاء مدارس لتدريب تلك البنات العازفات، وقد حرصت الروايات المتواترة على أن تحتفظ العاهرات جيلاً بعد جيل، احتفاظ الإنسان بأثمن تراث، بالطرق التي يلهبن بها القلوب، كالتظاهر بالحب بعقل وروية،... ولكن بعض العازفات، كان لهن قلوب رحيمة رقيقة، وكن يعرفن الحب الحقيقي، ويضحين بأنفسهن من أجل عشاقهن كما ضحت بنفسها كامي. وكانت أرقى طبقات العاهرات الأثينيات هي طبقة الهيتايراي: «يبدو أن ليئس الكورنثية كانت أجمل من أية امرأة وقعت عليها العين، وتتنازع شرف مولدها مدن لا تقل في عددها عن المدن التي تتنازع شرف انتساب هوميروس إليها. ويتوسل إليها المثالون والرسامون أن تقف أمامهم لينحتوا تمثالها أو يصوروها، ولكنها تتمنع حياء وخجلاً، ثم يتغلب عليها ميرون العظيم في شيخوخته فتقبل طلبه، حتى إذا خلعت ثيابها نسي وقار شعره الأبيض ولحيته وعرض عليها أن ينزل لها عن كل ما يملك إذا أقامت معه ليلة واحدة، فتبسمت ضاحكة من قوله، وهزت كتفيها المستديرتين وتركته دون أن ينحت التمثال. وفي صباح اليوم الثاني اشتد به الوجد، وعادت إليه نشوة المراهقة، فصفف شعره، وحلق لحيته، وارتدى ثوباً قرمزي اللون، وتمنطق بمنطقة ذهبية،.... وتختم في جميع أصابعه، وحمر خديه، وعطر ثيابه وجسمه، ثم ذهب وهو على هذه الصورة يطلب لئيس ويعلن إليها انه متيم بها. فنظرت إلى صورته الممسوخة وعرفت من هو، ثم أجابته بقولها: أيها الصديق المسكين، إنك تطلب ما أبيته على أبيك بالأمس».

وأعجب من هذا الوفاق بين البغاء والفلسفة اعتراف اليونانيين من غير حياء بالانحراف الجنسي. لقد كان أكبر من ينافس العاهرات هم غلمان أثينا، وكانت العاهرات اللائي يسربلهن العار من قمة رؤوسهن إلى أخمص أقدامهن لايفتأن يندبن بما في عشق الذكور للذكور من فساد خلقي شنيع! ولقد كان التجار يستوردون الغلمان الحسان ليبيعوهم لمن يدفع فيهم أعلى الأثمان، وكان

هؤلاء يستخدمونهم في أول الأمر لقضاء شهواتهم ثم يتخذونهم فيما بعد أرقاء. ولم تكن أسبارطة أقل استهتاراً من أثينا في هذا الشذوذ الجنسي. وكانت الشرائع الأثينية تحرم من يمارس رذيلة اللواط من الحقوق السياسية، ولكن الرأي العام كان يتغاضى عن هذه العادة ويجيزها وهو هازل فكه، ولم يكن أهل كريت أو أسبارطة ينظرون إليها نظرة استنكار. وكان أهل طيبة يرون أنها معين لا ينضب للشجاعة وحسن النظام العسكري.

ترى كيف يفسر الإنسان انتشار هذا الشذوذ الجنسي في بلاد اليونان؟ فأما أرسطوطاليس فيفسره بخوفهم من أن تزدحم بلادهم بالسكان، وقد يكون هذا سبباً من أسباب هذه الظاهرة، ولكن لا جدال في أن ثمة علاقة بين انتشار اللواط والدعارة في أثينا من جهة وعزلة النساء من جهة أخرى.. وقلما تتاح للذكور فرصة في طور تكوينهم وفي الفترة التي لم يشعروا فيها بعد برجولتهم، يدركون فيها جاذبية الحنو النسوي. كذلك كانت حياة الغلمان الجامعة في أسبارطة، واشتراكهم في الطعام، واجتماعهم في الأسواق العامة، والملاعب الرياضية، وفي مدارس الألعاب في أثينا، وحياة منظمات الشباب، كانت هذه كلها لا يرى فيها الشبان إلا صور الذكور. وحتى الفن نفسه لا يكشف عن الجمال النسوي قبل عهد براكستيل. وقلما كان الرجال في حياتهم الزوجية يجدون في البيوت رفقة عقلية، ذلك بأن عدم انتشار التعليم بين النساء يحدث ثغرة بين الجنسين فيضطر الرجال إلى البحث في خارج البيوت عن أسباب المتعة التي حرموا من الحصول عليها.

لم يكن على الهيتايير أن ينافحن ضد من يزاحمنهن من النساء فقط، بل كان عليهن أيضاً إقصاء من ينافسونهن من الذكور، صبياناً وغلماناً، أولئك الذين كانوا يزاحمونهن في حب الرجال. كان القانون يحمي الهيتايير ويحسن الدفاع عنهن، لأنهن كن يدفعن ماعليهن من الضرائب المترتبة على أجور الحب التي يتقاضينها، ولكن غرائز العديد من اليونانيين وميولهم الجنسية المثلية (الجنوسة)

كانت تلحق الضرر بمتاجرة النساء بمفاتنهن وأرباحها. وكن يدافعن عن أنفسهن ما أمكنهن الدفاع. ويقال، إذا ما أخذنا بما جاء في بعض القصص ومختلف التلميحات، إنه كان يوجد في أثينا وفي المرافئ الإغريقية الأخرى مواخير يمكن استئجارها لبضع ساعات أو لليلة واحدة يمضيها الراغب مع عدد من الأولاد المراهقين.. وقد أُحدثت مواخير اللواطة هذه لخدمة الرجال الراغبين في إشباع رغباتهم، ليس مع الفتيات فقط بل ومع الأولاد أيضاً، ولم تكن هذه الترتيبات لتستثير استنكار اليونانيين وسخطهم. ولكن الشعراء والمفكرين، أولئك الذين عرفناهم بميولهم للصغار من الجنسين، لم يترددوا إلى تلك الأماكن إطلاقاً، وكذلك فإن الشروحات الفلسفية حول ميل الإنسان الطبيعي إلى جنسه لم تأت على ذكر تعابير فاحشة مشتقة من الجذر Paid (ولد صغير ـ غلام) والجذر Tribeïn (حك) إن كل ما بقي لنا من هذه الشروحات، في الواقع، لا يعدو مجرد كتابات وأحاديث اقتصرت على الكلام عن الميل الروحي يرافقه، على أكثر تقدير شكل من أشكال الميل الحسي.

كان جمال الصبية الذين تربوا في المنشآت الرياضية (gymnases ـ منشآت عامة خصصت في البداية للتمارين الجسمانية، ثم تحولت لاحقاً إلى مراكز للحياة الثقافية ـ م) يستثير حماسة البالغين الذين يشاركونهم تمارينهم الرياضية لاستنهاض هممهم والسهر عليهم. كان الشباب الرياضيون عرايا وكانت أجسادهم مرنة ومطواعة رشيقة وكان ظرفهم وخفتهم تروق للمشاهدين، وحماستهم للتعلم تبهر معلميهم. فلم يكونوا (kalos)، جميلين فحسب، بل كانوا صالحين (agathos) أيضاً. كانت كلمة (Bon) تعني الصالح أو الفاضل، وتنطوي على التزام ضمني بالقيام بما يؤدي إلى حياة العدل والاستقامة وتستجيب للأخلاق وتُمسِك عن كل ما يصرفها عن ذلك. إن على المواطن الصالح منذ البدء أن يتدرب على الكياسة التي عليه أن يطبقها في تعامله مع نظرائه. وكان عليه أن يُدخل في روعه، تلقائياً أو

بتوجيه ممن يكبره، أنه مدعو للانتماء إلى مجتمع الرجال في سبيل خدمة الوطن والصالح العام. وأن يجهد في تجميل حياة الجميع وفي تحسين حياته نفسها أيضاً.

كان على كل رجل بدافع الواجب والرغبة أيضاً أن يسهم بنصيبه في تربية الأولاد والمراهقين، وكان يطيب ويستعذب إن وحد بين المفيد والممتع، وإن خامر المعلم إحساس بالعاطفة نحو ربيبه. وغالباً ما كان الأب هو الذي يعهد بابنه إلى أحد الأصدقاء. ففي نص نمى إلينا يقول وكيل الأب: «يابني، إن تثقيفك الثقافة اللائقة لهي من أجَلِّ اللذات وأمتعها، ومثلما استلمتك من أبيك، فمن واجبي أن أردك إلى نفسك».

كان هذا التجرد قضية شرف، ولكن غالباً ما كانت الغلبة للغواية على الإرادة الطيبة، وهناك ثمة جملة من الأشعار تكشف لنا ذلك: «ما ان يتراءى لي جمال الولد حتى يسبق السيف العذل، وأتدلّه عشقاً، فيا لسعادتي في أن أقضي بين ذراعي هذا الفتى وهو في ريعان شبابه وميعة صباه وكامل عذوبته» ونسمع أيضاً: «أنت أيها الغلام، يا من لعينيك لحاظ فتاة ناعسة، إني أشتهيك»، أو أيضاً: «من عينيك يشع أوار يسقمني، وبريق لحاظك يبهرني....».

ويقول الشاعر نفسه معترفاً: «أحب الأولاد ذوي البشرة البيضاء الشفيفة، وأحب أيضاً، السمر الإهاب والبشرة البرونزية، وأحب الشقر وذوي الشعور السود أيضاً، وتروق لي الحدق الزرق بلون السماء».

كانت جذوع الفتيان الجميلة تستثير إعجاباً يستحيل إلى صداقة ومن ثم إلى عشق متوقد، وعلى أحاديث الفتيات الفارغة، تلك الفتيات اللائي هيئن للحياة المنزلية في جناح الحريم حصراً، كان الناضج من الرجال يفضل تبادل الأحاديث مع من يمثل جنسهم أولئك الذين تثقفوا في المدارس. فكانوا يحبون تبادل الأفكار معهم، والتعبير عن آرائهم والمثابرة على ما استحدثوه هم أنفسهم من تقدم روحي. ألم يعلن أفلاطون أنه ما عرف سعادة قط أعظم من سعادته

بمراهق في إهاب الرجل الذي يحب، ولا أعظم من سعادته بهذا الرجل إلا لأن في طباعه الولد الذي عليه أن يحب. «وذلك لأن الذي يجب أن يهدي الرجال الراغبين في أن يعيشوا عيشة أخلاقية نبيلة، لا وجود له في أي مكان آخر حتى ولا في الحب.. وهل من واجبي أن أقول لكم ماهو؟ إنه الإحساس بالخجل إزاء الأشياء القبيحة والتطلع إلى ماهو جميل وصالح، فمن دون المشاعر الأخلاقية هذه فلا الرابطة السياسية ولا المواطن المنعزل يستطيعان صنع شيء عظيم وصالح»، وهكذا فإن حب المراهقين يهدف إلى ماهو جميل وخيرٌ.

وسقراط أيضاً كان يعد ميل الرجال للفتيان طبيعياً بصورة قاطعة. ووصف لنا كيف أنه هو نفسه قد انبهر بمشهد أحد الفتيان: «الجميع بلا استثناء، وهذا ما بدا لي، قد افتتنوا به. وما أن دخل حتى هزهم الانفعال، وصدر منهم صخب عظيم.. أما بالنسبة لنا نحن الرجال فليس ثمة ما يدعونا إلى الدهشة بما جرى، إلا أنني لاحظت الانفعال نفسه عند الأولاد، لقد رأيت كل واحد منهم يشيح بوجهه عن كل شيء ماعداه، وكان الجميع يرنون إليه كما لو كان تمثالاً لأحد الآلهة».

كان يقال إن أجمل فتيان أثينا طراً هو ألقيبيادس (ألسيبيادس) الذي صرف، مراهقاً، الرجال عن نسائهم، ليصرف بعد زمن النساء عن رجالهن، وفي واحدة من المسرحيات كانوا يتلهون بذلك: «إن ألقيبيادس الذي لم يكن رجلاً في البداية، هو الآن رجل النساء جميعاً وبلا استثناء»، وكان سقراط قد رغب في تعليم ألقيبيادس، متوخياً أن يجعل من هذا المراهق ذي الاستعدادات الباهرة رجلاً كاملاً، فقالوا عنه أنه متيَّم بالفتى الرائع الجمال، وكذبوا فيما زعموا، لأن سقراط لم يكن ذلك العاشق. وإن لاحظ ألقيبيادس برود سقراط، راح يعلم أستاذه الحب، الحب اللواطي، وما لبث ألقيبيادس أن أقر بفشله، فعلى الرغم من جميع المساعي التي بذلها التلميذ لاستثارة سقراط، وتحريضه على الدنو منه عاشقاً، أمضى المعلم وحظيه ليلتهما تحت رداء واحد من دون أن يلمسه: «قسماً بجميع

الآلهة والآلهات، نهضت بعد أن نمت هكذا مع سقراط، تماماً كما لو أني نمت مع أبي أو أخي الأكبر».

كان ألقيبيادس، قبل أن يُعرِّض معلمه للأخطار في مستقبل الأيام، يحب سقراط ويهيم به هيام الواله المتيم، ويقول فيه: «إنا إذا سمعنا متحدثاً غيرك، وإن كان من أحسن الناس حديثاً لم يكن لألفاظه أثر قط إذا قورنت بألفاظك، أما نتف ألفاظك أنت يا سقراط ولو لم نسمعها منك أنت بل نقلت إلينا عنك مهما أخطأ فيها الناقلون، أما هذه النتف فإنها تخلب الألباب وتستحوذ على نفس كل رجل أو امرأة وكل طفل يستمع إليها».

ومع نهاية العصر الذهبي، كان ميل الرجل للرجل عاطفياً، ذلك الميل الذي كان الفلاسفة المعاصرون يدعونه الحب «الإنساني» لتمييزه من اقتران الرجل بالمرأة الوضيع، قد فقد مريديه وأبطاله الروحيين. وكان سقراط هدفاً لتهكمات أرستوفان وسخرياته، بسبب فلسفته وطريقة عيشه، حتى قبل اتهامه بمخالفة القوانين الأخلاقية. «وبما أنه يفسد الشبيبة ولا يبجِّل آلهتنا وفقاً للتقاليد المرعية بل آلهة أخرى مستحدثة». وبعد تناوله كأس سم الشوكران بزمن طويل، وتنسمه مكاناً في بانثيون الفلاسفة، اتهمه نمامون تفهون أيضاً بأنه ما رغب في يوم من الأيام لا في تحسين حياة الإنسان ولا في تجميلها.

أصاب كتاب المسالي نجاحاً عظيماً في تقديمهم لوحات جماهيرية ساخرة تدور حول الانحلال الخلقي والتعسف السياسي وتجاوزاته، في حين لم تنل لغة كبار كتاب المأساة النبيلة استحسان السواد الأعظم من الجمهور الذي لم يجن أي فائدة تذكر من تردده على مسرح ديونيسوس. كان المواطنين يتطلعون إلى شيء آخر غير الجمل الرنانة، وقد رغبوا، جراء هلعهم من الحروب والقلاقل، في أن يكونوا على بينة بما يجري دونما حياء أو تمويه، أضف إلى ذلك أنهم كانوا تواقين إلى الضحك في المسرح مادام المسرح يتيح لهم فرصة التنفيس والتعبير عن شكواهم من الحياة اليومية.

وغالباً ما كان هؤلاء الرجال المتنكرون نساء أو أولئك الذين يتصرفون تصرف النساء، من أكثر الشخصيات إثارة للضحك على المسرح. إن الأسئلة والأجوبة الملتبسة والمتبادلة بين الشخصيات لم تدع مجالاً للشك في جنس الممثل، فإن كشف هذا الأخير عن هويته بإبرازه لخصيصته الجسدية فليس ثمة ما يصدم أو يمس الآداب المرعية، كان الفاللوس (عضو الذكورة) يشكل جزءاً من لوازم المسرح. وقد وصف أريستوفان هذا الشيء الذي لابد منه بدقة متناهية: «شيء من جلد، ضخم وثقيل ورجراج، معلق في مقدمة المسرح، ونهايته حمراء بلون الدم ليكون مثار ضحك من يراه من الأولاد الصغار».

لم يكن ثمة أي شعور بالخجل يتسبب في إرباك الممثلين أو إزعاج المشاهدين، فقد كانوا يبرزون هذا النموذج المجسم الفائض عن الحاجة، ويتأملون ما أنعمت به الطبيعة على الإنسان، ويظهرون من دون حرج غرض استخدامه. كانت إحدى الشخصيات من الذكور أو الإناث (كان يمثلها على خشبة المسرح رجل على الدوام) تارة ترسل قبلة إلى هذا الشيء، وتارة أخرى تشير بإصبعها إلى ذلك الجزء من جسمها المتعلق بهذا الشيء، وطوراً تنبئ، دونما لف أو دوران، بالممارسة الجنسية التي ستجري. وكان هذا الموضوع المفضل عند الجمهور (الحب بمختلف ألوانه وأشكاله) يُدرج في الحدث المسرحي أو يتم إخراجه وتمثيله فعلياً. فمن كان لا يرغب في المشاهدة فإنه غير مكره على التطلع، ومن كان لا يريد أن يسمع فإنه غير مكره على الإصغاء. كان موضوع الحياة الجنسية أقل سخونة أو خطورة من الموضوع السياسي، وكان الساسة ممن يتعرضون لهجوم المسالي أو لانتقاداتها لا يرون أي ضير في هذه الفواحش مابقيت سمعتهم الشخصية نظيفة لم تثلم. ومع ذلك فإن أرستوفان وزملاءه لم يتناولوا العلاقات الجنسية بالتفصيل والتمحيص كان الممثلون ينفخون مؤخراتهم بطريقة مثيرة، وكان الاحتضان وتبادل المداعبات الرقيقة بين الرجال والنساء تعرض على المسرح دونما حياء يذكر، ولكن ممارسات العشق بين الذكور بقيت غائبة عن المسرح.

كان لابد لحب المراهقين من أن يستثير الكثير من الاعتراضات، فالعلاقات اللواطية كانت تبدو كشكل من أشكال تبديد قوة الإنجاب وطاقاتها، لكن الأنصار المقتنعين بحب الصغار من الجنسين (Pédophilie) ردوا على ذلك متذرعين بحجة موروثة من الزمن الأسطوري: إن البذار الذكوري يحمل في طياته الفضائل الذكرية ويجلب للفتيان كما للمرأة الإخصاب وفائضاً من الطاقة والسمو النبيل، واستدركوا قائلين: «أضف إلى ذلك أن الآلهة لم تكن لتعر بالطبع مثل هذا الجمال الحسي إلى أرداف الفتيان إن هي لم تتطلع إلى غاية جنسية». وكان أبطال اللواطة هؤلاء يمتدحون أيضاً ضيق العضلات القابضة اللذيذ الذي لا نظير له عند النساء اللائي يفتقرن أيضاً إلى «رائحة البشرة الطبيعية المحببة إلى النفس» كما أن النساء «محرومات تماماً من ذلك الشيء الذي يمكنك أن تضع عليه يدك التائهة».

ومع أفول عظمة أثينا وانحلالها ازداد الصراع حدة بين الهيتايير والمراهقين، لأن هؤلاء الأخيرين «لم تكن لتكفيهم قطعة من البسكويت، أو قرص من حلوى العسل»، بل كانوا يطالبون بالمال والهدايا مقابل مداعباتهم. وراحت أعداد من الرجال تتحول إلى خنات، لكن أعداد الهيتايير كانت وفيرة، مما زاد في نفوذهن وساعد في سيطرتهن على الحياة الاجتماعية. وراح الناس يتساءلون: «أليست الهيتايير شيئاً ظريفاً أكثر من الزوجة؟» والجواب الذي كان يفرض نفسه هو: «بالطبع، إنهن محببات إلى النفس أكثر من المرأة بكثير، لأن الزوجة تحتل مكانها في البيت بالقوة، في حين أن الهيتايراي تعرف كيف تجتذب الرجل بما يتوفر فيها من مفاتن ومن فنون العيش».

في ملهاته ليسستراتا، أخرج أرستوفان فاصلاً مختصراً يبطل هذا التطور، ولكن الفاصل كان يرقى إلى الزمن البائد. فلا وجود لزوجة ترتدي ثياباً بلون الزعفران، وتتطيب بالعطور، وتنتعل الأحذية الفاخرة المدببة، وتستخدم بقول التطيب للزينة، والقمصان القصيرة الشفافة. كانت ليسستراتا استثناء، هذه المرأة

الخبيرة في تطويع الرجال كانت تجهد في وضع حد للحروب الدائـرة بـأن منعـت عن الرجال هي وأترابها من النساء، متع الحب جميعها حتـى يعقـدوا الصلـح مـع العدو، وأرسلن رسولاً إلى نساء أسبارطة يدعوهن إلى معـاونتهن في حملـة السـلم الجديدة. كانت النسوة الأثينيات يطالبن بحقوقهن الزوجيـة بكبريـاء مـن دون أن يبذلن أي جهد كان لاستمالة أزواجهن وإغوائهـم، في حـين كـان الهيتايـير دون غيرهن يعتنين بمرط شعورهن وإضرام رغبة الرجال بافتعـالهن العواطـف الجياشـة، وبراعتهن في الزوغان والمراوغة.

احتجت ليسستراتا على غياب الرجال الذاهبـين للقتـال مخلفـين النسـاء في خدورهن، في حين لم يترك الرجال، إبـان السـلم نسـاءهم قـط، فكـانت النسـاء «أولاء اللاتي يلدن» والهيتايير، كما لاحظ أرسطو، «يطلين بزيت الأرز ومراهم الرصاص الممزوج بزيت الزيتون ذلك الجزء من الرحم الذي يقذف عليـه الرجـل نطافه» أضف إلى ذلك أن أجسام الهيتايير لا يشـوهها الحمـل، ونهودهـن كاعبـة ممتلئة، وبطونهن ناعمة لطيفة الاسـتدارة، وبشـرتهن ملسـاء لا يقبحهـا شـعر ولا زغب، وكن يهلبن (ينتفـن) أيضـاً الشـعر الـذي يزحـم «عتبـة اللـذة»، ويعطـرن شعورهن بالزيوت الزكيـة. إن الاعتنـاء بالجسـد كـان أمـراً ضـرورياً إن لم يكـن واجباً. فليس بكاف أن تكون الهيتايراي جميلة بصورة طبيعية فحسب، بـل كـان عليها أن تبرز جاذبيتها الطبيعية بكل الوسائل الـتي يمكـن تخيلها أيضـاً. وكـانت تنوع ما تستعمله من خلاصة العطور بما ينسـجم مـع الوقـت والمناسـبة، وتعـرف كيف تستهوي ليس النظر واللمس فقط، بل والأحـاسيس الأخـرى كلهـا أيضـاً، وكيف تبعث التمتع بالحب والحياة. وقد أفاد أحد معـاصري ذلـك الزمـان مبينـاً استسلام مواطنيه إلى الملذات كلياً: كان الفتية يمضون كل أوقـاتهم مـع الفتيـات وعازفات الناي، بينما كان من يكبرهن سناً يستسلمون للعب والفجور.

وإذا ما تحدث الشعراء الغنائيون عن الحب فإنهم يعنون به في العادة الرغبة في إشباع الشهوة، والقصص التي تروي أخبار فتيات يمتن من فرط الوجد، نادرة

أو تكاد تكون معدومة، ولكننا حين نرى ثينو زوجة فيثاغورس تصف الحب بأنه «مرض النفس المشتاقة» نحس بقوة الحب الروائي الحقيقي، ولما زادت مشاعر اليونان رقة وأحلت الشِعر مكان حرارة الجسد، كثر ذكر العواطف الشعرية الرقيقة، وأصبح طول الفترة التي تضعها الحضارة بين الرغبة وإشباعها مما يتيح للخيال فرصة يخلع فيها المحاسن على الحبيب المأمول.

رأس سوفوكل، مؤلف نحو ١٢٠ قطعة مسرحية، لم يبق منها سوى سبع مسرحيات

وقد ظل اسخيلوس نفسه هوميري النزعة في معاملته للنساء، ولكننا نستمع في سوفوكل عن «الحب الذي يحكم الآلهة بإرادتها» وفي شعر يوريبديز مقطوعات كثيرة في وصف قوة ايروس إله الحب:

إذا اشتبك الحب في نزاع
كسب المعركة لا محالة،
والحب يسلب الأغنياء متاعهم!
وهو يبيت سهران طول الليل
بخديه الناعمين على وسادة العذراء،
يبحث عن فريسته على متن البحار
وينقب عنها بين ملاجئ الرعاة
وليس في وسع الآلهة أن تفر من سلطانه

وهي التي وهبت الخلود

فكيف بنا نحن الذين لا تطول حياتهم أكثر من يوم! [1]

وكانت هذه الشؤون وأمثالها في عصر اليونان الزاهر تؤدي إلى صلات الجنسين قبل الزواج أكثر مما تؤدي إلى الزواج نفسه. ذلك بأن اليونان كانوا يعدون الحب الروائي صورة من «تقمص الشيطان للجسم» أو من الجنون، وكانوا يسخرون إذا ذكر لهم إنسان أنه وسيلة يهتدي بها إلى اختيار الزوج الصالح أو الصالحة. وكانت الزوجة عادة تقبل التسري وتصبر عليه صبر الشرقيات، لأنها تعرف أن «الزوجة الثانية» متى فارقتها فتنة جمالها أصبحت في واقع الأمر جارية في المنزل، وان أبناء الزوجة الأولى دون غيرهم هم الذين يعدون أبناء شرعيين.

ولم يكن الزنى يؤدي إلى الطلاق إلا إذا ارتكبته الزوجة، وكان الزوج في هذه الحال يوصف بأنه يحمل قرنين، وكان من واجبه بحكم العادة أن يخرج زوجته من بيته. وكان القانون يعاقب الزانية، والرجل إذا زنى بامرأة متزوجة، بالإعدام، ولكن اليونان بلغوا من التساهل في الأمور الجنسية حداً يمنعهم من التشدد في تنفيذ حكم هذا القانون، فكان عادة يترك للزوج المعتدى عليه أن يأخذ بحقه من الزاني بالطريقة التي يختارها ـ فتارة يقتله في حالة التلبس، وتارة يرسل له عبداً يقتله، وتارة يكتفي بأن يأخذ منه تعويضاً، وإذا افترق الزوجان بقي الأطفال مع أبيهم حتى إذا ثبت الزنى عليه.

وجملة القول إن العادات والشريعة الأثينية فيما يختص بالعلاقات بين الرجال والنساء كانت كلها من صنع الرجال، وهي تمثل النكوص على المستوى الذي وصل إليه المجتمع في مصر وكريت وبلاد اليونان نفسها في عصر هوميروس.

---

[1] قصة الحضارة، المترجم.

إناء من ميديتشي، القرن الأول ق.م، لعل النحت يمثل التضحية بإيفيجينيا

وكان أكثر ما يقوم عليه سلطان المرأة هو جمالها أو إنجاب الأبناء الظرفاء وتربيتهم، أو انصهار روحها وروح زوجها في بوتقة التجارب والواجبات المشتركة، إلا أن عصراً يستطيع أن يصور شخصيات ظريفة مثل أنتيغونا، والسستيس، وإفجينيا، وأندروماك ويصور بطلات مثل هكيبا، وكاساندرا، وميديا، إن عصراً يستطيع أن يفعل هذا لا يمكن أن يجهل أسمى ما في المرأة وأعمق مافيها. لقد كان الأثيني العادي يحب زوجته، ولم يكن على الدوام يحاول أن يستر هذا الحب، وإن الألوان الجنائزية لتكشف عن حنو الزوج على زوجته وحنو الآباء على أبنائهم في داخل جدران المنزل، وهو في كلتا الحالتين حنو يثير الدهشة: «في هذا الحجر وارى مرئو نيز نيقوبوليس، وروى صندوقها الرخامي بعبراته، ولكن هذا لم يجده نفعاً. وهل ثمة فائدة تعود على رجل فارقته زوجته، وبقي هو وحيد على ظهر الأرض؟».

كان مواطنو أثينا في القرن الخامس رجالاً متوسطي القامة أقوياء البنية، ملتحين، ولم يكونوا كلهم من الوسامة كما صورهم فيدياس. وكانت النساء كما تراهن على المزهريات رشيقات الجسم، وتظهرهن صورهن على الألواح الحجرية حساناً ذوات وقار، وهن في التماثيل بارعات الجمال. أما نساء أثينا في حقيقة أمرهن فكن يضارعن في الجمال أخواتهن من نساء الشرق الأدنى ولا

يفقْنهن قط، وقد كانت عزلتهن التي تكاد تشبه عزلة النساء الشرقيات سبباً في نقص نموهن العقلي. واليونان يعجبون بالجمال أكثر مما تعجب به سائر الأمم، ولكن هذا الجمال لا يتمثل قط فيهن بأكمل معانيه، وكانت نساؤهم كغيرهن من النساء يرين أنهن لم يبغلن حد الكمال في هذه الناحية، ولهذا تراهن يُزدن طولهن بنعال عالية من الفلين، ويصلحن ما في أجسامهن من العيوب بالحشايا، ويضغطن مازاد فيها بالأربطة، ويرفعن أثداءهن بحاملات من القماش.. وشعر اليونانيين أسود عادة والشعر الأشقر نادر وإذا وجد كان موضع الإعجاب، وكانت كثيرات من النساء يصبغن شعرهن ليكسبنه هذه الشقرة أو ليخفين شيبهن إذا كبرن، وكان بعض الرجال يحذون حذوهن هذا، وكانت المرأة ذات الشأن تدهن وجهها وصدرها بزيت النخيل وحاجبيها وشعرها بالبروقوش، وعنقها وركبتيها بخلاصة الصعتر، وذراعيها بخلاصة النعناع، وساقيها وقدميها بالمر، وكان الرجال يحتجون على هذه الأسلحة المغرية ولكن احتجاجهم لم يكن له من النجاح أكثر من احتجاج أمثالهم في عصر من العصور.

كان الأثيني العادي رجلاً شهوانياً ولكنه رجل ذو ضمير حي، ولا يرى خطيئة في ملاذ الجسم ويجد فيها الجواب العاجل للتشاؤم الذي يخيم عليه في فترات تفكيره، وهو مغرم بالخمر ولا يستحي أن يسكر بين الفنية والفينة، ويحب النساء حباً جثمانياً لا يكاد يشعر بأن فيه خطيئة ما، ولا يجد حرجاً في أن يعفو عن نفسه بعد أن يرتكب خطيئة الاختلاط الجنسي الشاذ، ولا يرى أن تنكب طريق الفضيلة كارثة لا يمكن النجاة منها.

تبدو أثينا إبان مجدها شرقية أكثر منها أوروبية في أخلاق أهلها، كما تبدو كذلك في حروفها الهجائية، وفي مقاييسها وموازينها وسكتها وملابسها وموسيقاها وفلكها وطقوسها الصوفية.. ففي الأخلاق يعترف الرجال والنساء اعترافاً صريحاً بأن العلاقة الجنسية هي أساس الحب، ولذلك لم يكن شراب العشاق الذي تعصره السيدات المشتاقات يقدم للرجال المهملين لأغراض

أفلاطونية خالصة. لقد كانوا يطلبون إلى النساء المحترمات أن يكن عفيفات قبل الزواج، أما الرجال غير المتزوجين فلم تكن تفرض على شهواتهم الجنسية، بعد أن يبلغوا الحلم، إلا القليل من القيود الخلقية. وقد كانت الأعياد الكبرى، وهي دينية في أصلها، صمامات الأمان لما طبعت عليه البشرية من شهوة جنسية مختلطة؛ فكانوا في هذه المناسبات يتغاضون عن التحرر من القيود في العلاقات الجنسية لاعتقادهم ان هذا ييسر لهم فيما بقي من العام أن يقتصر كل منهم على زوجته الوحيدة. ولم يكن الأثينيون يرون أن في اتصال الشبان بالخليلات من آن إلى آن شيئاً من العار، ولقد كان في وسع المتزوجين أنفسهم أن يبسطوا حمايتهم على تلك الخليلات، ولا ينالهم لهذا السبب عقاب أخلاقي أكثر من تأنيب زوجاتهم في بيوتهم وشيء قليل من سوء السمعة في المدينة.

وهكذا كان رجال اليونان جميعاً يسعون إلى التمتع واللهو والتسالي، ليس في المدن فقط، بل وفي الريف أيضاً، وليس في قصور الأثرياء فحسب بل وفي أكواخ الوضعاء كذلك.

وكانت الاحتفالات الشعبية توفر الفرص المناسبة، ففي مختلف الأماكن، وفي كل شهر تقريباً، كانوا يحتشدون للاحتفالات الدينية، ويجتمعون في أعياد الربيع، وفي مواسم القطاف أو الحصاد، ولم يطرأ على الطقوس المواكبة لهذه التظاهرات، وعلى امتداد قرون عدة، أي تغيير كان، وكان يتقدم مواكب قاطفو العنب فاللوس (عضو الذكورة) عملاق، أما الرقصات والمنافسات المحلية التي كانت تمهد للألعاب الأولمبية فقد بقيت على حالها دون تغيير، لم تكن مظاهر التهتك المواكبة لأعياد ديونيسوس الريفية (Lenaïa) وقفاً على الجمهور السعيد المشارك فيها فحسب، فقد غلب على تلك الأعياد مشاهد الهزل «Komos» وغدت أناشيد التيوس (ragos)، والمقاطع الغنائية المتعاقبة والمستمدة من التقليد القديم، أساساً للمآسي (Tragédie) التي كانت تمثل مسرح ديونيسوس.

ولكن الملذات التي تعقب الاحتفالات بقيت امتيازاً ينعم به سكان الريف وحدهم.

وبعد الانتهاء من الطقس الرسمي الرامز للحياة والموت، وللخلق والفناء، أو بعد تقديم الأضحيات إلى آلهة الأولمب، وعلى أثر الأعياد كلها تقريباً، سواء تلك الأعياد التي كانت تمجد الأساطير القديمة أو تلك التي كانت مكرسة للعبادة، ينخرط الرجال والنساء، أو الرجال فيما بينهم، أو النساء مع النساء، في علاقات من العشق الحميم والدافئ.

لاوكون وابناه، يعتصرهم أفعوانان، تمثال من الرخام، ٥٠٠ق.م

كانت الديانة الإغريقية ديانة حب وتوقان إلى الحياة ومتعها. وكان كهنتها ييسرون العبادة على المؤمنين، فكان يكفي المؤمن أن يتقدم بأضحيته إلى هذا الإله أو ذاك حتى يفوز بما يريد.

وإذا ما أراد نوال نعمة آلهة الأولمب كان عليه أن يهيم حباً بما فيها من طبيعة حية، وإن لفي إقتدائه بالآلهة ضماناً لرضاها وانتماء إلى قوتها.

وكان باستطاعة كل مؤمن أن ينعم بملذات الآلهة بما يتفق ومقامه المتواضع، فالآلهة لم تطالب يوماً بكبح الغرائز الجنسية، لأن بمقدور الجميع التيقن

من ذلك إن هم تأملوا الرموز القضيبية التي يحملها الجمهور إكراماً للآلهة يقدمونها إبان الاحتفالات.

جعل الإغريق من الحياة والتمتع بها فناً، فأشادوا بالصالح الجميل، غاية وجودهم الرئيسة، وراحوا يعلّمون فن العيش، والإحساس بالخير والجمال، الشعوب التي كانوا يتعايشون معها، والشعوب التي تغلبت عليهم، وهكذا قدم الإغريق للخلاص كامل معناه ليتبادلوه فيما بينهم ومعهم الأغراب الأجانب: «chaïre» (ابتهج وتمتع!).

الفصل السابع

الاتروسك والرومان

«ليس على ظهر الأرض أو تحت قبة السماء بلاد تماثلها في جمالها وروعة مناظرها»

بليني الأكبر

«هنا الربيع الدائم والصيف حتى في غير أشهره، هنا تلد الأنعام مرتين في العام، وتثمر الأشجار مرتين»

فرجيل

«وهل في العالم بلاد أنجبت من العباقرة مثل ما أنجبت الأمهات الإيطاليات طوال الثلاثين قرناً التي يشملها تاريخ تلك البلاد؟ وهل في العالم بلاد غير ايطاليا كانت قطب رحى التاريخ - في نظم الحكم أولاً ثم في الدين، ثم في الفن؟ لقد ظلت روما مدى سبعة عشر قرناً - من كاتو الرقيب إلى ميكل آنجلو مركز العالم الغربي»

قصة الحضارة - ويل ديورانت -
ترجمة محمد بدران

تسلسل زمني

نحو ١١٠٠ (؟)	ق.م	هجرة الاتروسك
٢١-٤-٧٥٣	ق.م	تأريخ تأسيس روما الأسطوري
نحو ٥١٠	ق.م	الجمهورية
نحو ٥٠٠	ق.م	بداية الصراع الطبقي بين الباتريسيين (الأشراف) والبليبيين (العوام).
القرن الخامس	ق.م	قانون الألواح الإثني عشر
عام ٣٩٦	ق.م	خراب فييس
عام ٣٨٧	ق.م	الكلت (السلت) في روما
بين عامي ٢٨٠-٢٧٩	ق.م	«انتصار بيروس» في هيراقليا وأسقولوم
عام ٢٦٥	ق.م	استيلاء الرومان على آخر معقل اتروسكي
بين عامي ٢٦٤-٢٤١	ق.م	الحرب البونية الأولى
نحو ٢٥٤ -١٨٤	ق.م	تيتوس ماكيوس بلاوتوس
بين عامي ٢١٨-٢٠١	ق.م	الحرب البونية الثانية
عام ٢٠٤	ق.م	**سيبيل**، دخول ماغنا ماتر **(magna mater)** رسمياً إلى روما وماغنا ماترهي الأم الكبرى - **الإلاهة العظمى** - أم الآلهة.

عام ١٨٦	ق.م	صدور مرسوم ضد الباخوسات Bachanales panaitios باناييتيوس فيلسوف المدرسة الرواقية الأول (أسسها زينون نحو عام ٣٠٠ ـ زينون الذي كتب بوضوح وصراحة للقراء الرومان).
بين عامي ١٤٩ ـ١٤٦	ق.م	الحرب البونية الثالثة ـ خراب قرطاجة (قرطاجنة)
عام ١٤٦	ق.م	خراب كورنثة (قورنثة)
بين عامي ١٣٨ـ٧٨	ق.م	صيلا
عام ١٣٣	ق.م	اغتيال تيبريوس جراكوس
عام ١٢١	ق.م	انتحار كايوس جراكوس
نحو ١١٤ـ٥٣	ق.م	كراسوس
بين عامي ١٠٦ـ٤٨	ق.م	بومباي
بين عامي ١٠٠ـ٤٤	ق.م	قيصر
نحو ٨٥	ق.م	فيدرا تعلم الفلسفة الأبيقورية في روما
نحو ٨٤ ـ ٥٤	ق.م	كاتول
بين عامي ٨٢ـ٣٠	ق.م	ماركوس انطونيوس
بين عامي ٧٠ ـ ١٩	ق.م	فيرجيل
بين عامي ٦٩ـ٣٠	ق.م	كليوباترا
بين عامي ٦٥ـ٨	ق.م	هوراس
بين عامي ٦٣ـ١٤	ق.م	كايوس أوكتافيانوس (اغسطس لاحقاً).
عام ٦٢	ق.م	كلوديوس بولكر وعيد بوناديا

بين عامي ٤٣-١٨	ق.م	أوفيد
عام ٤٢	ق.م	معركة فيليبس: الانتصار على قتلة قيصر.
عام ٣١	ق.م	معركة أكتيوم: انتصار أوكتافيانوس على ماركوس أنطونيوس.
بين عامي ٢٩ - ١٩	ق.م	إنياذة فيرجيل
عام ٢٧	ق.م	كايوس اكتافيانوس صار الأمبراطور قيصر أوغسطس.
العام الثاني	ق.م	أوغسطس ينفي ابنته يوليا (المولودة في عام ٣٩ ق.م).
العام الأول	ق.م	«آرس أماتوريا» لأوفيد
العام الثامن	بعد الميلاد	نفي أوفيد ويوليا الفتاة
العام التاسع	بعد الميلاد	قانون الزواج والأخلاق
مابين عامي ١٤ ـ٣٧	بعد الميلاد	الامبراطور تيبير
عام ٧٩	بعد الميلاد	خراب بومباي (بومبي)

الاتروسك والرومان

يروي شاعر من العصر الإمبراطوري ان الأميرة الملكية ريا سيلفيا «Rhea Sylvia» المنذورة للبتولة، كانت غافية على ضفة ساقية مخضوضرة، عندما مسَّ النسيم نهديها العاريين، و لم يكن هذا النسيم سوى نفحة صادرة من إله الحرب، الذي أسره جمال المرأة الشابة وحركت مشاعره مفاتن الأميرة الغافية، فهبط إليها وأخصبها.

كان لهذا الوصال العابر آثار وذيول لا تنسى. ذلك ان هذه العذراء، التي كانت قد كُرست لفستا، إلاهة النار المقدسة المكلفة بحماية الدولة والسهر على بيت الزوجية، كيلا تخبو النار في المعبد أبداً، أنجبت توأمين: رومولوس Romulus الذي أسس روما، وريموس الذي قتله أخوه لأنه سخر منه. كان ملك ألبالونجا قد اغتال اخوة ريا سيلفيا، وأغرق في نهر التيبر الأم الشابة التي دنست نذر البتولة المقدس، ووضع الطفلين الصغيرين على رمث وأسلمهما لمجرى النهر. لكن إله النهر أنقذ ريا سيلفيا وتزوجها، وحمل بأمواجه الطامية الولدين إلى اليابسة، وتروي الأسطورة ان ذئبة خيِّرة أرضعتهما من حليبها.

بيد أن العبارة اللاتينية التي تعني ذئبة «lupa» تدل أيضاً على مومسات الشوارع أو المواخير. كما ان ثمة قصة مختلفة تزعم ان زوجة أحد الرعيان هي التي وجدت الوليدين وأرضعتهما، وان الذئبة «Lupa» ما هي

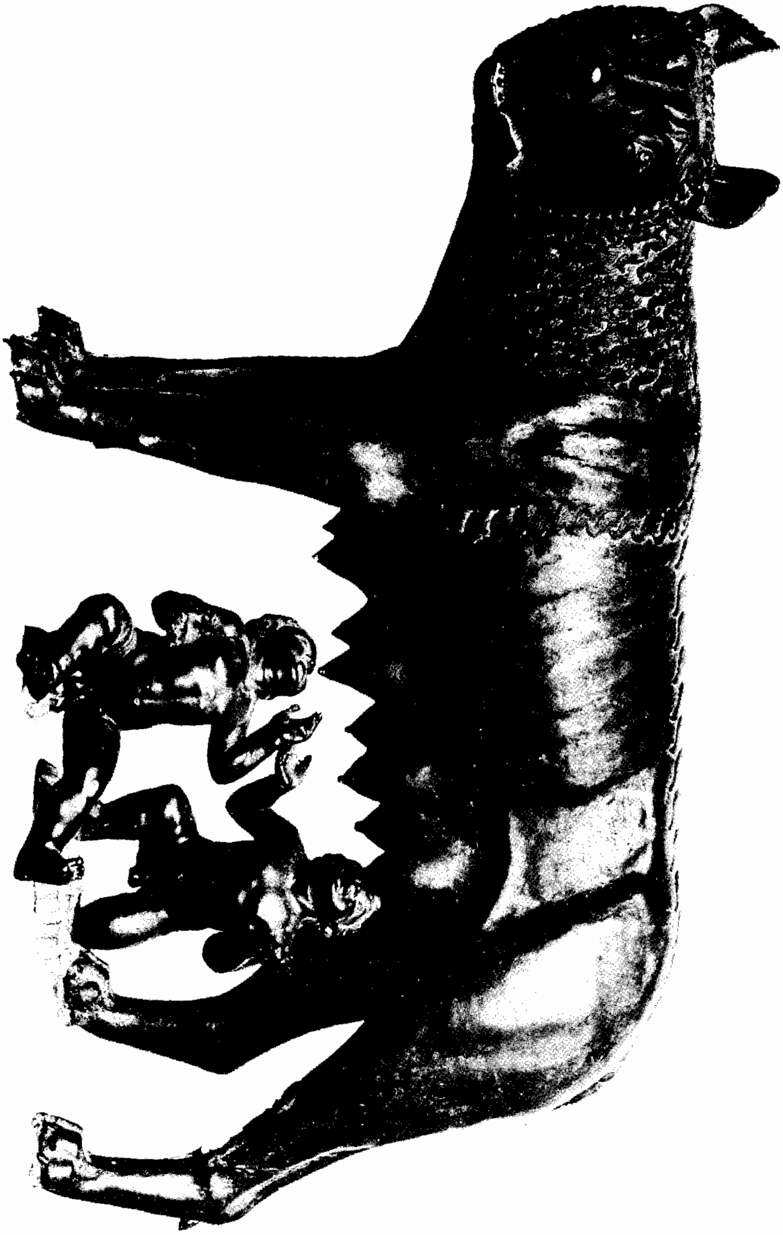

رومولوس وريموس، التوأمان الأسطوريان اللذان أسسا روما

إلا هذه المرأة التائهة بحثاً عن العشاق مثل ذئبة طالبة للسفاد. وهـذا المعنى للعبارة يفسر معنى كلمة «lupanar» التي كانت تعني بيوت الدعارة السيئة السمعة في روما.

فالأسطورة في روايتها الأولى تقدس الذئبة، وفي الثانية تجعل من المرأة اللعوب محترفة الحب مرضعة أول ملك من ملوك روما الذي جعل منه مواطنوه إلهاً. وهذه الازدواجية تتجلى في أوضح صورها في اللبس الأخلاقي الذي كان يخلط في المدينة الخالدة مابين السامي والعظيم من جهة، والدعارة والتهتك من جهة ثانية. إن مصدر هذا التناقض هو طبيعة الرومان المزدوجة، وليس هو كما كان يعتقد ولمدة طويلة تأثير الإغريق الذي ما انفك مع ذلك، ضئيلاً جداً حتى غزو الرومان للأرض الإغريقية، ولكنه أدى في نهاية المطاف إلى غلبة أخلاق المهزوم على المنتصر. إن الموقف الحرج ومأزق الاختيار بين المتعة والزهد بها بدأ منذ تأسيس المدينة المؤرَّخ سنة ٧٥٣ق.م. وعلى الرغم من أن غراميات ريا سيلفيا مع إله الحرب ـ مارس عند الرومان وأريس عند الإغريق ـ تذكرنا بالعديد من مشاهد العشق في الميتولوجيا الإغريقية، بيد أنها لا تتطابق تمام التطابق مع المفاهيم الهلينية. لقد فقدت ريا سيلفيا بكارتها وهي نائمة وعليه فإنها لم تشعر بأية لذة كانت، وهذا ما يجعل منها أميرة إغريقية خالصة، وعن طريق جدها، البطل الطروادي «Enée» ايناس، تحدرت ريا سيلفيا من أفروديت (فينوس عند الرومان) التي كانت كثيرة التساهل مع الملك آنكيز أبي اينياس. ومن هذا النسب الخالد ورثت ريا سيلفيا مفاتنها الساحرة، وهذه المفاتن هي التي أغرت الإله مارس وأسَرَتْه وليس براعتها في فنون العشق والغرام، وعليه واظب المؤمنون على تكريمها بوصفها العذراء السادنة للنار المقدسة، وعلى تبجيل بتولتها الخالدة على الرغم من أمومتها. لقد كانت في نظرهم امرأة قدوسة (في منتهى القدسية). ومع ذلك لم تكن عفتها بمنأى عن كل ريبة، بل شاع عنها أنها انتهكت الحرمات ودنستها، حتى إن الإله الشهواني برياب الذي أثار بمجونه الصفيق اهتمام

الرومان، رجالاً ونساء، كان له معها بعض النجاحات، وكاد يقضي وطره منها لو لم يفزعه نهيق حمار فيحول دون فعلته.

إن قصة تأسيس روما من قبل رومولوس هي من اختصاص الأسطورة، ومع ذلك كان الرومان يعيرون هذه القصة قيمة تاريخية ويؤرخون الأحداث بدءاً من هذا اليوم: «A. U. C = ab urbe condita» أي (ابتداء من تأسيس المدينة). وكان أشراف روما يزعمون أنهم أحفاد آباء «Patres» أسرة روما الأول، وكانوا يطالبون بالزعامة لأسرهم بوصفها حقاً من حقوقهم القديمة التي تعود إلى مؤسسي المدينة، وهم يريدون الدفاع عن هذا الحق بكل السبل الممكنة.

فمن هم يا ترى هؤلاء الآباء؟ ومن أين جاؤوا؟ هنا يتفق التاريخ والأسطورة ويريان في هؤلاء الآباء أحفاداً لعشائر ثلاث. أقامت جماعات من اللاتين والسابين والأتروسك في سبعة مرتفعات تطل على السهل الذي يرويه نهر التيبر. فجمع رومولوس هذه القرى المنعزلة في مدينة واحدة ـ كما سبق وتشكلت إسبارطة من قرى متناثرة ـ وكان يحيط بالمدينة أسوار لحماية مزروعاتها. ومن أجل اعمارها استقدم رومولوس أعداداً من المنفيين واللاجئين، فكانوا الطليعة التي مهدت الطريق للعظمة الرومانية. ولكن هؤلاء المزارعين (المؤاكرين) الذي أسكنهم رومولوس روما كانت تعوزهم النساء، فتدارك رومولوس على الفور هذا الأمر دونما تحسب للعواقب، فنظم مباريات رياضية شبيهة بتلك التي ربما كان قد تعلمها من الأولمبياد الإغريقية، ووجه الدعوة إلى جيرانه السابين، للقدوم بصحبة نسائهم إلى المدينة ذات الهضاب السبع والاشتراك في الألعاب التي ستجري في ميدان الألعاب العامة المسوَّر، وأثناء مباريات المتصارعين استولى الرومان على نساء ضيوفهم وسبوهن وطردوا رجالهن. وهكذا غرر المضيفون المخادعون بزوجات السابين وأخواتهم وبناتهم طوعاً أو كرهاً فأصبحن جدات لأسر الأشراف. لقد كن جديران بما حظين به من مظاهر الاحترام والتقدير لإسهامهن في تذليل ما ولّده اختطافهن من نزاع انقلب إلى

صراع مفتوح. ولكن عزوفهن عن كل ضغينة نحو أزواجهن الجدد ألف بين قلوب الرجال من الفريقين المتنازعين، وفرض تحالفاً بين السابين والرومان الذين اتحدوا بدورهم مع اللاتين في دولة مشتركة. وفي كتاب فن الهوى لأوفيد نقرأ حول خطف السابينات:

«كنتَ يارومولوس أولَ من نشر الفوضى في هذا الموقع.
عندما أمست نساء قبيلة «سابين» المخطوفات سلوى لرجالك الأعزاب
حينذاك، كان المسرح المرمري مازال يفتقد الخيام الثمينة،
ولم تكن ردهاته تتوهج بعد بلون الزعفران الذهبي الوردي
بل تنتثر عليها عفواً أوراق أشجار البالاتينوس،
على حين ظلت المنصة عارية من كل زينة
وقتها، كان القوم يجلسون على درجات معشوشبة،
تغمر شعورهم الشعثاء أوراق الشجر المتساقطة
ويتلفت كل منهم يمنة ويسرة،
يحتضن بعينيه امرأة يتشهاها،
يتأملها في حنايا قلبه.
في ذلك اليوم المشهود [يوم اختطف الرومان السابينات]،
هب الراقص يضرب أرض المسرح بقدميه مرات ثلاث،
وبدأ عازف الناي يرسل ساذج أنغامه
دوى التصفيق خشناً مجلجلاً

وأومأ الملك لأتباعه المتلهفين إيماءة البدء لخطف السابينات، فما أسرع ماوثبوا مثل وحوش كاسرة، يتحشرج في حناجرهم الشبق العارم، وأياديهم تهوي، لهفة نهمة، على مفاتن أجساد العذراوات؛

كنَّ يمامات مذعورات ينشدن الإفلات من بين مخالب صقور جارحة،
أو حملان رضَّع يلمحن الذئب المفترس الجائع،
فزعات يهرولن هرباً بفرائص مرتعدة، وفي أعقابهن البرابرة المختطفون.
ومن فرط الخوف شحُبْن، وغاض لون البشرة
تولاهن جميعاً خوف واحد، وإن اختلف مسلك كل منهن مع الرعب:
فالبعض على الأرض ذاهلات لا يتحركن
واحدة تنتحب في صمت،
وثانية تصرخ عبثاً «يا أماه»،
وثالثة تحبس دمعتها وتُنهنه،
وفتاة تتخلف، بينا تولي أخرى وتفر
والموكب يمضي بعرائسه الأسيرات، يزددن فتنة رغم الذعر
وحين تحاول إحداهن أن تتأبّى على آسرها، يحتويها ولهان في صدره،
يرفعها بذراعيه إلى أعلى ويناجيها
«لم تطمسين سحر عينيك بالدمع،
وأنا لن أتجاوز ما فعل أبوك بأمك».
أي رمولوس
لك تهنئتي
كنت فريداً....»(*)

في نهاية حياته رُفع رُمولوس إلى السماء، وصار إلهاً يعبدونه باسم كوبرينوس. وبعد هذا الصعود اختار رؤساء الأسر الكبيرة (Senatores أعضاء

(*) من كتاب «فن الهوى» لأوفيد، ترجمة الدكتور ثروة عكاشة.

مجلس الشيوخ) السابيني نوما بومبيليوس ونصبوه ملكاً على روما. ويقص علينا المؤرخ تيت - ليف Tite- Live حياة هذا الملك على الشكل التالي: «.. انصب اهتمامه في المقام الأول على أن يُدخل في روع الرومان الخوف من الآلهة، وأن يجعل ذلك الخوف أقوى أثراً في قلوب الأقوام الهمج، وإذا كان موجهاً إلى حكمة غير حكمة البشر، فقد ادَّعى انه كان يلتقي في الليل بايجيريا الحورية المقدسة، وانه يعمل بنصيحتها حين ينظم الطقوس والمراسم الدينية التي هي من أحب الطقوس إلى السماء، ويعين الكهنة لكل إله من كبار الآلهة». لم تكن ايجيريا إلاهة عظيمة الشأن، بل كانت مجرد حورية بسيطة من حوريات الينابيع. وسرت شائعة تقول إنها كانت خدينته، بل ربما كانت زوجة نوما بومبيليوس. كان الرومان يقدرون زوجاتهم حق قدرهن، وهذا ما كان يدفعهم إلى استحسان استشارته لزوجه وتثمينها قبل أن يتخذ ما يخص مدينته من قرارات.

تحتل الزوجات الرومانيات لدن أزواجهن مكانة مرموقة، ففي البيت المسمى «domus» كانت كل واحدة منهن السيدة (domina) بلا منازع. ومع ذلك ما برحت المرأة تعد ثروة تغتصب، فهي لا تتمتع بالحقوق نفسها التي يتمتع بها الرجال، وذلك لأنه كان قد توجب على الرومان منذ البدء التشدّد في رقابتهن خشية هروبهن. وقد ترك هذا الاحتراز آثاره في التشريع، فما برح الزوج أو الابن أو الأب سيد المرأة الأعلى حتى بعد الاختطاف بفترة طويلة، وتأقلُم المخطوفات وبناتهن وحفيداتهن في المدينة روما. والمرأة إذا ما ترملت ومات عنها زوجها لم ترث من ماله شيئاً، كانت المرأة «Manicipium» أي ملكاً لرب الأسرة وتحت سلطته، حتى إن هذا الأب يحتفظ بسلطته الأبوية على ابنته المتزوجة إن لم يسلمها بنفسه إلى زوجها... (cum manum - باليد)، ففي هذه الحالة فقط تغدو ملكاً لزوجها، وكان باستطاعة الزوج الحكم بالموت على زوجته إن هي خانت الأمانة الزوجية، أو سرقت من ماله، وكما هو الحال في إسبارطة كان للأب هنا السلطة المطلقة على أبنائه، إذ كان بمقدوره ان يقتل كل

وليد ذكر مشوه، وكل وليدة أنثى إذا ما رأى أنه قد نال كفايته من البنات. وإذا ما لبى الولد احتياجاته يُعترف به رسمياً بعد ثمانية أيام من ولادته، ليكون من الآن فصاعداً عضواً في العشيرة بحيث ينم اسم العائلة المشترك عن التضامن القائم. وكان من حق الأولاد الذين يرتدون في نهاية سنتهم الخامسة عشرة رداء البلوغ الأبيض، التصويت في المجلس الشعبي، ومن واجبهم الانخراط في الخدمة العسكرية؛ ويتمايز الأولاد فيما بينهم بأسمائهم الأولى، في حين تحتفظ الفتيات حتى المتزوجات منهن باسم عائلاتهن. فإذا ما تزوجت الفتاة كان يقال «in matrionium ducere» أي قيادتها إلى الأمومة.

ان على كل رجل في روما القديمة، كما في إسبارطة، أن يعقد زواجه ويتدبر شؤون ذريته. وإذا ما بقي أحد الكهنة عازباً كان يخلع من منصبه. وكان يعتقد أن روح الميت يحكم عليها بالتيهان دونما أمل وإلى ما لا نهاية إن لم يُعن برمسه أحد من ذريته، ثم إن كل رجل لا ولد له يكون محط احتقار وخارجاً على القانون ومنذوراً لتيهان أبدي. وهذه الفكرة كانت تزيد في أهمية العائلة وقيمتها. في الماضي لم يتدبر الرومان الأول بأنفسهم شؤون البيت الصعبة وأعمال الحقول الشاقة.

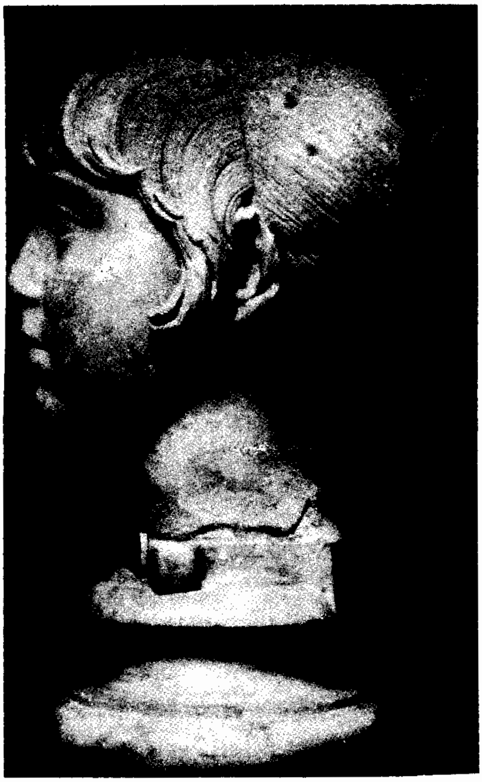

رأس فتاة رومانية، روما

لقد كانوا يمتلكون إضافة إلى

الماشية عبيداً كانوا أيضاً «manicipia» ملكاً للأسياد بصورة مطلقة، لأن بمقدور هؤلاء السادة استخدامهم ونقل ما يمتلكونه منهم كيفما شاؤوا، كما كانوا يستطيعون التصرف بهم واستغلالهم بتعسف وبلا رحمة، ومع ذلك فإن ثمة قواعد (l'humanitas) (احترام الكائن الإنساني والإنسانية) مسلم بها منذ بدايات روما إجمالاً. صحيح ان هناك تجاوزات للقانون، ولكن قواعد الإنسانية هذه كانت تحد من اللجوء إلى القسوة والعنف بحق الرجال والنساء ممن استعبدتهم الديون أو مخاطر الحروب أو ممن أمكن شراؤهم بالمال، لقد كانوا يمثلون المزايا الجسدية نفسها التي لأسيادهم. وأما فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية، فليس ثمة ما يسيء إلى سمعة الرجال المنتسبين إلى العشيرة إذا ما اشبعوا غرائزهم مع العبيد من كلا الجنسين. وكان يحظر على النساء بالمقابل، وتحت طائلة الحكم عليهن بالموت، ان يتعرضن للحمل بنطاف وضيعة لرجل غير حر. وإذا ما ارتبطت الرومانية بعلاقات جنسية مع أحد العبيد يحكم عليها بصورة لا رحمة فيها، في حين كان من الممكن للزوج أن يصفح عن علاقات زنا الزوجة مع رجل كريم المحتد إن رأى الزوج فيها نزوة، أو أمل من وراء هذا الانحراف الحصول على الذرية المرغوبة.

كان يروق للبعض أن يعزوا إلى الرومان طبعاً بارداً ونفعياً. صحيح ان مخيلتهم كانت أغنى من مخيلة الإغريق الذين يقارنون بهم في أغلب الأحيان، ولكنها كانت مخيلة من نوع آخر. كان الإغريق على الدوام يضفون على آلهتهم ذكوراً وإناثاً مظاهر إنسانية، ويصورونها بسمات وأجساد شبيهة بسماتهم وأجسادهم هم. أما بالنسبة للرومان فإن هذه الآلهة نفسها أو الشبيهة بها لم تكن بشراً خارقين للطبيعة أو ناساً وهبوا قدرات استثنائية، بل هي أرواح غير مرئية، ولا يمكن إدراكها، كانوا يدعونها «numina» نومينا. كانوا يجلون فيها ويعبدون قواها غير المادية التي تبعث الحياة في الوجود الأرضي وتواكبه. كان رب الأسرة هو الرجل القادر الذي يحدد مصير أسرته لأنه هو من يحمل في ذاته

الـ«genius» (القوة التناسلية) التي تنتقل بوساطة بذاره إلى زوجته الـتي توجهها جينو (هيرا اليونانية). وتنجب «الوالدة» لزوجها الأولاد الذين يحلون فيما وراء الحياة الأرضية قوة التناسـل الأبويـة؛ الـروح الـتي تستمر فيهم على الرغم من مغادرتها لهم. إن كل نشاط، وكل خطر في روما كان يرتبط بحظوة الروح أو بفقدان حظوتها وبعطفها أو بسوء نيتها.

وإن لهب الموقد يدين بأواره ونوره إلى فيستا ـ جوبيتر، الذي يعود اسمه المبجل، دون ريب، إلى «Diuspater» أبي السماء الذي كان يرمز إلى الشمس والقمر، ويجود بالمطر، ويدوي مع الرعد، ويفني بصواعقه، إنه إله خطر وإليه يتوجب تقديم الأضاحي لتهدئته وإخماد سورته واستمالة عطفه. ففي نظر الرومان الأول لم يكن من الممكن وفي أي حال أن ينحط جوبيتر مثل زيوس لينخرط في غراميات عابرة. لقد كان جوبيتر أكثر نبلاً وجلالاً من أن يخطر في بال أحد ويربط اسمه مع التهتك والفجور أو الرغبات الشهوانية. أضف إلى ذلك انه لم يكن منذ البدء زوج جينو التي تسهم بالروح فقط في علاقات جميع النساء الزوجية.

إن كل ما هو مفاجئ ومحير ويتكرر مع ذلك في الحياة الإنسانية كان روحاً يطلقون عليها اسماً. كان السبات يسمى «Cuba» كوبا، وكان يعد شيطاناً يوزع وفق هواه الراحة أو الليالي المضطربة. أما «Fabulina» فابولينا فكانت تعلم الأطفال الكلام. وبومونا «Pomona» كانت تشرف على الحدائق. والماشية في المراعي كان يحرسها فاونوس «Faunus» وساتورنوس «Saturnus» كان يسهر على البذار، وفولكانوس كان يحول دون انطفاء النار وخمودها. ولا وجود لعلاقات جنسية بدون بريابوس «Priapus»، ولكن الحمل بدون «Tumutus» تومُتس غير ممكن. والويل لامرأة لم تتضرع إلى لوسينا «Lucina» وإلا ستكون عرضة لاضطرابات الدورة الشهرية، أو لإنجاب مولود ميت. وإذا ما بقيت المرأة عاقراً على الرغم من علاقاتها الزوجية الفعالة، فمن

المستحسن أن تولج عضو أحد تماثيل برياب الذكري، فقد كاد يكون لهذا الفعل أثره المؤكد. ترى هل روح الإله القصير هي التي مدت يد العون إلى هؤلاء النسوة حقاً؟ أو ان كهنته هم الذين كانوا يتحكمون بالإخصاب ويشرفون عليه؟ كانت النسوة يجهلن ذلك؛ فليس بمكنتهن معرفة الحقيقة، لأنهن من خلال الشعيرة المقدسة كن يدرن ظهورهن لعضو الإخصاب ويجلسن عليه وهن مفرشحات. ويكاد هذا السلوك الديني يمنحهن على الدوام النتيجة المرجوة. كان برياب محبوباً ومكرماً من قبل النساء، كما كان يطيب للأزواج أن يغضوا الطرف عن نُسَخ هذا الإله العطوف الصغيرة التي تتزين بها نساؤهم، فلم يكن لهذه النماذج التشكيلية المصغرة عن ذكورتهن الخاصة بهم إلا أن ترضي غرورهم.

كانت الأرواح، الخيرة منها والشريرة، التي تؤثر بل وتحدد أعراف الرومان الأوائل وتقاليدهم كلها، كبيرة العدد بحيث يمكننا أن نلاحظ والابتسامة ترتسم على شفاهنا أن في المدينة من الأرواح أكثر مما فيها من البشر. وإن الملك نوما بومبيليوس، الذي سعى إلى أن يدخل في روع مواطنيه الخوف من الآلهة، قد نجح كل النجاح. صحيح أنه لم يخترع بنفسه هذا العالم من الأرواح التي تغذي إيمان الجمهور الجهول وتزيد في تطيره؛ ولكنه أدخل في نظامه السياسي ما رآه ضرورياً لترسيخ وحدة مملكته بتوحيده لتصورات مواطنيه الأسطورية. ففي سبيل أن تحافظ روما على استقلالها الحديث العهد، كان لابد لرجال روما ونسائها من أن يختلفوا عن سكان المدن الأخرى، وكان عليهم أن يمتازوا من جيرانهم بتباين أخلاقهم وطباعهم وتفوقهم في القتال. وراح خليفة نوما بومبيليوس يجتهد في البحث «عن فرص الحرب في كل مكان» فمع مواطنيه الرومان أحال ألبالونجا موطن رياسيلفيا إلى خراب، وورّث خلفاءه نزعاته للحرب والطعام. ورسم ملك روما الرابع حدود المبدأ الذي سيوجه التاريخ الروماني حتى الغزو الإمبراطوري: إن على من يريد العيش في سلام أن يؤمن بالتسبب في ضرر الآخرين وفي

مضايقتهم؛ لأن المقاومة السلبية ليست بمفيدة؛ فبدون استعداد للحرب مكين نفقد الحماية الفعالة للسلام. إن فضائل الحرب ستجعل من الرومان نظراء متأخرين للإسبارطيين، ليس الرومان جميعهم طبعاً، بل الأشراف منهم فقط، أولئك الذين يبسطون نفوذهم ويتوسعون فيه ويتمتعون بيسر ما برح مع ذلك متواضعاً. إن عامة الشعب، المؤلفة من مواطنين أحرار جاؤوا إلى المدينة وضواحيها، لم تحدّر من مؤسس المدينة قطعاً. وهؤلاء العوام ساعدوا الأتروسكي لوسيوس تاركينيوس، الملقب بريسكوس الأقدم، في تسنم العرش، ولقد قدِمَ هذا التركويني، الابن لأم اتروسكية بموجب الأسطورة، من اتروريا إلى روما. وفي خلال ما ينوف على القرن حكم تاركوينيوس بريسكوس وصهره ومن ثم ابنه تاركوينيوس سربرمُس المدينة التي توسعت إلى حد تجاوز فيه عدد سكانها مائتين وستين ألف نسمة. ولم يشكل الرومان الأقحاح إلا القلة القليلة من رعايا ملوك الأتروسك، في حين كانت الأغلبية العظمى من السابين واللاتين وعلى الخصوص من الاتروسك الراغبين في نقل أخلاق مدن منشئهم وعاداتها إلى روما.

هل كان التركوين الثلاثة: رومولوس أونومابومبيليوس وخليفتاه، شخصيات أسطورية؟ هل تم اختراع هذه الشخصيات لاحقاً؟ أو أنهم غيروا الذكريات المتداولة لتسليط الضوء المناسب على القادة اللاحقين، بينما كانت تفسر الصراعات السياسية وتأثير نمط الحياة الاتروسكية في تطور روما؟ لقد درست هذه المعضلة مرات عديدة، ذلك لأن تأثير الاتروسك في تشكل المدينة وفي منشآتها كان يزداد وضوحاً وباطراد، كلما كشفت التنقيبات الأثرية عن وثائق تؤكد أكثر فأكثر ان التفسير الروماني للتاريخ يبدأ من زوال الاتروسك واضمحلالهم نهائياً. ونحن نجهل ما إذا كان المؤرخون قد اختلقوا هذه القصص الخيالية لأغراض سياسية، فذهبت بهم إلى تشويه الحقيقة. ولكن يكفينا نحن أن نلمس كم كان تأثير الاتروسك حاسماً في أعراف الرومان وأخلاقهم، وكم كان عنيفاً رد الفعل الروماني ضد هذا التأثير، وعندما ضمت روما المقتدرة الجبارة

اليونـان إليهـا، خـرب زعمـاء المدينـة دون أي اعتبـار وبـلا رحمـة آخــر معــاقل الاتروسك، وأبادوا هذا الشـعب، ومحـو كـل أثـر مرئـي للعلاقـات السـابقة الـتي كانت قائمة بين الاتروسـك والرومـان. ثـم راحـوا يتبجحـون مفـاخرين ان مـن أسس مدينتهم هو أحد أحفـاد البطـل الطـروادي اينيـاس ابـن الإلاهـة الإغريقيـة أفروديت التي يعبدها الرومان تحت اسـم فينـوس. وهكـذا توسـل الرومـان تغيـير آلهتهم الخاصة وفق النموذج الهلّيني، وتبني نمط الحياة الإغريقي.

ويجاهر العلم التاريخي الرسمي مجاملاً ان لا شيء يجمع الرومان بالاتروسـك سوى ذكرى نزاعات ماضية وسلطان ملكي حرر مدينته لحسن الحظ بمساعدة الآلهة، فمن السهل جداً أن ندعم مثل هذا التـأكيد الأسـطوري مـادامت الوثـائق الأتروسكية غير متوفرة، والأعمال الفنية الاتروسكية غائبة عن الأنظار، لكنها مع ذلك محفوظـة في اللحـود المطمـورة تحـت الأنقـاض. وهكـذا كـان علينـا انتظـار مكتشفات القرون الماضية لكي نتخيل من جهة: حياة الاتروسك المادية والروحية من خلال نبش قبور الماضي، واكتشــاف أعمـال السـيراميك (الخـزف) والـبرونز والصياغة، ولكي نكمل من جهة ثانية الصورة التي تعكس حياتهم بفضل مقـاطع من النصوص القديمة التي تم العثور عليها.

اشتهر الاتروسك منذ زمن بعيد بترفهم ورخــائهم الاسـتثنائيين وقـد سـبق لهزيود ان أشاد بـ«التيرسينيين Tyrseniens النبلاء الذائعي الصيت»، وهذا، دون ريب، ما حتم على المؤرخ اليوناني هيرودوت أن يتقصـى أصـول هـذا الشـعب الغابر. فبنى رواياته على الموروثات القديمـة الـتي اكتشـفها في ليديـا. لقـد عـانت سـاردس، عاصمـة هـذه المملكـة القائمـة في القسـم الشـالي ــ الغربـي مـن آسـيا الصغرى، من مجاعة مروعة اكتسحت البلاد بطولها وعرضها، واعتبر الملك آتيـس نفسه عاجزاً عن تقديم الحد الأدنى من القوت لرعاياه. وراح الليديـون يفتشـون عن وسيلة تنسيهم جوعهم بابتكار الألعاب وتنظيمهــا، وهكـذا ابتـدع الليديـون «لعبة النرد، والكعب، والكرة، وكافة أنـواع الألعـاب الأخـرى.. كيـلا يفكـروا

بالطعام». فكانوا يأكلون اليوم ويلعبون في اليوم الذي يليه، ولكن ذلك لم يكن سوى حل انتظار لا يغني من جوع، واستمر العوز ليزداد هولاً من الأيام. والحال هذه أزمع الملك على إرسال نصف مجموع السكان خارج البلاد لتسنح للبقية الباقية فرصة البقاء والاستمرار في العيش. وكان على الحظ أو القدر أن يبت فيمن من السكان سيبقون ومن منهم سيخاطرون سعياً وراء مجهولٍ غير مضمون تحت قيادة الأمير الملكي تيرِّينوس «Tyrrhéniens».

وفي خلال عبورهم هذا القسم من البحر المتوسط، المسمى في ذاكرة النازحين البحر التيراني، استطاعوا أن يتدبروا أمور احتياجاتهم.. ثم احتلوا شواطئ إيطاليا الغربية الممتدة بين آرنو والتيبر، وأسسوا في داخل البلاد المدن القائمة على التلال، وبنوا البيوت، ونصبوا الأسوار، واستعبدوا السكان الأصليين أصحاب الأرض... كانت الأرض خصبة، وإذ حرثوا بطريقة مستحدثة، ونثروا عليها الحبوب التي جلبوها من موطنهم الأصلي وتلك التي حملوها من البلدان التي يتجرون معها، وفرت لهم محاصيل وافرة مكنتهم من مقايضة الفائض منها بكمية من البضائع والثروة. ولم يرو لنا المأثور متى وكيف بلغ التيرينيون (يطلق عليهم الرومان اتروسكي أو توسكي) مثل هذه الدرجة من الازدهار. ولكننا نعرف أنهم كانوا يتبادلون التجارة مع جيرانهم القريبين منهم والبعيدين، ويستصلحون الأراضي الزراعية بعناية فائقة، ويروون بمهارة المناطق التي سيطرت عليها مدنهم. واستحدثوا، قبل تأسيس روما، الأنابيب المائية ووزعوها في مدنهم، وشقوا الطرقات ومهدوها لتسهيل انتقال المسافرين وتبادل البضائع من المدن. ترى هل جلبوا معهم من آسيا الصغرى عِلم إخصاب الأرياف بالري؟ لقد استثمر الاتروسكيين المناجم، وصهروا النحاس والحديد، واستبدلوا منتوجاتهم بالذهب الوافد من مصر، والعنبر المجلوب من أصقاع الشمال المتوحشة. ومن أسفارهم البحرية والبرية عبر العالم جلبوا المواد الأولية ومعها فن صناعتها، وراقبوا بانتباه كيف كان الرجال والنساء يعيشون

في الموانئ والأرياف المجاورة للمتوسط، ولم يرضوا بالاقتداء بما كانوا يرونه، بل راحوا ينتقون ويرتقون بما يروق لهم حد الكمال. كانوا يكتسون كما الإغريق، فكانوا يلبسون قميصاً وعليه عباءة واسعة تحولت إلى حلة رومانية، ولكي يتلهوا جلبوا مصارعة الثيران من كريت، والمنافسات الرياضية الشائعة في أولمبيا: رمي القرص وقذف الرمح، والملاكمة. ونظموا سباق العربات والجياد. ولكنهم لم يكتفوا، كما الإغريق، بالتمارين غير المؤذية، فعلى الملاعب البيضوية والدائرية التي ابتدعوها، كانوا يتقاتلون بالسلاح الأبيض في تحديات دموية. كانت القسوة إحدى سمات الاتروسكيين، مثلهم في ذلك مثل الإسبارطيين، كانوا يريدون أن يكونوا على أهبة الاستعداد للحرب على الدوام لإلزام العبيد الأكثر منهم عدداً حدودهم.

وليس بالمستطاع إثبات ما إذا كانت الطبقة الحاكمة قد اقتصرت على أُسَر التيرانيين المهاجرين الأول، أو ان طبقة عليا جديدة قد تشكلت. إن بقايا الأطلال التي حُفظت لنا والأدوات التي وجدت أثناء التنقيبات تشهد على ثراء النخبة الموسرة وعلى مجدها الغابر، تلك النخبة التي تمتعت بملذات الحياة بكل أنواعها. رسوم جدارية ما برحت ألوانها زاهية تؤكد ان هناك أعياداً فالتة طليقة، ورقصات يشارك فيها فتيات ورجال عرايا يمرحون على إيقاع الناي والقيثارة، ويتجامعون متلذذين بمتع الجسد دونما خفاء، كان الاتروسكيون لا يعرفون الحياء، والعري يبدو لهم طبيعياً.

إن الرغبة في الإنكباب على ما يمكن للحياة أن توفره لهم من كافة أنواع المسرات كانت تزداد حدة مع الخوف من الموت. كان الاتروسك يؤمنون بالجحيم، العالم السفلي الذي يسوسه الزوجان المشؤومان مانتوس ومانتيا. إلا ان بمستطاع روح الميت في العالم الآخر ان تتمتع باللذات نفسها التي عرفها المتوفى في الحياة الدنيا، إن كان بمقدوره تبرئة نفسه من كل عمل شرير ارتكبه في حياته الدنيا.

لا تخضع تبرئة النفس هذه إلى القواعد الصارمة نفسها التي في مصر، وذلك لأن جماعة من الجن الأخيار تساعد أحياناً الأرواح على شرح سلوكها في الأرض أمام كبار القضاة. وقد كان بمقدور المتوفى الاعتماد على غفران المحكمة، وحسبه أن يكون قد جندل الكثير من الأعداء، أو أن يتشفع له الأحفاد والأصدقاء بتلاوة الأدعية وتقديم الأضحيات. وكانوا يحبون، بدافع الحذر ورغبة في تجميل مأواهم، أن يضعوا في بيوتهم تماثيل صغيرةً للأرواح الطيبة من البرونز أو الذهب، بحيث كانت ابتسامتها الطيبة تجرد الشياطين الشريرة من أسلحتها. ولكن كان ينبغي الا يتسبب الإنسان في إثارة سخط تينيا، إله الرعد والصاعقة، وألا يغيظ الآلهة الاثني عشر العظام الذين كانوا يساعدونه، وألا يُغضب لاسا إلاهة القدر التي تسجل المستقبل الحتمي المسيِّر للحياة وكانوا يعتقدون ان موت الآخر يمكن أن يكون مفيداً للروح، وقد استخلص الأثرياء وذوو السلطان من ذلك ان من المفيد أن يقتلوا أو يدفنوا رجالاً آخرين وهم أحياء أثناء جنازة واحد منهم. وكانت هذه الممارسة المعهودة شديدة القسوة. ولكن كان يمكن التمتع بمسرات الحياة بعد الموت دونما قيد أو شرط، فور إنقاذ روح الميت بالتضحية بأرواح الآخرين. إن الاتروسكيين من الرجال والنساء الذين كانوا ينخرطون في الملذات ويثمنون الممارسات الجنسية نذروا حيواتهم إلى ما فطرت عليه أنواتهم، وإلى أرواحهم بأنانياتها المطلقة والقاسية.

يبدو ان النساء كن نديدات للرجال، وان رابطة القربى كانت تحددها العلاقة مع الأم. وكان يروق للرجال تجميل نسائهم وإكرامهن حتى في قبورهن، فأغدقوا عليهن أدوات الجمال ومنتوجاته من الثياب والمرايا وغيرها.. إن كثيراً من الأعمال التشكيلية تشهد على انسجام الحياة الزوجية وتآلفها يذكرنا بالتآلف القائم بين الأزواج في مصر. ولكن الحب هنا لا يستلزم الإخلاص، فمن الواضح ان الحريات الجنسية كانت نفسها عند الرجال والنساء، لأنه من غير الممكن أن تكون جميع النسوة المستسلمات للمتع الجنسية في الرسوم الجدارية، والمزهريات،

والأواني الفخارية، وقطع السيراميك المربعة الأشكال، من المومسات، فـلا ريـب أنهن على الأرجح نسـاء متزوجـات، وهـؤلاء الصواحـب كـن يستثرن رغبـات الرجال ويتقاسمن معهم الشهوات الماجنة. ومما لا ريب فيه أن النسـوة لا يندفعن إلى هذه الدرجة من التساهل لكي يمتنعـن عـن المتع ومسـراتها ويزهـدن بملـذات يسمحن بها لأزواجهن. يـروي لنـا المـؤرخ الإغريقـي ثيوبومُبـس مجـرى إحـدى المآدب الاتروسكية: «جرت العادة عند التورينيين ان تكون النساء ملكـاً مشـاعاً يتمتع بهن الجميع، وكان هؤلاء النسوة يعتنين بأجسادهن عناية فائقـة، ويمارسـن في أغلب الأحيان الألعاب الرياضية فيما بينهن أو مع الرجال، ولم يكن في ظهور النساء عاريات مايشين، والنساء عادة لا يتناولن الطعـام مـع أزواجهـن، بـل مـع رجال شاءت الصدف وجودهم بالقرب منهن، ويشربن، والحال هذه، نخب ذاك الذي يرغبن فيه، ولا تخفى شدة ميلهـن إلى شـرب الخمـور. وكـانت وجوهـهـن غاية في الجمال. كان التورينيون يربون من يولد من الأولاد دون معرفـة آبـائهم. وما ان يشب هؤلاء الأولاد عن الطوق حتى يصنعوا ما صنع آبـاؤهم، فينظمـون حفلات الشراب ويأخذون ما يحلو لهم من النسـاء، بـل ويطيـب لهـم أن يعشـقوا الأولاد جهاراً أو ان يكونوا هم بدورهم محبوبين لأن اللواطة عندهم كانت عـادة مقبولة، وهم يجهلون كل شعور بالخجل حيال الأمور الجنسية، فإذا ما كان سـيد البيت يمارس الجنس وجاءه أحدهم ليسأله أمـراً مـا، أجـاب علـى سـؤاله بهـدوء واطمئنان ودونما حرج،.. بل وكان يصف لك بحريـة تامـة، وبـلا كلفـة نشـاطه ومغامراته العاطفية. وكانوا يستسلمون للحب والعلاقات الجنسية إما بأن يتـأملوا بعضهم بعضاً أو أن يسدلوا الستائر المثبتة على القضبان الحديدية المحيطة بأسرتهم، وكانوا يولعون حباً بالنساء، ولكن ولعهم بالأولاد والمراهقين كان أعظـم، ذلـك لأن جمـال هـؤلاء الصبيـة وهـم في ريعـان شـبابهم لا يجـارى، وكـان يعتنـون بأجسادهم عناية فائقة، ويزيلون بعناية كـل شـعر فـائض، وتلـك العـادة منتشـرة أيضاً في شعوب الشرق كافة».

هذا الوصف للعادات الاتروسكية يعود إلى الزمن الذي استولى فيه الرومان على الأراضي الاتروسكية بعد تحررهم من الاتروسك، بحيث ان الرومان، انطلاقاً من هذا الواقع، قد أثروا في الحياة الاتروسكية ولكن في نطاق عدم اعتمادهم لها. لقد راق للأسطورة ان ترى في المغامرة العاطفية السبب في إقصاء التاركوين «Tarquin» وفي نهاية الملكية في روما وولادة الجمهورية. وهنا تستحيل الرواية التاريخية أدباً، ويمتزج نثر السياسة بشعر الغرام. يقول ليفي: ان سكستس تاركوين ابن الملك كان في معسكر أبيه في إحدى الليالي يناقش لوسيوس كولاتينوس أحد أقربائه في فضائل زوجتيهما وأيهما خير من الأخرى، فعرض عليه كولاتينوس ان ينطلقا على ظهر جواديهما إلى روما ويفاجئا زوجتيهما بزيارتهما في أواخر الليل. فوجدا زوجة سكستس في وليمة مع بعض صاحباتها، أما لكريشيا زوجة كولاتينوس فكانت تغزل الصوف لتنسج منه ثياباً لزوجها. وتاقت نفس سكستس ليجرب وفاء لكريشيا ويستمتع بها. فما كان منه إلا أن عاد في السر بعد بضعة أيام من ذلك الوقت إلى بيت لكريشيا وتغلب عليها بدهائه وقوته، وأرسلت لكريشيا تستدعي أباها وزوجها وأخبرتهما بما حدث لها، ثم انتحرت بطعنة خنجر. وعلى أثر ذلك أهاب لوسيوس جونيوس بروتوس أحد أصدقاء كولاتينوس بجميع الصالحين من الرجال أن يطردوا آل تاركوين من روما. وكان هو نفسه ابن أخي الملك، ولكن تاركوين كان قد قتل أباه وأخاه، وتظاهر هو بالجنون حتى يُبقي تاركوين على حياته فيثأر لمقتل أبيه وأخيه، ولذلك سمي بروتوس أي الأبله. فلما وقعت هذه الحادثة ركب كولاتينوس إلى العاصمة ليقص قصة لكريشيا على مجلس الشيوخ، ومازال به حتى أقنعه بوجوب إخراج الأسرة المالكة كلها من روما. وكان الملك في أثناء ذلك قد ترك الجيش وعاد مسرعاً إلى العاصمة. وعلم بروتوس بهذا وسار إلى الجيش على ظهر جواده وقص عليه مرة أخرى قصة لكريشيا وكسب بذلك معونته وتأييده. وفر تاركوين إلى بلاد اتروريا وطلب إلى

أهلها ان يعيدوه إلى عرشه. وعليه فإن هذا السلوك النبيل من امرأة ثائرة على حب فرض عليها عنوة فجّر تمرد رجال روما وعصيانهم على الملكية، وحتم سنَّ تشريع جمهوري وضع النساء تحت وصاية الآباء والأزواج، وأخضعهن بسلطتهم، وأوجب عليهن إخلاصاً مطلقاً. أما بالنسبة للنساء الرومانيات، فقد انتهى زمن الأخلاق المنحلة التي اقتبسنها من صواحبهن الاتروسكيات، في زمن التاركوين، فبات لا يحق لهن البتة، منذ الآن فصاعداً، الاستسلام جهاراً إلى حب طليق كما جرت العادة عند الاتروسك. وقد استهدف هذا الحظر بصورة أساسية الجنس اللطيف في عائلات الأشراف، ذلك لأن امتياز الولادة الذي جعل من الأرستقراطية قادة للدولة الجمهورية يجب ألا يفسد باختلاطه بدم العامة، ولم يقف القانون عند تحريم العلاقات الحرة مابين فتيات أو أخوات الأشراف والرجال من عامة الشعب، بل حرم الزيجات المختلطة مابين الارستقراطية والعامة أيضاً.

إن هذا الحظر المفروض من قبل الأشراف أنفسهم على رجالات عائلاتهم لم يُقدَّر حق قدره إلا عندما عزم أحد الأشراف على أن يجعل من الحسناء فرجينيا (وهي امرأة من العوام) صاحبة له بأي ثمن، والحال هذه قتلها أبوها الذي دعا عامة الشعب جميعاً لحماية نسائهم. «وبدافع إخلاصهم إلى مثال الآباء الأخلاقي» توصلوا عنوة إلى أن للعوام، رجالاً ونساء، من الآن فصاعداً الحق في أن يتزوجوا برجال عائلات الأشراف ونسائهم، وقد دعي هذا الزواج بـ«Conjugum» (قران تحت النير عينه)، وهي عبارة مقتبسة من الحياة القروية وما برحت تلعب دوراً رئيساً. ولعل قصة الحب المأساوية هذه لم تكن سوى خرافة كُرست لتأكيد التشريع الروماني المستحدث، قانون الألواح الاثني عشر، ولعل القادة المشرعين آنذاك رأوا ان من الضروري ترسيخ هذا التحول في الاتجاه، عن طريق نشر حكاية مختلقة القصد منها استمالة عقول الجماهير وكسبها.

امـــرأة رومانيـــة

وكان من الضروري حقاً أن يتم إقرار قانون الألواح الاثني عشر، المقتبس من تشريع صولون، وامتثال الشعب لأحكامه بوصفه قانوناً محلياً ومن أصل روماني. وقد توجب ان تُعد روما، التي يهيمن عليها الأشراف على الرغم من نفوذ العامة المتعاظم، ومعها الأراضي الرومانية التي تزداد اتساعاً بقوة السلاح والبراعة في إبرام المعاهدات، كياناً يمتد تلقائياً ويشكل كلاً واحداً. وسوف نجهل منذ اليوم ان الرباط الأرجواني الذي يزين حلة أعضاء مجلس الشيوخ قد أخذه الرومان عن الأتروسك، وسنجهل معه أيضاً رموز سلطة الدولة ونفوذها، والشعارات، وأعضاء الذكورة المتدلية حول الفأس التي يحملها معلن الأحكام الروماني، وفق سك العملة، وشتى الممارسات التي جلبها الاتروسك من الشرق الأدنى. كان الرومان ينظمون ألعاب المصارعة وسباق الخيل على الطريقة الاتروسكية، ولكنهم كانوا يدعونها «Ludi romani» (ألعاباً رومانية)، وتعلم كهنتهم العرافة من الاتروسك الذين أخذوا بدورهم أسرار السحر هذه عن سكان آسيا الصغرى، وفن قراءة المستقبل (الطالع) في أحشاء الأضاحي من الحيوان. وعندما استولى الغاليون على روما وخربوها، أعيد بناء المدينة على مثال المُدن الاتروسكية القديمة، مع الحفاظ على ذكرى الأسلوب المعماري الاتروسكي في أدق تفاصيل الأقواس والزخارف التي وجدناها على حالها في الأوابد الخارجة من طي النسيان.

وقد حدد تبادل التأثيرات المتواصل مع البلدان الأجنبية نمط الحياة الرومانية، وذلك التبادل الذي لعبه سابقاً مع الاتروسك. إن طباع الرومان الشديدة التنوع قد تبدلت تبعاً لاستبعاد الطباع الأجنبية أو اعتمادها وتمثلها. ولقد أقيمت الدولة في جوهرها وفق النموذج الإسبارطي أساساً، وعهد بالإدارتين السياسية والعسكرية إلى قنصلين اثنين.

كما عهد بهما في إسبارطة إلى ملكين اثنين. وكما هو الحال الـ«gerousie» في إسبارطة، اتخذ مجلس القدماء روما مركزاً له.

سباق الخيول في روما

وكان يحق للعامة أن تجتمع للبت بالاقتراع في قبول القوانين أو رفضها، ولكن السلطة الحقيقية كانت في يد الجيش، وكان على كل مواطن أن يخدم في الجيش، وكان نظام المعارك يستنسخ النموذج الاتروسكي بتمامه وكماله: كان الفيلق المتراص من الجنود والمؤلف من ثلاثة آلاف جندي يزحف باتجاه العدو موزعاً في ستة صفوف، وتبين لاحقاً أن الحركة أشد تأثيراً من رسوخ هذا الجدار من رجال السلاح المصطفين جنباً إلى جنب، فوزع الرومان جيشهم في وحدات تعداد كل منها مائة جندي، وجمعوا هذه الوحدات في كتائب يتقدمها حامل الراية، وما لبث أن حلَّ الشعار الذي يحمل الكتابة الشهيرة: Senatus populusque Romanus محل راية «حفنة من الدريس(*)» (حشيش يابس). وكان الرجال الذين يقاتلون خلف الراية يؤكدون ما يتحلون به من إرادة القتال والموت في سبيل الشعب ومجلس الشيوخ. وكان المحاربون الرومان على مثال الإسبارطيين يعيشون حياة متقشفة وقاسية. كانوا يأكلون الخبز والعصيدة، ويحتسون النبيذ المخلل، ويتقبلون راضين بشظف العيش، وقد عقدوا العزم على النصر أو الموت في سبيل الوطن. ومن كان ينتمي منهم إلى معسكر الظافرين ينال قسطاً من الغنيمة أو قطعة من الأرض، ومن كان يُقتل يكرَّم بما يليق بالأبطال، أضف إلى ذلك ان الخدمة العسكرية كانت مرغوبة من الشعب على الرغم من إلزاميتها، فلقد كان من الأفضل للمرء أن يبرهن على شجاعته بدل أن يتهم بالجبن فيجلد حتى الموت أمام جمع من رفاقه. كان الجنود في الفيالق الرومانية

(*) كان الرومان يطلقون على كل كوكبة اسم «manipulus» ومعنى هذا اللفظ في الأصل حفنة من الدريس أو السرخس أو ما إليهما، ويلوح ان حفنة من إحدى هذه المواد مشدودة إلى قائمة خشبية كانت تُتخذ عَلَماً حربياً قديماً. ومن ثم صار هذا اللفظ يطلق على جماعة من الجند يظلهم علم واحد.

ـ قصة الحضارة ـ المترجم.

يخشون رؤساءهم أكثر مما يهابون الموت. وهذا الخوف توارثوه جيلاً بعد جيل مما زاد في قوة النظام إلى حد دفع وحدات المئات الرومانية إلى القتال «قتال رجل واحد». وهكذا استطاعت روما أن تكتسح يوماً بعد يوم شبه جزيرة الابينيين، وان توحدها في دولة واحدة طبعتها بإرادتها.

وبينما كانت المعارك هذه تتلى إلى ما لا نهاية، والتي لم يكن ينضوي تحت لوائها إلا فئة محدودة نسبياً، كانت الحياة اليومية في روما وفي المدن المقهورة تسير قدماً. وقد نتج عن ذلك ان اختلطت طباع السكان المحليين مع الأجانب فامتزجت في نمط حياتي موحد ليظهر لاحقاً بصورة نموذج روماني. إن خلف النطاق الصارم للقانون والنظام والحكم تكمن طباع الأقدمين، إذ كان مواطنو روما ومواطناتها يُقبلون على التمتع بمسرات السلام المسموح بها بين كل حربين.

كانت السنة الرومانية تزدان بأكثر من مائة يوم مقدس من أيام الأعياد التي يدعونها «Feriae»، ولم تكن هذه الأعياد جميعها مكرسة لقصف الرجال والنساء، بل كان كثير منها منذوراً لأشباح الموتى وأرواحهم، والتي كانوا يحاولون طردها بأن يبصق الأب من فمه حبتي فاصولياء سوداوين وهو ينادي: «بهاتين الحبتين أنجي نفسي وأبنائي. اذهبي يا أطياف أسلافي!» ولكن جُلَّ الأعياد كانت تمنح الفرصة الميمونة لبعث العادات الاتروسكية القديمة بأن يوفروا للممارسات الشهوانية كل حرية. وكان لكل عيد ميعاده المحدد وطقسه الذي يراعونه باحترام على الطريقة الرومانية، ولكن الفجور كان يستعيد حقوقه لاحقاً. إن كثيراً من الممارسات الدينية التي تشارك العامة فيها كانت إعلاناً عن بدء حفلات الابتهاج. ففي أثناء اللوبركوسيات (لوبركال ـ أعياد سنوية داعرة كانت تقام في روما في ١٥ شباط تكريماً للوبركوس إله الخصب) المنذورة لإله الريف حامي الحقول والقطعان، كان الكهنة يجلدون بصورة رمزية جميع النساء الحاضرات بسيور اقتطعنها من جلود الحيوانات المضحى بها، وذلك لكي يصرفوا

الذئب (Lupus) ويبعدوه عن المراعي. كان الضرب بالمقرعة يستثير الشهوانية والرغبة الجنسية ضمان الخصب. وفي أثناء الفلورالي (Floralies) وهي احتفالات تقام على شرف فلورا (إلاهة الأزهار والينابيع)، كان هواة الحب يتلاقون في حفلات شرابٍ وقصف تدوم زمناً طويلاً. ولكن ذلك كان في زمن تحرُّرِ المرح والابتهاج من كل قيد، وهذه الاحتفالات الرومانية تشبه إلى حد بعيد احتفالات الإغريق بأعياد ديونيسوس، وفيها كان كهنة وكاهنات ليبير ـ ليبيرا (Liber- libera ـ إله الكروم وإلاهتها)، يتقدمون الجمهور الجذلان وهم يحملون قضيباً (Phallus) هائل الحجم، ليكرس كل واحد منهم نفسه، بعد الاستعراض الرسمي، إلى الإله برياب على طريقته، وأخيراً تأتي أعياد الإله ساتورن التي تعد من أكثر الأعياد الرومانية قصفاً وعربدة. فهي تدوم سبعة أيام ببياضها وسوادها، وتحتفي ببذار السنة الجديدة الميمونة. وهنا تزول الفروق بين الأشراف والعامة والعبيد، فيأكلون حول مائدة واحدة ويتقاسمون الأسرة نفسها، إن جميع ضروب الفسق والفجور المسموح بها في زمن الاتروسك وتلك التي لم نأت على ذكرها البته كانت تُمنح لكل راغب في الإفادة منها، وكان كل فرد يتحلل كلياً من مظاهر الاحتشام والتحفظ لتسود، دونما قيد يذكر، السعادة بالحرية المطلقة والاستسلام لمسرة الحياة ومتعتها.

إن روما هذه التي توسعت بحذر ولكن بثقة لتشمل شبه الجزيرة الإيطالية برمتها، لم تتأثر بالتحولات الرائعة التي جلبها زحف الإسكندر الكبير الظافر إلا بصورة غير مباشرة. ومع ذلك فإن روما قد استثمرت إحدى تلك النتائج والتحولات، إن العلاقات بين المستعمرات الإغريقية القائمة على الأرض الإيطالية وبين مدنهم الأصلية تراخت بصورة محسوسة، في حين كانت القوة المقدونية في الشرق تجهد في تغليب أنماط الحياة الإغريقية على أنماط الشعوب الآسيوية المغلوبة، ليتشكل جراء ذلك الأسلوب الهلليني (المتأغرق) لقد عُبد الإسكندر في مصر بوصفه ابناً للإله آمون، ورغب بعيد استيلائه على الإمبراطورية الفارسية

المترامية في توحيد مواطني إمبراطورتيه بـ«مقاربة الأخلاق والعادات ودمج الأجناس»، فاقترن بأميرة فارسية ملكية ودفع قادته ومحاربيه للزواج من فتيات السكان المحليين بغية تذليل الفوارق مابين مختلف التقاليد بالتزاوج. وأمل أيضاً أن يلائم بين العقائد في البلدان التي استولى عليها: وشبَّه آمون بزيوس معلناً نفسه ابناً لكليهما.. وقد دعا رسول ملك مقدونية الإغريق للاعتراف بالعاهل الذي لا يقهر ابناً لزيوس آمون وإلى القبول بهذا النذر: «ليكن الإسكندر إلهاً مادام يطيب له ذلك». ورأوا في إيعاز الكلي القدرة مجرد نزوة صادرة عن مصاب بجنون العظمة، و لم يحملوا ايعازه هذا على محمل الجد مثل أمه التي سألته وهي تضحك: «وأخيراً متى ستكف ياإسكندر عن إثارة ظنون هيرا تجاهي بدون مبرر؟» لم يكن اسكندر ليرضى بالانتشاء بفكرة آلهته الخاصة به، فكان يشرب بإسراف. وانبرى متحدياً أياً كان من محاربيه في أن يشرب من الخمر مقدار ما يشرب هو، وأفرغ دفعة واحدة قدحاً تحتوي على سبعة ليترات من النبيذ. وسقط مريضاً وناء تحت تأثير حمى شديدة الحرارة، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة أورث مملكته «للأقوى» والحقيقة ان قواده جميعاً اقتسموا مملكته لتتفتت القوة المقدونية الهائلة المتجسدة في الإسكندر إلى أقاليم مستقلة، فتفرق كل في طريقه بدافع الغيرة، ليتجاهل أحدهما الآخر أو ليقتتلا. وهذا، في الأقل، ما حدث في الشرق. أما في الغرب وبعيد نصف قرن من وفاة المقدوني العظيم، سعى ملك ايبيريا بيروس إلى الاقتداء بالإسكندر وذلك بالاستيلاء على الإمبراطورية الإغريقية الإيطالية، وان يزاحم الرومان في سيطرتهم على إيطاليا التي فازوا بها بعد صراعات لاعد لها ولا حصر، وتغلب على الرومان، ولكن هذا الفوز الذي كلفه غالياً لم يكن في صالحه بل ذهب انتصاره مثلاً: انتصار على الطراز البيروسي. وكان غزوه لصقلية أيضاً انتصاراً فاشلاً، لقد نجح في حماية مدينة سيراكوزا وحال دون أن تكون نهباً لمرتزقة قرطاجة القوية المقتدرة، لكنه ما لبث أن حد من حريات الصقليين (سكان صقلية) الذين هب لنجدتهم، فاضطر إلى مغادرة الجزيرة وهو يصيح: «ياله من نصر أتخلى

عنه هنا لروما وقرطاجة» وعلى الأرض الإيطالية اصطدم جيشه بالفيالق الرومانية لينوء تحت عبء الهزيمة، ويعود المنتصر المهزوم إلى ايبيريا لتكون للرومان منذ الآن حرية التصرف على روما والإفادة من ذلك الفائدة القصوى.

وسمحت هذه الهدنة لروما بأن تحقق مصغراً مالم يستطع الإسكندر الكبير تحقيقه مكبراً. ومزجت فيما بين الأجناس. لم يمتثل الرومان لخطة موضوعة مسبقاً لتحقيق ماحققوه، بل اتبعوا تقليداً توارثوه كان يوجه أفعالهم (Ab urbe condita): كانوا يقتدون بغيرهم من الشعوب ويستعيرون منها ماكان يلائمهم ويروق لهم. و لم يقف هذا التبني وهذا التكيف عند حدود التفاصيل السطحية مثل إقامة الحمامات العمومية، وتنظيم المباريات الرياضية على الطريقة الإغريقية، وتجميل الثياب باستخدام أقمشة ملونة وتحسينها بكل ضروب التفنن والإبداع، بل أثرى الرومان حياتهم الداخلية أيضاً. إن الرومان باستيلائهم على المدن قد استولوا أيضاً على الآلهة التي يعبدها المقهورون معتقدين ان باستيلائهم على تماثيل الآلهة يفوزون بروح المهزومين أيضاً، واستطاع الرومان بذلك توسيع مساحة ديانتهم. في الماضي، وفي خلال اقتتالهم مع الاتروسك، نقلوا إلى روما جونو(*) مدينة فييس المغلوبة، وشيدوا معبداً لاستقبالها والترحيب بها، كما تبنوا هرمس الإغريق وعبدوه تحت اسم ميركور سيد التجار والخطباء واللصوص، وصنعوا لأنفسهم أسكليبيوس (Asclépios) إله الطب الإغريقي، وغيروا اسمه وصار اسكولاب esculape، وغدا كهنته، وقد تحولوا إلى عبيد، معلمين للأطباء الرومان، فبنى هؤلاء منشآت للمعالجة وفقاً لمبادئ هيبوقراط (ابقراط)، خُصِّصت «لمنفعة المرضى وخيرهم». وغدت بنود قسم هيبوقراط قواعد يعتمدها فن الطب في روما: «وإذا دخلتُ بيت إنسان أياً كان، فسأدخله لمساعدة المرضى، وسأمتنع

(*) جينو (جونو): ملكة السموات وزوجة جوبيتر وحارسة النساء منذ ولادتهن حتى وفاتهن، فلكل امرأة جينوها كما كان لكل رجل جينوه.

عن كل إساءة مقصودة أو أذى معتمد، وسأمتنع بوجه خاص عن تشويه جسم أي رجل أو أية امرأة، سواء كانا من الأحرار أو من الارقاء. ومهما رأيت أو سمعت في أثناء قيامي بفروض مهنتي، وفي خارج مهنتي في خلال حديثي مع الناس، إذا كان مما لا يجب إذاعته، فلن أفشيه، وسأعد أمثال هذه الأشياء أسراراً مقدسة. ويجب على الطبيب: أن يعنى بمراقبة نفسه، و... ألا يقول إلا ماهو ضروري...، وإذا دخلت حجرة مريض فتذكر طريقة جلوسك، وكن متحفظاً في كلامك، معتنياً بهندامك، صريحاً على استعداد لفعل مايجب أن يفعل.... وأوصيك ألا تقسو على أهل المريض، وأن تراعي بعناية حال مريضك المالية، وعليك أيضاً أن تقدم خدماتك من غير أجر، وإذا لاحت لك فرصة لأن تؤدي خدمة لإنسان غريب ضاقت به الحال، فقدم له معونتك كاملة، ذلك لأنه حيث يوجد حب الناس يوجد أيضاً حب الفن»

وُضع معبد اسكولاب في روما تحت حماية مينرفا التي كانت هي أيضاً، كما كانت أثينا في اليونان، إلاهة للفنانين وأرباب الحرف. وكان المرضى يتقدمون إليها بالأضحيات ويناشدونها أن تلهم الأطباء بوصفهم جزءاً من فئة الفنانين والصناع، ما يمكّنهم من شفائهم من دائهم. وكان كل ألم جسدي يحمل اسم روح شريرة لابد من طردها أولاً لتكون الأدوية التي يصفها الطبيب ناجعة. وبقي هذا التطير على حاله زمناً طويلاً مع رفض مواطني روما الأحرار، وتأبيهم عن الخضوع للممارسات الوضيعة التي تفرضها مزاولة مهنة الطب. إن العناية بأجساد الغير وإنعاشها بالاغتسال والتدليك بالمراهم كانت في نظرهم نشاطاً حقيراً ومرذولاً، مثله في ذلك مثل أي خدمة أخرى لا يمكن أن يقوم بها إلا العبيد. أضف إلى ذلك أن الفنانين وأرباب الحرف لا يمارسون مهنتهم بأنفسهم قط، بل كانوا يشترون الأيدي العاملة من سوق النخاسة أو يعلّمون عبيدهم ليكون بمقدورهم الاكتفاء بمراقبة هؤلاء العبيد. أما العبيد الذين يتميزون بخدمة سادتهم ويحظون بثقتهم فكانوا يُعتقون مكافأة لهم على خدماتهم، ويصير

بمكنتهم حينذاك ممارسة مهنتهم لحسابهم الخاص شريطة أن يقتطعوا لأسيادهم القدامى قسماً من أرباحهم، ويصبح أبناؤهم مواطنين رومان ليزيدوا في تعداد العامة المفطورة على عدم ميلها للعمل. وكانت العامة فعلاً تستمرئ البطالة والتنبلة بفضل ما كانت تخصصه الدولة لهم من إعانات، وما يجود به الأثرياء الذين كانوا يؤثرون تزايد أعداد أنصارهم.

كان في روما نوعان من العبيد: عبيد الدولة ويتوزعون في الأشغال العامة مثل فتح الطرقات وتعبيدها، وتمديد المجاري المائية والمجارير، وعبيد البيوت ويتفرغون للأعمال المنزلية بشتى أنواعها وضروبها. وكان من يملك مالاً يستطيع الحصول على هذه البضاعة الإنسانية من أسواق النخاسة القائمة في روما وفي مدن المملكة كلها إلى حد ما. وكان للمشتري مطلق الحرية في استخدام هذه البضاعة واستعمالها على هواه، والثمن الذي يحصل عليه تاجر العبيد (النخاس) مرهون بمظهر الفرد المعروض للبيع وبمكانته. أما بالنسبة للفتاة الحسناء أو الفتى القوي البنية اللذين يمكن استخدامهما واستغلالهما، فقد كان من يريد اقتناء عبد أو عبدة على شاكلتهما ان يدفع مبلغاً يزيد كثيراً على ثمن رجل (أو امرأة) قوي البنية قادر على العمل في الحقول أو على الخدمة في المنزل. وكان يقوم بتربية ما اقتُني من أولاد بأسعار بخسة مربون محترفون يشكلون هذه المخلوقات الخاضعة لأهوائهم وفقاً لطلب المشتري، فينمون مافيهم من كفاءات أو استعدادات دفع الزبون ثمناً مرتفعاً لها. وكان الراقصون والراقصات أغلى ثمناً وأرفع مكانة من العبيد، النساء منهم والرجال، المستخدمين في الحياة اليومية، فكانت أسعارهم ترتفع بارتفاع مستوى المعيشة التي تزداد ثراء ووفرة بعد كل نصر أو ضم أراض جديدة.

لقد زادت الحروب المنتصرة على قرطاجة، والاستيلاء على اليونان، في مطالب المواطنين الرومان. أما وقد تعبوا من ويلات زمن الصراع اليائس ضد القرطاجيين، ومن حرمان حروب لا تلين ضد اليونان، فإنهم يأملون، من الآن فصاعداً، أن ينعموا بحياة المنتصرين، حياة لا تقل رخاء عن حياة المغلوبين بل

تفوقها جمالاً ومتعة. كان يفد إلى روما قبل اندلاع الحرب البونية الأولى موفدون من التجار، ولدى عودتهم إلى أوطانهم كانوا يروون إلى الأثرياء من مواطنيهم ان أنواع الطعام التي كانت تقدم لهم في مختلف بيوت النخبة من الأشراف كانت تقدم لهم على الأطباق الفضية نفسها، وان المضيفين، رغبة منهم في استقبالهم الاستقبال اللائق، كانوا يتبادلون استعارة الأواني الفضية فيما بينهم. أضف إلى ذلك أن أنواع الطعام المتداولة في روما لم تفتن قط أذواق الضيوف القرطاجيين المترفة جداً. صحيح ان هناك وفرة من اللحوم والأسماك، لكن تحضيرها كان بسيطاً للغاية. وهكذا فإن الرومان الذين اعتقدوا فيما مضى أن التأنق الذي يجهلونه قبلاً قد أفسدهم، تعلموا من أعدائهم أن الحياة ما برحت تستطيع تقديم الكثير من المتع التي مافتئوا يجهلونها.

وعلى اعتبار أن روما ما انفكت مدينة صغيرة على الرغم من توسعها المتعاظم، في حين كانت قرطاجة عاصمة إقليمية، فإن الرومان حتى الأغنياء منهم كانوا يسكنون بيوتاً قد تكون واسعة أحياناً لكنها متواضعة الأثاث، في الوقت الذي كان فيه أثرياء قرطاجة يرفهون داخل قصورهم الفاخرة الرياش. وكان الرومان خارج البيت يلبسون فوق ردائهم حلة رومانية من الصوف تلف الجسم ويطرح طرفها الأعلى فوق الكتف اليسرى ليمر تحت الذراع اليمنى ويطرح مرة أخرى على الكتف اليسرى. وكان القرطاجيون يستعملون أقمشة ملونة وموشاة لصنع سراويل وسترات مريحة يفصلونها وفق مقاساتهم، ويثبتونها بمشابك ذهبية مزدانة بالجواهر. لقد عاد القرطاجيون من كافة الموانئ التي رست فيها مراكبهم، ومن كل المستعمرات التي أسسوها، بأفخر البضائع المصنوعة في مشاغل حوض المتوسط، أو تلك البضائع التي كانوا يجلبونها من المناطق النائية: الحرير من الهند، والسُتُر الرقيقة الخيوط من مصانع النسيج الإغريقية، والأشغال الفارسية والمصرية من الذهب والفضة. أما شبه جزيرة ايبيرية (اسبانيا) التي اقتحموها، فقد زودتهم بالذهب والفضة والحديد والنحاس. ولم يُصنّع اليونانيون المواد الأولية هذه

بأيديهم بل فضلوا الاتجار بها ومقايضتها بمعادن مشغولة مثل السلاح والحلي.. وما دامت سفن القرطاجيين الشراعية الحربية المتفوقة على أساطيل المتوسط برمتها تسيطر على البحر، وما دامت قوافلها تجتاز الصحراء، فإن ما اعتاد عليه أثرياء القرطاجيين من بذخ وترف سيبقى مؤكداً ومضموناً. أضف إلى ذلك ان القرطاجيين قد عقدوا العزم على عدم التنازل لأي كان عن هيمنتهم التجارية.

كان تعداد مدينتهم، التي يكتنفها من كل جانب حدائق خصيبة، ينوف على مائتي ألف نسمة، وقد ابتكر ملاك الأراضي فن استثمار الأملاك الواسعة التي يقوم بتعهدها العبيد. فزرعوا في تربتهم المروية اصطناعياً كل ما كانت تنتجه الأصقاع الأخرى. وكانت كروم الزيتون يمتد الواحد منها إلى جانب الآخر، وأشجار التين والرمان والكمثرى تصطف بين المنحدرات البهيجة المكسوة بكروم العنب. وفي المراعي المعتنى بها عناية فائقة كانت ترعى الأبقار والأغنام والماعز.

وكانت الحظائر تأوي الخيول والحمير والبغال والفيلة التي جيء بها من سهوب موريتانيا. وكان القرطاجيون يستخدمون البغال والحمير دواباً (للركوب)، والجياد والفيلة مطية للجنود المرتزقة المقاتلين في سبيل قرطاجة. وكان التجار القرطاجيون يحبون الحياة الهينة. ويعهدون للأجراء بأخطار المواجهات الدامية ومآسيها، ويكلفونهم أيضاً بمشقات الأعمال الحرفية ولكن في حدود لا يفرضونها على العبيد. وكانوا يؤثرون لأنفسهم بما في الحياة من متع ومسرات، ويعيشون في سعة، ويأكلون ويشربون إلى أن يفقدوا رشدهم. وتدل العبادة التي كانوا يكرسونها إلى بعل ــ هامان «Baal- Haman»، مجسد قوة التناسل المذكرة، وإلى «ishtar- astarté» عشتار ــ عشتروت الفينيقيين، على ممارسات مماثلة لعادات عبدة إلاهة الحب في آسيا الصغرى، ويروى ان القرطاجيين كانوا يضحون بأطفال أحياء إلى بعل ــ هامان على أمل تسكين غضبه. وعندما كان القدر يختار الضحية طفلاً لأحد الأثرياء، كان بمستطاع

الأب شراء طفل أحد الفقراء ليحل محل أبنه. فيلقي به طعمة للنيران دونما شعور بتبكيت الضمير. وإننا نعلم فحسب ان النساء القرطاجيات كن لا يظهرن في الأماكن العامة إلا محجبات، وأنهن يعشن في البيوت والقصور الفاخرة عيشة الحريم المنعزلة والهادئة وقد أغدق عليهن أزواجهن حلياً ودلالاً.

في بداية الحرب التي ماعتمت ان ارتسمت بإخفاق الرومان المروع، كان لابد لأنماط الحياة في قوتي حوض المتوسط العُظميَيْن من المجابهة والتحدي. وسرعان ما أدرك الرومان ان الصراع ضد قرطاجة كان بالنسبة لهم قضية حياة أو موت لا يمكن تجنبه. ففي الشمال من أراضيهم التي أراقوا في سبيلها دماء غزيرة، وأجروا مفاوضات واسعة الحيلة، كان الغاليون حلفاء القرطاجيين يتهددونهم، في حين كان جنوب شبه الجزيرة وصقلية عرضة لهجمات القرطاجيين الذين كانوا يستولون أو يُغرقون كل مركب مسالم يقلع باتجاه أحد الموانئ التجارية في غرب المتوسط. وقد منح النظام الفيالق سلطة واسعة على فرق المرتزقة، ولكن كان لابد لروما من أن توفر لنفسها أسطولاً بحرياً لكي يكون بمكنة قوتها الأرضية التصدي مع احتمال الفوز على قوة قرطاجة البحرية. ودعا مجلس الشيوخ المواطنين الرومان إلى تخصيص أموالهم وجهودهم لبناء المراكب الشراعية اللازمة. وكانت التضحيات المفروضة على المواطنين والمواطنات في روما ثقيلة وجسيمة مما أفقدهم ولمدة طويلة الأمل في تحسين أو حتى تعديل شروط معيشتهم، إن كل ما جمعت النساء من حلي وكل ما اكتنزه الرجال من ذهب كان يقدم حباً وكرامة في سبيل تحقيق المشروع الجري. ووصف أحد المؤرخين الإغريق تعبئة الجهود الرومانية في سبيل المعركة البحرية الوشيكة الوقوع بالعبارات التالية: «.. وبهذه المناسبة... يتملكنا العجب مما فطر عليه الرومان من سخاء وإقدام،.. ويدل هذا الحادث أكثر مما يدل غيره من الحوادث على ما للرومان من جرأة وبسالة إذا ما اعتزموا القيام بعمل خطير... ذلك لأنهم لم يفكروا قطَ قبل هذه الحرب في إنشاء أسطول، فلما استقر رأيهم على إنشائه

بذلوا في ذلك جهد الجبابرة، وهاجموا به من فورهم القرطاجيين الذين ظلوا عدة أجيال سادة البحار لا ينازعهم فيها منازع، مع ان الرومان لم تكن لهم في حرب البحار خبرة ما».

وأقلع الأسطول الروماني باتجاه افريقيا، ولكن المحاربين الموزعين في مائة وخمسين من الجنود في كل مركب قُتلوا فور نزولهم من المراكب ووقع قنصلهم ريجولوس في الأسر، وغرق البحارة، وبدا لبعض الوقت أن «السخاء والإقدام» الرومانيين قد ذهبا سدى.

ولكن روما لم تعزف عن المعركة لمثل هذه الأسباب، وها هو أسطول جديد تبنيه تضحيات جديدة. والقنصل الأسير الذي أرسله القرطاجيون إلى روما للتمهيد إلى المفاوضات ينصح مجلس الشيوخ برفض كل عروض السلام القرطاجية، ويعود من ثم، إلى قرطاجة بناء على وعود قطعها قبل قيامه بالمهمة، وقتله الجلادون، بمنعه عن النوم دونما انقطاع. وثأر له بنوه: فوضعوا في صندوق مزدان بمسامير من فولاذ سجينين قرطاجيين ماتا ألماً وأرقاً، واستمرت الحرب لتنتهي باندحار قرطاجة، لكن الجنود من المرتزقة تمردوا على المدينة فأُرسل المبعوثون لإبرام الصلح، ووضعت روما شروطها على الرغم من انهيارها الاقتصادي الوشيك، وضمت إليها، إضافة إلى صقلية سردينيا وكورسيه، وحررت تجارتها من كل العقبات التي كانت تعترضها في المتوسط. لكن هذا الصلح اقتصر على القرطاجيين وحدهم لأن مجلس الشيوخ لم يبرم صلحاً مع الغاليين، فترتب على ذلك متطلبات جديدة حالت دون تمتع الرومان بنشوة النصر. وبقيت روما بعد انتصارها كما كانت قبله، وما برحت هي والأراضي التي ألحقتها بمملكتها تشبه معسكراً من المحاربين. وتصدت فيالقها بنجاح للغاليين، وراحت تعد العدة لحروب جديدة ضد قرطاجة مع إيمانها بنصر مبين شريطة أن يخضع رجالها ونساؤها لكل ضروب الحرمان التي تفرضها إمدادات جنودها في ميادين القتال.

مقطع من نحت بارز يمثل معركة بين الرومان والغاليين

في خلال عقود هذه المحنة التي تحملوها بإباء على الرغم من بلوغها حداً يصعب احتماله، تبلورت سمات الجبلة الرومانية وترسخت على نحو ما انتقلت إلى الذراري، وتوسعت روما بحدودها مع طردها للغاليين، وبفضل أسطولها الذي أعادت بناءه طهرت الادرياتيك من القراصنة ومن سفنهم. أما بالنسبة للتجارة التي بدأت تزدهر فقد منحت الرومان حياة هنية. ولكن كان لابد للمواطنين، وتلك ضرورة لاغنى عنها، من أن يتقشفوا أو يموتوا في سبيل الوطن. فمنع الرقباء الذين شكلهم الشيوخ الرجال من إعداد الولائم، والنساء من اقتناء الحلي، لتقتصر وجبة الغداء على الخبز مع العسل أو الزيتون، ووجبة العشاء على العصيدة والخضار والفواكه، والنبيذ لا يشرب إلا بعد كسره بالماء، والمواطن الذي لا يخضع لحياة التقشف هذه يعد مواطناً رومانياً سيئاً. وكان على ملاك الأراضي وعبيدهم، ان يزرعوا حقولهم ويرعوا قطعانهم لإطعام الفيالق المنذورة للدفاع عن روما وأقاليمها دون سكان المدن القابعين بأمان وسكينة خلف

الأسوار. وباعتراف الجميع كان أعضاء مجلس الشيوخ الذين يتدبرون شؤون الدولة ويوجهون دفة البلاد مثالاً يحتذى، لما عرف عنهم من هدوء واثق ومكين واستعداد أكيد لكل تضحية، وسلوك صارم ووقور «Gravitas».

ومع ذلك كان على الحياة الرومانية أن تأخذ مجراها جرياً على العادة. فكان من الواجب الاحتفال بالأعياد في مواعيدها المحددة، وإبرام عقود الزواج، وإنجاب الأبناء من دون كبح مسيرة الأيام الاعتيادية أو عرقلتها، فإذا ما رغب الرجل في أن يعقد خطبته على فتاة، توجب أن يتم ذلك حسب الشعائر المعمول بها، سواء كان عليه الالتحاق بميادين القتال بعد غد أو لا. وكان يكسر مع خطيبته قذاة برهاناً على الخطوبة، ويُسلّك في الإصبع الرابعة من يده اليسرى خاتماً من حديد لا من ذهب، فلم تكن الهدية في ذاتها بيت القصيد بل المهم هو العربون المؤتمن في الإصبع الذي يجمع القلبين ويوحدهما.

و لم تكن الخطيبة قط هدفاً للاختطاف أو للشراء من أي نوع كان، وكان المواطن الروماني في زمن الحرب أغلى من العذراء وأكثر منها كلفة، وكان على رب الأسرة الراغب في تزويج ابنته أن يتدبر أمر بائنتها لكي يجعل حياة زوج المستقبل جذابة ومريحة. أما إذا سقط العريس صريعاً في ساحة الشرف فإن البائنة تقوم بأود طفل الجندي الصريع بما يتناسب والمهام الموكلة إليه، أما إذا بقي الزوج على قيد الحياة وطلب الطلاق أرجع البائنة إلى الزوجة. وكانت الاحتفالات بالأعراس تتم في بيت أهل العروس، ويستوفي الزواج شروطه وشرعيته بدءاً من اللحظة التي يرافق فيها أفراد العائلتين والمدعوون العروسين ليصلا بهما على أنغام الناي ووقع موسيقى أناشيد الزفاف، إلى منزل العريس، وعلى سؤال يتوجه به العريس إلى العروس: «من أنت؟» تجيبه الزوجة: «حيث تكون أنت ياجايوس أريد أن أكون أنا جايا». فيحملها ليجتاز بها عتبة الدار، ويسلمها مفاتيح الدار، ولا يتم الاتحاد الجسدي إلا بعد تقديم الزوجة الأضحيات إلى آلهة المنزل الخاصة بعائلتهما الجديدة، وإلى آلهة البيوت. وعندها

ينسحب الزوجان لينفردا في داخل غرفتهما، ويدخل العريس بزوجته، ومن اتحاد الأجساد هذه يولد ما كانت روما بحاجة إليه من أبناء. وإذا ما تم عقد الاقتران الجسدي Sine Manu فإن بمقدور الطرفين فسخه، أما إذا سُلّمت العروس لرجلها باليد جرياً على التقاليد القديمة فإن للزوج وحده الحق بطلب الطلاق، أما إذا اقترن الزوجان بحضور العائلتين بواسطة الـ«Confarreatis» (باشتراك الجميع بتناول قرص من الحلوى)، فإن الزواج غير قابل للفسخ، وليس بمستطاع الزوج أن يطالب بالانفصال، إن المساواة بين الجنسين لا تتوفر من دون قيد أو شرط، ذلك لأن القانون ينص: «إن أنت باغت زوجتك وضبطتها تخونك بالجرم المشهود فإن بمقدورك قتلها من دون أن ينالك القصاص وبلا اجراءات قانونية، ولكنك إن إنتهكت أنت الأمانة الزوجية، فإنه لا يحق لها أن تلمسك حتى بأطراف أصابعها».

تمثال نصفي لهنيبال ٢٤٧-١٨٢ق.م
القائد القرطاجي وعدو روما اللدود

إن قانوناً كهذا كان مكرساً لحماية الجنود الرومان. وما دام الأزواج يبذلون حياتهم في سبيل المجموع. [illegible] نسوة [illegible] رو[illegible] [illegible]: إن من و[illegible] [illegible] أن يتحملن بعزة وإباء نصيبهن في الحرمان. لكن القانون تضمن استثناء واحداً لمصلحة النساء اللائي يستسلمن للأغراب من الرجال إبان عسكرة هانيبال أمام أبواب المدينة «ante portas» في الوقت الذي اعتبرت فيه المدينة مدينة خاسرة لا محالة،

وجرى عندئذ تحبيل نساء روما من مواطنيهن كي لا يحملن في أحشائهن ويلدن أولاداً للأعداء في حال اغتصاب القرطاجيين لهن، ولكي يضمن للمدينة ذرية رومانية، لأن روما بحاجة إلى هؤلاء المتطوعين في السراء والضراء.

وفي الحقيقة كانت الأغلبية العظمى من النساء اللائي يخالفن القانون الأخلاقي على هذا الشكل (بأن يخدعن أزواجهن للحفاظ على نقاء الدم الروماني)، أرامل من دون علمهن. إن مائة ألف ونيف من الجنود الرومان سقطوا صرعى حروبهم ضد هانيبال، وإن ما يزيد على مائة من أعضاء مجلس الشيوخ ممن ذهبوا طواعية إلى ميادين القتال قد هلكوا في الحرب. والمدينة التي قلبها اليأس والحداد رأساً على عقب وهجرها البقية الباقية من الرجال الأصحاء ليحلوا محل من مات هيمن عليها الذعر والهلع. وراحت النسوة تلحف على الكهنة وأعضاء مجلس الشيوخ بالتساؤلات: «من هي الآلهة التي نتوجه إليها بالصلاة لإنقاذ روما؟» وفي المبنى المهيب كان يمكث المسنون وحيدين يستثيرون الأسئلة نفسها التي تحير النساء وتقلقهن.

وفي النهاية يستحثون النسوة المذعورات ويجيزون لهن بأن يتوجهن بصلواتهن إلى الآلهة الإغريقية مادامت الآلهة الرومانية ترفض صراحة نصرتهم.

ولعل آريس سيبدو ملائماً، في حين أن مارس وزوجته الفاضلة بيللوني إلاهة الحرب يصمان آذانهما أمام توسلاتهم. ولعل جوبيتر الذي يعيرونه سلطات أدنى من سلطات أبي الآلهة الإغريقية، لم يكن بمقام زيوس قدرة. ولعل الآلهة الرومان الكبار كانوا تواقين أيضاً للأضاحي البشرية لتهدئتهم.

وقد أباح مجلس الشيوخ تقديم سجينين غاليين إلى الآلهة ليحرقا على الملأ، وأتبعهما بإغريقيين على أثر تحالف سرقوسة والمدن الإغريقية الأخرى مع هانيبال مطالبين بالحرية للهلينيين كافة.

لم يهاجم هانيبال روما ومع ذلك لم ترسل الجيوش الرومانية المعسكرة في جنوب إيطاليا أنباء عن انتصارها. لقد تجاوز مسرح البغضاء والحروب الأراضي الرومانية، ونزلت الفيالق من الجنود الرومان على شواطئ شبه الجزيرة الايبيرية بقيادة عضو مجلس الشيوخ بيبليوس كورنيليوس سيبيون، واستولت على ميناء قرطاجنة فيها، الوكالة التجارية الرئيسية ومركز القرطاجيين الحربي. لقد شجع هذا الانتصار الهام مجلس الشيوخ على متابعة جهوده للحصول على دعم الآلهة الأجنبية ومساندتها، فتوجه الشيوخ إلى الكتب السيبيلية يستطلعون موروث الإلاهة الاتروسكية المقدس، إلاهة القدر لاسا، وأحسوا بارتياح كبير عندما قرأوا فيه النبوءة المواتية التالية: سيغادر هانيبال روما عائداً إلى افريقيا، إن أنتم جلبتم إلى روما سيبيل أم الفريجيين الكبرى «Magna Mater» وعلى الفور أوفدوا مبعوثاً إلى الملك برغام، فوافق على أن ينقلوا إلى روما الحجر الأسود الذي كان يجسد الإلاهة في المعبد.

وفي ميناء أوستيا رحب وفد مؤلف من النساء الرومانيات بثيابهن الاحتفالية بمقدم سيبيل باحتفال باهر، ولكن المركب الذي يقل التمثال (الحجر المقدس) غاص في التيبر، ولم يستطيعوا إطلاقه من الطمي إلا بفضل صلوات عذراء الإلاهة فستا «كلوديا» الطاهرة، وأخيراً واكب موكب من المتهللين الفرحين الحجر الثمين حتى معبد الإلاهة الرومانية فيكتوريا، ولكن الاحتفال بالشعائر المقدسة لا يمكن أن يتم على الفور على الرغم من الآمال التي يعيرونه إياها، ذلك لأنه ينقصهم كهنة فريجيون، كما أنهم لم يحظوا بأي روماني جدير تتوفر فيه الشروط التي تفرضها عبادة الأم الكبرى، لأن الآلهة الفريجية، والابن الحبيب آتيس الذي خصى نفسه بيده، لا يمكن أن يقوم بخدمتها إلا كهنة خصوا أنفسهم بإرادتهم. ولم يذهب الرومان القابعين في المدينة بتضحيتهم بعيداً، ومع ذلك أجبروا عدداً من العبيد على أن يخصوا أنفسهم ليشتروا حريتهم، وهكذا يكون بمقدورهم إقامة عيد الإلاهة الكبرى.

وقد وجد المشاركون في الاحتفال من الرومان الفحول كفايتهم من النساء ليجامعوهن في نشوة وانفعال من السعادة والمرح، ووفقاً لمقتضيات الشعيرة. وأحرق الشعب البخور، وغدا طيبها الذي يفوح في الشوارع، من الآن فصاعداً، رمزاً للنصر، لأنه سيزف إليهم عما قريب نبأ تراجع هانيبال وقد غادر الأرض الإيطالية.. وسوف يحتفى ابتداء من الآن وفي كل عام بالـ«Magalesia» عيد الأم الكبرى. ولن يجد الكهنة المخصيون أي ضير كان في تحريض الرومانيين والرومانيات وحثهم على الاقتران بهم لتكريم الأم الكبرى ومكافآتهم على تضحيتهم التي يتوجب عليهم تقديمها.

بعد مرور ثلاث سنوات على وصول الأم الكبرى إلى روما، كان سيبيون قد استولى على صقلية، وهزم هانيبال في معركة حاسمة دارت على الأرض الإفريقية. والسلام المفروض على قرطاجة أعطى روما شبه الجزيرة الايبرية، وتعويضات حرب ضخمة، وتفوقاً بيناً في حوض المتوسط الغربي. وانتصرت روما بعيد ذلك، على الرغم من خروجها منهكة ضعيفة، على ملك ماسيدونيا، وهيمنت على الأرض الإغريقية مما أكسبها نفوذاً حاسماً على ممالك الشرق الأدنى.

واحتفلت مواكب النصر بعودة الفيالق الظافرة. وقضى العرف المتبع ان يتلقى القادة، وقد لبسوا حلتهم الرومانية الأرجوانية، وعلى رؤوسهم أكاليل الغار المذهبة، تحية الشعب الروماني واعترافه بالجميل. وكان عازفو الناي والقيثارة يتقدمون عربة المنتصر المتلألئة البراقة وقد اكتنفتها من كل جانب سحابة من البخور المحروق، وتسير خلفها عربات نقل المساجين الأسرى للتضحية بهم على شرف الإله، كما كان المحاربون العائدون إلى ديارهم يشاركون في موكب النصر، ويتلقون نصيبهم مما غنموه، ولكن على الرغم مما كان يتلقاه هؤلاء الذين أرغموا على هجر ممتلكاتهم للدفاع عن الوطن، فإن ما يأخذونه لا يعوضهم ماكانوا قد فقدوه وخسروه. إن الأغلبية العظمى منهم لا حول لها ولا قوة، لقد فقدوا كل رغبة أياً كانت هذه الرغبة، كما انهم لا

يملكون الوسيلة لاستثمار أملاكهم، وحُملوا على بيع أراضيهم للعيش في روما، مستخدمين امتياز المواطنين الرومان، فأدى ذلك إلى تضخم نسبة العوام الذين باعوا أملاكهم بأسعار بخسة إلى ملاك الأراضي أغنياء الحروب الذين زودوا العامة بما يكفيها كيلا تسقط ضحية للبؤس والشقاء، وازداد عدد سكان المدينة وتعاظم إلى حد كبير، وتدفق إلى المدينة، إضافة إلى الفلاحين الذين أفقروا، مواطنو المدن الأخرى بحثاً عن وسائل العيش أو أكثر الملاهي تنوعاً، وفي خلال عقود عدة غدت روما ما كانت عليه قرطاجة، حاضرة تجارية ينفق المرء فيها ويجني الكثير من الأموال.

وتوارت أيام الحرمان لتغيب في عالم الماضي. واستسلم الرومان، رجالاً ونساء، بغية استعاضة الزمن الضائع، إلى كل ما يسكر الحواس ويثملها. وما دام مجلس الشيوخ قد توانى عن إلغاء قانون أيام المحنة والضيق، زمن الحرب البونية الثانية، القانون الذي يمنع النساء من حمل الحلي والتزين بها، ومن لبس الثياب الملونة، اجتمعت نساء روما في الساحة العامة «forum» وطالبن بالسماح لهن بحمل وارتداء ما يحلو لهن، وبالتزين وفق رغباتهن، ولم يغب عن الزوجات دواعي المطالبة بحقهن في أن يصرن جميلات. وفي الحقيقة لم يستقدم الأزواج من اليونان الغنائم فقط، بل جلبوا «الرذيلة الإغريقية» أيضاً: إنه الاسم الذي كانوا يطلقونه في روما على اللواطة، ويروي تيت ليف إن الرومان «يفجرون ويتهتكون فيما بينهم أكثر مما يفجرون مع النساء» قاصداً ان الفتيان الإغريق ممن بيعوا في سوق النخاسة لا يملكون إعالة أنفسهم إلا باستسلامهم لرغبات أسيادهم الجنسية. «فإن رفض أحدهم قبول هوانه طواعية يحكم عليه بالموت وكأنه دابة حقيرة». ولاحظ ناقد زمانه المتصلب كاتو: «قد يرتفع سعر فتى جميل ليزيد على ثمن حقل زراعي» وفي منافسة الجنسين هذه، كانت النسوة يتميزن بما يُنفقنه ليزددن سحراً وفتنة. وكانت تجارة منتجات الجمال مزدهرة، وصارت العناية بالجسد فناً، وكانت مساحيق الجمال القرطاجية بكل درجاتها،

والصابون الكاوي المجلوب من بلاد الغال لتسمير الشعر الذي دب فيه الشيب، وخلاصة العطور والمراهم المصرية لتليين البشرة، تساوي وزنها ذهباً.

وراحت النساء الرومانيات يظهرن على الملأ بأرقِّ الأنسجة وأغناها ألواناً وتطريزاً، تلك الأنسجة التي كانت مقتصرة حتى حينه على مومسات قرطاجة، وارتفعت احتجاجات الرجال ولكن دونما جدوى، وعبثاً كانت تحريضات أحد الأعضاء في مجلس الشيوخ ومن جرى على منواله: «إذا ما أكد كل منا حقوقه وامتيازاته أمام زوجته بوصفه رجلاً فإنها لن تسبب لنا الكثير من الهموم،... تصفحوا مواد القانون المتعلق بالنساء، فبفضلها أراد أسلافنا ردع صلفهن وإخضاعهن للرجال.. فإن أنتم سمحتم لهن بأن يلمسن هذا أو ذاك، وأن ينتزعن من الرجال هذا أو ذاك.. أتعتقدون أن بمقدوركم، بعد هذا، حماية أنفسكم والدفاع عنها؟ فمنذ لحظة شروعهن في أن يكنَّ نديدات لكم يصبحن أسيادكم». ولم يُجدِ هذا التحذير نفعاً، ولم يصلح لشيء، مما دفع مجلس الشيوخ إلى رفع الضرائب إلى عشرة أضعافها على استيراد منتجات التجميل والأقمشة الثمينة وبيعها. ولكن النساء الرومانيات، وقد صرن غنيات مع ازدياد ثرائهن باطراد، كن يدفعن ثمن ما يرغبن فيه مهما علا ثمنه، ليس فقط بغية تفوقهن على المراهقين من الفتيات، بل لينافسن بأناقتهن وظرفهن الهيتايير (مومسات رفيعات الشأن)، اللائي استقدمهن من اليونان أصحاب المطاعم المتوددون إلى النساء ليقمن في بيوت تتناسب وعملهن. وكانوا يطلقون على هؤلاء المومسات أسماء متحفظة ودقيقة: «meretrices»، وكانت النساء من اللواتي يتعيشن بأجسادهن «quae corpore merent» لا يحظين بالاعتبار كما هي حالهن في اليونان. فكن يعشن سجينات في بيوت الدعارة التي يزين أبوابها أحد رسوم الإله برياب المقتدر أو مطرقة من البرونز تحمل شكله، وتدل هذه اللافتة ان وظيفة نزيلات البيت هي إشباع حاجات الزبائن الجنسية. ولقد أقر المشرعون بهذه المهنة. وكان ملاك البيوت المغلقة (بيوت الدعارة) يدفعون ضرائب باهظة، كما كان من

حقهم احتجاز النسوة وتأجيرهن في أوقات محددة. وفي مقابل ذلك كان على هؤلاء السهر على رعاية المومسات ومنعهن من إزعاج النساء غير المتزوجات بظهورهن على الملأ. ولم تكن «meretrices» إلا عبدات لذة منذورات للمدقعين من الرجال أو لأولئك الراغبين في تجنب المشاحنات الزوجية. وتوسعت حقوق النساء الرومانيات إبان الحروب، فكثرت التأويلات وباطراد حول استعداداتهن وأهلياتهن التي ضمنت لهن استعادة بائناتهن بعد موت أزواجهن ليكون بمقدورهن القيام بأود أبنائهن: واستطعن بذلك التصرف بحرية ببائنتهن مما عزز مكانتهن في البيت. ويقول كاتو في معرض شكواه من ذلك: «إننا نحكم الرجال، والنساء يحكمننا» والقوانين المتعلقة بالطلاق لا تراعي الزوج دون سواه على الإطلاق.

وكان إبرام عقود الزيجات الدائمة غير القابلة للفسخ في تناقص مستمر، والآباء الذين ينعمون بشيء من رغد العيش يحرصون عند تزويج بناتهن على أن يتمتعن في بيت الزوجية باستقلالية وحرية واسعتين. لا تسمح القوانين بالطبع بأن تتمتع المرأة المتزوجة بما يتمتع به زوجها من حرية جنسية، ولكن غالباً ما كان يحصل وباطراد أن يكون للزوجة المهملة من عشيرها الشرعي، وفي مأمن من السرية، إنما بموافقة الزوج الحريص على الاحتفاظ بها وببائنتها، علاقات غرامية تشكل شكلاً من أشكال الزواج في قلب الزواج. أما في قصور الأشراف المزينة بالتحف الفنية الإغريقية المرهفة، فقد كانوا حريصين تمام الحرص على احترام الأصول بقدر استسلام العامة دونما وازع من حشمة إلى فجور مطلق العنان. كان الارستقراطيون يرغبون في أن يمتازوا في الظاهر من الجماهير المتهتكة ويفضلوا عليهم. إن ما كان يجري بين الجدران الأربعة لم ينتشر إلا ببطء بفعل ثرثرات عشاق مقصيين لجؤوا إلى قلم الانتقام. ولكن خلاعة نساء العامة ورجالها، أولئك الذين لا يصونهم أي امتياز كان، كامتياز الولادة أو الثراء، كانت موضوع مناقشات الأشراف المفضلة.

كان الباعث لهذه المجادلات استقدام عبادة ديونيسوس الإغريقية وأعياد باخوس. وكان الاحتفال بهذه الأعياد يتم على أراضي المدن الاتروسكية القديمة خصوصاً، وتتميز بتحررها لعدم ارتباطها بتاريخ محدد من جهة وتحولها إلى حفلات ابتهاج يومية من جهة ثانية. كان مريدو باخوس من الرجال والنساء يجتمعون في مجموعات مختلطة تعمل على لمّ شتات محبي اللذة لمنحهم مسرات نشوة عذبة ومتع العشق اللذيذة، وكان عباد ديونيسوس - باخوس ورفيقه الدائم برياب يتجامعون ضاربين عرض الحائط بالروابط الزوجية وبالحب دونما اكتراث بالمشاهدين، لا يخضعون إلا لمتعة آنية وهناءة جسدية. لقد كان من الضروري أن يستنكر أحد الفتية الرومان من المشاركين في إحدى هذه العربدات، الطابع اللاأخلاقي واللاروماني لهذه «التصرفات الليلية» في أثناء هذه الأعياد ليستثير اهتمام السلطات بالباخوسيات (حفلات سكر صاخبة نسبة إلى باخوس) المنافية «للأخلاق» والمفسدة لها، يروي تيت ليف كيف كان يجري الاحتفال «بطقوس العربدة الاتروسكية»: «إن إغريقياً مجهول المنشأ قدم إلى اتروريا، كان رجلاً عديم الخبرة في ضروب الفن المتنوعة التي أدخلها هذا الشعب المثقف لتربية الجسد وتهذيب الروح، ولكنه كان كاهناً وعرافاً من الطبقة الدنيا، وهو لم يكن يمت بصلة البتة إلى أولئك الذين يمارسون عبادة جماهيرية، ويجاهرون على الملأ بإيمانهم ومذهبهم، ويفيدون من زلاتهم لاستمالة أرواحهم، لا.. بل كان معلماً في العبادات الليلية السرية، وكان الأمر يتعلق بتعليم لم يعتنقه في البداية إلا القلة القليلة من الناس، ثم أخذ يتسع وينتشر بين الرجال والنساء على السواء. وكانت هذه العبادة تمزج بين طقوس خدمة الآلهة والتصوف والإفراط في الأكل والشرب بغية الفوز بالوفرة الوفيرة من المريدين. وعندما تلعب الخمرة في العقول وتشيع الدفء في القلوب، وعندما يمحّي بفعل الليل واختلاط النساء والرجال والبالغين والفتية الرقيقي الحواس، كل شعور بالخجل، يستسلم الجميع لكل ضروب المجون والتهتك. فكان كل واحد منهم ينال كفايته من المتع التي كانت تستثيرها

ميوله.. وينتج عن ذلك كثير من شهادات الزور، والتحريفات، والطباع الفاسدة، ووصمات العار، والوصايا، والوشايات، وتسميم الأجواء، وجرائم القتل حتى بين أفراد الأسرة الواحدة، دون التمكن من العثور على جثث الضحايا لإيداعها في لحودها اللائقة، فغالباً ما كان يلجأ المجرمون الصفيقون إلى العنف إضافة إلى الخديعة، بيد أن أحداً من المحتفلين لم يلاحظ ذلك، لأن الصياح (صياح الجماهير المحتشدة) وصخب الطبول وضجيج الصنوج كان يغطي على نداءات الاستغاثة التي كانت تطلقها الضحايا البشرية المغتصبة أو المغدورة، هذا المرض الخبيث جاء مثل وباء مُعد من اترووريا فاكتسح روما وما عليها، في البدء كان خفياً، ذلك لأن امتداد المدينة واتساعها كانا يوفران المكان وإمكانية استشراء هذه الشرور». واحتفظنا أيضاً بشهادة أحد الشهود الذي كشف لنا عن أعياد باخوس هذه: «... كان الرجال ممن استولت عليهم نوبات الجنون فارتعدت فرائصهم يتكهنون بالمستقبل، وكانت النساء المتزوجات، وقد ارتدين لباس كاهنات باخوس، وأسدلن شعورهن، يهرعن نحو التيبر بمشاعلهن المشتعلة يغمرنها في الماء ليخرجنها متقدة على الدوام لأنها مطلية بالجير والكبريت؛ وكانوا يربطون الرجال مع الخنزيرات ويرمون بهم على مرأى الحضور في مغارات خفية، ثم يزعمون لاحقاً بأن الآلهة اختطفتهم، مع أنهم، في الحقيقة، من المريدين الذين رفضوا الارتباط بقسم، والمشاركة في بعض ما يرتكب من فظائع، أو مكابدة بعض العنف. وكان في عداد هؤلاء جمع غفير، يضم في صفوفه أيضاً رجالاً ونساء بارزين».

أصدر مجلس الشيوخ قانوناً يحظر أعياد باخوس تحت طائلة أقسى العقوبات وأشدها «على كل مواطن روماني ألا يخالط أو ينضم إلى مريدي باخوس، وعلى كل رجل ألا يكون من كهنتهم، وعلى الرجل أو المرأة ألا يقودانهم أو يوجهانهم، وينبغي ألا يكون لهم صندوق مشترك ولا موظف.. ويمنع الاحتفال بالعيد سراً.. وينبغي ألا يحتفل في كل عيد أكثر من خمسة

أشخاص، على ألا يتجاوز عدد الرجال رجلين وعدد النسوة ثلاث نساء.. ولكن سرعان ما ألغيت أعياد باخوس في غضون عشرة أيام بعيد صدور هـذا القـرار». وقد وضع القانون المنقوش على البرونز حداً لطقوس العربدة التي كانت تنظـم في ضواحي روما، ولكنه لم يمنع المشاركين مـن الالتقـاء في مجموعـات قليلـة العـدد، وهناك ثمة مزهريات تشهد على ذلـك بما تحتويـه مـن تصـاوير تمثـل اجتماعـاتهم المكرسة للمتع الشهوانية.. ولكنهم، على الأقل، لبوا متطلبات «الخُلق الرومـاني» الذي أعلنته روما أمام أنظار العالم بوصفـه أسـاس قوتهـا الراسـخ والمكـين، لقـد صدر حظر «الحريات الديونيسية» عن مجلس الشيوخ بالإجمـاع على الرغـم مـن ولع الأغلبية العظمى من الشباب في مجلس الشيوخ بكل ما كـان يفـد إليهـم مـن اليونـان، حتـى انهـم كـانوا يلقبونهـا بـ«الأغارقـة الصغـار». وكـان الأشـراف المتحدرون من الأسر الثرية والذين أثروا للغاية بما غنموه في الحـرب، يعيشـون في قصورهـم وداراتهـم حيـاة يسر واسـتقلال... وهـاهم أولاء: ليفيـوس وميتلـوس وكلاوديوس وكورنيليوس يرفضون مشاركة الشـعب السـوقي ملاهيـه وتسـاليه، فعرفوا كيف يجيزون لأنفسهم إدانة مالا يروق لهم، وكيف يمقتون سلوك العامة الفظ ويعرون فجورهم؛ وهم إذا مـا اقتـدوا بـه اسـتطاعوا التميز مـن حديثـي النعمة، أولئك الذين يولمون المآدب الفاخرة، ويقدمون لضيوفهم ما اشتروه مـن أطايب غالية الثمن على أطباق من ذهب كيلا يساور أحدهم الشك في حداثـة ما ينعمون به من رخاء. إن عمـلاً فنيـاً حقيقيـاً في نظـر هـؤلاء الارسـتقراطيين يفوق في قيمته عشرات التماثيل البدائية الناقصـة الـتي اختارهـا الأثريـاء الجـدد لتذخر بها بيوتهم وحدائقهم. حياة جميلة وخيرّة، ذلك هو الحلـم الـذي يـراود أثـيري السـعادة هـؤلاء «المولوديـن في ثيـاب القيـاصرة»، إنهـا لحيـاة تمـاثل الـ«كالوغاتون» عند الإغريق، أولئك الذين يحتذون حذوهـم، فهـم لم يكونـوا ديمقراطيين بالمعنى الإغريقي للكلمة، ولكنهم احتموا بالشعب، ومنحـوا العامـة ماكانوا يعتقدون أنها تستحقه. ونظمـوا الألعـاب وفق عـادات كـل زمـان،

وأسهموا بأموالهم الخاصة في تحسين مشاهد المنافسات الرياضية وإثرائها، وبذلوا المستطاع لينعم مئات الألوف من الرومان بمسرات الحياة، أما هم فقد راقت لهم حياة العزلة، حتى لكأنهم قادة يتخذون قراراتهم على ضوء أخبار مرؤوسيهم، وما يرسلونه لهم من تقارير، ويستقون المعلومات من أماني عامة الشعب ومن شكاواهم، ومن مدراء أعمالهم والقيمين على أموالهم من الزبائن المترددين على ملاهيهم، لقد وضع المواطنون الرومان أنفسهم وبملء إرادتهم تحت حمايتهم وسلطتهم، ومن هذا الواقع خرجوا بقراراتهم لتسيير شؤونهم الخاصة منها والعامة.

إن ما يفصل بين الأشراف والطبقات الشعبية كافة يتجاوز وضع الأشراف الاجتماعية المتفوق، إنه الوضع الروحي. فلم يكونوا تواقين ولا محتاجين للاختلاط بعامة الشعب، بل كانوا، على الطريقة القرطاجية، يحولون ملكياتهم الشاسعة إلى عزبات (latifundia) ويحصّلون من أراضيهم، وقد غدت منتجعات خصبة، أموالاً طائلة لا يملكون القدرة على تبذيرها، وازدادت أعداد الماشية وازداد معها العبيد من الجنسين القائمين على رعايتها أيضاً. فالأسواق الرومانية - وفيها كان بيع الحبوب المحلية لا يدر ربحاً مادام القمح المستورد أرخص منها بأربع مرات - أمنت، بالمقابل، منافذ ملائمة لتربية الماشية في العزبات.

رأى كبار الملاك انه لا يليق بهم أن ينخرطوا في التجارة، وأنه من المشين أيضاً أن يساهموا في تجهيز الكتائب المسلحة باللباس والمؤن أو أن يستثمروا المناجم والأملاك الريفية في الأراضي المستولى عليها حديثاً. فتخلوا عن وسائل الإثراء تلك وتركوها لزبائنهم أو المقربين منهم، ليكسب هؤلاء الثروات الطائلة.. ولكي يُسمح من ثم لأولئك المحظوظين من حديثي النعمة بأن يطلق عليهم «equites» (الفرسان). وبذلك يكونون قد ورثوا لقباً كان يخص في الماضي أناساً ميسورين قاموا بالتزاماتهم العسكرية على ظهور جيادهم الخاصة.

والطبقة التي شكلها فرسان المال هؤلاء لم يكن لها في البداية امتياز يذكر،
والطبقة التي شكلها فرسان المال هؤلاء لم يكن لها في البداية امتياز يذكر،
ولكنها، بفضل الشعبية التي اكتسبتها بأثمان من ذهب، غدت القوة الثالثة، واحتلت مكانها بين الأشراف وعامة الشعب.

وأسهمت الأموال التي كان يبذلها الفرسان الفخورون بإبراز ثرائهم في رفع سوية حياة الرومان المتوسطة. كما ان الفرسان وذويهم لم يكونوا ليشعروا قط بضيق الأشراف الفطري من الاختلاط بالشعب، أو يتباهوا بصفاقة بنمط حياتهم ومستواها. فأقاموا للجماهير حفلات المرح والابتهاج ليفوزوا بحبهم ويحلوا محل الأشراف الذين يأبون أن يقارنوا أنفسهم بهم. فراحوا يقلدون تصرفات هؤلاء «الأدعياء الممقوتين» ويسلكون سلوكهم فاقتنوا مثلهم المتعلمين من العبيد الإغريق: فلاسفة لتربية أبنائهم وبناتهم، وطباخين لإعداد مآدبهم، وذواقين لاختيار نبيذهم، وخبراء التجميل للعناية بأجسادهم، ودونما اعتبار للتكاليف مهما بلغت أسسوا المدارس لتعليم اللياقة، وفيها يعلّم المثقفون الذين اشتروهم من اليونان ــ كما يشترون التماثيل وتحف الزينة ــ الكتابة والقراءة على الطريقة اليونانية.

يتطلب نمط الحياة ليس فقط أن نعيشه بل أن نحبه على الطريقة اليونانية أيضاً... ولكن الزوجات الرومانيات لم يتنازلن لمانحي اللذة من الجنسين لا عن مضجعهن ولا عن مكانهن في المآدب، بل كن يدافعن عن حقوقهن الزوجية ويطالبن أزواجهن بتأدية واجباتهم موضوع الخلاف، وإلا فسوف يسعين للبحث عمن يحل محلهم.

وقد حال تصميمهن على حرمان الرجال من كل امتياز جنسي دون ظهور الـ«Meretrices» وغلبتهن كما كان الحال في اليونان بظهور الهيتايير (المومسات)، فهم لا يملكون البتة ما يقدمونه للأرستقراطيين إلا وكان هؤلاء قد امتلكوه سابقاً.

امرأة رومانية من المجتمع الراقي (ثيابها من الكتاب والحرير)
وتدل على مكانة زوجها ومقامه.

وهم لم يستطيعوا ولفترة طويلة، ملء الفراغ وإحراز السبق بسبب أسلوب الحياة الهيللينية التي اكتشفها الأشراف وجلبوها على الرغم من قصر الفترة الزمنية نسبياً... فكان على أبناء الفرسان وبناتهم أن يبذلوا الكثير من الجهد لتحصيل ما كان يملكه بالولادة أبناء عائلات أعضاء مجلس الشيوخ المقتدرة: الثقافة الروحية النبيهة التي سيكون لها في سياسة روما وأخلاقها التأثير الحاسم. لقد غزت الفلسفة الإغريقية (الهللينية)، قبل الحرب البوينة، حلقات أرفع الطبقات الرومانية

النبيلة المغلقة، لإدراك هذه الطبقات أهمية دور علوم العالم وعلى الخصوص علوم الإنسان في الحكم. وأكثر ما أدهش الأشراف وأَسَرَ فضولهم للمعرفة وللجديد هو مبادئ زينون وتلامذته. وكانوا يدعونهم بالرواقيين، والكلمة مستقاة من الاسم Stoa poikile (الصالة المتعددة الألوان) الأثينية، وهو بناء عام مزين بالرسوم الجدارية، وفيه كانوا يعلّمون. انتشرت الرواقية، بعد الحرب البونية، انتشار النار في الهشيم. وكان حري للفكرة القائلة: «التصرف بورع على هدي من العقل الأصلي» لترسيخ السلام والوئام على الأرض، أن تروق للأشراف الذين أسسوا مملكة ليتمكنوا من إدارة شؤونها بسهولة أكبر باسم «المواطنية العالمية» فليؤلف الناس جميعاً مجتمعاً إنسانياً عظيماً، دونما تمييز لأصلهم أو دولتهم، وهم سواء، إن كانوا يونانيين أو قرطاجيين، أحراراً أم عبيداً، ذكوراً أم إناثاً.

هذه الأطروحة فرضت نفسها ولكنها بقيت نظرية محضة.. إن الممارسة العملية والاحتكاك مع متطلبات السياسة المباشرة، والصراع على السلطة المتجدد على الدوام كبحت جماح المشاعر الإنسانية، ومع ذلك فإن ماكانت تجسده الرواقية من تحرر ديني يحرر الإنسان من أوهامه وخيبات أمله قد نال من نفوذ النبلاء وسلطانهم. وتلك هي، بالتمام والكمال، ماكانت عليه حال الأشراف المولعين بالفلسفة اليونانية، فبدافع من حرصهم على استمرار «خوف العامة من الآلهة، أساس الاستقرار السياسي ورسوخه» كرسوا للآلهة الجديدة التي كانت عرضة لكثير من الشكوك والسخرية، معابد جديدة وفخمة. وكان كاهن روما الأكبر المختار من بين صفوف مجلس الشيوخ يدير شؤون الديانة وفق المبدأ الذي حدده المؤرخ الإغريقي بوليبه: «وبما أن الشعب يحركه عقل طائش وسطحي، وينزع إلى أهواء غير مشروعة، ويستسلم لسورات غضب غير معقولة، توجب على السلطة أن تعتمد على خوف الشعب وهلعه من العالم الآخر المجهول، وعلى صورٍ مروعة مثيلة لترويضه».

وسعى مجلس الشيوخ لحماية الديانة الرومانية وطقوسها بكل ثمن، ولكن الشيوخ لم يدعموا الديانة إلا بوصفها معقل قوتهم، ولقد أنكبوا هم أنفسهم على التأملات الفلسفية تلبية لمتطلبات الفكر أو لتبرير سياستهم، وغدوا في أغلبيتهم من أنصار الأفكار الأبيقورية. وكان أبيقور قد قال: «حياة اللذة غير ممكنة بدون حياة خيرةّ وفطِنة وعادلة، وحياة الخير والفطنة والعدل غير ممكنة من دون حياة اللذة». وفي دائرة الفطنة واللذة المغلقة هذه كانت تجري حياة الأشراف الذين يوجهون أقدار روما ومصائرها.. فازدادوا التحاماً بالفلسفة الأبيقورية ماداموا بذلك يؤكدون تفوقهم على الفرسان وعلى العامة المحتقرة، فينظرون إليهم باستخفاف. وسعوا جاهدين للعيش وفق تعاليم أبيقور: «عندما نقول إن اللذة هي هدفنا الأسمى وغايتنا القصوى، لا نقصد الكلام عن لذة الفساق والماجنين، ولا عن تلك اللذات التي لا يجني المرء منها إلا المتع الرخيصة المبتذلة، ولا نقصد العلاقات الجنسية مع النساء أو الغلمان، ولا نقصد بالطبع تلك المسرة التي تمنحنا إياه مائدة عامرة، إن ما يجعل من الحياة متعة حقيقية هي البصيرة الفطنة، فهي وحدها تشكل «اللذة» الحقة التي يتوجب على كل منا أن يكرس لها القلب والعقل معاً. وغالباً ما تكون البصيرة الفطنة حجة الأخلاق المنحلة التي اكتسحت، مع تدفق المواطنين الجدد إلى روما، طبقات الشعب كافة. وازداد النهم إلى اللهو حدة مع ارتفاع مستوى المعيشة. فلم يعد الرومانيون يرضون البتة بالمنافسات الرياضية أو بالصراعات العامة التي تنظمها الدولة على نفقتها بدعم من الأثرياء، كانوا يتطلعون إلى الجديد، في التسالي وفي الأحاسيس، ليسعدوا بها في كل يوم وليس إبان الاحتفالات فقط».

ولم يكن مسرح الألعاب البهلوانية (حلبة السيرك العامة) بكاف لإرضاء فضول النظارة، فسارع المهرة من التجار وأقاموا أكواخاً خشبية في ساحات المدينة ذات المباني الرائعة على الدوام تلبية لفضول العامة، فصار بمكنة المرء، لقاء مبلغ من المال، أن ينظر بإعجاب إلى المشعوذين من الجنسين، يمشي الواحد منهم

باتجاه الآخر، وقد أفلتا من قوانين الجاذبية، ليلتقيا في عناق رقيق. وكنا نرى رجالاً ونساء مرحين في أقفاص أو يلقى بهم دون مقاومة إلى الوحوش الكاسرة، ليلفظوا أنفاسهم بين الأنياب في بحر من الدماء. كانت المشاهد القاسية ممنوعة، ولكن الحظر لم يحترم قط، فالضحايا لم يكونوا إلا من الرقيق، وإذا ما طلب إليهم تقديم تقرير عما جرى أعلن مدراء الأكواخ ان البائسين قد تصرفوا من تلقاء أنفسهم ودخلوا الأقفاص جراء تهورهم المؤسف مما تسبب في نهايتهم التعيسة هذه. فإذا ما تجاوزت أرباح الدخول ثمن شراء العبيد، عُدَّ موتهم صفقة رابحة وتكوّن الحياة الإنسانية حينئذ رخيصة الثمن. وكان كل انتصار للجيش يزود المدينة ومختلف الأصقاع بالبضائع الحية الجديدة التي يجب أن تدر أرباحاً. وقد أتاحت أثمان العبيد المنخفضة للمواطنين، حتى لأولئك الذين لا موارد لهم، أن يعفوا أنفسهم من جميع الأعمال القاسية. ولكن السلطات كانت تغض النظر عن الكثير من التجاوزات، رغبة منها في صرف أفكار هذه الحشود العاطلة عن العمل أثناء هذه الملاهي الجديدة، ولتهدئة عقولها الطائشة وأهوائها ونزواتها غير المسموح بها وسورات غضبها المخالفة للصواب. فكان من الضروري تلهية الشعب بأي ثمن كيلا يثور، مما سمح بتقديم العروض المسرحية. ولكن السماح بتقديم العروض لم يأت إلا كرهاً، ومع ذلك فإن هذا السماح جاء استجابة لما نذر أعضاء مجلس الشيوخ على أنفسهم وقد هيمنت عليهم الروح الإغريقية: فلماذا لا تشارك العامة أيضاً بالمهارات الوافدة من اليونان إلى روما؟ فليس بالإمكان أن ينتج عن ذلك خطر شعبي عام مادامت عروض المسرحيات الهجائية محظورة وتحت طائلة الموت وفق قانون الألواح الإثني عشر. ذلك ان الطُعن الصفيق بكبار الشخصيات والانتقادات التي كان يقذفها أريستوفان في وجه الشعب الأثيني من خلال ملاهيه لا يمكن أن تتكرر في روما.

وهناك ما ينوف على ألف مسرحية إغريقية تافهة المحتوى، فهي لا تتطرق إلا إلى موضوع الحب. وهو الموضوع الذي يروق للرجال وللنساء على

السواء، ويقبل للتعديل والتنويع إلى ما لا نهاية كي يروق للمشاهدين دون ملل ولا كلل. كان للنصوص المسرحية التي تدور حول مواضيع الحب النجاح المبين. وعلى العكس من ذلك فإن محاورات الأرستقراطيين في مؤالفة التراجيديا الإغريقية أو ترجمتها لتقديمها إلى العامة في الاحتفالات الدينية أو الجنائزية الرسمية، كانت عرضة للإخفاق على الدوام، ذلك لأن العامة لم تدرك قط تحويرات الميتولوجيا الإغريقية المتكلفة هذه، و لم تهتم البتة بحدث مأساوي يلقيه أشخاص متكلفون بأشعار متصنعة. صحيح أن اللغة التي كانوا ينظمون بها لغة لاتينية ولكن الكلمات كانت جزيلة وسامية تنفر منها الأذن التي اعتادت اللغة الحية والمباشرة. كما ان الحِكَم الوطنية المثيرة للشجون التي كان كوانتوس انيوس ينثرها في مآثره البطولية وفي تراجيدياته، لم تترك في الجمهور انطباعاً يذكر، و لم تحرك فيه ساكناً. فكانت العبارات مثل: «فعلى هذه الأخلاق العتيدة وهؤلاء الرجال تأسست الدولة الرومانية» لا تعني لهم شيئاً. بل كانوا يقدرون الأخلاق الجديدة والرجال الذين يعملون على نشرها.

وحده تيتوس ماكيوس بلاوتوس، الذي أسميناه بلاوته، حظي عند الرومان بنجاح مستديم. كان اسمه يعني تيتوس، المزّاح ذي القدمين المسحاوين، ترى هل لقبه ماكيوس يعود إلى شكل قدميه المثير للضحك؟ إنا نجهل ذلك! وفي كل حال كان مفخرة لقبه بلاوتوس. كان مزاحاً حقاً، ومهرجاً جماهيرياً، يختار ملاهيه الإغريقية فيكيفها لتتناسب والذوق الروماني، ويكملها بنصوص صفيقة ليسلي بها مشاهديه. وفي ثياب غريبة كان يقدم أحداثاً لا تجري في روما، ولكن من الممكن لها أن تجري فيها، فكانت تبدو لوحات حية مأخوذة من الحياة اليومية. ولكنه في تغييره لمكان الأحداث بهذه الطريقة تجنبَ كل اعتراض ممكن من السلطات. فهو لم ينتقد «الأخلاق الرومانية» إن هو أظهر كيف كان ينتهي الزناة الإغريق حقاً، أو سخر من عدم استقامة التجار الإغريق. ففي كل مكان كنا نرى عشاقاً متحابين يختلفون ويتصالحون، و لم يكن العبيد الأكثر حنكة

ودهاء وفطنة من أسيادهم، بنادرين في روما. ولكن أن يقدم عبيد كهؤلاء دروساً لأسيادهم كان أمراً مهيناً ومزعجاً، لا في اليونان بل في روما، إن الكرامة الرومانية المكونة من حب الذات وحصافة الرأي لم تكن لتستاء من أن ترى الإغريق يعيشون حياة فسق وفجور ويتبادلون كلاماً بذيئاً، ذلك ان الرومان أنفسهم كانوا يعيشون حقاً حياة فجور ويتكلمون كلاماً فاحشاً، لقد كانوا يتكلمون ويتصرفون كما كان بلاوتوس يحمل ممثليه على التصرف والكلام. لكن الرومان لا يحبون أن يروا أنفسهم في المرآة التي يقدمها لهم مسليهم، بل كانوا يفضلون أن يتعرفوا من خلالها على جيرانهم. ومع ذلك كان المشاهدون يرون ويسمعون ما لم يعيشوه هم أنفسهم، ولكن كان بمستطاعهم أن يعيشوه ويرغبوا فيه. وكان ذلك يستحث المخيلة ويحرضها، فكانوا يضربون عصا الترحال، وهم جلوس، إلى بلاد الأحلام وإلى مناطق عرفوها بالسمع والقول. وكانوا يعاشرون، بالخيال، أناساً مثيرين للاهتمام: القوادات، والفتيات الطائشات والسريعات التأثر لا بالمال فقط ـ مثل نزيلات بيوت الدعارة ـ بل بالحب أيضاً، والآباء الشريرين الذين يبيعون أبناءهم، والآباء الشرفاء الذين لا يألون جهداً لتأمين سعادة أبنائهم، والعجائز الراغبين في التكفير عما ارتكبوه في شبابهم من آثام، والمسنين البخلاء المحزونين لعجزهم عن جلب المال من قلامات أظفارهم ومن عزيز دموعهم. كان الممثلون يعرضون بالكلمة والحركة دقائق الطبيعة الإنسانية بكل تفاصيلها. ولم يكن الممثلون المتنكرون، الذين تنازلوا عن شخصياتهم كلياً ليتلبسوا أدوار شخصيات الملهاة؛ بمنأى عن عيون القانون، فما أن يصير المواطن ممثلاً حتى يفقد حقوقه المدنية، كما أن العرف المتبع يقضي بتأهيل العبيد لهذه المهنة الجديدة. وكان يحظر على النساء، حتى المستعبدات منهن، الظهور على المسرح، فالممثلون الرجال هم الذين يقومون بأدوار النساء أيضاً، فكانوا يتخضبون كما النساء، ويعتمرون الشعور المستعارة ويقلدون مشية الجنس اللطيف وسلوكهن. وكان ثمة مزحة شائعة وهي ان الممثل المتنكر في شكل امرأة إذا ما فقد ثدييه، ولم يفلح

مهما بذل في إعادتهما إلى مكانهما، كان يتعرى إلى درجة يبدد فيها كل الشكوك حول رجولته، وكان من المقبول في عداد اللعبة (التمثيل) كل ما كان يثير ضحك الجمهور شريطة ألا تظهر الخلاعة (أو كلام الخنى) وكأنها مدبرة بل أن تجيء صدفة ومن دون قصد، وكان مسموحاً بكل التلميحات الشهوانية شريطة أن تحدث في إطار المسرح (proscenium - مسرح بشكل نصف دائرة، وهو جزء من الأوركسترا حيث يوجد خلفها مكان الحدث ـ scaena)، وكانت الممارسة الجنسية محظورة على الممثلين.

لم يكن في مسرح بلاوتوس أمكنة يجلس عليها المشاهدون، فكان أولئك الذين لا يرغبون في مشاهدة المسرح وقوفاً يجلبون معهم ما يسهل طيه أو يجلسون القرفصاء. صحيح أن الأمر كان غير مريح، لكن بلاوتوس كان يحرص على ألا يدوم هذا الوضع المزعج طويلاً، ذلك أنه وزع الملاهي اليونانية التي كيفها لتلائم الجمهور الروماني في أحداث أي فصول، مما سمح للجمهور بالتلهي فيما بين الفصول والترويح عن النفس في الأكواخ المجاورة، من دون أن يفقد فضوله في العودة إلى المسرح واحتلال مكانه فيه. وكان بلاوتوس، للحفاظ على اهتمام الجمهور، يعمل على شرح حبكة المسرحية المزمع تمثيلها، أو في الأقل، شرح خطوطها العريضة، بوساطة الناطق بلسان الحال. إنها التوطئة. وهي تتضمن أيضاً توجيه اللائمة إلى الجمهور لسوء مظهره، وحض النسوة المشاهدات على الامتناع عن الثرثرة أثناء العرض، ودعوتهن لترك أطفالهن في البيوت كيلا يعكروا صفو التمثيل بصراخهم. وفي الختام كان المتحدث الرسمي يدعو المشاهدين جميعاً للتصفيق بعبارات غدت لاحقاً أمثالاً سائرة: «numc plaudite omnés»، فإن لم يصفق الجمهور على الرغم من دعوته وحضه، تغير البرنامج، وكان لابد للحاضرين من أن يعربوا عن استحسانهم وسرورهم بجلاء صاخب، وأن يغربوا في الضحك لكي يطفح الصندوق بالمال. وكان بلاوتوس يعلم: «من يضحك يدفع».

كان للمسرحيتين اللتين أخرجهما المزّاح ذو القدمين المسحاوين أثر مستديم في الأخلاق الرومانية: آمفيتريون (amphitryon) والمحارب المتعنتر (le guerrier fanfaron).

المسرحية الأولى (آمفتريون) كانت عبارة عن ترجمة معدلة لـ«الليلة الثلاثية»، التي ينجب فيها زيوس، العاشق لألكمين، هرقل. كان زيوس يدعى في روما جوبيتر، ورسول الآلهة هرمس يسمى ميركور. وكان ميركور Mercure يمثل دور المتحدث الرسمي ويقدم التوطئة. إن إله التجار هذا كان يدعو الجمهور الكريم إلى «الإصغاء للمشهد بصمت» وإلى «الحكم عليه بكل إنصاف». كان يستحضر نزوات أبيه وغزوات عشقه. «فها هو الآن عاشق لألكمين خفية عن زوجها آمفيتريون، فظفر بها وغشيها، وها هي الآن تحمل ثمرة صنيعه. واعلموا جيداً: إنها تحمل حملاً مضاعفاً، نصفه جاء من زوجها، ونصفه الآخر من جوبيتر العظيم. إن أبي في البيت إلى جانبها، لذلك فقد امتدت هذه الليلة طويلاً لكي يتلهى بهذه المرأة على هواه، ولكنه تظاهر بكونه آمفيتريون...» ولكي يدرك الجمهور الموقف ويفهمه، كان ميركور يوضح: «..... الآن شفى أبي غلته هناك، إنه بين أحضان تلك التي يصبو إليها ويتوق.» وتختتم التوطئة بالكلمات التالية: «... انتبهوا! شاهدوا كيف يقوم جوبيتر وميركور بالتمثيل، إن ذلك يستحق العناء». كان جوبيتر الجليل الحصين، «روح العالم» يظهر على المسرح تحت شكل إنساني بوساطة ممثل، وقد غير هذا الابتكار مفاهيم الرومان الميتولوجية. ذلك ان المسرح قد ساعد على استقدام آلهة اليونان إلى معابد روما دون أن يطرأ على الشعائر الدينية أي تبديل. وعليه فإن الرومان لم يتورعوا قط عن ارتكاب الزنا والفجور مع النساء والغلماء مادام هذا الجليل (جوبيتر) مثالاً.

وهكذا فإن مغامرات الأولمب الشهوانية لم تقدم مواضيع للمسرح فحسب، بل قدمت شكلاً من أشكال الميتولوجيا الجديدة أيضاً.

وقد أضفى الكهنة الرومان على آلهتهم تقلب آلهة الإغريق وشهوانيتهم. وراحت فينوس تقترب أكثر فأكثر من أفروديت، واستساغت نساء روما هذا التحول وقدرنه حق قدره، وباتت كل خلاعة، من الآن فصاعداً، جائزة ومسموح بها.

أما ملهاة «miles gloriosus» التي كان بطلها ضابطاً، فإنها تقدم شخصيات مماثلة لتلك الشخصيات المألوفة لدى الرومان، والتي كانت تزحم باطراد الشوارع والمقاهي؛ منهم أولئك الضباط الذين عادوا بعد انتهاء الحملات الحربية ضد قرطاجة واليونان. وفيها (الملهاة) بدا قصد بلاوتوس واضحاً منذ بداية التوطئة التي يتعرض خلالها أحد العبيد إلى وصف طباع سيده. كان بلاوتوس يرغب في السخرية من المتعنترين المتبجحين الذين يطبعون روما بطابعهم، وكان يود كشف القناع عنهم وتعريتهم على الملأ، ومن الطبيعي أنه لا يستطيع أن يجعل من روما مكاناً للحدث، فأحل محلها اليونان، مع أن الرجل الذي يصوره العبد كان وجهاً مألوفاً ويعرفه الرومان جيداً. «إن الضابط، سيدي، الذي جاء لتوه من السوق، ليس إلا مجرد مغرور صفيق، قوي وجريء، لا يتراجع أمام الحنث والزنى. يزعم أن النساء يهرولن وراءه، ولكن النساء، أينما حل، يهربن مبتعدات عنه ساخرات. وحدهن العاهرات يقدمن له شفاههن».

الضابط الفشار خادع ومخدوع ومغشوش... وهكذا فإن الشاعر يدعو المشاهدين والمشاهدات كيلا ينخدعوا بدورهم بمثل هؤلاء الضباط والجنود المتغطرفين. فليس كل من قاتل في سبيل روما ببطل، وليس جميع أولئك الذين يسيرون خلف القادة الظافرين المحمولين على الأكتاف وصولاً إلى معبد جوبيتر، بمستحقين آيات التبجيل هذه. إن جلهم متحينون للفرص ومستغلون، وجبناء رعديدون ينسبون إلى أنفسهم مآثر لم ينجزوها، إنهم خبثاء همهم الوحيد تحصيل أكبر المغانم، وملء بطونهم، والتغرير بالنساء الساذجات السريعات التصديق.

لم يستأ الرومان من هذا الساخر ومن مزاجه الثقيل: إن للجمهور الحرية في أن يأخذ اللعبة (التمثيل) على محمل الجد، أو أن يتقبلها بابتسامة مشجعة ومتواطئة، لم تزود العامة الفيالق قط بما كانت تحتاجه من جنود وعتاد، بل كان أفرادها يتهربون من الخدمة العسكرية، كل حسب مقدرته. وكانت أصواتهم في المجلس الشعبي حاسمة على الدوام لولا إمكانية شرائهم.

كان كل شيء في روما قابلاً للشراء، وإن الرغبة في اقتسام رغد العيش والرفاه العام، أو على الأقل تذوق فضلات موائد الأثرياء، قد ساعد في تحول العادات والتقاليد. ترى إلى أي حد وإلى أي مستوى بلغت البحبوحة العامة؟ إن الوثائق لا تبين عن شيء، لكن ما نحتفظ به من نبذ القصص تصف لنا رخاء الأغنياء المتعاظم وترفهم، وعلى الخصوص فيما يتعلق بتجهيزات سكناهم. كانت المفروشات مصنوعة من الأخشاب النادرة ومزينة بترصيعات من العاج أو الفضة أو الذهب، والسجاد المجلوب من بابل يغطي البلاط، وأغطية الأسرة من أرق الأقمشة المصرية وأنعمها، وعلى الموائد المزينة بالعاج تصطف ألذ الأطعمة المشتراة من التجار بأغلى الأسعار... ذلك ان المراكب كانت تجوب أبعد البحار لتجلب للزبائن الرومان أغرب الأطايب الأجنبية.. وبلغت حفلات الشرب والإفراط في الأكل والشرب حد دفع مجلس الشيوخ واضطره إلى استصدار قوانين ضد التبذير والإسراف في الملبس والمآكل. إلا أن هذه المحاولات المكرسة لكبح الإسراف الذي يزداد فحشاً آلت إلى الفشل، ذلك لأن الأشراف قد انضموا إلى الفرسان والمواطنين الذين كانوا يطالبون باقتسام المسرات. وأقفلت الدائرة من جديد: في الماضي كان الفرسان (مواطنو الدرجة الثانية في روما - المترجم) هم الذين يقلدون أسلوب حياة الأشراف، أما الآن فإن الأشراف هم الذين يقلدون الفرسان.

وتصامّ الشيوخ عن مواعظ كاتو الذي كان يحرض عبثاً عقولهم الخمولة ويصرخ في أرجاء المجلس: «من الصعب التوجه بالكلام إلى بطن لا آذان له».

منذ ان اتهم كاتو أحد المواطنين الرومان البارزين بالتهتك وسوء الأدب لأنه قبل شفتي زوجته على الملأ، ومنذ أن أخذ على عاتقه ألا ينخرط في علاقاته الزوجية (مع زوجته) إلا أثناء العواصف والزوابع، امتنع الناس عن أخذ هذا الرقيب على الأخلاق على محمل الجد. وعلى العكس من ذلك فإن الإثباتات السياسية لقيت آذاناً صاغية: لابد من تدمير قرطاجة التي استعادت ثراءها في العقود التي تلت هزيمة هانيبال. وبعد حصار بري وبحري دام ثلاث سنوات، وعلى الرغم من مقاومة القرطاجيين البطولية، هزمت المدينة وأحرقت. أما الأراضي المحيطة بها فقد دكت بالمحاريث وأشبعت بالملْح لتبقى جدباء قاحلة إلى آخر الزمان. أما داخل البلاد، حيث طورت قرطاجة الزراعة، فكانت مثالاً، فقد آلت إلى أصحاب أكبر العروض من الأثرياء الرومان المضاربين، كما آلت إليهم تجارتها.

أثْرت الحرب البونية الثالثة هذه روما إلى حد كبير، لقد كانت الأراضي القرطاجية قائمة على الإقليم الإفريقي. وفي السنة نفسها، وجه الشيوخ أسطولهم وعساكرهم لمحاربة اليونان، ووضعوا حداً للوضع المضطرب الذي ما برح قابلاً للانفجار على الرغم من إخضاع مقدونية، واعتبرت مدينة كورنته مصدراً للاضطرابات والقلاقل، فدمرها الرومان عن بكرة أبيها، وانتقلت جميع كنوزها الفنية إلى روما وتحول مواطنوها إلى عبيد. واقتنت بيوت الدعارة الرومانية الألوف المؤلفة من الهيتايير (المومسات) اللواتي كن منذورات لعبادة أفروديت في معابدها، واللائي جعلن من المدينة مركزاً من مراكز الحب الذائعة الصيت. وازداد الطلب عليهن، وكان لابد لمدراء المواخير من أن يلبوا حاجات زبائنهم.

أعلن بوليب راضياً (وهو مؤرخ إغريقي سلم إلى روما بوصفه رهينة ثم صار رومانياً): «أن تغزو العالم وتستولي عليه شيء، وأن تسيطر عليه على الدوام وتحافظ عليه باطمئنان وسلام شيء آخر». وهذا يعني أن على الرومان، من الآن فصاعداً، أن يحموا حدودهم التي تزداد اتساعاً، وأن يتصدوا لغارات البرابرة القادمة من الشمال والغرب، وأن يرسخوا على الخصوص النظام الداخلي ويصونوه.

إن استيراد العبيد إلى روما وشبه الجزيرة بلغ حداً من الاتساع والتوسع حتى كادت تكون جميع الأعمال منفذة بأيد مستعبدة، وكانت العزبات التي يزرعها العبيد في الأقاليم المستولى عليها تقدم الحبوب؛ وكانت أملاك الأشراف الشاسعة على الأرض الإيطالية توفر الماشية للأسواق. كما ان ورشات العمل والمشاريع التجارية في المدن كان يديرها الكثير من العبيد والقليل من الأحرار، حتى إن الأشغال العامة كافة كان العبيد هم الذين ينجزونها. إن الألوف المؤلفة من الرجال الأحرار، الذين منحوا المواطنية الرومانية لقتالهم في الفيالق الرومانية إبان حروب ظافرة، وجدوا أنفسهم عاطلين عن العمل، فراحوا يتوافدون إلى روما لتزداد فيها أعداد العامة العاطلة عن العمل وهي لا تملك إلا حق التصويت للمجلس الشعبي فتبيع أصواتها لتأمين أسباب عيشها.

كان العبيد من الجنسين العاملين في بيوت الرومان الأثرياء يطعمون بشكل أفضل، ويعيشون حياة رخية لم تتوفر للأغلبية العظمى من العامة. صحيح أنهم كانوا خاضعين لأهواء سادتهم من الرجال والنساء ومن دون حماية، بيد ان المعاشرة اليومية وفرت لهم فرصة المطالبة بإعتاقهم والحصول على ذلك بعد وفاة مالكهم في أغلب الأحيان وذلك بإجراء إيصائي مكافأة لهم على خدماتهم وإخلاصهم، وكانوا يأملون لأولادهم، المولودين من زيجات عقدوها فيما بينهم وتغاضى عنها سادتهم، مستقبلاً أفضل. وفي مقابل ذلك كان العبيد المستخدمين في العربات والمناجم يخضعون لتعسف الرقباء اللامحدود. لقد كانوا (الرقباء) يستحثون حميتهم على العمل بلسعات السياط، وينقصون طعامهم فلا يقدمون لهم إلا مما لا غنى عنه. وكانوا يعزلون النساء عن الرجال ليلاً ليضطروهم للتزاوج في أوقات مناسبة تتم تحت رقابة مكلفين لا يعرفون الرحمة، وهكذا يكون البديل (العبد) مضموناً. إن اختيار الشركاء من الجنسين في هذا الإخصاب الإلزامي كان يتم وفق معايير «المربين» الذين كانوا ينتقون ما يوكل إليهم من عبيد عن علم ودراية، فيتصرفون بهم كما كانوا يتصرفون مع الأبقار والثيران أو

مع الأفراس والفحول من الخيول. إن كل عصيان أو حتى مقاومة في هذا الشأن، وكل مظهر من مظاهر الإيثار كان يعد خروجاً عن الطاعة، وعقوبة ذلك كانت شديدة القسوة، لكـن الحكـم بـالموت ظـل نـادراً، لأن لكـل عبـد قيمـة تجاريـة، والرقباء مسؤولون أمـام موكليهـم ومـن واجبهـم العمـل علـى زيـادة ملكيـاتهم. وغالباً ما كان العبيد يلجؤون وبإطراد، بعد أن يئسوا من هذه الحياة التي لا يمكن تحملها، إلى الدفاع المشروع، فقتلوا عدداً من الرقباء المتوحشين، وشكل الآبقـون عصابات مسلحة تحوم حول الأرياف والمـدن فتقتـل وتنهـب، مما دعـا سـلطات المدن إلى قمع الثورات المحلية بالقتل والذبح. ولكن عندما بلـغ عـدد المتمرديـن في صقلية وحدها سبعين ألفاً من العبيد، كان لابد من توجيه الفيالق لإخماد الثـورة، فأعادوا المراقبين إلى أعمالهم، وقتلوا رؤساء الحركة ومدبريها.

جزع سكان روما من ثورات العبيد هذه، وراحـوا يتنـاقلون أخبارهـا بـلا انقطاع. ودبت الحمية، جراء ذلك، بأحد الشبان الأرستقراطيين، لا من أجـل أن ينافح عـن قضيـة العبيـد، بـل التماسـاً لإنسـانية رومـا ليحيـي مـن خلالهـا طبقـة الفلاحين وحقوقهم، ويوفر الوظائف للمواطنين الرومان.

كانت أم الشاب تيـبريوس سـيمبوريوس غراكـوس (جراكـوس) هـذا هـي كورنيليا ابنة العجوز سيبيو الذي لقب، جراء انتصاراته في الحرب البونية الثانيـة، بـالإفريقي الأمجـد، وشبت كورنيليـا وترعرعـت في دارة آل كورنيليـوس حيـث يسود الميل إلى الفكر اليوناني؛ وترملـت في زهـرة شـبابها، وصنعـت مـن أبنائهـا رجال فكر متحرر نذرته لخدمة الوطن. ويروي بلوتـارك أن ملـك مصـر أراد أن يتزوجها، ولكن كورنيليا أبت إلا أن تعمل للجمهورية، فرفضت التاج الذي قدم لها، وأرادت أن تنهج نهجاً جديداً، بوصفها رومانية ومن أرومة عريقـة، ولكنهـا لا تستطيع أن تقوم بذلك إلا مـن خـلال بنيهـا لأنهـا امـرأة. وانتخـب تيـبريوس سمبوريوس غراكوس تريبيوناً (زعيم شـعبي ومحـام مدافـع عنهـم) مـن قبـل مجلـس الشعب ليكون قادراً على طـرح القـانون الزراعـي القديـم علـى الخمسـ... موضعه

موضع التنفيذ. وعليه يجب أن تعود الأراضي التي تحتلها العزبات إلى الدولة لتعطى بإيجار حكري (حكر طويل الأمد وبأجرة سنوية ثابتة) إلى مواطنين الرومان، وإن الخطاب الذي ألقاه تيبريوس، دفاعاً عن القانون المشروع، يقدم لنا لوحة عن الأخلاق والطباع التي تنير لنا حال ذلك الزمان: «إن لحيوانات الأرض جحورها ولطير الهواء أوكارها ومخابئها، أما الرجال الذين يحاربون ويموتون من أجل إيطاليا فلا يستمتعون فيها إلا بالضوء والهواء. إن قواد الجيش ينادون جنودهم أن يقاتلوا دفاعاً عن قبور آبائهم وأضرحتهم، ولكن نداءهم هذا سخيف باطل، إذ ليس في وسعك أن تدلهم على مذبح لآبائهم يقربون فيه لآلهتهم، وليس للفقراء مقابر لأسلافهم. إنكم أيها الفقراء تقاتلون وتموتون لينعم غيركم بالثروة والترف، ويقال لكم: إنكم سادة العالم، ولكنكم لا تجدون في هذا العالم موضعاً لقدم، في وسعكم أن تقولوا إنه ملك لكم» واغتيل من كان يتحدث على هذا المنوال بيد أحد المشايعين لمالكي العزبات. فأخذ أخوه كايوس سمبوريوس غراكوس على نفسه أن يستمر في النضال دفاعاً عن العامة، وفاز بقانون الحبوب «lex frumentaria» فأمن لكل عائلة رومانية حصة شهرية تعادل ثلاثة أثمان القنطار (١٠٠كغ) تقريباً، وبسعر أقل من السعر الجاري بمرتين. ولكنه قلل من مقدار مجلس الشيوخ ومن سلطانه وبالغ في تقدير وطنية منتخبيه الرومان الذين لم يقدروا قط رغبته في أن يمنح جميع رجال اللاتيوم الأحرار المواطنية الكاملة، وإلى البقية الباقية من رجال شبه الجزيرة الأحرار مواطنية منقوصة، والعامة التي كانت ترفض رفضاً باتاً أن ترى تناقص قيمة أصواتها الانتخابية لن تنتخب كايوس أبداً، فلما عاد من قرطاجنة وجد دروسس قد كسب قلوب الشعب، وينازعه الزعامة عند كل خطوة يخطوها. ورشح كايوس نفسه لاختياره تريبيوناً مرة ثالثة ولكنه أخفق، وقال أصدقاؤه إنه انتخب ولكن أصوات الناخبين قد تناولها الغش والتزوير، غير أنه نصح أتباعه بألا يلجؤوا إلى وسائل العنف، واعتزل السياسة وفضل عليها الحياة الخاصة. أشار

مجلس الشيوخ في العام الثاني أن تجلو روما عن المستعمرة المنشأة في قرطاجنة، وفسرت الأحزاب جميعها هذا الاقتراح ـ سراً أو جهراً ـ بأنه مقدمة لحرب يشنها المجلس على قوانين غراكس لإلغائها.. وجاء بعض أنصار غراكس إلى الجمعية مسلحين، وقتل أحدهم، رجلاً من المحافظين همَّ بالقبض على كايوس. فما كان من أعضاء المجلس إلا أن خرجوا في اليوم التالي وهم على استعداد تام للقتال، ومع كل منهم عبدان مسلحان، وهاجموا أنصار غراكوس المتحصنين فوق تل الأفنتين، وبذل كايوس قصارى جهده لتسكين الفتنة، فلما عجز عن ذلك ولى هارباً وعبر التيبر، ولما لحق به أعداؤه أمر خادمه أن يقتله، وصدع الخادم بالأمر ثم قتل نفسه. وقطع أحد أصدقاء كايوس رأس صديقه، وحشاها بالرصاص المصهور، وحملها إلى مجلس الشيوخ، وكان المجلس قد أعلن أنه سيكافئ من يأتيه بهذا الرأس بما يساوي وزنه ذهباً، ولما ألقيت جثته وجثث أتباعه في نهر التيبر لم يحتج على هذا العمل غوغاء المدينة الذين كان يعمل لخيرهم، ذلك ان هؤلاء الغوغاء كانوا وقتئذ في شغل عن هذا الاحتجاج بنهب بيته، وقد أعلن مجلس الشيوخ عن إدانة كايوس وتجريمه بوصفه خارجاً على القانون، وحرم على كورنيليا الأم أن ترتدي ثياب الحداد حزناً على ولدها. كان الحظر يخالف العادات المتبعة، ولكن كان لابد للنساء، وقد خبرْن هذه الأمثولة المروعة، من أن يحترسن ويمتنعن عن حشر أنوفهن في شؤون الدولة مستقبلاً، فلقد خلقن للحب.

احتفى مجلس الشيوخ بنهاية آل غراكوس بمظاهر النصر. وبدا ثراء أصحاب العزبات راسخاً ومؤكداً، فراحوا يستخدمون الفائض من أموالهم لتجميل المدينة وتزيين قصورهم. وحلت الألواح الرخامية محل الجدران القرميدية، وزينت الجدران زخارف من الذهب والفضة والأقمشة الثمينة المجلوبة من أقاليم آسيا الجديدة، وتخلى كثير من الأشراف ممن ظلوا يعيشون حياة متواضعة عن اعتدالهم وتحفظهم، وراحوا هم أيضاً يولمون الولائم الفاخرة وينفقون المبالغ الطائلة، ليقدموا للشعب المآدب ويعرضوا له ما يسليه من الألعاب البهلوانية،

فاقتربوا بذلك من طبقة الفرسان متأثرين باعتبارات سياسية. فلم يكن للفرسان أن يرتقوا بأذواقهم ويسموا بها في يوم من الأيام، بل كان للأشراف، على العكس من ذلك، أن ينجروا وراء العادات الوضيعة، فمن كان مفرطاً في إسرافه، وشارك في بذخه حلقات يزداد أفرادها بإطراد صار نفوذه أوسع، وكلما ازداد النفوذ ازدادت الأموال. كانت الحياة السياسية والاجتماعية في روما تدور دائرتها في هذا المحيط الفاسد، باستثناء المطلعين النابهين الذين كانوا يرون بقلق وتوجس صورة مستقبل روما. فإلى متى سيكتفي الشعب بالصدقات ويرضى بها؟ كتب أحد المعاصرين: «قدر فقراء الامبراطورية الذي لا يحول ولا يزول..» كانت الحرب الأهلية تنذر بالإندلاع وكأنها أمر واقع لا محالة، في حين كانت الفيالق تحارب الغاليين في وادي نهر الرون لتؤمن لرجال المال استثماراتهم للغابات الخصيبة، وللكلتيين في إيلليريا أن يهبوا رجال المال هؤلاء الوفرة الوفيرة مما تجود به مناطق السافا والدرافا من الملح والحديد.

نمى إلى روما أسماء شعوب جديدة وغريبة: السيمبريون والتيوتون، وهم من «البرابرة» الذين كانوا يصولون ويجولون في شرق الامبراطورية وغربها وعلى طول حدودها الشمالية، ويهزمون في جولاتهم وغاراتهم الفيالق الرومانية. فمن هم هؤلاء الرجال الوافدون من المجهول، ومن مناطق غير مرتادة، فيبيدون جيوشاً محنكة ومكابدة؟... دب الذعر في قلوب الناس من هؤلاء المتوحشين ومن نسائهم أيضاً. «وكان يصحب نساءهم اللائي يتبعنهم للقتال كاهنات بصيرات يرجمن بالغيب، وكان لهؤلاء الكاهنات شعور رمادية وملابس بيضاء وجلابيب من قماش تثبت على الأكتاف بمشابك، ويتمنطقن بسيور من البرونز، ويمشين حافيات الأقدام.. وفي خلال المعارك كانت نساء السيمبريين يقرعن جلوداً مشدودة على تروس من خيزران العربات فترسل ضجيجاً مخيفاً ومروعاً...» أما التيوتون الذين كانوا يتقدمونهم في وادي نهر الرون فقد كانوا أشد هولاً. وإليكم ما قاله عنهم بلوتارك: «وكان كل من

حاول بمجابهتهم فريسة سائغة لهم، إن العديد من الجيوش الرومانية ومن قادة روما ممن ذهبوا للدفاع عن الأراضي الغالية فيما وراء الألب قد اندحروا ولحق بهم العار. وما ان هزموا من الجيوش ما هزموا، وكسبوا من الغنائم ما كسبوا حتى عزموا على ألا يستقروا في مكان محدد أياً كان هذا المكان، ولذلك فإنهم لم يدمروا روما ولم يخربوا إيطاليا».

كانت روما مهددة. وكانت المدينة ترتعد في كل مرة ينمو إليها خبر ينذر بالخطر. فتوزع السكان في فريقين: فريق الأوبتيمات ويشكلون قسماً من النخبة المختارة، ويعارضون من حيث المبدأ كل محاولة للإصلاح لم تصدر عن مجلس الشيوخ؛ وفريق البوبولار الذين كانوا يطعنون بامتيازات الولادة غير المشروطة ويطالبون بنصيب أوسع من الصلاحيات في مجلس الشعب، وبتوزيع الأراضي على الفقراء والمحاربين القدماء. وكان المعسكران يتنازعان على السلطة بكل الوسائل المتخيلة، فعجل هذا الصراع في انحلال الأخلاق. وكان كل حزب يستخدم مالديه من وسائل فاعلة ومؤثرة لشراء أصوات العامة، كما ان مبادئ العقيدة السياسية والاستقامة البشرية قد تدنت، فلا اعتبار إلا للمال، ولما لهذا المال من قدرة على الشراء. إن الاتجار بالسياسة بلغ من الحجم حداً أدى إلى إحداث وظائف جديدة مدرة جداً متخصصة في الدعاية الانتخابية وشراء أصوات الناخبين. إن ذاك الذي يرى الناخبين فرادى وكيس نقوده بيده. ويسخو بدراهمه ويوزعها عليهم، هو وحده القادر على أن يأمل بالحصول على المنصب الذي يتطلع إليه، أما ذاك الذي لا يحب أن يلعب بنفسه بدراهمه الرنانة فقد كان يكلف خبيراً بالانتخابات. وكان الأشراف والفرسان يستدعون هؤلاء الخبراء ليدفعوا لهم مقدماً لانتخاب المرشح الذي يدعمونه.

إن الروايات المتوفرة لدينا لا تشير إلا بطرف خفي إلى تفشي الفساد في جميع الأوساط، وتبعات هذه الدسائس وعواقبها الأخلاقية على عقول الجماهير. نحن نعلم ان المقاهي وبيوت الدعارة قد ازداد عددها، وان ألعاب السيرك والحلبة

قد اغتنت بضروب متعددة من الألعاب الجديدة. ولكن جميع علاقات الحرب التي سبقت ارتقاء قيصر، على الرغم من شموليتها، لم تتضمن إلا القليل من الإشارات حول حياة العامة. بيد أننا نعرف ان العامة كانت ضحية المغامرات السياسية والعسكرية التي توجه مصائرها، وتعد وسيلة، إضافة إلى العادات المأخوذ بها، لإرضاء أطماع الساسة والعسكريين الجارفة. وهاهو كايوس ماريوس، ابن أحد الفلاحين الذين يدينون للبوبيلار بارتقائهم الاجتماعي، قد اشتهر بتميزه في رئاسة الفيالق وإدارة الحروب. وقد لقبه جنوده بعد انتصاراته المظفرة على السيمبريين والتيوتون بالأمبراطور «imperator» ولكنه لم يكن من أولئك الذين يحترفون السياسة، مما اضطره إلى تسليم زمام السلطة إلى رجل من النخبة المختارة «optimates» وهو لوكيوس كورنيليوس صيلا، الذي كان يحمل اللقب فيليكس «felix» (السعيد)، و لم يأته هذا اللقب لنجاحاته فحسب، بل لأنه كان يعرف كيف يتمتع بالحياة أيضاً، وقد أجاد ساللوسته في وصفه وتعريفه: «كان يعيش عيشة البذخ، ولكن ملذاته لم تحل قط بينه وبين أداء واجباته، إذا استثنينا من ذلك التعميم أنه كان في وسعه أن يجعل سلوكه مع زوجته أشرف مما كان» كان صيلا رجلاً فذاً في منشئه، وأخلاقه، ومصيره، فقد ولد فقيراً ولكنه أصبح المدافع عن الأشراف، كما أصبح ابنا غراكس ودروسس وقيصر وهم من الأشراف زعماء الطبقة الفقيرة. وثأر لنفسه من الحياة إذ جعلته شريفاً ومعدماً، وذلك بأنه حين أصبح رب المال استخدمه في تلبية شهواته، فأطلق لها العنان و لم يتقيد فيها بعرف، و لم يؤنبه على إسرافه فيها ضمير. وكان دميم الخلق له عينان زرقاوان براقتان في وجه أبيض تلطخه بقع شديدة الحمرة ـ كأنه توت منثور عليه دقيق ـ لكن هذه الملامح كانت تخفي وراءها تعليماً راقياً، كان يتقن الآداب اليونانية والرومانية، وكان مولعاً بجمع روائع الفن دقيقاً في اختيارها... وكان رقيقاً مرحاً لطيفاً. وصديقاً كريماً، يدمن الخمر، ويشتهي النساء، ويولع بالحرب، ويطرب للغناء، وسلك الرجل طريقه إلى المجد سلوكاً سريعاً، وخاصة في الجيش وسيلته الموفقة إلى

أغراضه. «كان همه الوحيد ألا يسمح لكائن من كان أن يفوقه في حكمته وشجاعته». و لم يكن يؤمن بآلهة الرومان، ولكنه يؤمن بالخرافات، ومما قيل عنه أنه كان نصف أسد ونصف ثعلب، وان الثعلب فيه كان أشد خطراً من الأسد. تزوج صيلا خمس مرات وطلق مرات أربع. واتهم باستسلامه لنزوات زوجته الأولى التي كانت تحلو في عينيه. و لم يكن ليتورع عن انتهاك حرمة أية امرأة، حتى لو كانت زوجة لصديق أو لعدو. واستغل إلى أقصى الحدود ودونما رادع وضعه كطاغية كان قد دفع بمجلس الشيوخ للإقرار بها. فحكم بالموت على أعدائه السياسيين من الفرسان والشيوخ، وزين الفوروم (الساحة العامة) برؤوسهم.

وقد ترك لنا بلوتارك وصفاً للذعر والهلع اللذين سادا عهده: «... وكان الأزواج يذبحون بين أحضان زوجاتهم، والأبناء في حجور أمهاتهم...» وباختصار فقد استمتع صيلا السعيد بكل لذة، واستحوذ على كل سلطة، وعاش عيشة لا يساوره فيها حزن ولا ندم، واستكمل متعته بالخطايا، ولما يبلغ الثامنة والخمسين من عمره أصيب بخراج في القولون بلغ من شدته «إن اللحم النتن استحال دوداً، وبلغ من الكثرة حداً كان لابد معه من استخدام كثير من الرجال والنساء لقتله، ولكن الدود أخذ يزداد ويتضاعف حتى لم تتلوث به ثيابه وحماماته وآنيته فحسب، بل تلوث به أيضاً طعامه معه» على حد قول بلوتارك، ومات صيلا على أثر نزيف في الأمعاء، و لم يكد يقضي في عزلته عاماً واحداً، و لم يفته أن يملي قبريته قبل وفاته: « لم يخدمني صديق قط، و لم يسئ إلي عدو أبداً، إلا جزيت الأول على خدمته والثاني على إساءته الجزاء الأوفى».

واستولى على السلطة بعد نزاع حاد إثنان من الأثيرين عند صيلا: كينوس بومبيوس (pompée) وماركوس ليكيوس كراسوس. وكان الرجلان على طرفي نقيض. كان بومبي، وهو ابن أحد الفرسان، من عائلة واسعة الثراء، لكنه لم يكن ممن يحفلون بالمال، وقد بز أقرانه، وهو قائد تحت إمرة صيلا، وذاع صيته ولما يبلغ الثلاثين عاماً بعد، وراح يعمل للحفاظ على مكانته هذه.

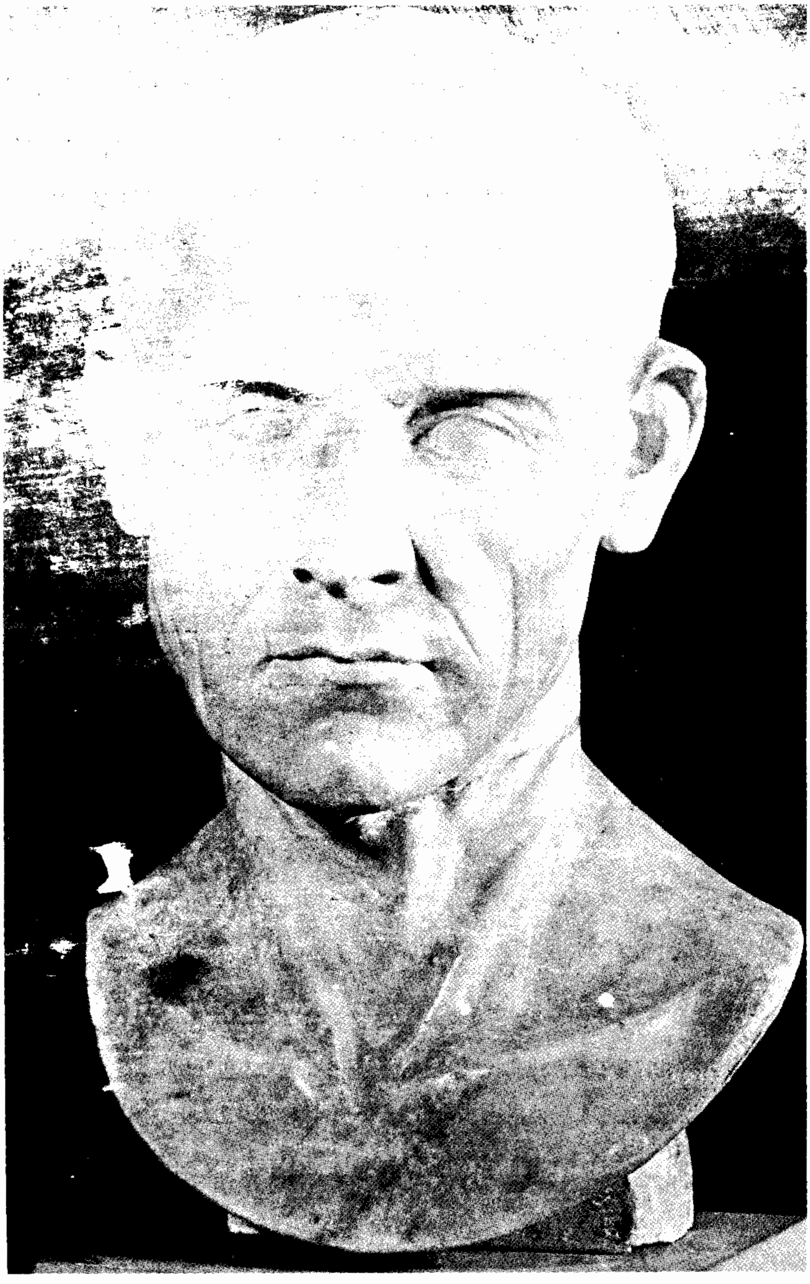

تمثـــال نصـــفى لصيلا، البندقية

أما كراسوس فقد كان من أوسع أثرياء الرومان ثراء. وهو لم يحصل على هذه الثروة بالوراثة، بل كان يدين بها إلى صيلا وإلى مبادراته الخاصة. في البداية سهل له صيلا امتلاك مناجم من أملاك الدولة بأسعار زهيدة، وساعده على شراء عزبات موضوعة تحت الحراسة القضائية، وتعود إلى المحكوم عليهم بالإعدام، بأسعار بخسة، وجملة القول إن كراسوس جمع أمواله من رئيسه دون غيره وبطريقة لم يسبق لها مثيل. فقد استحدث في روما فرقة للدفاع ضد أخطار الحريق: فما ان يشب الحريق حتى يهرع عبيده إلى مكان الكارثة ليعرضوا على أصحاب البيوت التي تلتهمها النيران شراءها بأسعار أدنى كثيراً من قيمتها، فإن وافق أصحابها على بيعها، أطفأ العبيد الحريق، وإن أبوا تركوا البيوت طعمة للنيران ليشتريها كراسوس أرضاً خراباً، فغدا جراء ذلك مالكاً للمئات من البيوت التي كان يؤجرها.

اشتهر كراسوس بين صحبه بوصفه الرجل النبيل، فهم لم يأخذوا عليه قسوته، و لم يحملوا عليه لوحشيته، ذلك لأن احتقار الحياة الإنسانية كان أمراً عاماً وشاملاً، حتى إن أحداً لم تتحرك مشاعره عندما أخمد كراسوس ثورة العبيد التي قادها سبارتاكوس بأن قذف بمجابهتهم أربعين ألفاً من الجنود، فقتل ما قتل، وصلب على درب «appienne» آبيين ستة آلاف من العبيد الأسرى، تاركاً جثتهم لشهور عدة نهباً للنتن والتفسخ على مرأى من الناس جميعاً، ليثني العبيد عن كل شكل من أشكال التمرد ودونما عودة.

كان كراسوس شديد الولع بالسلطة كولعه بالثراء، وكان يروق له أن يقرض المال إلى الساسة ورجال الدولة ممن يود شراءهم، و لم يكن يطالب بفوائد عليها، ولكنه كان يحتفظ لنفسه بحق الإعلان عن القروض وكشفها ساعة يشاء. وهكذا استطاع أن يحكم سيطرته عليهم، ناهيك أن كايوس يوليوس قيصر كان واحداً من مديونيه.

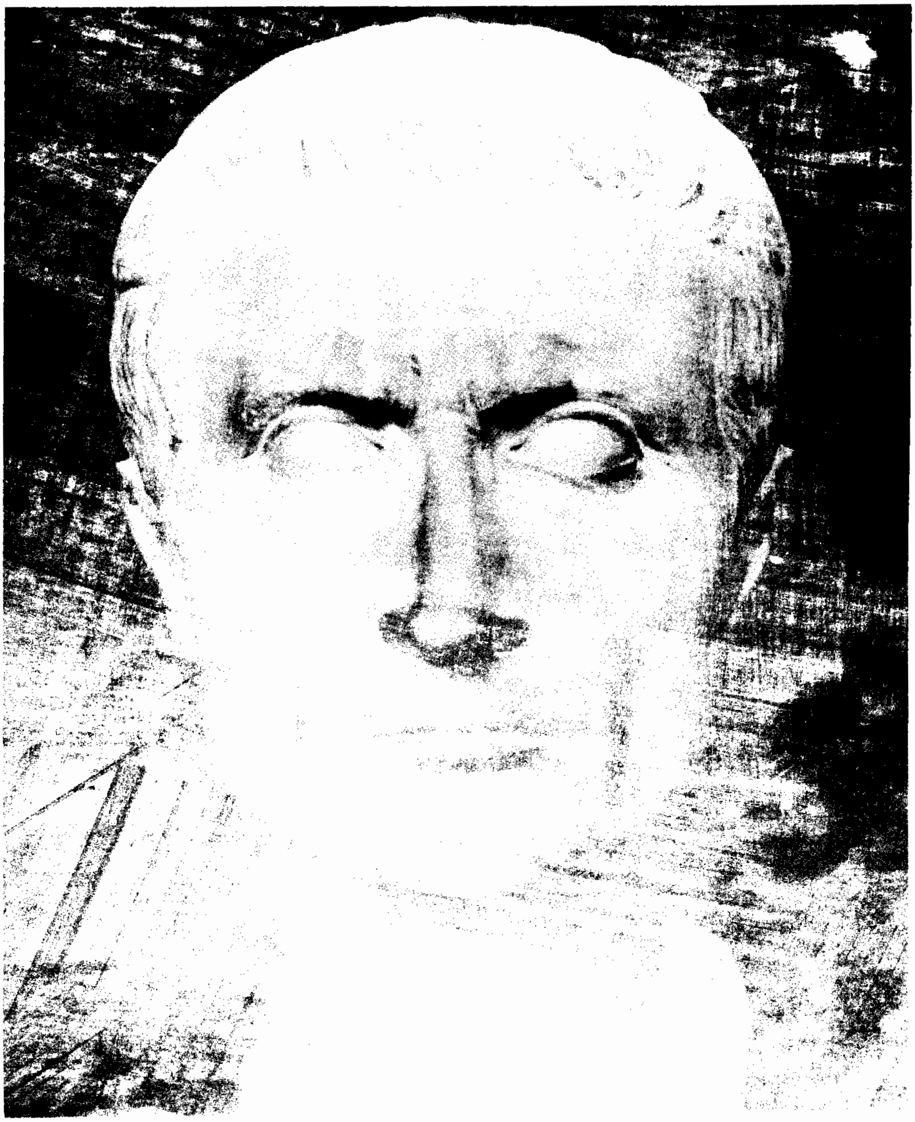

قيصر [illegible] (١٠٠ - ٤٤ ق م)

لم يكن المنافس لوكيوس ليكينيوس لوكولّوس، وهو من أثرى الأثرياء، ومن الطامحين إلى مراتب الشرف مثل بومبي، ولا من المتعطشين إلى السلطة مثل كراسوس. لم يطمح لوكولوس إلى منصب أياً كان هذا المنصب، ولا إلى مقام رفيع. عندما ساق جنوده، وهو قنصل، إلى النصر في حرب له في آسيا الصغرى كانت مثمرة وظافرة، فهو لم يشته إلا شيئاً واحداً: أن يعيش حياته متمتعاً بها قدر المستطاع. فبنى لنفسه قصراً فاخراً في روما، ومقرات إقامة صيفية ممتعة، حتى إن الحدائق التي أمر بتصميمها ورسمها، ليتنزه بين أشجارها ويستفيء ظلالها ويتنسم عبير أزهارها على امتداد فصول السنة كلها، غدت نماذج سار على منوالها الرومان الأشراف في جميع الحدائق التي تحف بقصورهم. كما أن الولائم التي كان يقدمها لوكولوس قد بلغت من الشهرة حداً جعلت من اسمه رمزاً للنهم، فبلغ أعلى درجة من درجات التفنن بالطعام. كان يقدم لضيوفه المآكل المختارة الفاخرة، ويحرص على أن تنسجم زينة المكان تمام الإنسجام مع هذه الملذات، كما كان يولم لضيوفه في قاعات يختلف إعدادها باختلاف الوجبات. وكان يتهلل فرحاً عندما يدهش ضيوفه بطعام لم يسبق لهم أن رأوه أو ذوقوه، وإذا ما قدم لهم طيوراً مغردة، مشوية أو مطهية على البخار، تألفت أوركسترا المائدة مما يشبهها، فتطرب أسماع الضيوف وتشنف آذانهم بمقطع موسيقي سريع يردد تغريدها. وكان المنشدون الموسيقيون يرفهون عن الضيوف بطرق مختلفة. وكان يحلو للوكولّوس أن يهب مضيفيه عبيداً من الجنسين طاب لهم إنشاؤهم وغناؤهم، وقد أبى أن يستأثر لنفسه بما تجود به الحياة من متع، فرغب في أن يهب الآخرين بعض ما عنده، ويعلمهم طيب العيش، فلم يرفه عن ضيوفه بصراع المجالدين حسب ماكانت تقتضيه العادة غالباً في روما، بل كان، وهو المريد لأبيقور، يمقت إراقة الدماء، ويأبى استحضار الموت وهو على علم بأن الموت سيدركه ذات يوم من دون دعوة. ولم تشهد قصوره ولا داراته (villas) قط قصفاً أو عربدة، فلم يكن ضيوفه أثناء الولائم ينظفون

أيديهم البليلة والمتسخة بالطعام بشعور الخدم المعطرة الذين كانوا يتسارعون حولهم وهم عرايا. فتلك كانت عادة الأغنياء من حديثي النعمة. كان لوكولوس يكره أن يعكر صفو مسرات قصره فجور جنسي مثل ما كان شائعاً في روما. فما كان لكل ضروب الصفاقة أو السوقية أن تروق لنبي مباهج الحياة الخالصة هذا.

كان الأشراف والفرسان المتزاحمون على مسرات العيش والساعون إلى بزّ أقرانهم، يتنافسون في امتلاك التحف النادرة وجلب الأطعمة الفاخرة، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار. فكانت العائدات الضخمة المتوارثة لا تكفي البتة لتغطية نفقات أهل البيت الفاحشة والمتزايدة على الدوام. لقد كان على من يرغب في الظهور وفي الانتساب إلى حلقات السادة أو تلك التي تطمح إليها، أن يلجأ إلى موارد تعود عليه بثروات طائلة. وكان من الجائز له أن يستدين عله يستطيع الحصول على منصب في إدارة أحد الأقاليم، وذلك لأن صفة الوالي أو الوالي المفوض في أحد الأقاليم المستولى عليها أو تلك التي سيتم الاستيلاء عليها، تضمن لصاحبها موارد ضخمة. وكان بمقدور من يشغل مهمة اختيار جباة الضرائب الجدد أو تجديد العقود القديمة أن يضمن لنفسه نصيباً كبيراً من العائدات.

وكان ما يدفعه المستكرون في انتقال الأملاك الريفية أو المناجم وراثياً، يزيد كثيراً على الإيجار التعاقدي الزهيد. إن تجارة ما جاء به الجند من عبيد بالدم والعرق كانت مدرة للربح إلى حد دفع كبار الموظفين إلى إحاطة أنفسهم على الدوام بمجموعة من الخبراء القادرين على فحص البضاعة البشرية وتقدير قيمتها. فكانت أسعار العبيد من الجنسين ممن وهبوا مزايا خاصة مرتفعة للغاية، وازدادت الحاجة إليهم، لا نقصد الحاجة إلى اليد العاملة الرخيصة التي كانت متوفرة بكثرة، بل الحاجة إليهم رجالاً ونساء أرقاء بمقدور سيدهم استخدامهم وإنهاكهم واستغلالهم كيفما يشاء.

إن صيانة بسيطة للقصور الرومانية التي تعاظم عددها واستكمل تجهيزها بتدفئة مركزية أرضية، كانت تتطلب اختصاصيين يزداد عددهم بإطراد، ناهيك عن متطلبات الدارات القائمة على شواطئ البحر وفي الجبال التي كان يتوجب على المرء امتلاكها إذا ما أراد أن يفرد لنفسه مكاناً بين علية القوم. كان تزايد العبيد الطبيعي لا يكفي، ولم يكن جماع أجمل الرقيقات مع أقوى الأرقاء يفضي على الدوام إلى النتيجة المرجوة، ذلك لأنه كان من المتعذر منع المراقبين أو أبناء البيت من إخصاب النساء من الرقيق، فليس في استسلام المرء لغرائزه دونما قيد ما يعيب أو يشين. وكان الفتيان من أسر الأشراف أو الفرسان الأثرياء لا يتقيدون بأي إكراه إذا ما تعلق الأمر بالتمتع بالحياة بطريقة أو بأخرى. وكان من المألوف الشائع في روما أن يتبنى المرء في حياته الجنسية حرية الأخلاق الإغريقية، وفي العناية الجسدية تفنُّنَ سكان آسيا الصغرى في تليين الجسد وتطريته. ولم يجعل الرومان من ميولهم إلى اللواطة ومن الملذات التي يحضّون عليها سراً خفياً، بل كان النخبة منهم يظهرون للعيان، دونما حياء أو تحفظ، ميولهم للرجال أو المراهقين، وولعهم بالذهاب إلى مواعيد الغرام وهم يرتدون ملابس نسائية، ويتطيبون كما تتطيب النساء، ويتفاخرون بكونهم ماهرين في الحب ومحنكين في الهوى حنكة مومسات اليونان ومهارتهن. أما المناصرون للحب الشاذ (اللواطة)، والمقتنعون به، فكانوا يرفضون الزواج ولا يرغبون في النساء لأنهم يرون أنفسهم رجالاً ونساء في آن واحد، وراحوا يزينون أماكن إقامتهم بتماثيل هيرمافروديت (هرمس + أفروديت = خنثى) ويمتدحون ثنائية الجنس بوصفها جوهر الكمال الإنساني.

ومن كان ينتسب إلى عائلة الأشراف أو الفرسان وليس في حوزته دارة، اشتراها بماله أو انتقلت إليه بالوراثة، يستطيع دعوة أقرانه من الضيوف المتطلبين إليها، كان عليه، إذا ما رغب في الظهور في المجتمع، أن يستسلم لنزوات ضيوفه الأجاويد، أو أن يقترض ويستدين ليستطيع أن يظهر للعيان بذخاً يرقى به إلى

علية القوم. وقد وجد أبناء مجلس الشيوخ والفرسان أنفسهم أمام هذا المأزق، وقد حرموا من حياتهم وممتلكاتهم في ظل سنوات الرعب التي حكم فيها صيلا، ومعهم أيضاً الفتية من الطامحين الذين لا يملكون من الثروة ما يكفي لإدارة منزل لائق، لأن ذلك يستلزم إعالة الفراشين (خدام الغرف) من الجنسين، والطباخين، والراقصين، والمجالدين، إضافة إلى العبيد الاعتياديين من الجنسين للأعمال المنزلية. وكان العبيد من النبلاء، وقد صاروا فقراء، يؤجرون خدماتهم للغير، وعندما أثروا راحوا يتفاخرون بأسماء الأشراف الذائعة الصيت لكونهم يدخلون في عداد أهل البيت، في حين لاذ بعضهم الآخر بالزواج ليتمكنوا ببائنات نسائهم من تأسيس منزل يليق بمولدهم، أما القلة القليلة منهم فقط تطوعوا في الجيش ضباطاً يقاتلون في الشرق الأدنى.

كان كايوس يوليوس قيصر أحد هؤلاء النبلاء. وكان، وهو الذي سيغدو من أوسع رجال عصره مقدرة واقتداراً، ينتهز كل فرصة سانحة لكي ينجو من عار الفقر، ويعيش حياة مطلقة العنان يرى فيها امتيازاً يستوجبه منبته، إذ كان يدعي بأنه من سلالة يوليوس اسكانيوس بن اينياس، أي أنه حفيد فينوس وابن حفيد الإله جوبيتر. وقد أقر بنسبة جميع أولئك الذين كانوا يؤمنون بالأسطورة القديمة. أما بالنسبة له فإن حداثته لم تكن لتسوغ له على الإطلاق ان يخال نفسه أثيراً عند جوبيتر، وربما كانت فينوس مؤاتية له أكثر. ومع ذلك فإن هذه النعمة (نعمة فينوس) قد اتسعت لينعم بها الكثير من الفتيان المتوافدين إلى حي بيوت الدعارة حيث يقوم منزل آل يوليوس.

لم يكن هذا البيت يشبه، لا من قريب ولا من بعيد، بيوت آبائهم الأغنياء من الأشراف. وكانت إحدى عمات قيصر قد تزوجت ماريوس، ولكن أبا قيصر هذا لم يخرج من زواجه بأي مغنم كان. ربما لأن هذا الشريف المعجب بنبالته لم يتقبل منةً من ابن فلاح. ويخبرنا سويتون ان قيصر في حداثته قد تلقى العلم على يد أحد العبيد الغاليين المتبحرين. وكان متعطشاً للمعرفة ومولعاً بالبيان

والآداب. ومن المرجح أنه قد أحس بخيبة أمله عندما اضطر إلى استبدال قلمه بالسيف ليتطوع في السلك العسكري امتثالاً لتقاليد أسرته. فأُرسل إلى آسيا ولما يزل حدثاً بعد، وعين مرافقاً لأحد كبار القادة ليكون ضابط ارتباط لنيكوميد ملك بيثينيا.

ولما عاد قيصر إلى روما ولما يبلغ السادسة عشرة من عمره بعد، قيل عنه أنه كان رفيق متعة الملك، وهكذا فإن «زهرة حفيد فينوس قد تلوثت في بيثينيا» وطاردت هذه النمائم قيصر حتى وفاته. وعومل بوصفه باثيوس الملك نيكوميد (باثيوس = الرجل الذي يستسلم لنزوات الرجال فيعاملوه معاملتهم للمرأة). حتى ان أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وقد رغب في التعبير صراحة عن احتقاره لقيصر، وصفه بأنه «قائما السرير الملكي». وما انفك جنود سلاحه المنتصرون يسخرون من ماضيه المريب على الرغم من إخضاع قيصر للغاليين ومن عودته ظافراً: «أخضع قيصر الغاليين، ونيكوميد أخضع قيصر، وهاهو قيصر يبتهج لأن الغاليين تحته، ولكن نيكوميد غير سعيد لكون قيصر تحته» وبقيت سمعته بوصفه رجلاً متيماً بالجنسين ملازمة له حتى بعد زيجاته الثلاث، على الرغم من الكثرة الكثيرة من علاقاته الغرامية الناجحة وغير الناجحة مع أكثر النساء الرومانيات فتنة ونفوذاً. فكانوا يدعونه جهاراً وعلى الملأ «omnium mulierum uir et omnium virorum mulier» (رجل كل النساء وامرأة كل الرجال). وبقي قيصر عاجزاً حيال هذه الإهانات الموجهة إلى شرفه الشخصي وسط مزاحمات توجب عليه مجابهة خصومه والذود عن نفسه حتى مماته، لكنه لم يرد قط على هذه التجريحات التي كانت تستهدف سلوكه الجنسي، و لم يمنع البتة جنوده من التعامل معه بوصفه «الزاني الأصلع» (mœchus calvus) لأنه كان يتلهى بالنساء الغاليات في المدن المقهورة. إنه الرجل المولع بالمتعة الذي لا يرفض شيئاً، فإن هو تألم إذا ما شككوا بشرفه كزوج، تظاهر بازدرائه لهذه الامتهانات، وهذا ما أظهره موقفه في إحدى الدعاوي أثناء استدعائه للإدلاء بشهادته.

وهكذا وجد قيصر نفسه في المرحلة الأولى من مراحل مسيرته المدروسة بدقة.. وراح يقترب من السيادة المطلقة. طلق زوجته الأولى، وترمل من زواجه الثاني، ولاعتبارات سياسية تزوج في زفاف ثالث بومبيا حفيدة صيلا، وسدد بما غنم من حملاته العسكرية ديونه المتراكمة جراء زيجتيه الأولى والثانية، ولكنه مالبث أن استدان مرة أخرى أموالاً طائلة من حامية كراسوس، مما سمح له بأن يصير مشرفاً يدير شؤون الأبنية والألعاب العامة، وتلك لعمري الوسيلة المثلى للفوز بشعبية تسمح له بتحقيق طموحاته السياسية. وبوصفه حفيداً لماريوس الذي يحتفي بذكراه دورياً، تمتع قيصر بحظوة العامة، لكن زواجه ببومبيا قربه من جماعة الأخيار، وأهله ليصير الحبر الأعظم، رئيس كهنة روما. ومن حكمه لاسبانيا حصل هذا المشبع بالآمال، على المجد، وجنى من المال ما يكفي لسداد ما كان قد استدانه من كراسوس حاميه. وتنازل تواضعاً عن استعراضاته العسكرية احتفاء بانتصاراته في اسبانيا كيلا يستثير غيرة دائنه كراسوس وبومبي المغرور. ولكنه سرعان ما وجد نفسه متورطاً في فضيحة تهدد شعبيته التي لا يمكنه الاستغناء عنها لتحقيق طموحاته القنصلية.

في قصر قيصر، مكان إقامة الحبر الأعظم المبجل، كان يجري الاحتفال بالعيد السنوي للإلهة بونا ديا (Bona Dea) تلك الإلهة الطيبة التي تسهر على خصوبة القطعان والحقول. وكان العرف يقضي ألا يحضر الاحتفال ويشارك فيه إلا النساء دون غيرهن. ولكن عشيق بومبيا زوجة قيصر، بوبليوس كلوديوس بولخير الجميل تسلل إلى القصر بزي امرأة وشارك في الاحتفال ثم افتضح سره ووجهت إليه تهمة الاعتداء على حرمة الآلهة وأسرارها. وبما ان قيصر كان يسعى لكسب أصوات العامة، حتى انه غير طبقته بعد أن تبناه أحد العوام لكي ينتخبه الشعب تريبيوناً (حاكم عسكري برتبة قنصل أو زعيم شعبي محام عن الشعب)، وهكذا تخلى قيصر عن اسمه الارستقراطي بيد أنه لم يفقد جراء ذلك غطرسته الصفيقة لأنها كانت تعد من آداب محيطه، وهو لم يأبه لاتهامه بأن له

علاقات غرامية مع أخته الكبرى كلوديا، وأنه قد أغوى أخته الصغرى قبل زواجها بلوكولوس، ذلك لأن تلك المآخذ لا تتعلق إلا بحياته الشخصية، ولكن هاهو الآن متهم بإهانة الآلهة وإدانته منوطة بشهادة الحبر الأكبر، والحبر الأعظم هو قيصر بالطبع: الزوج المخدوع. وحينما أعلن قيصر في المحكمة بأنه لا يملك أي شكوى يرفعها ضد كلوديوس، وجه إليه محامي الإتهام سؤالاً مربكاً: لماذا انفصلت عن زوجتك بومبيا إذن؟ فأجابه قيصر بوقار لا يجارى: «لأن على زوجة قيصر أن تكون بعيدة عن الشبهات وألا تشوبها أية شائبة حتى لو كانت النميمة». وأطلق سراح كلوديوس بعد تبرئته. وزعموا أن القضاة قد أفسدهم كراكوس الذي كان يحتاج لتحقيق أغراضه إلى شعبية كلوديوس وتقدير قيصر الذي اشتراه كراسوس بذهبه: لقد كان كراسوس بحاجة إلى دعم العامة ليتغلب على بومبي. فمن يختار ياترى كلوديوس أو قيصر؟ واختار قيصر وعقد معه ومع بومبي معاهدة الحكومة الثلاثية التي تقضي: «بمقاومة كل تشريع لا يرضى به أي واحد منهم»، واتفق بومبي أن يساعد قيصر في انتخابه قنصلاً، كما تعهد قيصر، إذا ما اختير لهذا المنصب، أن ينفذ الاقتراحات التي عرضها بومبي ورفضها مجلس الشيوخ، عندئذ تيقن قيصر من انتخابه قنصلاً ومن تفويضه إدارة بلاد الغال لخمس سنوات. ولكن قيصر قبل ممارسته لمهامه حاكماً وشروعه في غزو الغال، تدبر أموره بأن جعل خلفاً له في القنصلية صديقه كالبورنيوس بيسو، واتخذ زوجة له ابنة كالبورنيوس نفسه واسمها كالبورنيا. كان هذا الزواج يلبي اعتبارات الأغلبية العظمى من زيجات ذلك الزمان: الطمع بالمال أو السلطة. فلم تكن الكلمة في الزواج للحب أو للعاطفة بل كانت أولاً وأخيراً للمال وللسياسة، لأن تلك الزيجات كانت تربط مابين الأصهار والأحماء (جمع حم) وليس بين الأزواج والزوجات. وعليه فإن النساء المكرهات على الاستسلام إلى مثل هذه الزيجات والتسليم بها نادراً ماكن يلتزمن بالقيام بواجباتهن الزوجية في الفراش.

وكذلك فإن أزواجهن لم يسهروا عليهن بدافع الغيرة، و لم يضعوا العراقيل أمام نزواتهن ومغامراتهن العاطفية خارج بيت الزوجية. كان يكفي الحفاظ على المظاهر كيلا يكون الأزواج محطاً لسخرية الآخرين.... فكان بمقدور النساء أن يسرحن ويمرحن مع عشاقهن كما يحلو لهن شريطة أن يتجنبن الفضيحة أياً كان شكلها. وكان العرف يقضي ان بمقدور الرجال الراغبين في تحسين أوضاعهم السياسية أو الاقتصادية، وفي كل وقت، أن يعدوا أنفسهم «مطلقين بفضل رسالة مسبقة تؤكد رغبتهم في الطلاق» وبذلك أجهز هذا العرف على ما بقي في الزواج من قيمة، وترددت النساء المطلقات في الزواج ثانية، وآثرن الاستمتاع بما منحهن الطلاق من حريات بعد أن آلت إليهن حرية التصرف ببائنتهن، وصار بمقدورهن من الآن فصاعداً تلبية الدعوات وحضور المآدب، والتطواف بحرية في الشوارع من دون رقيب مرافق، والتردد إلى المسارح، واستقبال عشاقهن في بيوتهن علانية. تقبل الرجال بطيبة خاطر هذه الانتهاكات للمعايير التقليدية. وطالبت كلوديا، أخت كلوديوس الجميل، أن يقر للنساء بهذه الحقوق جميعها. صحيح أنها لم تطالب بالمساواة في الحقوق السياسية، ولكنها كانت ترغب في أن تكون النساء داخل الأسرة شريكات يتمتعن باستقلالهن التام، وان يكن قادرات على العيش وعلى الحب كما يحلو لهن، وان يطلقن كما يطلق الرجال وفق هواهن. كانت كلوديا بوصفها امرأة، لا تملك أن تتقدم بمشروع قانون، ولكنها كانت تتصرف لتكون مثالاً تحتذيه الأخريات. وكانت ترى أن من المشين والمضحك أن يتناول الرجال طعامهم مضطجعين في حين تبقى النساء جالسات، فأحضرت إلى منزلها أَسِرَّة مشابهة ووزعتها في غرفة الطعام ليستريح عليها ضيوفها من الجنسين، و لم تكن لترضى أن يتوجه إليها أحد الأصدقاء بالكلام خلسة، بل كانت تنادي من يروق لها إذا ما رغبت في ذلك، و لم تغض الطرف امتثالاً لما تمليه اللياقة والأخلاق الحميدة، بل كانت ترنو إلى وجوه محدثيها،

وكانت لا ترى غضاضة في الترحيب باصدقائها وتقبيلهم على الملأ، وأن تتحادث معهم بألفة. وراحت تنظم حفلات لهو «حيث تذخر الموائد بأنواع الطعام وتطفح الأقدام بالشراب». حفلات لا تختلف في بذخها وعظمتها عن حفلات القصف والشراب التي يديرها نظراؤها من الجنس الآخر. وكانت تعرض في حفلاتها هذه الراقصين والراقصات والحيوانات النادرة وتقد... في أغلب الأحيان هدية لضيوفها.

كانت كلوديا، مثل لوكوللوس لا تعرض لضيوفها في هذه الحفلات على الإطلاق اقتتال المجالدين الدامي، لأنها هي أيضاً كانت تمقت العنف وتحرص على امتاع مدعوويها وامتاع نفسها، فكانت واحدة من العديد من النساء الرومانيات اللائي استهواهن الاقتداء بتهتك الرجال وفجورهم، فخلعن العذار، وارتدين البراقع الشفافة، وأعلن صراحة عن غرامياتهن التي لا تحصى، وكلوديا هذه لم تكن الوحيدة بين النساء في اعتزازها بتحصيلها للثقافة كما الرجال،

تمثال نصفي لشيشرون
(١٠٦ - ٤٣ ق.م)

وعليه فإنها لا تستحق وكلوديا، مثلها مثل الكثيرات من بنات جنسها، كانت تطمح إلى التغلب على الأحكام المسبقة التي تعزو إلى الرجال تفوقاً طبيعياً على النساء. أضف إلى ذلك أننا لا نعرف منها أي شيء بخصوص تورطها في الدعوى التي يتهمها فيها شيشرون رجل القانون والدولة العظيم بارتكاب المحارم والقتل،

ولا نعرف منها ما إذا كانت قد قطعت علاقتها مع أحد عشاقها، وهو الشاعر كايوس فاليريوس كاتوللوس.

فقد أعلن شيشرون في المحكمة أنه ليس «عدواً للنساء، وعليه فإنه ليس بالطبع عدواً لامرأة هي صديقة لكل الرجال»، ولكنه اتهمها بوصفها مثالاً لتهتك النساء الرومانيات وفساد أخلاقهن وحكم بإدانتها. أما كاتوللوس فهو على العكس من شيشرون، لم يطلب من الحكام معاقبة الخائنة، ولكنه راح، وقد أضناه اليأس لهجرها له، يلعن كلوديا في أشعاره منتحلاً لها اسماً آخر هو لزبيا (Lesbia)، ومن أوجاع قلبه رسم لنا لوحة ثمينة عن الأخلاق.

وخلاصة القول إن كلوديا هذه كانت من اشهر النساء اللاتي أكملن ما في أزواجهن من نقص بالقيام بطائفة من أعمال الفروسية والشهامة، وقد تملكتها نزعة قوية للدفاع عن حقوق النساء، وهزت مشاعر الجيل القديم بسيرها بعد زواجها مع أصدقائها الرجال دون أن يكون معها محرم. وكان زوجها يتعمد الغياب في أثناء ولائمها، ويصف شيشرون ـ وهو الرجل الذي لا يوثق بوصفه ـ «حبها، وزناها، وعهرها، وأغانيها، وما كانت تقيمه من حفلات موسيقية وولائم الطعام، ومقاصف الشراب، وكانت في الحق امرأة ماهرة إذا ذلت في ظرف وكياسة، يعجز الإنسان عن أن يزل معها»، ولكنها أخطأت في الاستخفاف بأنانية الرجال. لقد كان كل واحد من عشاقها يحب أن يستأثر بها حتى تفتر شهوته، كما كان كل واحد منهم يصبح عدوها الألد حين تتخذ لها صديقاً غيره. ومن أجل ذلك لطخها كاتوللوس بالنكات البذيئة، وذكرها كاليوس في حديث له عن الذي تبتاع به أفقر العاهرات.

أما كاتوللوس فإنه يتحدر من أسرة الفرسان. وقد جاء إلى روما قادماً من فيرونا موطنه الأصلي، ليجرب فيها حظه، فكتب قصائد نجد فيها ما في الحياة الرومانية من مفارقات: الضجر من متع الأثرياء، وشقاء الفقراء، وعواطف العشاق

المخلصين الرقيقة، وإظهار ما في قصور الأرستقراطيين من بذخ وترف، وملاهي الفتيات المشبوهة: كان كاتوللوس يشعر بنفسه وكأنه في بيته في أوساط مختلف الطبقات الاجتماعية، ومع ذلك كان غريباً عنها. وما من شك في أنه كان على جانب كبير من الثراء، ولكن الصورة التي نستطيع أن نرسمها له من قصائده هي صورة الرجل المهذب الذي لا يهتم بكسب العيش، ولكنه يمتع نفسه بطيبات الدنيا من غير حساب في صحبة أمثاله المترفين في عاصمة الدولة، فكان هو وصحبه من الشعراء قد ملوا الأدب القديم وألفاظه الطنانة المزوقة، وتاقت نفوسهم لأن يغنوا عواطف الشبان في أوزان جديدة غنائية في لفظ عذب رقيق. ولم يكونوا راضين عن المبادئ الأخلاقية القديمة ومن تقاليد السلف، وكانوا ينادون بقدسية الغرائز وبراءة الشهوات وعظمة التهتك والانغماس في الملذات. ولم يكونوا هم وكاتوللوس أسوأ من غيرهم من الأدباء الشبان الذين كانوا يعيشون في ذلك الجيل وفي الجيل الذي يليه: من هوراس وأوفيد وتيبولوس وبروبريتوس بل ومن فرجيل الخجول في أيام شبابه، أولئك الذين جعلوا الشعر يدور حول كل امرأة متزوجة أو غير متزوجة، تقدم لربات شعرهم حباً سهلاً عابراً.

وكانت كلوديا ــ وقد تحدثنا عنها ــ أرشق فتاة في هذه الفئة، وهي التي سماها كاتوللوس باسم لزبيا إحياء لذكرى سافو التي كان يترجم قصائدها أحياناً، ويحاكيها كثيراً، ويحبها دائماً. ولما جاء كاتوللوس إلى روما في الثانية والعشرين من عمره اتخذها صديقة له، وقد سحرت لبه ساعة وضعت «قدمها البراقة على عتبة داره التي أبلتها أعقاب الناس من قبل، وكان يدعوها إلهته المتألقة ذات الخطوة الرشيقة». ولا عجب في أن تفتنه خطاها، فإن مشية المرأة قد تكفي وحدها لتفتن الرجل كما يفتنه صوتها. وقد عطفت عليه فرضيت أن يكون من بين عبادها. ولم يكن في وسع الشاعر الهائم بها أن يضارع في غير ميدان الشعر مواهب منافسيه فوضع تحت قدميها أجمل ما في اللغة اللاتينية من القصائد الغنائية، فكتب في الطائر الذي كانت تضمه إلى صدرها أبياتاً تعد من خير ما كُتب في وصف الغيرة:

أيها الطائر يابهجة حبيبتي

التي تلعب معك وتضمك إلى صدرها

والتي تمد لك سبابتها إذا طلبتها،

وتغر بك بأن تعضها عضة قوية

لست أدري أية دعابة لطيفة يلذ لحبيبتي الوضاءة

أن تداعب بها أمنيتي

ونسي الشاعر كل شيء إلا حبه إياها وافتتانه بها:

أي لزبياي حبيبتي هيا بنا نعيش،

ولا تلق بالاً إلى شيء مما ينطق به العجائز القساة

ونراه حقيراً غير جدير بالاعتبار.

وقد تغرب الشموس ثم تعود؛

أما نحن فإذا غربت الشمس القصيرة الأجل

غلب علينا السبات الطويل في ليلنا الأبدي

ألا فأعطني ألف قبلة ثم مائة

ثم ألفاً أخرى، ثم مائة ثانية

ثم ألفاً بعدها، ثم مائة

حتى إذا بلغت القبلات آلافاً مؤلفة

تعمدنا الخطأ في العد والحساب لكيلا نعرف نحن عديدها

أو تحسدنا عليه نفس حقيرة

إن عرفت عدد قبلاتنا الكثيرة.

ولسنا نعرف كم من الوقت دامت هذه النشوة؛ وأكبر الظن أنها قد ملّت آلافه المؤلفة، فرأت أن تروح عن نفسها بعد أن خانت زوجها من أجله بأن تستبدل به عاشقاً غيره. واتسعت وقتئذ دائرة عشاقها حتى خالها كاتوللوس في نوبة من نوبات الجنون «تعانق ثلاثة آلاف زان مرة واحدة» وأبغضها في الوقت الذي كانت فيه نار الحب تلتهم فؤاده وأبى أن يستمع إلى ما كانت تحدثه به من وفاء وإخلاص، وصور لنا هذا الإباء بالصورة المأثورة عن كيتس:

«إن الألفاظ التي تفوه بها المرأة للمحب الواله الجائع،
يجب ان تنقش على صفحة الرياح السافية،
وتحفر على مجاري الماء الدافقة»

ـ قصة الحضارة ـ

ولكن حبه لها تحول إلى كراهية، عندها راح يكتب: «هذه اللزبيا، التي أحبها كاتوللوس أكثر من حبه لنفسه وأهله، تلازم مفترق الطرقات والأزقة وتعاشر دونما حياء أبناء ريموس الأجاويد» واتفق مع عشيق آخر هجرته كلوديا ليعلن قائلاً: «إنها عاهرة بائسة، يمكن لأي كان أن يلهو بها بدريهمات معدودات. ولكنه كان يعترف صراحة وبدون تكلف أو وازع من خجل بأنه هو نفسه كانت له علاقات جنسية مع العهرة من الرجال «يلوطهم ويلوطونه».

إن فحش مُسارات كاتوللوس التي تدور حول أحلامه، وفجوره الجنسي لا تتفق مع كناياته اللبقة التي تلتها، ولكن كان يروق للرومان أن يعبروا عن أنفسهم بهذه الطريقة، وفي هذا الصدد أعلن شيشرون: ما من كلام فاحش أو منكر وغير أخلاقي، فإذا كان الكلام مشيناً، فالسبب في ذلك بالضرورة إما في الشيء وإما في الكلمة، وليس ثمة احتمال آخر. لأنه إذا كان ذلك الذي أشارت إليه الكلمة غير أخلاقي، فإن الكلمة التي أشارت إليه لا يمكن أن تكون غير أخلاقية» ومع ذلك أضاف قائلاً: «أما بالنسبة لي، فإني سألزم

نفسي بلائق كلام أفلاطون، وقد جعلت من ... نفسي». أما كاتوللوس فقد كان يسره أن يستخدم عبارات فاضحة ... يثور ويعري. إن ابن الفارس هذا الذي يثمل ويعربد مع فتيان ... للأخلاق المنحلة، ويقتفي مهرولاً آثار السارقين والنشالين. ويتنشق ... أسر ... الروائح التي لا يعرف مصدرها: «الخطم أو المؤخرة». كان في الوقت نفسه صديقاً لرجال من علية القوم. يسميهم مع ذلك «الزناة، ... المقامرين». كان لكاتوللوس علاقات مع قيصر الذي كان ضيفاً لبيت أبيه. وفي أشعاره تحدث عن قيصر وكلوديا، تحت اسم من اختراعه.

كان يدعوه «رومولوس القواد». وهو يشير بطرف خفي إلى زواج بومبي بيوليا بنت قيصر وينعتهما بـ«الصهر وحميه السافلين» وهكذا كان كاتوللوس يعري بمرارة قادة روما وينتقدهم دونما رحمة. والعامة بدورها لم تكن أرحم منه في حكمها عليهم على الرغم من أنها كانت طرفاً في المسؤولية وفي المنافسات والأطماع إذ كانت ترتشي وتبيع أصواتها لمرشحي المجلس الشعبي.

كان العامة يزنون ويحتشون (يأكلون بنهم) ويلهون، مثلهم مثل الأشراف والفرسان الذين كانوا يقدمون لهم الخبز والمتعة. وكانت نساء العوام يسلكن سلوك نساء الأرستقراطيات ويسعين للتحرر من وصاية أزواجهن وأسرهن بأي ثمن. كان الجميع يرغب في التمتع بالحياة ويتهيب من المستقبل.

قلقل تسارع الأحداث كل أشكال الإيمان بالسلطة أياً كانت، فقد مات كراسوس في حملة له في سورية. وللتعبير عن احتقارهم، صب أعداؤه في فم أثرى الأثرياء ذهباً مصهوراً. وبومبي الذي لم يعد صهراً لقيصر، بعد وفاة يوليا أثناء الوضع، رفض الزواج بأوكتافيا حفيدة قيصر، ورفض أن يصير حما حميه الأسبق بإعطاء قيصر إحدى بناته. كان بومبي يتطلع إلى الاستئثار بالسلطة، ولما هزمه قيصر إثر معارك دامية، لجأ إلى الاسكندرية حيث قتله أحد المصريين بطعنة

من خنجره، وعند وصول قيصر قدم له القاتل رأس بومبي، فبكى ميتة عدوه اللدود المروعة، لكن حداده انتهى على الأثر.

أخذت مصر بعد وفاة بطليموس السادس تسير بسرعة في طريق الاضمحلال، وعجز ملوكها عن الاحتفاظ بنظامها الاجتماعي أو حريتها القومية، وأخذ مجلس الشيوخ الروماني يقوي فيها سلطانه ويملي عليها إرادته، بل إنه أقام حامية في الإسكندرية. وكانت مقاليد الحكم قد آلت بعد وفاة بطليموس الحادي عشر الذي أجلسه بومبي وجابليوس على العرش إلى ابنه بطليموس الثاني عشر وابنته كليوباترا.

كانت كليوباترا من أصل يوناني مقدوني، وأكبر الظن أنها كانت أقرب إلى الشقرة منها إلى السمرة، ولم تكن بارعة الجمال ولكن قوامها الرشيق المعتدل، وخفة روحها، وتنوع ثقافتها، ودماثة خلقها، وحسن صوتها، مضافة إلى مقامها الملكي قد جعلتها فتنة لكل من رآها تسلبه لبه وإن كان قائداً رومانياً. وكانت على علم بتاريخ اليونان وآدابهم وفلسفتهم، تجيد الحديث باللغات اليونانية والمصرية والسورية، ويقال إنها ألفت رسالة في مستحضرات التجميل، وأخرى في المقاييس والأوزان والنقود المصرية، وموضوع الرسالة الثانية موضوع مغر وجذاب، وقد جمعت إلى هذه الصفات شهوة جسدية قوية، ووحشية عنيفة تصب على أعدائها العذاب والموت صباً، ومطامع سياسية بعيدة، تحلم ببناء امبراطورية واسعة، ولا تحترم في سبيل الوصول إلى غايتها قانوناً إلا قانون النجاح. ولو أنها لم تجر في عروقها دم البطالمة المتأخرين الداعرين لكان من الجائز أن تحقق غرضها وتصبح ملكة تحكم دولة واسعة الرقعة تضم بلاد البحر الأبيض المتوسط.

استاء قيصر حين عرف أن بوثينس نفى كليوباترا، ونصب نفسه نائباً عن بطليموس الشاب يحكم البلاد باسمه، ولذلك أرسل إليها سراً، وجاءته سراً وقد احتالت على الوصول إليه بأن أخفت نفسها في فراش حمله تابعها إلى سكن

قيصر، وذهل القائد الروماني حين رآها، وأسرته شجاعتها وسرعة بديهتها، وهو الذي لم يدع انتصاراته في ميدان القتال تربى على انتصاراته في ميادين الحب، وصار الزاني (قيصر) ـ وقد غدا أصلعاً كلياً ـ عشيق الشابة الفاتنة ملكة مصر. واستخدم انتصاره في الحب في تحقيق مآربه السياسية، فلم يكن ليرضى بأن يستسلم لأيام طوال لملاذ السكر والعربدة مع كليوباترا، وأن يسير بصحبتها في قاربها من أقصى مصر إلى أقصاها حتى يصلا إلى بلاد الحبشة، لو لم يرسخ هيمنة روما وهيمنته على مملكة الملكة الفاتنة.

كرس قيصر لجميلته تسعة أشهر ببياضها وسوادها، والملكة بدورها أنجبت له قيصريون؛ واعترف بأبوته له. ترى هل كان قيصر يتريث في إقامته لينعم بما كانت تقدمه له كليوباترا من متع الحب ولذائذه؟ أو أنه كان يكسب الوقت متظاهراً باللهو والعربدة بغية معرفة ما كان يجري في روما أثناء غيابه وعلى الخصوص معرفة المكان الذي سيجمع أعداءه، ابن بومبي وأنصاره، ليوجه إليهم في الوقت المناسب طعنته النجلاء؟

فارق قيصر كليوباترا لأيام معدودات، ليشن حرباً على شمال آسيا الصغرى. وبعث من ميدان القتال إلى صديق له بهذا الخبر القصير البليغ: «جئت، ورأيت، وهزمت» ثم اصطحب معه كليوباترا وقيصريون وعاد إلى روما. واحتراماً لآداب السلوك وامتثالاً لها أقام في القصرالذي صانته أثناء غيابه زوجته كالبورنيا. أما الأرستقراطيون الذين كانوا يكنون له الضغينة جراء كل ما كان يفعله، فقد حقدوا عليه لنفقاته الباهظة وتبذيره في إقامة كليوباترا المترفة وملازمته لها. وسرت الإشاعات المغرضة، وزعموا أن القائد المنتصر يطمح، تتويجاً لسيرته، إلى التاج الملكي، ويتوق إلى السيطرة على الإسكندرية؛ إن كتب له النصر وقضى على أصدقاء بومبي الذين جمعوا عساكرهم في شمال أفريقيا وتحالفوا مع ملك نوميديا.

وارتفع الهمس وازداد التذمر أكثر من ذي قبل، عندما هزم قيصر حزب بومبي في أفريقيا، ولدى عودته إلى روما اختاره أعضاء مجلس الشيوخ الخائفون على حيواتهم وأملاكهم حاكماً بأمره مدة عشر سنوات. وإلى العامة التي روعها مشهد فيالقه أقام استعراضاً عسكرياً فاق بأبهته وعظمته كل ما سبقه من استعراضات.

بزّ قيصر (ناظر الأبنية والملاعب والتموين) منذ حداثته كل منافسيه الطامحين مثله إلى كسب ودّ الشعب بما قدمه لهم من ألعاب خلابة، وهو لم يتردد في تكديس الديون على كاهله ليقدم للعامة صراعاً يدور بين ألف مجالد وأربعمائة من السباع الضارية، في حين لم يكن بمكنة منافسيه حشد أقل من ربع هذا العدد. وها هو الآن يدعو العوام إلى مأدبة تضم اثنين وعشرين ألفاً من المدعووين، وينظم معركة بحرية (naumachia) تدور في مياه بحيرة اصطناعية أحدثت لهذا الغرض وحده، وفيها يتواجه عشرة آلاف من الرجال المحاربين.. لكن هذه المسرات لم تغير، كما كان يتمنى قيصر، حالة العوام الفكرية، أولئك الذين أفقرتهم الحروب الأهلية، كما أن الشيوخ لم يشعروا نحوه بأي شكل من أشكال الامتنان على الرغم من امتناعه عن الثأر من أعدائه الارستقراطيين. وراح مجلس الشيوخ يتملقه، فيحْبوه بكل ما يستطيع من ألقاب التعظيم، ولعله كان يرمي بذلك إلى إشاعة الكراهية في قلوب الشعب الذي كان يبغض الملكية ولا يطيق حتى اسم الملك... وأجاز له المجلس أن يتوج رأسه بإكليل الغار الذي كان يواري به صلعته، وان يحمل حتى في وقت السلم رمز سلطات الامبراطور. وبفضل هذه السلطات كان يسيطر على خزائن المال، كما كان منصب الحبر الأعظم يمكنه من السيطرة على الشؤون الدينية في البلاد، وكان له، بوصفه قنصلاً، أن يقترح القوانين التي يريد، وبوصفه تريبيوناً كانت ذاته مصونة لا تمس، وبوصفه رقيباً كان له أن يعين مايشاء من أعضاء مجلس الشيوخ ويسقطهم.

وبقي قيصر واثقاً مطمئناً، لقد كانت السلطة طوع بنانه، وحرية التصرف التي يتمتع بها تتيح له أن يبني في سنوات معدودات نظاماً جديداً في السياسة

والاجتماع، فلم تعد روما، منذ الآن، حاضرة بسيطة، بل أصبحت امبراطورية تشيّد مدنها وفق أنموذج العاصمة. وتتمثل الأخلاق بمختلف ضروبها أخلاق العاصمة الأم؛ ففي البوتقة الرومانية تنصهر عادات الشعوب وتقاليدها على اختلافها في امبراطورية واحدة ومتجانسة فرض عليها قيصر السلام الروماني. وقد لخص قيصر قبيل اغتياله ما كان يرجوه ويتوق إليه في هذه العبارات الثلاث: «الهدوء في إيطاليا! والسلام في الأقاليم! والحماية للامبراطورية!»

كان ماركوس بروتوس، أحد قتلة قيصر، حسب ما يرويه المؤرخ أبيان: «ابنه، لأن قيصر، في الفترة التي ولد فيها بروتوس، كان على علاقة حميمة مع أمه سرفيليا...» ويروى ان قيصر أعطى سرفيليا جوهرة بقيمة عزبة (latifundium). وكتب بروتوس إلى أحد أصدقائه: «لم يتحمل آباؤنا مستبداً طاغية أياً كان، حتى لو كان هذا المستبد أباهم نفسه» ترى هل كان بروتوس يخضع لبواعث شخصية باشتراكه في التآمر ضد قيصر؟ أم انه كان يتقاسم مخاوف الآخرين من الاشراف الذين كانوا يخشون فقدان امتيازاتهم فنقموا، وهم الجمهوريون شعوراً، على الترقية التي منحها الشيوخ للحاكم بأمره مدى الحياة، وعلى ما يتمتع به من مراتب إلهية، وعلى توقعه إلى تتويج نفسه ملكاً؟ وعليه فإن الذين جُردوا مما كان لهم من سلطان لا يمكن أن تستل سخائمهم بالعفو عن مقاومتهم لمن حرمهم هذا السلطان، وليس عفوك عمن عفا عنك بأقل صعوبة من عفوك عمن آذيته. ومصداق هذا أن الأشراف في مجلس الشيوخ الذي لم يكن يجرؤ على رفض المقترحات التي عرضها عليه قيصر أخذوا يتبرمون ويندِّدون بالقضاء على الحرية، وعز عليهم أن يقروا بأن عودة النظام تتطلب التضحية ببعض حريتهم. وقد روعهم وجود كليوباترا وقيصريون في روما. نعم إن قيصر كان يعيش مع زوجته وإنما كانا يتبادلان المحبة في الظاهر، ولكن منذ الذي يعرف ـ ومنذ الذي تطاوعه نفسه على ألا يذيع ـ ما كان يحدث في أثناء زياراته الكثيرة للملكة العظيمة الجميلة؟ وأكدت الشائعات أنه يريد أن ينصب نفسه ملكاً، وان يتزوج

كليوباترا، وان ينقل العاصمة إلى بلاد الشرق. ألم يأمر بأن يقام له تمثال على الكابيتول بجوار تماثيل ملوك روما الأقدمين؟ ألم تطبع صورته على النقود الرومانية؟ ألم يلبس جلابيب أرجوانية من اللون الذي يحتفظ به عادة للملوك؟ لقد جاءه القنصل أنطونيوس يوم عيد عاري الجسد إلا من جلود الماعز التي كان يلبسها الكهنة في ذلك العهد ثملاً من كثرة ما احتسى من الخمر، وحاول ثلاث مرات أن يضع التاج الملكي على رأس قيصر؛ ورفضه قيصر في المرات الثلاث، ولكن ألم يكن سبب هذا الرفض ان الجماهير قد أبدت غضبها من هذا العمل وإن أبدته همساً؟

كان المتآمرون في حاجة إلى بروتوس ليكون هو رافع لواء المؤامرة، لأنه اشتهر بين الناس كافة بأنه أعظمهم استمساكاً بالفضيلة، ولأنه كان يحقد أشد الحقد على قيصر لأنه أفسد أخلاق أمه وجعله مضغة في أفواه الرومان، يقولون عنه انه ابن زانية بدل أن يكون من نسل آل بروتوس. كان هذا الشاب الحساس يحمر وجهه خجلاً حين يرى تمثال بروتوس الأكبر يحمل أمثال هذه العبارات: «أي بروتوس! هل مت؟ وإلا فإن آباءك براء منك»... وتأثر بروتوس بهذا كله، واستسلم، وأخذ المتآمرون بعد ذلك يحكمون أمرهم ويضعون خططهم.. ولما دخل قيصر الملهى واتخذ فيه مجلسه هجم «دعاة الحرية» من فورهم عليه. ويقول سيوتونيوس: «لقد كتب بعضهم يقولون إنه حين هجم عليه بروتوس قال باللغة اليونانية «حتى أنت يا ولدي» ويقول ابيان إن قيصر حين طعنه بروتوس امتنع عن كل مقاومة، وغطى وجهه ورأسه بثوبه، واستسلم للضربات، وسقط عند تمثال بومبي»، وهكذا تحققت رغبة واحدة من رغبات أكمل إنسان أنجبته الأيام الخالية «إنها الميتة المفاجئة».

كان ماركوس انطونيوس المنفذ لوصية قيصر، فخلفه في التمتع بمفاتن كليوباترا، وقفل عائداً بها إلى الاسكندرية، ولكنه لن يستطيع الانغماس في هذا الحب المشؤوم الذي سيتسبب في ضياعه إلا بعد حصوله على قسم من إرث

قيصر؛ ذلك لأن القتيل في نزعه الأخير قد تبنى كايوس أوكتافيوس واختاره وريثاً أصيلاً. وقد أثارت الوصية حنق أنطونيوس ولكنه لم يجرؤ على المقامرة بشعبيته إن هو انتهك الوصية أو استخف بها. أضف إلى ذلك أنه كان متهتكاً محباً للمتعة، ولا يملك التضحية بمسرات الحياة في سبيل طموحه السياسي، ومن بين هذه المسرات تلك التي كان يوفرها له أحد أجنحة قصره (قصر بومبي المصادر) جناح الحريم الزاخر بالغلمان والفتيات، ومعهم كان بمستطاعه إرواء شهواته كما يحلو له. ولكن انطونيوس لم يرغب في التخلي عن أي شيء فطالب بامتلاك كل شيء، لكنه سلّم رغماً عنه بالوصية، وتنازل عن حقوقه في الميراث لأوكتافيوس الشاب ذي الثمانية عشر ربيعاً الذي سيدعى من الآن فصاعداً كايوس يوليوس قيصر أوكتافيانوس، بيد أنه لا يريد أن يُسْلم قياده للـ«فتى» الذي كان يعزم على اتخاذ التدابير اللازمة ضد قتلة قيصر، فكان لابد من نشوب معركة بين الوريثين ولا مندوحة عن هزيمة انطونيوس ليتفق مع أوكتافيانوس ويؤلف معه ومع لبيدوس، رئيس خيالة قيصر الأسبق، ائتلافاً حكومياً ثلاثياً.

كان القادة الثلاثة بحاجة للمال، فنفوا أعداء قيصر، وصادروا عزبات ثلاثة آلاف من الشيوخ، وأموال ألفين من الفرسان، واختفى العديد من المحكوم عليهم بلا محاكمة حفاظاً على حياتهم. وتجاوز أوكتافيانوس وليبدوس كل المقاييس في تعطشهم للثأر. وجمع قتلة قيصر فرقاءهم تحت قيادة آل فيليب. وتقاسم الحكام الثلاثة الامبراطورية الرومانية، فكانت افريقيا من نصيب ليبيدوس، وروما والأقاليم الغربية من نصيب أوكتافيانوس، ومصر واليونان والشرق من نصيب أنطونيوس. وفي ايفيزيا استُقبل انطونيوس، بوصفه تجسيداً للإله ديونيزوس، ورحبت به نساء المدينة متنكرات في ثياب كاهنات باخوس وشبه عاريات، ومن هناك أوفد رسله إلى كليوباترا.

استسلم انطونيوس للشبهوات الجنسية استسلاماً أفقده احترام رعاياه لسلطته. فقد أحاط نفسه بالراقصات والموسيقيات والعشيقات، والمهرجين

والصخابين، واتخذ له زوجات ومحظيات كلما لاحت له امرأة وأعجبته. وكان قد أرسل الرسل إلى كليوباترا يدعوها للمثول بين يديه في طرسوس لتجيب عما اتهمت به من مساعدتها كاسيوس على جمع المال والجنود. وجاءت كليوباترا، ولكنها جاءت في الوقت الذي اختارته وعلى الطريقة التي اختارتها. فبينا كان أنطونيوس جالساً على عرش في السوق العامة، ينتظر منها أن تحضر وتدفع عن نفسها ما اتهمت به، ثم يقضي لها أو عليها - ركبت هي نهر سندس في قارب ذي أشرعة أرجوانية، وسكان مذهب، ومجاديف من فضة، تضرب الماء على أنغام الناي والمزمار والقيثار. وكانت وصيفاتهاهن بحارة القارب، ولكن في ذي حور البحار وربات الجمال. أما هي فقد تزينت بزي الزُهرة (فينوس)، ورقدت تحت سرادق من قماش موشى بالذهب.

ولما انتشر بين أهل طرسوس نبأ هذا المنظر الفتان أقبلوا على شاطئ النهر زرافات ووحداناً، وتركوا أنطونيوس وحده جالساً على عرشه، ودعته كليوباترا إلى العشاء معها في قاربها، فأقبل عليها ومعه حاشيته الرهيبة، فأولمت وليمة فاخرة، وقدمت لهم فيها أشهى الطعام والشراب، وأفسدت القواد بما قدمت لهم من الهدايا والابتسامات. وكان أنطونيوس قد أوشك أن يقع في حبها وهي لا تزال فتاة حين شاهدها في الاسكندرية، فلما أبصرها في تلك اللحظة وهي في التاسعة والعشرين من عمرها رآها قد اكتملت مفاتنها، وبدأ حديثه معها يلومها على ما فعلت؛ واختتمه بأن أهدى إليها فينيقية، وسوريا الوسطى و... كافأته هي بما يشتهي، ودعته إلى الاسكندرية، فأجاب الدعوة، وقضى في تلك المدينة شتاء بعيداً عن الهموم والأكدار يعب حب الملكة عباً، ويستمع إلى المحاضرات في المتحف، ناسياً أن له امبراطورية في حاجة إلى من يحكمها. أما هي فلم تكن أسيرة حبه. بل كانت تعرف أن مصر الغنية الضعيفة لن تلبث أن تجتذب إليها روما الشرهة القوية، وان السبيل الوحيدة لنجاة بلادها وعرشها هي أن تتزوج بسيد روما. ولقد حاولت من قبل أن تفعل هذا بقيصر، وهي تحاول الآن أن

تفعله بأنطونيوس، و لم يكن له هو سياسة غير سياسة مصر. فمال إلى تحقيق الحلم القديم، وهو توحيد روما ومصر، ونقل عاصمته إلى بلاد الشرق الفتان الجميل.

وبينا كان أنطونيوس يلهو ويلعب في الإسكندرية، كانت زوجته فلفيا وأخوها لوسيوس يأتمران بأوكتافيان ليسقطاه وينتزعا سلطانه على روما.. وماتت فلفيا من شدة مرضها، وعدم تحقيق مطامعها، وحزنها على إهمال أنطونيوس لها، وعفا أوكتافيان عن لوسيوس لعله بذلك يحتفظ بالسلام بينه وبين أنطونيوس، ولكن أنطونيوس عبر البحر وحاصر جيوش أوكتافيان. وكان الجيشان أكثر حكمة من قائديهما فامتنع كل منهما عن قتال الآخر، واضطراهما إلى أن يسويا ما بينهما من نزاع تسوية سلمية. وتعهد أنطونيوس أن يكون حسن السلوك، فزوجه أوكتافيان أخته أوكتافيا اللطيفة الطاهرة.

و لم تدم تلك الفترة طويلاً، ذلك لأن أنطونيوس كان في حاجة إلى المال مستعجلة لتحقيق مراميه الطموحة، ووحدها كليوباترا كانت القادرة على تلبية احتياجاته. وبعث لقاؤهما هواهما القديم مرة أخرى، فتزوج أنطونيوس ملكة مصر، وأرسل إلى أوكتافيا رسالة طلاق بعد أن عزم على الانفراد بإدارة دفة حكم الامبراطورية أسوة بقيصر.

وبعد توطيد حكمه في شرق الامبراطورية، سعى إلى تقويض ما كان يتمتع به أوكتافيانوس في غرب الامبراطورية، مستخدماً في سبيل ذلك براعته في المناورة، فأعلن لمجلس الشيوخ جهاراً بأنه على استعداد طوعي للانسحاب من الحياة العامة إن تنازل أوكتافيانوس بدوره عن السلطة طواعية، فتلك، برأيه، هي الوسيلة الوحيدة لاستصلاح شكل الدولة الجمهوري الذي عمل التاريخ على ترسيخه وعملت الحروب الأهلية غالباً وتكراراً على زعزعته وتقويضه. وردَّ أوكتافيانوس على الرسالة رداً صاعقاً، وتخلص من وضعه الحرج هذا بأن قرأ على المجلس ما ادعى انه وصية لأنطونيوس انتزعها قسراً من عذارى فستيا، وفيها يوصي انطونيوس بأن يكون ولداه من كليوباترا وريثيه دون غيرهما، ويأمر بأن

يدفن إلى جانب الملكة في الاسكندرية. وكانت الفقرة الأخيرة من هذه الوصية حاسمة في نظر المجلس بقدر ما كان يجب أن تكون مثيرة للارتياب في صحتها، ولكنها أقنعت مجلس الشيوخ وأقنعت إيطاليا ان كليوباترا تستخدم أنطونيوس في خططها التي تبغي بواسطتها الاستيلاء على الامبراطورية. ولجأ اكتافيانوس إلى الأساليب الخداعة التي هي من أخص خصائصه، فأعلن الحرب على كليوباترا لا على أنطونيوس، ليجعلها بذلك كفاحاً مقدساً في سبيل استقلال إيطاليا.

أبحر أسطول أنطونيوس وكليوباترا إلى البحر الأيوني، وكان مؤلفاً من خمسمائة سفينة حربية، ولم يكن أسطول بهذه القوة قد ظهر على متن البحر من قبل، وكان يسانده جيش مؤلف من ثلثمائة ألف من المشاة، واثني عشر ألفاً من الفرسان.. وعبر أوكتافيانوس البحر بأربعمائة سفينة وثمانين ألف جندي من المشاة واثني عشر ألفاً من الفرسان... والتحم الجيشان والأسطولان في معركة من المعارك الحاسمة في التاريخ: وبرهن أغريبا على أنه أبرع من أعدائه في وضع الخطط، وكانت سفنه الخفيفة أسهل وأخف حركة من سفائن انطونيوس الضخمة ذات الأبراج العالية. وقد أحرقت النار هذه السفن إذ ألقى عليها بحارة أوكتافيانوس مشاعل متقدة..

ورأى أنطونيوس ان الدائرة قد دارت عليه، فأشار إلى كليوباترا أن تنفذ خطة الانسحاب، فوجهت ما بقي من أسطولها نحو الجنوب، وانتظرت قدوم أنطونيوس. ولما عجز عن إنقاذ سفينته، غادرها وركب قارباً أقله إلى كليوباترا، وأدرك أنه خسر كل شيء حتى الشرف. أما أوكتافيانوس، وقد دعم هذا النصر وضعه السياسي، فعمل على إعادة عادة أسلاف روما القديمة إلى سابق عهدها.

وكتب الحاكم المهزوم إلى أوكتافيانوس مرة أخرى يذكره بصداقتهما الماضية وبكل المرح الطائش الذي اشتركا فيه أيام الصبا، وقال إنه يرضى بأن يقتل نفسه إذا عفا هو عن كليوباترا، ولم يرد عليه أوكتافيانوس في هذه المرة

أيضاً. فطعن نفسه طعنة قضت على حياته، وأدركت كليوباترا أنها أخفقت هي أيضاً في الاحتفاظ على الأقل بمصر لواحد من ابنائها، فانتحرت بأن وضعت على صدرها صلاً ساماً. وحرص أوكتافيانوس، وهو الروماني الأصيل الذي يرى في تحقيق أماني العاشقين الأخيرة أمراً مقدساً، على أن تدفن كليوباترا إلى جوار انطونيوس. ولكنه، حيطة واحتراساً قتل قيصريون بن قيصر على الرغم من أن قيصر كان عمه الأكبر وأباه بالتبني، وقتل معه ابن انطونيوس البكر، فليس بمقدوره أن يعفو عن وريثي الماضي الخطيرين، وهو المتطلع إلى أن يكون الوصي الأوحد على روما المستقبل بدون منازع، ذلك المستقبل الذي وضع قيصر أسسه.

إن أوكتافيانوس، هذا النحيل، والشاحب، والعليل الذي لم يتغلب قط على ما فيه من خجل فطري، لم يكن يطالب بمراتب الشرف ولم يرد في يوم من الأيام لقب الحاكم بأمره (ديكتاتور)، إن كل ما كان يريده هو أن يخلع عليه الشيوخ السلطات التي جعلته ملكاً في كل شيء ماعدا الاسم وحده، وسماه مجلس الشيوخ prineeps senatu (الأول في ثبت أعضاء مجلس الشيوخ — والزعيم)، واكتفى بهذا التعيين، وتخلى رسمياً عن كل منصب ماعداه، ولحمله على العودة عن تخليه هذا، توسل المجلس إليه ملتمساً بقاءه هادياً للدولة ومصرِّفاً لشؤونها، ومنحه لقب أوغسطس اعترافاً من الأعضاء بإسهاماته في ازدهار الامبراطورية، وهذا اللقب المقدس مشتق من الفعل «augere» (زاد)؛ هو لقب يخص آلهة الطبيعة التي تعزز، بموهبة الخلق عندها، نماء الخيرات وازدهارها. وبدوره أضفى كايوس يوليوس قيصر أوكتافيانوس على اللقبين، الزعيم وأغسطس، بهاء مستديماً، واستطاع بفضل مزاياه كرجل دولة، وتبصره تنظيم الامبراطورية، وأحل النظام فيها، وبواسطة كريم رعايته الأثيرة للآداب والفنون استخدم الامبراطور قيصر أوغسطس (وهو الاسم الذي أطلقه على نفسه l'imperator Cesar Auguste)، الشعراءَ والمتساهلين من المؤرخين المكلفين، لينشروا الفكرة القائلة: ليست عظمة روما إلا تلبية لرغبة الآلهة، ولا سبيل إلى

ترسيخ هذه العظمة إلا بإحياء العقيدة الرومانية التي كان أوغسطس يرعاها ويشجعها. وقد نجح الشعراء والمؤرخون تمام النجاح في عرض الأمور على هذا المنوال، فانتقلت هذه الفكرة إلى الخلف بوصفها حقيقة لا ترد. وألف فرجيل الإنيادة تمجيداً لأصل قيصر الإلهي، وكتب تيت ـ ليف تاريخ روما، وردد هوراس في قصائده الغنائية «من الجميل أن نموت في سبيل الوطن» على الرغم من فراره من المعركة الوحيدة التي شارك فيها.

حتى أوفيد الذي كان يروق له إنعاش قصائده في العشق بوجود الآلهة والإلهات لم يتريب في أن يعلن: «إن من أسباب الراحة للإنسان أن تكون هناك آلهة وان نعتقد بوجودها».

نجح أوكتافيانوس فيما أخفق فيه قيصر لأنه كان أكثر من قيصر صبراً، وأوسع منه حيلة، ولأنه كان يفهم فن الألفاظ والأشكال، ويرضى أن يسير سيراً وئيداً حذراً في المواقف التي اضطر فيها عمه العظيم لضيق وقته أن يخرج على التقاليد المرعية، ويحدث في نصف عام من حياته من التغيرات ما يتطلب جيلاً كاملاً. وفوق هذا فقد كان المال موفوراً لدى أوكتافيانوس.

وبينما كانت هذه الأموال الطائلة تتسرب من يديه كان هذا الأمبراطور المتواضع يعيش عيشة بسيطة خالية من مظاهر العظمة، ويتجنب ترف النبلاء، ومتع المنصب وأبهته، يرتدي الأثواب التي تنسجها له النساء في بيته، وينام على الدوام في حجرة صغيرة في الدار... وكانت متعته الوحيدة أن يفر من الشؤون العامة بركوب زورق تدفعه الرياح دفعاً بطيئاً على طول ساحل كميانا.

لم يكن أوغسطس (أوكتافيانوس)، وهو حفيد رجل مصرفي، يخالجه أدنى شك في أن خير سياسة اقتصادية هي السياسة التي تجمع بين الحرية والأمان. ومن أجل ذلك وفر الحماية لجميع طبقات الأمة بسن القوانين، وبالدقة في تطبيقها، ووضع في الطرق العامة حراسة قوية، واقرض ملاك الأراضي المال من غير فائدة؛ وهدّأ ثائرة الفقراء بما وزعه عليهم من قمح للدولة، وبالقرعة والهدايا في بعض

الأحيان. أما فيما عدا هذا فقد ترك للمشروعات الخاصة، والإنتاج، والتبادل، حرية أوسع مما كان لها من قبل، على أن الأعمال التي تديرها الدولة كانت مع هذه الحرية كثيرة متنوعة إلى حد لم تبلغه من قبل.

لقد أشقى أوغسطس نفسه إذ حاول أن يصلح قلوب الناس ويسعدهم معاً، وكان ذلك تطاولاً منه لم تغفره له روما أبداً، ذلك أن إصلاح الأخلاق أشق أعمال الحكام وأكثرها دقة وخطورة، وقل من الحكام من جرؤ على محاولته، وقد تركه أكثرهم للمنافقين أو القديسين.

كان ضعف العقيدة الدينية القديمة بين الطبقات العليا سبباً في القضاء على ما كان للزواج والوفاء والأبوة من حرمة وقداسة، وكانت هجرة الناس من الأرياف إلى المدن قد جعلت الأطفال عبئاً ثقيلاً على آبائهم أو لعباً يتسلون بها على أحسن تقدير، بعد أن كانوا مصدر ربح لهم. واشتدت رغبة النساء في التجمل واجتذاب الأموال بعد أن كن يرين أن خير زينة لهن هي إنجاب الأبناء. وقصارى القول أن الرغبة في الحرية الفردية بدت في ذلك الوقت مجافية لحاجات العنصر الروماني الأصيل. ومما زاد الطين بلة أن السعي وراء الهبات والوصايا أضحى وقتئذ أكثر الأعمال ربحاً في إيطاليا. فقد كان الرجال الذين لا أبناء لهم إذا بلغوا مرحلة العمر الأخيرة يجدون أحسن الترحيب في بيوت من لهم أبناء، يستقبلون فيها ويطعمون، وكان كثير من الرومان يحبون هذه المتعة وهذا النوع من الحياة اللينة، حتى أصبحت سبباً آخر من أسباب العقم. يضاف إلى هذا أن طول سني الخدمة العسكرية حال بين كثيرين من الشبان وبين الزواج في أكثر سني العمر صلاحية له. وامتنع كثيرون من الرومان عن الزواج بتاتاً، وفضلوا الاتصال بالعاهرات أو اتخاذ السراري والعشيقات حتى على تعدد الزوجات. ويلوح أن الكثرة العظمى من المتزوجين عمدت إلى تحديد عدد أفراد أبنائها باللجوء إلى إجهاض الزوجات وقتل الأطفال ومنع الحمل.

أصدر أوغسطس طائفة من القوانين ـ أو لعله حمل الجمعية على اصدارها ـ تهدف كلها إلى تقويم الأخلاق، وتشجيع الزواج، والوفاء بين الأزواج. والأبوة الصالحة، والحياة البسيطة، والعودة بها إلى السنن القديمة. وحرّمت هذه القوانين على المراهقين والمراهقات أن يحضروا دور اللهو العامة إلا في صحبة الكبار من أقاربهم، ومنع النساء من مشاهدة الاستعراضات الرياضية، وكان من أهم هذه القوانين القانون الخاص بالعفة ومنع الزنى.

وبهذا القانون وضع الزواج لأول مرة في التاريخ الروماني تحت حماية الدولة بعد أن كان متروكاً لسلطة الآباء في أسرهم. واحتفظ الأب بحقه في قتل ابنته الزانية هي وشريكها ساعة أن يضبطهما متلبسين بهذه الجريمة، وأُجيز للزوج أن يقتل عشيق زوجته إذا ضبطه في منزله، أما زوجته فلم يكن له أن يقتلها إلا إذا ارتكبت الفحشاء في بيته هو. وكان يطلب إلى الزوج الذي يكشف عن خيانة زوجته أن يأتي بها إلى المحكمة في خلال ستين يوماً من هذا الكشف، فإذا لم يفعل هذا كان يطلب إلى والد الزوجة أن يقوم بهذا العمل؛ فإذا لم يفعل الوالد نفسه ذلك جاز لأي مواطن أن يتهمها. وكان عقاب المرأة الزانية أن تنفى من البلاد طوال حياتها، وأن تجرد من ثلث ثروتها ومن نصف بائنتها، وان يحرم عليها الزواج مرة أخرى. وقد قررت هذه العقوبات نفسها على الزوج الذي يتغاضى عن زوجته الزانية. غير أنه لم يكن من حق الزوجة أن تتهم زوجها بالزنى، فقد كان له أن يتصل بالعاهرات الرسميات المسجلات دون أن يعاقبه القانون، ولم يكن هذا القانون يطبق إلا على المواطنين الرومان.

بيد ان إحياء الديانة، وتشييد المعابد الجديدة الفاخرة لآلهة روما، وبعث الشعائر القديمة بصورة رسمية، لم تكن بكافية لمعالجة ما جرته الحروب الأهلية وصراعاتها على الأخلاق من فوضى، لقد وطد أوغسطس سلطانه المطلق على روما بالحسنى، ولكن دونما ضعف أو وهن، ودون أن يمس القوانين الجمهورية

الأساسية، وكان الخلق يمتدحون إدارته لشؤون روما كما يدير الأب شؤون أسرته، وبوصفه أباً للوطن راح يعمل على إعادة النظام إلى حياة المواطنين الزوجية إلى سابق عهده بعد أن تقوض هذا النظام بصورة لا سابق لها.

تكاد مآسي أغسطس وهزائمه كلها أن تكون في داخل بيته وأول ما نذكره من هذه المآسي أنه لم يرزق من زوجاته الثلاث إلا طفلة واحدة. ولا شك في أن جمال ابنته يوليا وخفة روحها قد متعاه بالكثير من أوقات السعادة في أيام طفولتها. ولما بلغت الرابعة عشرة من عمرها أقنع أكتافيا بأن تسمح بطلاق ابنها مارسلس من زوجته، وأغرى الشاب بأن يتزوج يوليا، ولكن مارسلس توفي بعد سنتين من هذا الزواج،؛ وبعد أن حزنت عليه يوليا حزناً قصير الأجل شرعت تستمتع بحرية طالما تاقت نفسها إليها. غير أن الامبراطور الشديد الولع بعقد عقود الزواج لم يلبث أن حمل أغريبا على كره منه على أن يطلق زوجته ويقترن بالأرملة المرحة، راجياً أن يثمر هذا الزواج حفيداً له يرثه بعد وفاته. وكانت يوليا وقتئذ في الثامنة عشرة من عمرها، أما أغريبا فكان في الثانية والأربعين، ولكنه كان رجلاً صالحاً عظيماً وكان له من الثروة ما يحبب الناس فيه. وقد جعلت يوليا بيته في المدينة ندوة للمرح والفكاهة، وأضحت هي روح الشباب المرح في العاصمة. وانطلقت الألسن تتهم يوليا بخيانة زوجها الجديد وتعزو إليها جواباً غير معقول عن سؤال غير معقول كذلك، فقد قيل إنها سئلت لم كان ابناؤها الخمسة الذين ولدتهم لأغريبا مشابهين له فأجابت: «إني لا أقبل راكباً قط إلا إذا كانت السفينة قد امتلأت.. ولما مات أغريبا عقد أوغسطس آماله على ولدي يوليا الأكبرين وغمرهما بحبه، وعني بتربيتهما. وأضحت يوليا أرملة مرة أخرى، وكانت أبرع جمالاً وأكثر ثراء من ذي قبل، فاندفعت مستهترة في كثير من مغامرات العشق التي لاكت فيها ألسنة أهل روما وجعلتها موضع تندرهم ولهوهم، وأراد أوغسطس أن يقطع ألسنة السوء عن الولوغ في عرضه ولعله أراد أيضاً أن يزيل مابين زوجته وابنته من شقاق فزوجها مرة ثالثة، فأرغم

تيبيريوس ابن ليفيا على أن يطلق زوجته الحامل وأن يتزوج يوليا التي لم تكن أقل منه كرهاً لهذا الزواج. وبذل هذا الشاب ـ وكان من الطراز الروماني القديم ـ غاية جهده لكي يكون زوجاً صالحاً، ولكن يوليا لم تلبث أن امتنعت عن بذل أي جهد للتوفيق بين حياتها الأبيقورية وحياته الرواقية، وعادت إلى مغامرات الحب الخفية، وصبر تبيريوس على هذه الفضائح وكظم غيظه إلى حين، وكان القانون الخاص بالزانيات يطلب إلى زوج الزانية أن يشكوها إلى المحاكم، ولكن تبيريوس عصى هذا القانون لكي يرد الأذى عن واضعه، ولعله أراد بذلك أيضاً أن يرد الأذى عن نفسه.. وخلا الجو ليوليا، وكان لها من الحرية ما لم تستمتع به قط من قبل فأخذت تنتقل من عشيق إلى عشيق حتى كان قصف عشاقها ومرحهم يملآن السوق العامة صخباً وضجيجاً طوال الليل، وقاسى أوغسطس وقتئذ، وهو شيخ محطم في الستين من عمره، كل ما يقاسيه أب وحاكم يشهد بعينيه انهيار أسرته وشرفه وشرائعه. وكانت القوانين تحتم على أبي الزانية أن يتهمها بالزنى علناً إذا لم يقم زوجها بهذا الاتهام. وقد عرضت عليه أدلة قاطعة على سوء سلوكها، ولما أعلن أصدقاء تبيريوس أنهم سيتولون هم اتهام يوليا أمام المحاكم إذا لم يتهمها أوغسطس، قرر أن يسبقهم، فأصدر قراراً بنفي ابنته إلى جزيرة بندتيريا، وهي صخرة جرداء بالقرب من شاطئ كمبانيا، في الوقت الذي بلغ فيه مرحها وفسادها ذروتهما، وأرغم أحد عشاقها وهو ابن من أبناء أنطونيوس أن ينتحر، ونفى عدداً آخر من العشاق خارج البلاد، وقتلت فوبي إحدى معتوقات يوليا نفسها شنقاً مفضلة ذلك على الشهادة عليها»، ولما سمع الوالد المنكوب بهذا النبأ قال: «وددت لو أني كنت والد فوبي ولا أكون والد يوليا».

وما من شك في أن أوغسطس كان يتحسر إذا ما عاد بذاكرته إلى تلك الأيام الجميلة، حين كان قلبه يفيض بالسعادة إذ رأى يوليا وأغريبا من حوله، أو شاهد أحفاده يمرحون ويلعبون في أرض قصره. وها هو ذا يرى يوليا أخرى ابنة ابنته قد شبت عن الطوق وأخذت تسير سيرة أمها، كأنها أخذت على نفسها أن

توضح للناس جميع ما ورد في أشعار صديقها أوفيد من أفانين العشق. ولما جاءت أوغسطس الأدلة القاطعة على أنها زانية نفاها ونفى أوفيد في الوقت نفسه، ويروى أن الأمبراطور اليائس الضعيف قال وقتئذ: «ياليتني لم أتزوج قط، أو ياليتني مت دون أن يكون لي ولد!» وقد فكر في بعض الأحيان أن يميت نفسه جوعاً.

ووافته المنية وهو هادئ ساكن، وكان قد بلغ السادسة والسبعين من عمره، وقال لأصدقائه الذين التفوا حوله وهو على فراش الموت تلك الكلمات التي طالما اختتمت بها الملهاة الرومانية: «والآن قد أتقنت تمثيل دوري، فصفقوا بأيديكم وأخرجوني من المسرح بتصفيقكم»، ثم عانق زوجته وقال لها: «تذكري عشرتنا الطويلة ياليفيا. الوداع!».

كان أوفيد (بوبليوس أوفيديوس ناسو) أحد أثيري حفيدة أوغسطس المأخوذة بكل أنواع متع الحياة ومسراتها، وكان أبوه وهو من أصحاب الأطيان الأثرياء، قد أرسله إلى روما للدخول في سلك القضاء، فغدا الشاعرَ اللعوب المتهتك، وها هو في قصائده الأولى «الغزليات» يغزو قلوب العذارى الرومانيات العاشقات، ويسيطر على عقول الرومان بتلقينه لهم فن الحب. والغزليات قصائد تدور حول حب أوفيد لامرأة اسمها كورينا، فكان يعلمها، ويمتدحها، ويتشاجر معها ليصالحها بعد كل شجار بأعذب العبارات وأرقها. وكان يخدعها وهي بدورها تخدعه، ولكن ماهمّ؟ فكلاهما اختبر الحياة واكتسب تجاريب جديدة تزيد في رونق حبهما وجماله في كل مرة يلتقيان فيها من جديد. فمن هي يا ترى تلك المرأة كورينا التي أقسم أوفيد وهو في مضجع زوجها «وفاء أبدي في الزنى؟»؛ وعلى هذا السؤال أجاب أوفيد في واحدة من قصائده: «لا تستحثني على الحب امرأة بعينها..» كان أوفيد يحب كل النساء: «ليس الذي يثير عاطفتي الجمال الثابت؛ بل إن ثمة مائة سبب تحفظ لي حبي، فإذا رأيت فتاة جميلة ذات عينين ناعستين مطرقتين إلى حجرهما اشتعلت نار الحب في قلبي، وأسرتني بسذاجتها، وإذا رأيت فتاة خليعة، اخترقت سهام لحاظها قلبي، لأنها نبهت

قروية ساذجة، ولأنها تقوي أملي في أن أضمها إلى صدري على فراشي الوثير، وإذا تمنعت وتظاهرت بالعناد والصلابة حكمتُ بأنها ستخضع لي لا محالة، ولكنها تمعن في خداعها. وإذا كانت عالمة ضليعة بما في الكتب استهوتني بشمائلها النادرة.. وتخطر إحداهن الهوينا فأحبها لحسن خطاها، وتخطو أخرى بقوة، ولكنها ترق إذا طاف بها طائف الحب.. وإذا غنت بصوت شجي.. خطفت منها القبلات في أثناء غنائها، وإذا عزفت أخرى بأناملها الرشيقة على الأوتار الشاكية ـ فمنذا الذي لا يقع في حب هاتين اليدين الماهرتين؟ وهذه تأسرني بحركاتها، فهي إذا ماحركت يديها في اتزان وانسجام أو تفننت في ثني خصرها الرقيق، تذكي النار في قلبي الذي تلتهب فيه نيران الحب لأقل الأسباب.. ضع هيبوليت(*) (هيبوليتوس) في مكاني يصبح بريابوس (برياب)!... إني لتفتنني الطويلة والقصيرة على السواء، فكلتاهما تضرم النار في قلبي.. وإني لأتقدم إليهما ضارعاً متوسلاً أن تستجيبا لحبي».

وكان أوفيد يعتذر عن عدم التغني بمجد الحرب، وقال إن كيوبيد جاءه واختلس قدماً من شعره وتركه أعرجاً. ويعلّم أوفيد كورينا كيف تتحدث إليه بالإشارات وهي مضطجعة على فراش زوجها، ويؤكد لها أنه سيظل وفياً لها أبد الدهر، وأنه لن يزني بغيرها أبداً: «فلست زير نساء يتنقل من هذه إلى تلك ويحب مائة امرأة في وقت واحد». ثم يحظى بها آخر الأمر ويكتب قصيدة ابتهاجاً بنصره، ويثني فيها عليها لطول صدها عنه، وينصحها بأن تعود إلى هذا الصد من حين إلى حين، حتى يدوم حبه لها إلى أبد الدهر. ثم يخاصمها ويضربها، ويندم على فعلته، ويحزن ويجن بحبها أكثر من ذي قبل، ويفعل ما يفعله روميو فيتوسل إلى الليل أن يطول وإلى الفجر ألا يطلع، ويرجو أن تهب ريح مواتية فتحطم قطب عربة الفجر. وكان أوفيد يسمي روما «مدينة فينوس»

(*) هيبوليتوس مثال العفة وبريابوس مثال للدعارة. ـ المترجم ـ.

وقال فيها: «مدينة غنية بالفتيات غنى البحر بالأسماك والغابة بالطيور»، فأين وكيف كان يغوي هؤلاء الفتيات الرومانيات الفاتنات؟

هذا ما كان يلقنه للرجال في أشعار ديوانه (فن الحب)، ويدعوهم للسعي وراء النساء «تحت شرفات المسارح، وفي المعابد والساحات العامة، حيث يتردد الحب» فبالقرب من معبد فينوس في إطار المسرح حيث يعرضون خطف السابينات، يهمس أحد الخاطفين في أذن عروسه الفريسة:

«لم تطمسين سحر عينيك بالدمع[1]
وأنا لن أتجاوز مافعل أبوك بأمك!»

والعاشق الجسور يعلم أنه سيجد في السيرك الفرصة المؤاتية للشروع في حديث مع إحدى الجميلات، وإذا ما تدلى ثوبها على الأرض، بادر واثباً ليرفعه بيديه الحاذقتين، وإذا ما لمح ذرة غبار تهبط على ثوبها فوق الفخذ، دفعها برفق بأنامله: «إن معروفاً مهما قل شأنه يسعد النفوس الرهيفة»، وان وليمة تشارك فيها من تحب تقرب بينكما بصورة لا تصدق. «الحب مخبوء في الخمر»

«وما أكثر ما تتيح الولائم من فرص،
ترتشفون فيها إلى جوار النبيذ نشوة أخرى
ورب الهوى المتألق البشرة،
بذراعيه الناعمتين يحوط قرني باخوس معانقاً،
ثملاً يستلقي في المأدبة
وعندما يغمر النبيذ أجنحة كيوبيد العطشى،

---

(1) جل أشعار أوفيد استقيتها من كتابه «فن الهوى»، ترجمة الدكتور ثروت عكاشة الرائعة. ـ المترجم ـ.

يدعن أسيراً وينوء بحمله عاجزاً لا يبرح
ثم ما يلبث أن ينفض جناحيه ينضو عنهما البلل
فتتطاير قطرات تلمس الصدور
وتنفذ إلى القلوب وكأنها سهامه
النبيذ يهب الشجاعة، ويؤجج في الرجال لواعج العاطفة المشبوبة
ينتحر الهم غريقاً في بحر من خمر، ويطل الضحك.
حتى المعدم منا، تشرق روحه... ينبض فرحاً،
انحسر الحزن عنه وانبسط جبينه.
فإله الخمر يجلو ما يخبئ معاقرها ويحل لسان الثمل،
فيثرثر في صراحة، ما أندرها في هذا العصر
لحظتها تستلب الأنثى لبَّ الذكر،
فينوس في كأس الخمر نار تتوهج في نار
وحذار أن يستهويك خداع المصباح الخافت ساعة تثمل»

والرجل الواثق من نفسه قادر على أن يوقع في شراكه المرأة التي يشتهي، ذلك لأن اللذات المختلسة تروق للنساء كما للرجال، «فإن نحن اتفقنا على الامتناع عن استعطافهن، جئن إلينا ضارعات».

«المرأة مهما تتأبى صيد يقتنص
انصب شركك تظفر
فلقد يسكن تغريد الطير في الربيع
وينقطع صرير الجندب في الصيف
ويعدو كلب الصيد فراراً من الأرنب البري

قبلما تنجح المرأة في صد عاشق يجيد الغزل.
حتى من تخالها تتمنع، يمكن أن ترضخ
وكما ان الحب المختلس للرجل لذة، فهو كذلك للمرأة لذة
يخفق الرجل عن إخفاء مشاعره، بينا تفضله المرأة في إخفاء رغبتها.
آه، لو أمكننا أن نتماسك، نكبح أنفسنا
ألا نبدأ بالإقدام ولا نسعى للمرأة نتوسل
إذن لانقلب الحال وتوسلت المرأة»

كان أوفيد يستقي امثولاته من عالم الحيوان.

«لو أننا نتأمل دروس الكون، لسمعنا في المرج الناعم
خوار البقرة يدعو الثور
وصهيل الفرس تنادي الجواد ذا الحوافر الصلدة
الشهوة فينا أدنى، إن قيست بسعار المرأة»

ولسوف يتنبه العاشق النبيه ويحذر من الإمعان في إظهار رغبته للآخرين، ومن الحصافة أن يستخدم واحدة من الرقيق وسيطاً أو أن يكتب رسائل عشقه، فإن النساء كافة يسعدن بقراءة رسائل حب تلقينها سراً..

«أي شباب روما،
عليكم بفنون القول الرفيعة
لا تقصروها على موكليكم المتوجسين خيفة
فما تقل المرأة استسلاماً لسحر البلاغة
عن القاضي الصارم أو..
ولكن احذر الإغراق في بلاغتك أو الإسراف في فصاحتك

ومن غير الأحمق يفرغ حديثاً طناناً في أذن حبيبته الرقيقة
كم من رسالة تنبض بالحماسة الجياشة أورثت النفور!
فليوحِ أسلوبك بالثقة والبساطة
ولتنتق من الألفاظ المألوفة أعذبها
لتجعلها تحس صوتك عند قراءتها»

وكان لا يروق لأوفيد أن يصف طريقة الشروع في علاقة غرامية، وإنما كان يسدي النصيحة للعشاق ليبلغوا بهذه العلاقة حسن الختام. وهو على ثقة بما تبتكره مخيلتهم في اختيار الطريقة التي يلهون بها ويعشقون، وعلى ثقة أيضاً أن كل إنسان يعشق على طريقته، ولكن لابد للرجل من أن يصون ذاته ويعتني بنفسه، فعليه أن يكون نظيفاً، ويُستحسن أن تلوحه الشمس وتسفعه (لون بني مشرب بحمرة)

«عار أن تبقى بشرة الملاح بيضاء
الملاح الحق من يلوح بشرته وهج الشمس وملح البحر،
والفلاح الكادح وسط عراء الحقل لا تبقى بشرته بيضاء،
بينا يفلح الأرض بمحراثه المقدس ومسحاته الثقيلة
والرياضي الطامح في أن يتوج هامته إكليل غار الربة بالاس،
يحرص على ألا يبدو البياض على جسده»

وعلى العاشق أن يرتدي حلة رومانية نظيفة، وينتعل حذاءين يتطابقان مع قدميه بانسجام، وان يكون سليم الأسنان، وأوفيد لا يبخل بإسداء النصح لتلامذته في فن الحب:

«ولا حاجة بك أن تصفف شعرك بالمكواة
ولا أن ترقق سيقانك بحجر الخفاف

دع هذا للخصيان المتفنين لربتهم كوبيمي
بإنشادهم المحموم الفريجي النغمات
فالأحرى بالرجل ألا يغالي في زينته
فقديماً غزا ثيسيوس قلب أريادني ابنة مينوس
دون أن تزين دبابيس الشعر فوديه
ولتكن عباءة التوجا مناسبة لقدك
وثوبك خالياً من الشوائب
وأربطة نعلك مشدودة
ولتجل صفرة أسنانك حتى تتألق
واختر لقدمك حذاء لا تغرق فيه ولا تضل
ولا تسلم شعرك الجعد وذقنك المهوشة ليد حلاق خامل
قلم أظافرك البارزة، وأطرح عنها القذى،
وانزع الشعيرات المطلة من تجويف أنفك
ناشدتك الرفق بالناس من بخر يفوح به فمك
ولا تحاك برائحتك عطن القطيع وراعيه يثب في خياشيم الناس
واترك ماعدا ذلك من ضروب الزينة والتأنق للغانيات،
وللذكور المتيمين بإرضاء شهوات نظرائهم».

بيد أن متطيباً مزهواً بنفسه ويتصنع الظرف لا يروق للنساء الرومانيات: «دع عنك هذه الكماليات العقيمة للفتيات الرخيصات... وأوفيد الذي يزعم بأنه «أستاذ الحب»، والذي لا يعير منشورات أوغسطس الصارمة أي اعتبار، كان يلقن النساء أيضاً متع الحب وسعادته، ولكن تعاليمه لا تتعلق باقتران

الأزواج العفيف، وإنما تتعلق بتلك المتع العابرة التي تتوفر للجنسين». فعلى النساء ألا يتجردن من أسلحتهن أمام غزو الذكورة لهن:

«إن أكن قد سلّحت الإغريق لغزوكن
فقد أخفيت لكن في جعبتي أسلحة فتاكة
حتى تقودي محارباتك في معركة متكافئة
فيلحقن الهزيمة بمن تحْبوهم فينوس الحانية بعطفها
بينا يؤازرهم الصبي الضارب بجناحيه في آفاق العالم
ماكان من العدل أن تقف صبايا عزلاً
في مواجهة رجال مدججين بالسلاح
وكان يليق بكم أيها الرجال مثل هذا النصر الهين
رب أحدكم يقول:
لِمَ تضيف إلى الحياة مزيداً من سم»

ولسوف أبدأ حديثي عن وسائل العناية بالجمال «أنصحكن يابنات العصر: لا تثقلن الآذان بنفيس الجواهر التي يجمعها الهندي الباهت اللون من أعماق الماء الأخضر».

«ولا تخطرن مثقلات بثياب مطرزة بالقصب
ما أنفرنا من أبهة براقة ترفلن فيها لنقع في شراككن
ولكن ما أسلسنا أمام أناقة بريئة تبدون فيها
لا ترسلن شعوركن غير منسقة
فلمسة كف تضفي عليها جمالاً أو تحرمها منه
ولا يذهب بكن الظن، أن هناك أسلوباً فريداً للتجميل»

....

«فأطيب أنبذة باخوس نتاج الكروم التي تحظى بأجل عناية
فإذا سرحت الطرف في حقل نال الرعاية، لشهدت وفرة محصوله
وإن رعاية الأجساد تمنح ملاحة المظهر، بينا يذهب الإهمال بالجمال،
حتى لو كنتن في روعة فينوس ربة جبل ايدا».

ولم تكن نصائح أوفيد التي يسخو بها على النساء إلا تعبيراً عما يروق له هو. فعلى الجميلات كي يرقن له ولأضرابه من الرجال أن يمعن في الاعتناء بما تتميز به أشكالهن من مزايا خاصة «فلتختر كل واحدة منكن ما يناسبها، ولتلتمس في مرآتها النصح»، فلن تحتاج صاحبة الوجه البيضي لغير مفرق بسيط في شعرها،

«ذلك ما أضفى الحسن على لاوداميا
وصاحبة الوجه المستدير تكتسب جمالاً
بكعكة صغيرة من الشعر فوق الجبين تكشف أذنيها
ولترسل واحدة شعرها على كتفيها
هكذا فعلت يافويبوس بينا تعزف على القيثارة
ولتضفر أخرى جدائل شعرها على نسق ديانا وهي تطارد الوحوش المرتاعة
يليق بهذه الفتاة أن تدع شعرها ينساب طليقاً
وبتلك أن تحبس غدائرها المضفورة في عناية
وهذه ينفعها مشط من درع السلحفاة الكيلينية
وتلك تدع شعرها يتموج تموج البحار.»

ولكن على النساء، إذا ما لجأن إلى استخدام مثل هذه المنتجات الجمالية، أن يستخدمنها بحذق واحتراس، كيلا يكتشف العاشق حيلهن في التستر على ما أفسدته الطبيعة فيهن:

«فلتبق الخديعة سراً دفيناً»

وعلى كل امرأة بالطبع أن تحافظ على نظافة أسنانها وسلامتها.

«ما أغناني عن أن أرشدك إلى الحفاظ على نصاعة أسنانك»

والعناية باستخدام خضاب أبيض لتبدو شاحبة، أو مسحوقاً أحمر..

«ولأنت أعلم كيف تكسين بشرتك بالمساحيق، ففن التجميل قدير على إكسابها نضارة ساعة يتخاذل الدم في عروقك».

وفي غياب الحاجبين يصلح الحال تزجيج مرسوم بالفحم

«وبالفن أيضاً تزججين حاجبيك الناحلين»، فالرجال نادراً ما يلاحظون مالا علم لهم به، **«ولا تنسي أن تبعدي الرجال عنك ساعة صنعك لجمالك»**.

كان أوفيد يؤكد مداهناً أن الزواج جدير بالاحترام، وكان يدعو إلى مراقبة الزوجات بما يتماشى مع الأخلاق والحق والقانون، ولكنه كان في الوقت نفسه يسدي النصح للنساء ويقدم لهن الوسيلة للتحايل على الرقيب وإفساد الحراس، أضف إلى ذلك أن بمقدور العشاق، بفضل تنكرهم بزي النساء، الالتقاء بصواحبهن في معبد فاونا المحظر على الرجال الدخول إليه. كما ان الصديقات اللائي يزورهن عشاقهن تحت رداء من العفة والبراءة يقدمن مضجعهن لزوارهم وهن راضيات؛ فتتوفر على الدوام المفاتيح العمومية لفتح الأبواب الموصدة، والأنبذة المخدِّرة لتنويم الحراس ومغافلتهم، مع أنه من الأفضل شراء سكوتهم بالهدايا.

«أوشكت أن أغفل عن تناول الأساليب التي تخدعين بها زوجاً ماكراً

أو حارساً يقظاً.

فلا بأس أن تخشى العروس زوجها

وان يحرسها هو أدق حراسة

تلك وصايا الشرائع والعدالة والأخلاق

ولكن لا يسوغ للزوج أن يتجسس عليك

هلمي إلي لألقنك أسرار مخادعة الحراس

فستفلتين منهم جميعاً ولو انتشروا من حولك بعدد أعين أرْجُس

فكيف لحارسك أن يحول دون تسطير رسائل عشقك

وأنت بعيدة عن نظره في جوف الحمام؟

أو يستطيع أن يمنع خادمة لك من أن تحمل أسرار غرامك

في لوحات تخفيها تحت وشاحها لِصق صدرها الدافئ

أو في جوربها بين باطن القدم وخُفّها؟

وهَبي أن حارسك يسد عليك المنافذ كلّها

فلتتخذي من ظهر نجيتك لوحات الكتابة

ولتنقشي كلماتك على جسدها كله

وثمة نوع من الكتابة أراه مأموناً يخفى عن العين، هو الكتابة باللبن الطازج،

فإذا ذُرَّ عليه مسحوق الفحم بدا مقروءاً

....

....

ما جدوى تبديد الوقت بصياغة نصائح ذائعة مألوفة

بينا تكفي رشوة صغيرة لشراء ضمير الحارس؟

صدقيني، الرشوة تشتري الآلهة والبشر جميعاً

للهدية سحر يكمم أفواه السذج والحكماء على السواء
لكني أنصحك بأن تقدمي لحارسك رشوة تسد فمه طويلاً
وستلقينه بعدها مغمض العينين دوماً
فمن كبا مرة أَلِفَ السقوط مرات»

إن كل هذه التعليمات والإرشادات والملاحظات التي يوزعها أوفيد على «الجميلات الممتعات» تشكل تمهيداً للغاية المشتركة التي يتوق إليها الجنسان كلاهما، ألا وهي الاتحاد الجسدي، فعلى جميع النساء الراغبات في خدمة إلاهة الحب أن يُتقنَّ فن التمتع باللذة الجنسية، وكيفية الذهاب بهذه المتعة نحو الأفضل، فهذا أمر لا غنى عنه.

لكن أوفيد يبخل علينا بأمثلته، مقتصراً على التلميح بالمبدأ كيلا يفزع تلميذاته بفاحش الكلام أو بعبارات الواقع القاسية. كان أوفيد يعلّم في لبوس شاعر، وهو يعرف أن كل خروج فظ عن الموضوع يفسد الانطلاقة الغنائية ويُفقد الشعر حرارته، فاقتصر على الإلماع خلسة إلى أن جميع الأوضاع لا تناسب جميع الأجساد الأنثوية:

«بقي الآن حديث يحمر له وجهي خجلاً
لكن فينوس بدلالها تحفزني ألا أتردد هامساً:
كل ما يبعث الحمرة في الخدود هو أيضاً من جوهر اختصاصي:
فلتعرف كل امرأة جسدها معرفة حقه،
حتى تنتقي أسلوبها وفق مفاتنه
فليس ثمة أسلوب واحد يناسب الجميع على السواء»

فإذا كان للمرأة وجهاً فاتناً عليها، إذا ما اضطجعت، ان تبرز وجهها، وعلى تلك المرأة القصيرة جداً أن تختار وضع الفارس، أما إذا كانت طويلة الساقين جداً، فمن الملائم لها أن تجثو، وإذا كان لفخذيها نضارة الشباب، وليس في نهديها أي عيب فلتتمدد بعرض السرير، والرجل واقف قبالتها، أما إذا غزتها التجاعيد والتغضنات فلتتخذ وضع الفارس الذي يولي ظهره لعنق الفرس.

وهناك ثمة ألوف مؤلفة من الطرق للتمتع بالحب، لكن أسهل الأوضاع للمرأة وأنجعها هي تلك التي تتمدد فيها المرأة على جنبها الأيمنّ مستندة باسترخاء.

واعتماداً على تجاربه وخبراته التي تبدو له برهاناً لا يرد، يبدي أوفيد رأيه معلناً أن اللذة لا تكون كاملة إلا إذا تمتع الرجل والمراة كلاهما وشفى كل واحد منهما غليله. أما إذا اتفق و لم تشعر المرأة بأي شيء فعليها مع ذلك أن تطلق صرخات خفيفة وكأن سورات عاطفية لا مثيل لها تجتاحها.

قدَّر هواة الفن الرقيق من كلا الجنسين «فن الحب» لأوفيد، ورأوا فيه احتجاجاً جريئاً ضد قوانين أوغسطس الأخلاقية المتشددة. وأوفيد الذي اعترف به الجميع مرشداً يدعو إلى حياة حرة وهنية، لم يكن ليخشى أياً كان مادام يتمتع برعاية الجمهور وحمايته، «مادامت شهرتي قد طبقت العالم كله فإني لا يعنيني قط ما يقوله عني شخص أو شخصان» و لم يكن، وهو يقول هذا، يعرف أن أحد هذين الشخصين الحقيرين هو أوغسطس نفسه، وإن قصائده قد أغضبت الزعيم، وأنه يراها إهانة لحقت بالقوانينَ اليوليوسية وأنه لن ينسى هذه الإهانة حين تخطر الفضائح الامبراطورية على بال الشاعر الغافل. ورأى الشاعر أنه من المستحيل لأوغسطس أن يعاقبه على ما بثه من أشعار خفيفة في حين يغفر لحفيدته وصواحبها مغامراتهن

الفاجرة. ومن ملاحظاته حول المجتمع الروماني، ومن حياته الخاصة، خلص أوفيد إلى أن القوانين عاجزة عن تغيير الأخلاق في روما. لقد كانت روما وستبقى مدينة فينوس.

لم يقنع الأزواج بما كانت توفره لهم بيوت الدعارة من متع مشروعة، ولم تسمح الزوجات للقيود الصارمة أن تكبت رغباتهن في العشق، فالثمرة المحرمة ألذ مذاقاً من الثمرة الحلال: لذلك فإن أخلاق الشعب الروماني بقيت على حالها، على الرغم من نفي أوغسطس لحفيدته يوليا الصبية، كما نفى أمها سابقاً، ومن نفيه لشاعر «فن الحب» الذي عاش بقية أيامه على شواطئ البحر الأسود.

وبقدر ما عاش أوغسطس طويلاً، منتقماً لما حل به من خيبات أخلاقية جرها عليه الأقربون، ومنزلاً بالمنتهكين لحرمة الآداب عقوبات لا ترحم، آثر الأثرياء الرومان من الجنسين أن يعيشوا مغامراتهم العاطفية في مكان آخر بعيداً عن روما. فاعتاد الناس منذ زمن طويل تزجية أشهر الصيف على شواطئ البحر وفي الدارات (villas) ومراكز الاصطياف. وأنشأ الحاذقون من رجال المال فيها مدناً صغيرة على مثال مدينة روما، وقدموا إلى محبي اللهو وتزجية الوقت كل ضروب التسالي المتوفرة في روما وتلك الممنوعة فيها.

وكانت بائييس Baïes من أكثر الملاذ رواداً، وبومبي من أشهرها، ففي هذه المدينة التي لاتبعد عن البحر كثيراً، وعلى سفح جبل فيزوف، ساحة عامة كساحة روما، ومعابد، وحمامات عمومية، ومطاعم، ومقاه، ونواد للقمار، وبيت للدعارة مطرقته البرونزية على شكل برياب، وفيها أيضاً مسارح تعرض المسرحيات، ومدرجات للمنافسات الرياضية واقتتال المجالدين.

وكانت الرسوم الجدارية على جدران الدارات والمنازل الأخرى استنساخاً تصويرياً لفن الحب لأوفيد، بحيث أن دروسه في الحب، وقد تحولت إلى لوحات فنية، توحي إلى الشهوانيين المقيمين في المكان بأرهف المتع وأشدها تنوعاً. صحيح أن حمم البراكين التي طمرت المدينة قد أتت على كل نسمة حياة في بومبي وخنقتها، لكنها ما برحت تحتفظ للأجيال القادمة بذكرى حية عن «الحب الرفيع».

الفهرس

الجزء الأول: الحضارات الشرقية

تصدير المترجم للجزء الأول ٩

الفصل الأول: الإنسان البدائي ١٣

الفصل الثاني: سكان بلاد الرافدين ٦١

الفصل الثالث: المصريون ١١٣

الفصل الرابع: سكان الهند ١٦١

الفصل الخامس: بنو اسرائيل ٢٢٣

الجزء الثاني: الحضارتان اليونانية والرومانية

الفصل السادس: الإغريق ٣٧٥

الفصل السابع: الاتروسك والرومان ٤٨٧

في هذا الكتاب يعرض المؤلف باختصار للعلاقة الوشيجة القائمة ما بين الرجل و المرأة - الذكر و الأنثى - عبر مسيرة الإنسان الطويلة المديدة ، منذ نشأته حتى استيطانه إنساناً حضارياً في مدنيات عالية التطور بعد أن تهيأت أسبابها : الجغرافية و الجيولوجية و الاقتصادية و البيولوجية و الثقافية ... فعرج المؤلف على الإنسان البدائي لينتقل بنا ، بعد ذلك ، إلى بلاد الرافدين و من ثم إلى مصر فالهند و بني اسرائيل و الإغريق و الرومان...متطرقاً إلى الحياة الجنسية في تلك المجتمعات من خلال سياقها التاريخي - الحضاري ،ليشكل مع الأسطورة و الثقافة و البنية الاجتماعية لحمة متماسكة.

" و نحن إذ ندعو القارىء إلى الإلمام بالماضي ، بماضيه خاصة ، إلماماً يشمل أقصى منعرجاته ،فإننا ندعوه في الوقت نفسه إلى أن ينفذ منه إلى اليوم الذي هو فيه .." فالأصالة لاتستخف بالماضي ، و لا تنكر المستقبل ، و هي تتيقظ لغنى اليوم الحاضر.

نينوى